في رحاب القرآن

مختصر تفسير العلامة الشيخ بيوض
(من سورة يس إلى نهاية سورة الدخان)

برواية ورش عن نافع

اختصره ورتبه

الشيخ الناصر بن محمد المرموري

الإخراج والفهرسة

إسماعيل بن عمر كاسي وصالح

الطبعة الأولى

١٤٢٨هـ - ٢٠٠٧م

ص.ب: ٦٦٨ الرمز البريدي: ١١٣ مسقط

رقم الإيداع: ٢٠٠٧/٧

بسم الله الرحمن الرحيم

تفسير سورة يس

سورة يس مكية وآياتها ٨٣

بسم الله الرحمن الرحيم

يسٓ ﴿١﴾ وَالْقُرْءَانِ الْحَكِيمِ ﴿٢﴾ إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٣﴾ عَلَىٰ صِرَٰطٍ
مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤﴾ تَنزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ﴿٥﴾ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا
أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَٰفِلُونَ ﴿٦﴾ لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ
فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٧﴾ إِنَّا جَعَلْنَا فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا فَهِىَ إِلَى
الْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ ﴿٨﴾ وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا
وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٩﴾ وَسَوَآءٌ
عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠﴾ إِنَّمَا تُنذِرُ
مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِىَ الرَّحْمَٰنَ بِالْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ
وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ﴿١١﴾

قبل أن نشرع في تفسير السورة نبدأ أولا بذكر ما ورد من الآثار في فضلها وفضل قارئها يبتغي بذلك وجه الله.

جاء في تفسير القرطبي: "وفي كتاب أبي داود عن معقل بن يسار قال: قال النبيﷺ: {اقرؤوا يس على موتاكم}، وذكر عن أبي الدرداء ﷺ قال: {ما من ميت يقرأ عليه سورة يس إلا وهوّن الله عليه}، وفي مسند الدارمي عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: {من قرأ سورة يس في ليلة ابتغاء وجه الله غفر له في تلك الليلة}، أخرجه أبو نعيم والحافظ أيضا، وروى الترمذي عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: {إن لكل شيء قلبا وقلب القرآن يس...} الحديث، وعن عائشة -رضي الله عنها- أن الرسول ﷺ قال: {إن في القرآن سورة تشفع لقارئها، ويغفر لمستمعها، ألا وهي سورة

يس، تدعى في التوراة المعمة، قيل: يا رسول الله ما المعمة؟ قال: تعم صاحبها بخير الدنيا وتدفع عنه هول الآخرة، وتدعَى الدافعة والقاضية، قيل: يا رسول الله وكيف ذلك؟ قال: تدفع عن صاحبها كل سوء وتقضي له كل حاجة...} الحديث، وفي مسند الدارمي: عن شهر بن حوشب قال: قال ابن عباس: {من قرأ يس حين يصبح أعطي يسر يومه، ومن قرأها في صدر ليلته أعطي يسر ليلته حتى يصبح}، وذكر حسان أن عبد الرحمن بن أبي ليلى قال: {لكل شيء قلب وقلب القرآن يس، من قرأها نهارا كفي همه، ومن قرأها ليلا غفر ذنبه}، وقال شهر بن حوشب: {يقرأ أهل الجنة طه ويس فقط}، رفع هذه الأخبار الثلاثة الماوردي، فقال: روى الضحاك عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: {إن لكل شيء قلبا وإن قلب القرآن يس، من قرأها في ليلة أعطي يسر تلك الليلة، ومن قرأها في يوم أعطي يسر ذلك اليوم، وإن أهل الجنة يرفع عنهم القرآن ولا يقرؤون إلا طه ويس}، وقال يحي بن أبي كثير: بلغني أن من قرأ سورة يس ليلا لم يزل في فرح حتى يصبح، ومن قرأها حين يصبح لم يزل في فرح حتى يمسي، وقد حدثني من جربها، ذكره الثعلبي وابن عطية، قال: ويصدق ذلك التجربة، قال الترمذي -الحكيم في نوادر الأصول- عن عبد الأعلى قال: حدثني محمد بن الصلت عن عمر بن ثابت عن محمد بن مروان عن أبي جعفر قال: من وجد في قلبه قساوة فليكتب يس في فنجان بزعفران ثم يشربه، حدثني أبي -رحمه الله- قال: حدثني عمران بن حوشع عن بقية بن الوليد عن المعتمر بن أشرف عن محمد بن علي قال: قال رسول الله ﷺ: {القرآن أفضل كل شيء بعد الله، وفضل القرآن على سائر الكلام كفضل الله على خلقه، فمن وقّر القرآن فقد وقّر الله، ومن لم يوقّر القرآن لم يوقّر الله، وحرمة القرآن عند الله كحرمة الولد عند والده، القرآن شافع مشفع، وشاهد مصدق، فمن شفع له القرآن شفع، ومن نحل به القرآن صدق، ومن جعله إمامه قاده إلى الجنة، ومن جعله خلفه ساقه إلى النار، وحملة القرآن هم المحفوفون برحمة الله،

الملبسون نور الله، المعلمون كلام الله، من والاهم فقد والى الله، ومن عاداهم فقد عادى الله، يقول الله تعالى: يا حملة القرآن استجيبوا لربكم بتوقير كتابه يزدكم حبا، ويحببكم إلى عباده، يدفع عن مستمع القرآن بلوى الدنيا، ويدفع عن تالي القرآن بلوى الآخرة، ومن استمع آية من كتاب الله كان له أفضل مما تحت العرش إلى التخوم، إن في كتاب الله لسورة تدعى العزيزة، ويدعى صاحبها الشريف يوم القيامة، تشفع في صاحبها أكثر من ربيعة ومضر، وهي سورة يس}، وذكر الثعلبي عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: {من قرأ سورة يس ليلة الجمعة أصبح مغفورا له}، وعن أنس أن رسول الله ﷺ قال: {من دخل المقابر وقرأ سورة يس خفف الله عنهم يومئذ، وكان له بعدد حروفها حسنات}". هذا ما رواه القرطبي. اهـ.

وفي التيسير للشيخ اطفيش -رحمه الله- حديث في فضل سورة يس هو نحو ما ذكر وزاد: قال ﷺ: {من قرأ سورة يس أمام حاجة قضيت له}، وقال أيضا: {من قرأها وكان جائعا أشبعه الله، ومن كان ظمآنا أرواه الله تعالى، ومن كان عريانا ألبسه الله تعالى، ومن كان خائفا آمنه الله تعالى، ومن كان مستوحشا آنسه الله تعالى، ومن كان فقيرا أغناه الله تعالى، ومن كان في السجن أخرجه الله تعالى، ومن كان أسيرا خلصه الله تعالى، ومن كان ضالا هداه الله تعالى، ومن كان مديونا قضى الله تعالى دينه من خزائنه} اهـ.

قال الشيخ القطب -رحمه الله- في التيسير بعد رواية هذا الحديث: "ينبغي لمن قرأ سورة يس أن ينوي بها التقرب إلى الله تعالى رجاء ما عنده من ثواب، ثم يدعو بعدها بحاجته" اهـ، وهذا تنبيه مهم يدل على رسوخ القطب في العلم والدين، إذ لا ينبغي أن تقرأ سور القرآن لحاجات الدنيا، وكذلك أفعال الطاعات كلها تؤتى ابتغاء وجه الله، ثم ندعوه لحاجاتنا في الدنيا والآخرة، وفضل الله واسع، نتقرب إلى الله بتلاوة القرآن، وبالصلاة والصدقة والصوم وسائر القربات، ثم ندعوه لدنيانا وآخرتنا ونقول كما

علمنا أن نقول: ﴿رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ (البقرة: ٢٠١)، لا ننوي من أول مرة عرض الدنيا بل نقصد وجه الله ونريد الآخرة، وللآخرة خير وأبقى.

ثم إن هذه الأحاديث الواردة في موضوع فضائل الأعمال في بعض منها ضعف، ولكن جمهور العلماء أجازوا العمل بها في القربات ترغيبا في الأجر والثواب، وما ورد في فضل يس من الأحاديث الكثيرة تدل على قيمتها وفضلها، ومجموعها لا يخلو من صحيح، لا سيما حديثان تلقتهما الأمة بالقبول واشتهرا عند المسلمين:

أولهما: قوله ﷺ: {اقرؤوا يس على موتاكم}، والمراد بالموتى الذين هم في حالة الاحتضار لا الذين ماتوا.

وثانيهما: قوله ﷺ: {يس قلب القرآن} وقد تكلم العلماء في هذا المعنى فقالوا: "ذلك لأن السورة تناولت مواضيع أساسية وهي الإيمان بالبعث والنشور، وإثبات الأدلة والبراهين على ذلك، والإيمان بأنبياء الله ورسله، وضرب الله مثلا لذلك قصة أصحاب القرية إذا جاءها المرسلون، وإقامة البراهين على وحدانية الله رب العالمين، وهذه المواضيع هي الأمور الأساسية في الدين وجميع الأفعال الطيبة تتفرع منها، فهي كالجسد بالنسبة للقلب، إذا صَلُحَ صَلُح الجسد كله".

وسميت السورة سورة يس لأنها مفتتحة بها، وفي هذا إشارة إلى إعجاز القرآن الكريم:

﴿يس وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ تَنزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ لِتُنذِرَ قَوْماً مَّآ أُنذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ﴾.

تفتح السورة بيس، وهو من الحروف الهجائية المقطعة، وتسمى سورة يس، والقول الراجح فيها هو ما سبق أن قلناه وقاله كثير من المفسرين أن هذه الحروف رمز للإعجاز، وذلك أن هذا الكلام الذي أعجزهم أن يأتوا بمثله أو بسورة من مثله هو

كلام مؤلف من جنس ما يؤلفون منه كلامهم لكنهم عجزوا أن يأتوا بمثله، وتلك هي المعجزة الكبرى، وذلك هو البرهان على أن هذا الكلام هو كلام رب العالمين، أنزله على عبده ورسوله ليهديهم به إلى صراط الله المستقيم.

وهنالك تفسير آخر لـ: (يس)، قال بعضهم: معناه يا سيد، وقيل: معناه: يا إنسان، وقال آخرون: إن يس علم للنبي ﷺ ورووا في ذلك حديث عن علي بن أبي طالب قال: إن رسول الله ﷺ قال: {إن الله جعل لي سبعة أسماء في القرآن: محمد وأحمد وطه ويس والمزمل والمدثر وعبد الله} ﴿وَإِنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَداً﴾ (الجن١٩)، فإن صح الحديث زال الخلاف، والذي يؤيد الحديث ورود الكلام بعده متصلا بكاف الخطاب: ﴿إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾.

وجاء مثل ذلك في سورة طه، قال الله تعالى: ﴿طه مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى إِلا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَى﴾ (طه: ١-٣)، قد يكون هذا صحيحا للخطاب الذي يتصل به الكلام بعد طه ويس، ولاتفاق الأمة على تلقي هذا الخبر بالقبول، واستمرار هذا الخبر فيهم قرونا وقرونا أن طه ويس من أسماء النبي ﷺ ويسمي كثير من الناس أولادهم بهذين الاسمين تبركا بأسمائه ﷺ.

﴿يس وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾

بعد هذه الكلمة يأتي القسم بالقرآن الكريم لما للقرآن عند الله من منزلة عظيمة وشأن، ويوصف القرآن بالحكيم لأنه ينطق بالحكمة، وجواب القسم هو ما بعده؛ إنك يا محمد لمن المرسلين ولست بدعا من الرسل، فما أنت إلا واحد من رسل الله الذين اجتباهم بالوحي وخصهم بالرسالة، نؤمن بهم جميعا ولا نفرق بين أحد من رسل الله.

أما قوله: ﴿عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ فهو إما نعت للمرسلين جميعا، وإما نعت للمخاطب خاصة وهو رسول الله محمد ﷺ، أي: إنك على صراط مستقيم، مرسل بالهدى ودين الحق، أرسلك الله كما أرسل الذين من قبلك من المرسلين، فمن كذب

برسالتك فقد كذب بجميع المرسلين، والصراط المستقيم هو دين الله الحق الذي لا اعوجاج فيه، فاتبعه وادع الناس إليه واستقيموا على دين الله كما أمركم الله ولا تطغوا فيه.

﴿تَنزِيلُ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ﴾

هذا القرآن الذي أنزل عليك والذي يهدي إلى الصراط المستقيم، تنزيل الله العزيز القاهر الذي تسربل بالعزة، واتصف بالعظمة والكبرياء، الرحيم الذي غمر خلقه برحمته، وإرسال الله إياك بهذا الكتاب رحمة للعالمين، ومن ذا الذي يضع للناس الصراط المستقيم ويهديهم إليه إلا العزيز الرحيم، ومن خلا من هذين الوصفين لا ثقة بتشريعه؛ لأنه إن لم يكن عزيزا فهو لا شك يكون ذليلا خاضعا لمن فوقه، فلا يكون تشريعه إلا موافقا لرغبة قاهرة وغالبة ولو مضرا بالذين يشرع لهم، وإن لم يكن رحيما فسيكون في تشريعه قساوة وتعسف وعنف بالذين يريدهم أن يسيروا على منهاجه، فالمناسبة قوية لوصف التنزيل بأنه من العزيز الحكيم الرحيم، وهو وصف للقرآن لضمير تقديره هو، لمن قرأه بالرفع.

﴿لِتُنذِرَ قَوْماً مَّآ أُنذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ﴾

تبين هذه الآية الكريمة علة الإرسال والتنزيل وهي النذارة لهؤلاء القوم ثم للناس كافة، والإنذار هو خبر فيه تحذير من شر مقبل، وعكسه التبشير الذي هو الإخبار بخير مقبل، يقول الله تبارك وتعالى: ﴿لِتُنذِرَ قَوْماً مَّآ أُنذِرَ آبَاؤُهُمْ﴾ أي لتخوف قوما عاقبة الكفر وهم قومه "ما" نافية على القول الراجح، كما جاء في سورة السجدة: ﴿لِتُنذِرَ قَوْماً مَّا أَتَاهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ (السجدة: ٣)، وجاء في سورة سبأ: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ﴾ (سبأ: ٤٤)، كانت فترة من الرسل ومضت مدة طويلة من لدن إسماعيل عليه السلام لم يأت هؤلاء العرب نذير مرسل من الله لذا غفل آباؤهم فهو على آثارهم غافلون، لقد قام فيهم دعاة يدعونهم إلى دين إبراهيم

وإسماعيل أمثال قس بن ساعدة الأيادي الذي أدركه رسول الله ﷺ قبل بعثته، ولكن ما جاءهم نذير مرسل من الله ينذرهم ويخوفهم عذاب الله فهم ضالون، ألفوا آباءهم كذلك فهم على آثارهم يهرعون، وهم عن أمر الله غافلون.

﴿لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لا يُؤمِنُونَ﴾

أيّ قول هذا يحق على هؤلاء القوم؟ ذلك هو قول الله عز وجل جوابا لإبليس حين قال لربه: ﴿فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ إِلا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾ (ص: ٨٢-٨٣)، فأجابه الله تعالى على قولته هذه بما يقهره: ﴿قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ لامْلأنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (ص: ٨٤-٨٥)، وقوله تبارك وتعالى: ﴿وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لامْلأنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ (السجدة: ١٣)، يقول الله عز وجل: لقد حق قولنا بالعذاب على أكثر قومك؛ لأن الله علم مبلغ عنادهم وإصرارهم، وأنه لا ينفع فيهم الإنذار كما سيأتي في هذه السورة فهم لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر، وفي هذا الإخبار تسلية لنبيه حتى لا يهلك نفسه أسفا على عدم إيمانهم، وفيه تثبيت للمؤمنين حتى لا يرتابوا في صحة الرسالة، فليس كفر من كفر إلا عن عناد وتمرد كما جاء في سورة يونس، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَاتُ رَبِّكَ لاَ يُؤمِنُونَ وَلَوْ جَاءتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوُاْ الْعَذَابَ الأَلِيمَ﴾ (يونس: ٩٦-٩٧).

ثم يقول الله تبارك وتعالى مبيّنا مبلغ إصرارهم وعنادهم وكبريائهم:

﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلاَلاً فَهِيَ إِلَى الأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ وَجَعَلْنَا مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سُدّاً وَمِنْ خَلْفِهِمْ سُدّاً فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لاَ يُبْصِرُونَ وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لاَ يُؤمِنُونَ﴾.

يقول الله تبارك وتعالى: إنا جعلنا في أعناقهم أغلالا، والغل ما تربط به الأيدي إلى الأعناق، ومنه قوله تعالى: ﴿وَلاَ تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ﴾ (الإسراء: ٢٩)،

وإذا كان الغل حِلقا من حديد وجعل إلى الذقن فإن صاحبه يكون مقمح الرأس لا يستطيع أن يطأطئ رأسه بل يبقى رأسه مرتفعا إلى فوق، ويقال: قمح البعير، إذا رفع رأسه من الحوض بعد الورود، أو إذا شد زمامه من فوق، فهم كذلك مقمحون لا ينظرون قدامهم، وهذا كناية عن كبريائهم الذي لوى رؤوسهم فهم لا يهتدون ولا يبصرون النور.

ثم قال الله فيهم:

﴿وَجَعَلْنَا مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سُدّاً وَمِنْ خَلْفِهِمْ سُدّاً فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لاَ يُبْصِرُونَ﴾

ضرب الله عليهم سدا من قدامهم وآخر من ورائهم فهم لا يهتدون إلى الحق ولا يبصرونه، وهذا كناية عن إضلال الله إياهم بسبب صدوفهم عن الهدى بعد إذا جاءهم، وإصرارهم على تكذيب رسل الله، فهم صم بكم عمي ينادون من مكان بعيد.

واستشكل البعض نسبة هذه الأشياء إلى الله، جعل الأغلال في أعناقهم، وجعل السد من بين أيديهم ومن خلفهم، وحكم الله عليهم مؤكدا: ﴿لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لا يُومِنُونَ﴾ (يس: ٧)، إذا كان الله هو الذي أصمهم وأعمى أبصارهم وكتب عليهم قوله بالضلال وعدم الإيمان فكيف يعذبهم على ذلك، وهذا الإشكال تسبب عنه أول خلاف في الإسلام بين مقالة القدرية ومقالة الجبرية.

فقال الأولون: ما كان الله ليكتب علينا المعاصي ويقدرها علينا ثم يعذبنا بها، فهربوا من نسبة الظلم إلى الله فوقعوا فيما هو شر من ذلك، فأنكروا بعض القدر ونسبوا خلق أفعال المعاصي إلى أنفسهم، وقال الآخرون بالجبر، قالوا: إن الإنسان لا إرادة له فهو منفذ لا محالة لما كتب في القدر، وهو مسير لا مخير ما هو إلا كالميت بين يدي

غاسله، وأنكروا الواقع ونسبوا الظلم إلى الله، تعالى الله عما يقولون، والقرآن يرد على هؤلاء وهؤلاء.

قال قائلون: الإنسان حر مختار يفعل ما يريد وبالغوا في هذه الحرية حتى قالوا: إنه يخلق أفعاله وأنكروا أن يكون الله قدر عليه المخالفة ويخلقها له ثم يعاقبه عليها وهؤلاء هم المعتزلة، وقالوا: تلك عدالة الله أنه لا يعذب عباده إلا على ما خلقوه هم بأنفسهم وباختيارهم، والحق الذي عليه جمهور الأمة أن الخلق والأمر لله، والقدر من الله، وللإنسان الاختيار الكسبي، ويعاقب أو يثاب على اختياره وكسبه.

وقال آخرون: إن الإنسان مجبر لا اختيار له مطلقا، فهو مسيّر حسب إرادة الله وقدره، والحق أن الإنسان حر مختار يتصرف كما يريد، ويثاب أو يعاقب على هذا الاختيار، وعلم الله من ورائهم محيط، وقدره لا محالة واقع، ولو شاء الله لآمن من في الأرض كلهم جميعا، أي لو شاء لأجبرهم على الإيمان، ونحن مؤمنون بالقدر لا نتعمق فيه وما علمنا في علم الله؟ وقد جاء في الحديث: {إذا ذكر القدر فكفوا}.

خلق الله الإنس والجن في هذه الأرض، وجعل لهم عقولا يميزون بها بين النفع والضر، وأرسل فيهم رسلا مبشرين ومنذرين، وأنزل لهم كتبا مبينة لهم كيف يعبدون ربهم، قال الله تعالى في سورة الإنسان: ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً﴾، وقال: ﴿وهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾ (البلد: ١٠)، وقال: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾ (الشمس: ٧-٨)، في أمثالها من الآيات الكثيرة التي تبين حجة الله على عباده في إعطائهم العقول وإلهامهم طريق الخير وطريق الشر وعدم إكراههم على أحدهما ﴿لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾ (البقرة: ٢٥٦)، ولا يستطيع عاقل أن ينكر أنه حر مختار في سلوكه طريق الطاعة أو طريق المعصية، ويكسب ما يشاء ويريد من الأفعال لا يخلقها هو بل يخلقه الله كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ

وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ (الصافات: ٩٦)، هذا ما نؤمن به ونعتقده، نؤمن بالقضاء والقدر خيره وشره من الله، ونصف الله بما وصف به نفسه من غير تشبيه ولا تمثيل.

جاء في مسند الإمام الربيع بن حبيب عن ابن عباس -رضي الله عنهما- قال: حين سأله نجدة الحروري عن معرفته بربه قال: "أعرفه بما عرّف به نفسه من غير رؤية وأصفه بما وصف به نفسه من غير تثبيت صورة، لا يدرك بالحواس ولا يقاس بالناس، معروف بغير تشبيه، متدان في بعده، لا يُنظر ولا يتوهّم ديموميته، ولا يمثَّل بخلقه، ولا يجور في قضيته، فالخلق إلى ما علم منقادون، وعلى ما سطر في المكنون من كتابه ماضون، لا يعملون بخلاف ما منهم علِمَ ولا إلى غيره يُردون، وهو قريب غير ملتزق، بعيد غير منفصل، يُحقّق ولا يُمثَّل، يُوحَّد ولا يُبعَّض، يُعْرف بالآيات، ويُثبت بالعلامات" اهـ.

نقف عند هذا الحد ونتفكر في الخلق ولا نتفكر في الخالق، ولا نحب أن نتعمق في قدر الله تعالى، وأنى لنا أن ندرك سر القضاء والقدر، بل السلامة في الكف عن الخوض في علم الله وقدره.

أما جعل الله في أعناقهم أغلالا وسدا من قدامهم وآخر من خلفهم فذلك بسبب ذنوبهم وكفرهم واستكبارهم فهم معرضون عن الحق فزادهم الله رجسا إلى رجسهم ﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ﴾ (المائدة: ٤٩).

﴿وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لاَ يُومِنُونَ﴾.

يقول الله تبارك وتعالى في حق هؤلاء الكفار أنه يستوي إنذارك لهم وعدم الإنذار؛ إنهم لا يؤمنون، ذلك لأن الله طبع على قلوبهم، وأغشى أبصارهم فهم لا يبصرون الهدى، وهم لا يؤمنون، وقد يقول قائل: ففيم إنذارهم إذن؟ وكذلك أمر الله موسى بإنذار عدوه فرعون وقد علم أنه لا يؤمن، ذلك ليقيم الحجة على عباده لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل، وليعلي درجات المبشرين والمنذرين الداعين إلى الله، وليتذكر بإنذارهم من أراد الله به خيرا ولعلهم يتقون.

﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ﴾.

جاء التعبير بالقصر بإنما، يعني لا ينفع إنذارك إلا المؤمنين الذين يخشون ربهم بالغيب ويخافون يوم الحساب، مدحهم الله بالإيمان بالغيب الذي أخبر به القرآن، فهم مصدقون بكلام الله، وهم المنتفعون بالإنذار، وهم المتبعون للذكر، العاملون به، المهتدون بهداه، أولئك يزيدهم الله هدى بسبب إيمانهم بالغيب واتباعهم للذكر الذي هو القرآن كلام الله.

﴿فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ﴾.

التبشير هو الإخبار بخبر يسر المبشر به، إن الله يأمر نبيه أن يبشر هؤلاء المؤمنين بمغفرة الله لذنوبهم وبأجر كريم عند الله، وهو الفوز برضوان الله في النعيم المقيم، ذلك بأنهم استمعوا لإنذار الرسول وانتفعوا به، واتعظوا بالذكر الحكيم واتبعوه، فحقت لهم البشارة من الله بالمغفرة والأجر الكريم، وشتان بين الذين يؤمنون بالغيب وتدركه بصائرهم، وبين الذين أغشاهم الله بذنوبهم فهم لا يبصرون.

إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ الْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ
مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ ۚ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ ﴿12﴾
وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ ﴿13﴾
إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا
إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ ﴿14﴾ قَالُوا مَا أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَا أَنزَلَ
الرَّحْمَٰنُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ﴿15﴾ قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ
إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ﴿16﴾ وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿17﴾
قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ ۖ لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم
مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿18﴾ قَالُوا طَائِرُكُم مَّعَكُمْ ۚ أَئِن
ذُكِّرْتُم ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿19﴾ وَجَاءَ مِنْ أَقْصَى
الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ ﴿20﴾ اتَّبِعُوا
مَن لَّا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿21﴾ وَمَا لِيَ لَا أَعْبُدُ
الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿22﴾ أَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِ آلِهَةً
إِن يُرِدْنِ الرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلَا
يُنقِذُونِ ﴿23﴾ إِنِّي إِذًا لَّفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿24﴾ إِنِّي آمَنتُ
بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ ﴿25﴾ قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ ۖ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي
يَعْلَمُونَ ﴿26﴾ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ ﴿27﴾
۞ وَمَا أَنزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِ مِن بَعْدِهِ مِن جُندٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَمَا كُنَّا
مُنزِلِينَ ﴿28﴾ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ ﴿29﴾

يقول الله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ الْمَوْتَى﴾

أي نحن لا غيرنا نرد الحياة إلى الموتى، هكذا بنون العظمة، ومن ذا الذي يبعث الحياة في الموتى غير الله، لذا تنسب الآية هذا العمل إلى الله بطريقة القصر التي نفهمها من تقديم الضمير "نحن" على الفعل.

ثم قال: ﴿وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُواْ وَءَاثَارَهُمْ﴾

أي ما قدموا من الأعمال ليوم القيامة، وما خلفوا من الآثار في الدنيا، والأثر هو الشيء الذي يترك المثير بعد مضيه، ومنه الأثر الذي يتركه المار في الأرض، وقد ورد في الحديث أن بني سلمة وهم بطن من الأنصار أرادوا أن تحول منازلهم إلى المدينة ليقتربوا من مسجد النبيء ﷺ فقال: {دياركم بني سلمة تكتب آثاركم، إن الله تبارك ينزل ملائكة تكتب آثار الماشين إلى المساجد وكذلك يكتب الله آثار الموتى وما قدموا ولا يضيع شيء، يقول الله:

﴿وَكُلَّ شَيءٍ اَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾

الإمام هو الكتاب الذي يسجل فيه كل شيء، والإمام المبين هو اللوح المحفوظ، وهو الكتاب الذي يكتب فيه الملائكة الحافظون أفعال العبد بخط مبين يقرؤه العبد يوم القيامة ويفهمه، كل شيء يجمعه الله في ذلك الكتاب المبين، والأم والإمام هو الكتاب الجامع الذي لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها، والله يعلم ما بين أيدينا وما خلفنا، ويأمر الملائكة بكتابة أعمالنا في كتاب نقرؤه يوم القيامة بأنفسنا ليقيم به الحجة على عباده، وفي ذكر هذا الإحصاء وهذه الكتابة موعظة وإنذار لمن يرجو اليوم الآخر ويخاف سوء الحساب، فيحاسب نفسه وينظر ماذا يضع في الكتاب المبين، والله لا يظلم عباده مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها، فليعتبر العاقل ما دام له الاعتبار.

﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلاً اَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَآءهَا الْمُرْسَلُونَ إِذَ اَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ قَالُوا مَا أَنتُمْ إِلاَّ

بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَآ أَنزَلَ الرَّحْمنُ مِن شَيْءٍ إِنَ انتُمُ إِلاَّ تَكْذِبُونَ قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ وَمَا عَلَيْنَآ إِلاَّ الْبَلاَغُ الْمُبِينُ قَالُوآ إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِن لَّمْ تَنتَهُواْ لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ اَلِيمٌ قَالُوا طَائِرُكُمْ مَعَكُمُ أَئِن ذُكِّرْتُمْ بَلَ اَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾.

يقول الله تبارك وتعالى: واضرب لقومك المكذبين لك يا محمد، اضرب مثلا أصحاب القرية الذين كذبوا رسل الله فأهلكهم الله وأبادهم، وهذه القرية اتفق المفسرون على أنها أنطاكية التي تقع شمال الشام في بلاد الروم يومئذ، وقوم محمد ﷺ يعرفون خبر القرية لقرب الزمان، كانت دعوتهم وهلاكهم في زمان المسيح بن مريم -عليه السلام- وليس بينهم وبين زمن المسيح بُعد.

أمر الله نبيه أن يضرب خبرها مثلا لقومه المكذبين لرسل الله ليعتبروا، وما أشبه حالهم مع رسولهم بحال أهل القرية مع رسل الله إليهم، فليخشوا مثل عاقبتهم، وليحذروا عذاب الله، وليذكروا نبأهم العجيب حين جاءهم المرسلون من ربهم يدعونهم إلى توحيد الله والإيمان باليوم الآخر، ولم يذكر الله هنا مضمون دعوتهم للعلم به، وذلك أن دعوة الله يعرفها المتقدمون والمتأخرون فلا لزوم إلى ذكرها في كل مرة يذكر فيها الرسل، وهؤلاء الرسل قيل هم من عند الله أوحى الله إليهم وأرسلهم إلى قومهم، وقيل: هم رسل سيدنا عيسى بن مريم عليه السلام، والذي يرجح أنهم رسل الله إنكار أقوامهم أن يوحى إليهم وهم بشر مثلهم، ثم إن الروايات اختلفت في أسمائهم، قيل: إن أسماءهم صادق ومصدوق وشمعون، ذكر ذلك بعض المفسرين، ولو علم الله الحكمة في ذكر أسمائهم لذكرها، فهؤلاء يجب الإيمان بهم هكذا من غير معرفة أسمائهم.

أرسل الله إلى القرية اثنين أولا فدعوا أصحاب القرية بدعوة الله فكذبوهما فعززهما الله بثالث، أي قواهما بثالث شد به أزرهما، فقالوا لأهل القرية: إنما إليكم

مرسلون من قبل الله رب العالمين فآمنوا خير لكم، واجتهدوا في إنذارهم، ولكن أهل القرية لجوا في تكذيبهم وجاءوا بالشبهة الواهية التي يتعلل بها المكذبون لرسل الله، المنكرون لأمر الوحي والرسالة في كل زمان:

﴿قَالُوا مَا أَنتُمْ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَآ أَنزَلَ الرَّحْمنُ مِن شَيْءٍ إِنَ اَنتُمْ إِلاَّ تَكْذِبُونَ﴾.

قالوا: ما أنتم إلا بشر مثلنا فكيف يوحي الله إليكم من دوننا، ولو شاء الله لأنزل ملائكة من السماء، إن أنتم إلا تكذبون علينا وما أنزل الله من شيء مما تزعمون، هكذا يعرض المستكبرون عن رسل الله ويكذبوهم ويتمسكون بهذه الشبهة السخيفة الواهية، وقد رد الله عليهم في غير موضع من القرآن الكريم، فمن ذلك قوله تعالى في سورة الأنعام: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكاً لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلاً وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ﴾ (الآية: ٩)، وفي هذا الرد المحكم قطع لشبهاتهم؛ لأنه لو جاءكم ملك رسول لجاءهم على هيئتهم حتى يستطيعوا الاتصال به ومحاورته وحينئذ يقعون في لبس آخر ويكذبونه مرتين، يكذبونه في ملكيته ويكذبونه في رسالته، فتبين أن كلامهم هذا ليس بشيء، وأنكر الله عليهم تعجبهم أن جاءهم رسول منهم بشر مثلهم وذلك في أول سورة يونس حيث يقول الله تعالى: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَباً اَنَ اَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِّنْهُمُ اَنَ اَنذِرِ النَّاسَ...﴾ الآية، فالأمر واضح ومعقول وليس فيه ما يدعو إلى العجب أو الريب لا سيما وقد علموا صدق هؤلاء الرسل واستقامتهم وحسن أخلاقهم قبل أن يدعوهم إلى الإيمان بما أنزل الله عليهم، فمن أراد الله خيرا فهو يصدقهم ويؤمن برسالتهم ويكون من أنصارهم، أولئك قوم أنعم الله عليهم واستخلصهم لولايته.

ويردّ رسل الله على قومهم المنكرين الجاحدين برد فيه توكيد وليس فيه حلف لأن الأمر لا يحتاج إلى قسم، فجميع الدلائل تدل على صدقهم فيما يدعونهم إليه من توحيد الله والإيمان باليوم الآخر، يأتي الرد من الرسل الثلاثة هكذا:

﴿قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ وَمَا عَلَيْنَآ إِلاَّ الْبَلاَغُ الْمُبِينُ﴾.

تدرج التوكيد في الجواب كما تصعد الإنكار في كلام أصحاب القرية، قالت لهم رسل الله: ربنا يعلم إنا إليكم لمرسلون، وكفى بعلم الله ربنا وربكم، ولو علم الله أنا نكذب لانتقم منا، فإن كذبتمونا أنتم فالله يعلم إننا لصادقون، وما علينا إلا البلاغ المبين، البلاغ البيّن الواضح الذي لا لبس فيه، وليس علينا أن نسيطر عليكم ونجبركم على الإيمان، فإنه لا إكراه في الدين، قد وضح الأمر وظهر الحق من الباطل.

بعد هذا الكلام المبين تقوم حجة الله على عباده فلا يكفر بعد ذلك إلا شقي يزيده الحق عمى وضلالا، وكذلك كان جواب قومهم:

﴿قَالُوآ إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِن لَّمْ تَنتَهُواْ لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾

قال أصحاب القرية المكذبون لرسلهم: إنا تطيرنا بكم أي تشاءمنا بمجيئكم بما أحدثتم فينا من بلبلة في الأفكار وتفريق لنا، وقد كنا في أمرنا مجتمعين لا خلف بيننا فأحدثتم فينا الخلاف والافتراق وأصبنا بعد مجيئكم بمصائب، نعم يقع الافتراق بعد مجيء الرسل ونزول البيّنات والوحي لكن الذنب ذنب الممتنعين من قبول الحق النافرين من دعوة الرسل وليس الذنب ذنب رسل الله، فالشؤم والتطير من الكفار المكذبين فهم سبب الاختلاف والتفرق، وهم سبب البلايا والمصائب لشؤم كفرهم وتمردهم وعتوهم على رسل الله، وهذا المعنى سيظهر في جواب الرسل لهم وردهم على باطلهم، ويهددهم أقوامهم بالرجم والتعذيب، وهكذا أهل البغي والظلم عندما تعوزهم الحجة ويزهق باطلهم يلتجئون إلى أساليب التهديد للذين يدعونهم إلى النجاة فعوض أن يؤمنوا بهم ويتبعوا النور الذي أنزل معهم يؤذونهم بأنواع الأذى:

﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهُواْ لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ اَلِيمٌ﴾

يقول هؤلاء الكفار المكذبون لرسلهم: لئن لم تنتهوا عن هذه الدعوة وتتركوها لنرجمنكم رجما بالحجارة حتى تموتوا، ولنعذبنكم عذابا أليما، وكانوا يقيدون ويربطون الشخص الذي يريدون تعذيبه ثم يرجمونه حتى يموت، وهذا ما بلغ إليه طغيانهم وتمردهم على الله ورسله، فهم عوض أن يؤمنوا بهم ويرحبوا بدعوتهم يعذبونهم ويرجمونهم ويؤذون المؤمنين بهم ويقتلونهم.

﴿قَالُوا طَائِرُكُمْ مَعَكُمْ أَئِن ذُكِّرْتُمْ بَلَ اَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾

قالت رسل الله لقومهم الكفار حين تطيروا بهم، قالوا لهم: طائركم معكم، أي شؤمكم من عند أنفسكم بسبب كفركم وظلمكم وعصيانكم لربكم، وما ابتليتم به ليس من عندنا ولا بسبب مجيئنا بل أنتم قوم مسرفون، أسرفتم على أنفسكم وظلمتموها بكثرة معاصيكم وكذلك يبتلي الله أهل المعاصي ببعض ذنوبهم ولكن كثيرا من الناس لا يعتبرون ويُلقون اللوم على غيرهم، ولو أنصفوا لحاسبوا أنفسهم وأقلعوا عن معاصيهم وتابوا من ذنوبهم، وقولهم: ﴿أَئِن ذُكِّرْتُمْ﴾ فيه شرط لم يذكر جوابه وهو مفهوم من سياق الكلام، يعني ألأجل دعوتنا إياكم إلى الهدى تتوعدوننا بالرجم والتعذيب وتتطيرون بمجيئنا بل أنتم مسرفون على أنفسكم بالكفر والعصيان، والإسراف مجاوزة الحدود والطغيان، ونعوذ بالله من قساوة القلوب.

﴿وَجَاءَ مِنَ اَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ اتَّبِعُوا مَن لاَّ يَسْأَلُكُمْ أَجْراً وَهُم مُّهْتَدُونَ وَمَا لِيَ لاَ أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ءاتَّخِذُ مِن دُونِهِ آلِهَةً اِن يُّرِدْنِ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لاَّ تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئاً وَلاَ يُنقِذُونِ إِنِّيَ إِذاً لَّفِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ إِنِّيَ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ﴾.

بينما الرسل في جدال محتد مع أهل القرية الكفار إذا بمبادرة طيبة من أحد أصحاب القرية لم يذكر الله اسمه لأن العبرة بموقفه العظيم، وذكر أهل العلم أنه حبيب النجار

ﷺ رجل آمن برسل الله وصدقهم، ولما بلغه تهديد قومه لهؤلاء الرسل بالتعذيب والرجم أقبل يسعى من أقصى المدينة لعله ينقذ الموقف قبل فوات الأوان، ووصفه الله بأنه رجل لأنه يحمل أخلاق الرجال ومروءتهم، ولو شاء لسكت وكتم إيمانه اتقاء لأذى قومه ولكن رجولته أبت عليه أن يجازف بنفسه ويحاول إنقاذ الموقف ويموت دون من ينافح عنهم، فرحمه الله وجازاه من لدنه خير الجزاء.

قال الرجل في لهجة قوية صريحة تحمل النصح لقومه والإشفاق عليهم وكذلك شأن الأبرار: **﴿قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ اتَّبِعُوا مَن لاَّ يَسْأَلُكُمْ أَجْراً وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾**

نادى قومه نداء المحب الناصح المشفق "يا قوم" وأمرهم باتباع المرسلين أمرا مكررا مرتين، الأمر الأول **﴿اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ﴾** لأنهم رسل الله فاتباعهم ينجي من عذاب الله ويقرب من ثوابه ورضاه، فهم رسل الله حقا، والأمر الثاني فيه اتباع الذين لا يبتغون على دعوتهم هذه أجرا، فليس هناك ما يدعو إلى الارتياب في صدقهم، فهم دعاة حق وصدق من عند رب العالمين لا طلاب دنيا، وكذلك رسل الله لا يسألون أقوامهم أجرا إن أجرهم إلا على رب العالمين.

﴿وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ إن هؤلاء الأقوام يعرفون رسلهم مستقيمين على أخلاق عظيمة منزهين عن الكذب والخيانة فهم مهتدون، أعفاء أطهار، ذوو صدق على صراط مستقيم.

ثم قال في لهجة التعجب:

﴿وَمَا لِيَ لاَ أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾

يقول في استفهام تعجبي وفي إيجاز من نوع الاكتفاء: وما لي لا أعبد الذي فطرني؟! أي وفطركم وإليه لا إلى غيره ترجعون وأُرجع أيضا، فما لكم لا تؤمنون به كما آمنت ما دام وجودي ووجودكم منه ومرجعي ومرجعكم إليه! ونفهم من هذه

اللهجة أن هنالك حوارا جرى بينه وبين قومه، ولابد أنهم لاموه على إيمانه وسبوا هؤلاء الرسل وكذبوهم واستهزءوا بهم وبدعوتهم، فصدر منه هذا التعجب الذي لا يزال مستمرا إذ يقول:

﴿ءاتَّخِذُ مِن دُونِهِ آلِهَةً ان يُرِدْنِ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لاَّ تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئاً وَلاَ يُنقِذُونِ إِنِّيَ إِذاً لَّفِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ إِنِّي ءَامَنتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ﴾.

هذا الاستفهام الإنكاري ذلك لأن قومه يلومونه على ترك عبادة آلهتهم التي ألفوا عبادتها ويهددونه على ذلك فقال: أأتخذ من دون ربي وربكم آلهة لا تنفع ولا تدفع فهي عاجزة أن تدفع عني ضرا أراده الله لي، لا تشفع لي عند الله ولا تقبل شفاعتها ولا تنقذني مما ينزل بي من الضر، إني لفي ضلال مبين إن عبدتها من دون الله أو اتخذتها لله شريكا، يبيّن لقومه بكلامه هذا فظاعة الشرك وضلالة أصحابه بأسلوب حكيم وحجج ملزمة للخصم، فإذا لم يكن لآلهتهم قوة تنقذ عابديها من الضر ولم تكن لها وجاهة عند الله تشفع عنده وتُقبل شفاعتها فهي لا تنفع ولا تضر ولا تغني شيئاً، ففيم تكون مستحقة للعبادة، بعد هذا الحجاج المفلج يقولها صريحة:

﴿إِنِّيَ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ﴾

يعلن إيمانه بالله الذي هو ربه وربهم غير أن الإضافة تأتي هنا للمخاطبين تبكيت لهم وإلزاما لهم للحجة، فإن الرجل يريد أن يلزم قومه ما ألزم به نفسه من عبادة الله وتوحيده لأنه ربهم فلِمَ يكفرون به وهو خالقهم ورازقهم ومربيهم ومليكهم! ويجهر بعقيدته غير خائف لومة لائم ويقول: ﴿فَاسْمَعُونِ﴾ ذلك لأن الذي يعلن به هو الحق فكيف يضعف أو يخاف الذي يعتقد أن قوة الحق إلى جانبه وأن الله معه، وهنا تثور ثائرتهم فيبطشون به ضربا ورجما بالحجارة، وقيل: وطئوا بطنه بأرجلهم حتى خرجت أمعاؤه من دبره فمات شهيدا، وعجل الله به إلى الدرجات العلا في الجنة وأراحه من هذه الدنيا وأتعابها وغمومها، ويا ويلهم من ظلمهم للرجل المؤمن ماذا يلاقون من

انتقام الله ! أما أولياء الله ففوزهم بالشهادة خير لهم وأقرب لهم إلى رضوان الله وأنجى لهم من عقابه.

﴿قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ﴾.

يطوي الأسلوب القرآني البليغ ما صنع القوم بالرجل المؤمن من البطش والأذى لأن ذلك كله زائل ومؤدٍ إلى رضوان الله والنعيم في الجنة، ونيل ذلك غاية كل مؤمن، فهي مرحلة سرعان ما طويت فإذا بالرجل الشهيد على أبواب الجنة يخاطبه مولاه ويقول له: ﴿ادْخُلِ الْجَنَّةَ﴾ الجنة التي أعدت للمتقين والتي هي مثوى الشهداء الأبرار يدخلونها برحمة ربهم جزاء على ما قدموا أرواحهم ثمنا لها.

﴿قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ﴾

روي عن ابن عباس أنه قال: نصح قومه حيا وميتا، تمنى حين قال الله له ادخلِ الجنة إيمان قومه لينالوا نعيمها ونسي بطشهم به، ودّ لو أنهم علموا بما غفر الله له وجعله من المكرمين، وكذلك أولياء الله يحبون الخير للناس ويودون هدايتهم وإسعادهم، روي عن شهداء أحد -رضي الله عنهم- مثل هذا فبلغهم الله مرادهم فأنزل قوله: ﴿وَلاَ تَحْسِبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ أَمْوَاتاً بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ...﴾ الآيات (آل عمران: ١٦٩ وما بعدها) ولا ندري ما صنع القوم بالرسل، والراجح أنهم قتلوهم فانتقم الله لهم من الكفار، قال الله تعالى:

﴿وَمَا أَنزَلْنَا عَلَى قَوْمِهِ مِن بَعْدِهِ مِن جُندٍ مِّنَ السَّمَاء وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ﴾

تبين هذه الآية الكريمة بإيجاز كيف عاقبة القوم المكذبين العاتين على رسل الله المعجبين بقوة أبدانهم وسلطانهم ووفرة أموالهم وثمارهم، ونسوا أن كل ذلك وغيره من

نعم الله عليهم، والله قادر أن ينزعه منهم في طرفة عين حينما يكفرون نعمة الله ويكذبون رسله، قال تعالى:

﴿وَمَا أَنزَلْنَا عَلَى قَوْمِهِ مِن بَعْدِهِ مِن جُندٍ مِّنَ السَّمَآءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ﴾

أي وما أنزلنا على هؤلاء القوم الذين قتلوا ولي الله المؤمن وسطوا على رسل الله، ما أنزلنا عليهم جندا من السماء لإهلاكهم، وما كان شأننا أن ننزل على أمثالهم جندا بل هم أحقر من ذلك وأهون على الله، ولو شاء لفعل ولكن الله أهلكهم بصيحة واحدة صرخها عليهم جبريل -عليه السلام- فإذا هم كالنار الخامدة، هلكوا في طرفة عين وجرى عليهم حكم الله ولم ينتصروا ولم تدفع عنهم آلهتهم التي كانوا يدعون من دون الله لما جاء أمر الله، أما المؤمن فكان استشهاده سببا لدخوله الجنة والخلود في نعيمها، وأما أعداء الله فأهلكهم الله بصيحة واحدة ولم يذكر مصيرهم بعد ذلك وهو معروف، وفي ذكر إهلاكهم تعريض بقريش قوم النبي المكذبين، ألا يخشون مثل عاقبتهم! إنهم لن يعجزوا الله وهم أضعف من هؤلاء، إن في هذا المثل المضروب تسلية للمؤمنين وتخويف للمكذبين وإنذار لمن يعتبر من الناس، وما أشد وقعه على القلوب!.

يَٰحَسۡرَةً عَلَى ٱلۡعِبَادِۚ مَا يَأۡتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ
يَسۡتَهۡزِءُونَ ﴿30﴾ أَلَمۡ يَرَوۡاْ كَمۡ أَهۡلَكۡنَا قَبۡلَهُم مِّنَ ٱلۡقُرُونِ أَنَّهُمۡ
إِلَيۡهِمۡ لَا يَرۡجِعُونَ ﴿31﴾ وَإِن كُلّٞ لَّمَّا جَمِيعٞ لَّدَيۡنَا مُحۡضَرُونَ ﴿32﴾
وَءَايَةٞ لَّهُمُ ٱلۡأَرۡضُ ٱلۡمَيۡتَةُ أَحۡيَيۡنَٰهَا وَأَخۡرَجۡنَا مِنۡهَا حَبّٗا
فَمِنۡهُ يَأۡكُلُونَ ﴿33﴾ وَجَعَلۡنَا فِيهَا جَنَّٰتٖ مِّن نَّخِيلٖ وَأَعۡنَٰبٖ
وَفَجَّرۡنَا فِيهَا مِنَ ٱلۡعُيُونِ ﴿34﴾ لِيَأۡكُلُواْ مِن ثَمَرِهِۦ وَمَا
عَمِلَتۡهُ أَيۡدِيهِمۡۚ أَفَلَا يَشۡكُرُونَ ﴿35﴾ سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِي
خَلَقَ ٱلۡأَزۡوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلۡأَرۡضُ وَمِنۡ أَنفُسِهِمۡ
وَمِمَّا لَا يَعۡلَمُونَ ﴿36﴾ وَءَايَةٞ لَّهُمُ ٱلَّيۡلُ نَسۡلَخُ مِنۡهُ ٱلنَّهَارَ
فَإِذَا هُم مُّظۡلِمُونَ ﴿37﴾ وَٱلشَّمۡسُ تَجۡرِي لِمُسۡتَقَرّٖ لَّهَاۚ ذَٰلِكَ
تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ﴿38﴾ وَٱلۡقَمَرَ قَدَّرۡنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ
كَٱلۡعُرۡجُونِ ٱلۡقَدِيمِ ﴿39﴾ لَا ٱلشَّمۡسُ يَنۢبَغِي لَهَآ أَن تُدۡرِكَ
ٱلۡقَمَرَ وَلَا ٱلَّيۡلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِۚ وَكُلّٞ فِي فَلَكٖ يَسۡبَحُونَ ﴿40﴾
وَءَايَةٞ لَّهُمۡ أَنَّا حَمَلۡنَا ذُرِّيَّتَهُمۡ فِي ٱلۡفُلۡكِ ٱلۡمَشۡحُونِ ﴿41﴾
وَخَلَقۡنَا لَهُم مِّن مِّثۡلِهِۦ مَا يَرۡكَبُونَ ﴿42﴾ وَإِن نَّشَأۡ نُغۡرِقۡهُمۡ فَلَا
صَرِيخَ لَهُمۡ وَلَا هُمۡ يُنقَذُونَ ﴿43﴾ إِلَّا رَحۡمَةٗ مِّنَّا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ
حِينٖ ﴿44﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّقُواْ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيكُمۡ وَمَا خَلۡفَكُمۡ
لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ﴿45﴾ ۞ وَمَا تَأۡتِيهِم مِّنۡ ءَايَةٖ مِّنۡ ءَايَٰتِ رَبِّهِمۡ إِلَّا
كَانُواْ عَنۡهَا مُعۡرِضِينَ ﴿46﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ
قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنُطۡعِمُ مَن لَّوۡ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطۡعَمَهُۥٓ إِنۡ
أَنتُمۡ إِلَّا فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ﴿47﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلۡوَعۡدُ إِن كُنتُمۡ
صَٰدِقِينَ ﴿48﴾ مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيۡحَةٗ وَٰحِدَةٗ تَأۡخُذُهُمۡ وَهُمۡ
يَخِصِّمُونَ ﴿49﴾ فَلَا يَسۡتَطِيعُونَ تَوۡصِيَةٗ وَلَآ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِمۡ يَرۡجِعُونَ ﴿50﴾

بعد عرض قصة أصحاب القرية التي مسها عذاب الله جزاء على كفرهم وتمردهم وقد ضربهم الله مثلا لكفار قريش لعلهم يعتبرون ولكن أكثر الناس لا يؤمنون ولا يعتبرون، وهذا حكم الله عليهم وهو العليم بمن مضى ومن يأتي من الأمم حتى تقوم الساعة، ولما كان أمرهم كذلك جاءت الآية تدعو إلى الحسرة عليهم فقال تبارك وتعالى:

﴿يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ مَا يَاتِيهِم مِّن رَّسُولٍ الاَّ كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾

الحسرة هو الأسف الشديد، أي إن أمر العباد يدعو إلى الأسف الشديد، فليتحسر الهالكون، وليتحسر كل من يتأتى منه التحسر عليهم لما فرطوا في جنب الله خالقهم، ما يأتيهم من رسول من ربهم يدعوهم إلى النجاة إلا كفروا به وكانوا يسخرون منه ويستهزئون به، وكذلك يجر الذنب إلى الذنب، فكفرُ هؤلاء جرَّهم إلى الاستهزاء والسخرية برسل الله، وهذا غاية التمرد والعتو، فهم بهذا يقعون في مقت الله ويستحقون عقاب الله الذي هو الإهلاك في الدنيا، والعذاب الأليم يوم القيامة.

﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمَ اَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لاَ يَرْجِعُونَ وَإِن كُلٌّ لَّمَا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾.

الآية فيها الاستفهام التعجبي من العباد؛ لأن أمرهم يدعو إلى العجب، العباد الذين يخلفون من بعد الظالمين الهالكين كيف لا يعتبرون بهلاكهم، وفي هذا تعريض بقريش قوم النبي ﷺ كيف لا يعتبرون بهلاك عاد وثمود وأصحاب مدين وغيرهم ممن يتناقلون أخبارهم ويمرون على منازلهم، يقول الله تعالى: أعمي هؤلاء العباد؟ ألم يروا كم أهلكنا قبلهم من القرون الكثيرة، والقرن في مدلول القرآن هو الأمة من الناس يجمعهم عصر ومصر ومعنى من المعاني، مثل أن يرسل الله إليهم رسولا يدعوهم إلى الله أو يأتيهم بكتاب من عنده فهؤلاء قرن ولو طال أمدهم كقوم نوح، فهم قرن في معنى القرآن، وهكذا مضت قرون كفرت برسل الله فأهلكها الله وجعلها أحاديث، أفلا

يعتبر بهم من جاء من بعدهم؟ وهل رجع منهم من أحد؟ فهم لا يرجعون إليهم بل يمضون قوافل وقوافل ولا أحد منهم يُمكّن من الرجوع إلى أهله وأقربائه، أفلا يكون في هذا ما يدعو إلى الاعتبار!؟

﴿وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾

ثم بعد إهلاكهم يُحضرون كلهم إلى يوم الجزاء لينالوا جزاءهم موفورا من عذاب الله ولا يفلت منهم أحد، وهذا ما تدل عليه الآية الكريمة لما تحمله من التوكيد بالحصر وبلفظ **﴿جَمِيعٌ﴾** وقوله: **﴿لَّدَيْنَا﴾** جاء بنون العظمة وفيه ما فيه من إحاطة علم الله وقدرته بهم، فيا ويل الظالمين من مصيرهم يوم يردون إلى الجبار المنتقم فليعتبر من أراد الله به خيرا من قوم النبي ﷺ ومن يأتي بعدهم ممن في قلوبهم نبض من الحياة، وقد جاء في أواخر هذه السورة ﴿لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيّاً﴾ (يس: ٧٠) وتقوم الحجة بعد هذا على الكافرين ﴿وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ نسأل الله البر الرحيم أن يحيي قلوبنا ويجعل فيها نورا من نور كتابه المبين آمين.

﴿وَآيَةٌ لَّهُمُ الأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبّاً فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ لِيَأْكُلُوا مِن ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلا يَشْكُرُونَ﴾.

بعد ضرب المثل بأصحاب القرية التي مس أهلها الهلاك لكفرهم برسل الله وإيذائهم لهم، يرجع الحديث إلى ضرب الأمثلة على إحياء الموتى، وقدرة الله وعلمه وتقديره الحكيم لكل ما يجري في هذا الكون علويه وسفليه، وقد ذكر إحياء الموتى من قبل وكتابة ما قدموا وآثارهم، ويقيم الدليل هنا على ذلك بضرب المثل بإحياء الأرض وإنبات البذور التي كانت ممتزجة بترابها، وإحياؤها من الآيات العظيمة الدالة على قدرة الله وإحصائه لكل شيء.

﴿وَآيَةٌ لَّهُمُ الأَرْضُ الْمَيِّتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبّاً فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ﴾

وآية لهم على وجود الله وقدرته على إحياء الموتى الأرض الميتة التي لا نبات فيها يحييها الله بما ينزل عليها من الغيث فتهتز وتربو وتنبت من كل زوج بهيج، من الذي أحياها؟ الله يحييها وينبت منها حبا منه يأكل الناس والأنعام والطيور والحشرات ودواب الأرض كلها، وهذه الحبوب من البر والشعير والأرز والذرة هي عامة ما يقتات به الناس وعليها اعتماد معايشهم.

ثم قال تعالى: **﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ لِيَأْكُلُواْ مِن ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلا يَشْكُرُونَ﴾**

ومن آيات الله هذه الجنات التي جعلها الله في الأرض، فيها أنواع من النخيل والأعناب، والمقصود بالأعناب أشجار العنب التي أهمّ منافعها ثمراتها، وأما النخيل ففيها منافع كثيرة غير التمر لذلك جاء ذكر الشجرة لأهمية منافعها، وفجر الله في الأرض العيون الثرثارة تجري دواما وهي من أعظم نعم الله على عباده، وهي آية من آيات الله، وجاء لفظ الآية في هذا السياق مُنكرا والتنكير هنا يدل على التعظيم، ففي كل هذه الأشياء آية الله على عظمة الله وسعة علمه وقدرته، ثم قال: ليأكلوا من ثمره، أي من الثمار التي أخرجها الله لهم من الأرض وصنعها لهم، وما عملته أيديهم، ومن ذا الذي يزعم ذلك أفلا ينظرون في هذه الآيات ويتأملونها ويشكرون الله الذي أنعم عليهم ويوحدونه ولا يعبدون غيره، ولا يتخذون له أندادا.

﴿سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنبِتُ الأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لا يَعْلَمُونَ﴾

آيات كونية في الأرض وفي السماء جاء سردها متتابعا، كل آية منها توحي بتسبيح ربنا الخالق، وهنا تبتدئ بتسبيح الله تذكيرا لنا أن نسبح الخالق عند كل آية من آياته ﴿سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنبِتُ الأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لا يَعْلَمُونَ﴾

سبّحوا ربكم تسبيحا ونزهوه تنزيها عما يصفه به المبطلون من العجز والشريك، وقدسوه كما يليق بجلاله، الله الذي خلق الأزواج كلها، والأزواج هي الأصناف التي هي الذكور والإناث من الناس والحيوانات والنباتات.

قال الله تعالى: **﴿مِمَّا تُنبِتُ الأَرْضُ وَمِنَ أنفُسِهِمْ وَمِمَّا لا يَعْلَمُونَ﴾**.

وهذا من دلائل الإعجاز الكبرى في كتاب الله الكريم وذلك أن يخبر عن شيء لا يعلمه الناس يوم نزول القرآن ثم تمضي القرون ويتقدم العلم فيكشف عليه، وقد اطلع الناس على أزواج من أشياء في هذا الكون لها خطرها وأثرها الفعال وما كان الناس يعلمونها، ويقول العلماء: إن الأشياء التي بقيت غامضة أكثر من الأشياء التي اكتشفت ولا تكون إلا أزواجا كما أخبر بذلك القرآن، لقد اكتشفوا قوة الكهرباء فوجدوها زوجين موجب وسالب تتولد منهما الطاقة، واكتشفوا الذرة فوجدوها زوجين النواة والالكترون تتولد عنها الطاقة الهائلة، وعرفوا أن أنواع الجمادات كذلك أزواج، فسبحان الذي خلق الأشياء كلها أزواجا واطلعنا على ذلك فعلمنا أشياء وغابت عنا أشياء ولسنا ندري ما يطالعنا به الغد، ولا يأتي الغد إلا بما يوافق أخبار القرآن، قال الله تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الافَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ (فصلت: ٥٣) وفي تدبر هذه الأشياء آيات على وجود الله وقدرته وأنه الخالق الرازق المحيي المميت المبدئ المعيد.

﴿وَآيَةٌ لَّهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ وَالْقَمَرُ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ لا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾

لا يزال الكلام متصلا في تنبيه العباد واستثارة انتباههم ليتدبروا آيات الله الجلية التي يدركها الذكي والغبي، فهي ظاهرة لكل الناس وفي كل الأزمنة والأمكنة، آيات

الله في الأرض، وآيات الله في السماء، وآيات الله في الآفاق، فما على العاقل إلا أن ينظر ويتأمل من الذي صنع هذه الأشياء، من الذي يسير هذا النظام الدقيق في الكون؟ أليس هو الله الذي لا إله إلا هو الحي القيوم!

﴿وَآيَةٌ لَّهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ﴾

وآية عظيمة من آيات الله لهم، هذا الليل الذي يتعاقب مع النهار يسلخ الله منه النهار، أي ينزعه، والتعبير بالسلخ فيه استعارة بديعة تعطي الكلام قيمة ليتناسق مع معناه، وفي سلخ النهار من الليل إشارة إلى أن الأصل في هذه الأرض المظلمة هو الظلام لا النور، وإنما هي تقتبس النور من الشمس فيتكون منه النهار، فإذا استدبرت الشمس سلخ النور من شطر جرمها فبقي الظلام الذي هو الليل، وفي كل من الليل والنهار آية من آيات الله يغفل عنها كثير من الناس لتكررهما وإلف الناس إياها، ولو جاءنا من مثل هذا أو أقل شيء على خلاف العادة لتعجب الناس وسبحوا الله، وربما يسافرون آلاف الأميال لمشاهدته، والحق أن هذا التعاقب الرتيب بنظامه العجيب أدخل في الإيمان بقدرة الله وعلمه وحكمته، وأدعى إلى تسبيحه وخشيته ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ (فاطر: ٢٨).

ثم يقول تعالى: **﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾**

وآية عظيمة من آيات الله هذه الشمس التي تجري في فلك الله الواسع، وهي أعظم من الأرض، تجري بتقدير الله بسرعة عظيمة محددة في مسار محدد لا تعدوه، تجري لمستقر لها ومستقرها يوم القيامة بعد أن تكوّر عند قيام الساعة، وهذه الشمس كما يلاحظها علماء الفلك لها حركتان في جريها: حركة دوران حول نفسها قدروها باثني عشر ميلا في الثانية، وحركة حول محور تدور عليه هي وبناتها وهن تسع: الأرض والزهرة وعطارد والمشتري وزحل وأورانوس والمريخ ونبتون وبلوتون، هذا ما توصل إلى إدراكه العلماء، وهذه كلها بنات الشمس يدرن حولها، أما القمر فهو يدور حول

الأرض، وفي الفضاء ملايين وملايين النجوم لها توابع كالشمس تدور حولها، والشمس أكبر من الأرض بنحو مليون ونصف مليون مرة، وفي النجوم ما هو أكبر من الشمس بكثير، فسبحان خالق هذه الأجرام العظيمة في السموات ثم هو يفنيها متى شاء، وفي تأملها إدراك لعظمة خالقها ومجريها.

﴿ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾

أي ذلك الجريان المحدد تقدير الله العزيز الذي أتته السموات والأرض وما فيهن طائعة منقادة مسبحة بحمده "العليم" الذي وسع كل شيء علما، فاعبدوه ووحدوه وهو أحق بالعبادة والطاعة والتوحيد، ليس معه إله يُخشى ولا معبود يرجى.

﴿وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ﴾

هذا القمر الذي يدور حول الأرض والذي هو أقرب الكواكب إليها، يلاحظه الناس بدوهم وحاضرهم عن كثب ويعرفون منازله ويعدونها ثمانية وعشرين منزلة، كما أن للشمس اثني عشر برجا، وهذه المنازل والبروج يعرف بها الناس مرور الزمان فيحسبون التاريخ، وجعل الله مواقيت الحساب للناس في الأهلة ومنازلها لأن هذا الحساب يدركه الحاضر والبادي، والأمي والقارئ، فهو في متناول كل الناس، فموسم الحج وشهر رمضان وأداء الزكاة كل هذه تدور مع دورة العام القمري، وكذلك الأشهر الحرم، ويبدأ الهلال صغيرا ثم لا يزال ينمو حتى يكمل ثم يبدأ في النقصان حتى ينتهي إلى السرار، وقبل ذلك يظهر دقيقا مقوسا أصفر وصفه الله كالعرجون القديم، وهو عذق التمر إذا يبس وانحنى، وفي منازله عبرة لأعمارنا تبدأ من ضعف ثم تصير إلى قوة ثم تصير بعد قوة إلى ضعف وشيبة، وفي التعبير بالعرجون القديم إشارة إلى قرب انتهاء الشهر، وهكذا تمضي أيام حياتنا وتقترب آجالنا فهل نعتبر ونستعد للموت قبل نزوله!؟

أما سبب تحول الهلال في منازله فقد عرفه علماء الفلك من دوران القمر حول الأرض كما عرفوا سبب الكسوف والخسوف وضبطوا حسابها ضبطا، وعلم ذلك مبسوط في كتب الفلك، يتعلمه الأطفال الصّغار في المدارس.

ثم يقول تبارك وتعالى:

﴿لا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾

يبين الله لنا في هذه الآيات أن الشمس والقمر والنجوم تدور في مداراتها المحددة لا تدرك الواحدة الأخرى لأنها لو أدركتها لاصطدمت بها أو لانعدمت المصلحة من تعاقبها، فلا ينبغي للشمس ولا يصح لها أن تدرك القمر ولا القمر أن يدرك الشمس، وجعل الله الشمس آية النهار، والقمر آية الليل، ينتفع الإنسان والحيوان والنبات بضوء الشمس في النهار وينتفعون بنور القمر في الليل، ويتكون المد والجزر في البحار بتأثير جاذبية القمر، وفي كل ذلك صلاح للبر والبحر والنبات، ولله في خلقه شؤون وأسرار لا يعلمها إلا هو.

﴿وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾

أي كل من الشمس والقمر والنجوم والكواكب يسبحون في بحر فلك الله الذي لا يعلم سعته إلا الله الذي وسع كل شيء رحمة وعلما، ولكل مداره ومجراه لا يخطئه، ونظام الجاذبية يثبت كل جرم في مساره لا يعدوه، وتلك قدرة الله العظيمة وتقدير العزيز العليم، فسبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر، وجاء الضمير في ﴿يَسْبَحُونَ﴾ بواو الجماعة الذي هو ضمير العقلاء إشارة إلى أن هذه الأجرام لها إدراك فهي تسبح خالقها وتسير في مجراها طيّعة كما يشاء ويريد، ولا ننكر ذلك فقد دلت الأخبار على حقيقته.

ثم يلفتنا ربنا تبارك وتعالى إلى آية أخرى من آياته الكبرى فيقول جل من قائل:

﴿وَآيَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّاتِهِمْ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلا صَرِيخَ لَهُمْ وَلا هُمْ يُنقَذُونَ إِلا رَحْمَةً مِّنَّا وَمَتَاعاً إِلَى حِينٍ﴾

آية من آياته الكبرى أن الله حمل ذريات آدم في الفلك المشحون الذي يجري بهم على أثباج المياه في البحار الزاخرة ذات الأمواج المتلاطمة، هذا من تسخير الله وتيسيره وحسن تقديره وبأمره، وجاء التعبير بنون العظمة لأن الله وحده المسخر لهذه النعم العظيمة فهي نعم وآيات تدل على عظمة الله وحسن تقديره للأشياء وإتقان صنعه، ولم تسند الآية هنا إلى الفُلْكِ لأن صناعة الفلك وحدها ليست آية وهي طبعا من إرشاد الله ولكن الآية العظمى جريانها بهم في البحر بعد شحنها بآلاف الأطنان، فحملها لهم بعد شحنها بالأثقال آية من آيات الله.

وقوله: ﴿حَمَلْنَا ذُرِّيَّاتِهِمْ﴾

أي أجيال بني آدم المتعاقبة في كل زمان ومكان، ولا يليق حصرها هنا فقط على سفينة نوح وذريته بل هي أعم من ذلك، فهم يشحنونها بما يشاءون من البضائع والأنعام ثم يركبونها في أعداد ضخمة ثم يسيرونها في البحار إلى حيث يريدون منتفعين بمختلف الرياح، واليوم يسيرونها بالبخار ويخترعون وسائل أخرى لتسييرها وهن مسخرات بهم في البحر كأنها الجبال يمخرن عباب الماء، ولولا تقدير الله لموازين الأشياء لغرقن وما طفون على أثباج المياه، وللمتوسمين في هذه المواد ومقاديرها آيات يدركونها تدل على صنع الله الذي أتقن كل شيء، ومن تأمل طبيعة الماء والأشياء التي تلتقي فيه أدرك أن هنالك موازين مقدرة للأشياء التي تطفو على الماء وإذا تعدتها رسبت في الماء، فسبحان الذي خلق الأشياء وقدرها تقديرا وجعل بعض الأجسام يطفو على الماء وبعضها يرسب وألهم عباده أن ينتفعوا بهذه وهذه كما انتفعوا بالأجسام الموصلة للتيار الكهربائي وبالأجسام العازلة له والكل من خلق الله وتسخيره وتقديره.

قال تعالى: ﴿وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ﴾

كان المفسرون يفهمون أن مثل السفن البحرية سفن البر التي هي الجمال ويسمون الجمل سفينة الصحراء، أما اليوم بعد أن اخترع الناس الطائرة فالأنسب أن نفسر هذا المِثل بالطائرة، فهي سفينة الهواء تشق عباب بحر الهواء كما تشق السفينة بحيزومها عباب الماء، وتشحن بالبضائع ثم يركبها مئات الأناسي كما يشحنون الفلك ويركبونها وهي خلق لله؛ لأن الله هو الذي خلق المواد التي تركّب منها، وخلق القوة التي تسير بها، وخلق الذين يصنعونها وألهمهم كيفية صنعها وتسييرها وإرسائها في أرض المطار كما يسيرون السفن في البحار ويرسونها على الموانئ، فامتن الله علينا بهما معا وهما من آيات الله الدالة على كمال علمه وقدرته وإتقان صنعه.

ثم قال تعالى: ﴿وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلا صَرِيخَ لَهُمْ وَلا هُمْ يُنقَذُونَ إِلا رَحْمَةً مِّنَّا وَمَتَاعاً إِلَى حِينٍ﴾

يقول تبارك وتعالى: وإن نشأ نغرقهم فلا صريخ لهم، أي فلا منقذ لهم لأن الغريق يستصرخ والمنقذ يصرخ باسم الغريق أو يصرخ يستعين بالناس في إنقاذه فهو صريخ ﴿وَلا هُمْ يُنقَذُونَ﴾ أي لا منقذ لهم إذا شاء الله إهلاكهم لكن إذا رحمهم الله فإن الله يخلصهم ويمتعهم بالحياة إلى حين، أي إلى حضور آجالهم، وإذا أراد الله بقوم سوء فلا مرد له، كما أنه إذا أرادهم برحمة فلا ممسك لها، ولا أحد يفلت مما أراد الله به، وإن أراد الله إنقاذه من هلاك أحاط به فليس ذلك إفلاتا من قدر الله بل هو في قبضة الله وإن هو متعه إلى حين فإذا حان الأجل المحتوم فلا مفر له من قضاء الله، وقضاء الله محيط بمخلوقاته وهو نازل بهم لا محالة فليعتبر المعتبرون وليتعظ المتعظون، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ آيَةٍ مِّنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا

مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ إِنْ أَنتُمْ إِلا فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ﴾

عود على بدء، يعود الكلام في هذه الآيات على كفار قريش قوم النبي ﷺ بعد أن ذكرهم بآياته في الكون لعلهم يهتدون، يقول الله تبارك وتعالى: وإذا قيل لهؤلاء القوم اتقوا ما بين أيديكم وما خلفكم لعلكم ترحمون، جاءت الآية بالطلب وجوابه ولكن لم تأت بجواب الشرط لأنه يفهم من سياق الكلام، وجاءت بالفعل "قيل" مبنيا للمفعول؛ لأن القائل معروف وهم أنبياء الله وخلفاؤهم من بعدهم ممن يدعو الناس إلى الله ويعظونهم ويذكرونهم، إذا قال الوعاظ للكفار اتقوا ما بين أيديكم من عذاب الله وعقابه على كفركم وما خلفكم من أيام الله التي أهلك فيها أمثالكم ممن طغى وتمرد على رسله، احذروا مثل ذلك الهلاك، اتقوا ربكم لعلكم ترحمون، لعل الله يرحمكم ويرفع عنكم مقته وينجيكم من عذابه إذا اتقيتموه وأطعتم رسله وآمنتم بهم، إذا قيل لهم ذلك أعرضوا ودلّ على هذا قوله تعالى:

﴿وَمَا تَأتِيهِم مِّنَ آيَةٍ مِّنَ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾

فهم معرضون عن نذر الله معرضين عن آياته، والآيات هي العلامات الواضحة على وجود الله وصدق رسله، وهي إما تنزيلية كالقرآن أو المعجزات التي أيّد الله بها نبيه أو كونية كآيات الله في أرضه وسمائه وما بينهما، فهم معرضون عن آيات ربهم لا يستمعون إلى الآيات المنزلة ولا ينتفعون بآيات الله في الأكوان، وهذا لقساوة قلوبهم واستحواذ الشيطان عليها ﴿لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لا يُومِنُونَ﴾ (يس: ٧).

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ إِنْ أَنتُمْ إِلا فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ﴾.

إذا دعي هؤلاء إلى الإنفاق وقيل لهم: أنفقوا من المال الذي هو من رزق الله لكم، فاشكروا نعمته بالإنفاق على من تجب نفقته أو تستحب كالفقراء والمساكين طغت طبيعة

الكفر والبخل على الكافرين فيجيبون بجواب فيه زندقة وبطر وطغيان فيقولون: أنطعم أناسا أفقرهم الله ولو شاء لأغناهم، فكيف تدعوننا إلى إطعام من أجاعه الله ولو شاء لأطعمه إن أنتم إلا في ضلال مبين، قال مثل هذا الكلام أبو جهل لأبي بكر ﷺ في حوار جرى بينهما، فقال له أبو بكر: "إن الله ابتلى ناسا من عباده بالفقر لينظر أيصبرون، وابتلى ناسا منهم بالغنى لينظر أيشكرون"، ولو شاء الله لأفقرهم جميعا أو أغناهم جميعا، ولو سوى بينهم لتعطلت حكمة الله التي هي في رفع بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضا سخريا، وفي ذلك التسخير يحصل المقصود من عمارة الأرض واستخراج كنوزها وأقواتها ويحصل المقصود ليوم القيامة في ابتلاء بعضهم ببعض ليجزي الشاكرين المنفقين والصابرين المتعففين ولينتقم من الظالمين والكافرين والباخلين، ويعذب المنافقين ويتوب الله على المؤمنين المنفقين الصابرين، ﴿وَلَكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ﴾ (محمد: ٤).

والله إنما خلق الخلق في هذه الحياة الدنيا ليبتليهم وهو أعلم بهم من أنفسهم ثم يوفيهم جزاءهم يوم القيامة، وإذا عرفنا هذا فلا محل للحيرة والزندقة، وقد قال الشاعر:

كم عالم عالم أعيت مذاهبه	وجاهل جاهل تلقاه مرزوقا
هذا الذي ترك الأفهام حائرة	وصير العالم النحرير زنديقا

ولكننا -والحمد لله- لا نحتار في أمر الله لأننا نعلم أن الأمور تجري بقضاء الله وقدره، وأننا لم نخلق لهذه الحياة الدنيا، وما هذه الدار إلا دار ابتلاء وامتحان، فمن رضي بقضاء الله وقنع بعطائه واستسلم لأمره واطمأنت نفسه بالله فإن الله لا يضيع أجر المحسنين، ثم يكشف الله في الآية التالية عن نفوس هؤلاء الكفار الخبيثة بما يتفوهون به عن التشكيك والتكذيب والجدل فيقول:

﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾

ذلك لأن الله تعالى يخوفهم في كتابه بيوم الحساب وبقيام الساعة لعلهم يحذرون، فيستهزؤون بهذا التخويف ويشككون في أمره ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين في دعواكم، فليس هنالك بعث ولا نشور ولا جنة ولا نار، ما هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا، لا يزالون يرددون هذا الكلام حتى يأتي أمر الله.

﴿مَا يَنظُرُونَ إِلا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَاخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ فَلا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلا إِلَى أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ﴾

يقول الله تبارك وتعالى: ما ينظر هؤلاء المكذبون إلا صيحة واحدة تأخذهم كما أخذت أصحاب القرية المضروبة مثلا، أو صيحة الصعق عند قيام الساعة تأخذهم وهم غافلون في تخاصمهم وتشاجرهم، في بيعهم وشرائهم، فيصعقون فلا يستطيعون توصية ولا إلى أهلهم يرجعون، ذلك لأن الإنسان إذا شعر بدنو الأجل بادر إلى التوصية فيوصي بما في خاطره من الأشياء لتنفذ ويحاول الرجوع إلى أهله إن كان بعيدا عنهم ليوصيهم ويودعهم، فإذا جاءه الهلاك فجأة فلا توصية ولا رجوع، فأعرض الله عن إجابة هؤلاء المكذبين المستهزئين؛ لأن الأمر جد وواقع وقريب ولكنه أنذرهم بساعة الهلاك التي هي كلمح البصر أو هو أقرب.

وقد جاء في القرآن في غير موضع معنى هذا التحذير والإنذار، وجاء في الحديث الصحيح: {لتقومن الساعة وقد نشر الرجلان ثوبا بينهما فلا يتبايعانه ولا يطويانه، ولتقومن الساعة وهو يليط حوضه فلا يسقي فيه، ولتقومن الساعة وقد رفع أكلته إلى فيه فلا يطعمها}، ويأتي التخويف بالهلاك إما بقيام الساعة الكبرى، وإما بقيام ساعة كل أمة وحضور أجلها، أو قيام ساعة كل فرد حضر أجله ليحذر الناس، وليعتبر المعتبرون، وليتنبه الغافلون فيستعدوا لتلك الساعة قبل إتيان أمر الله فيها، وقانا الله شر العواقب ونفعنا بموعظة كتابه المبين آمين.

وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ الْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ
﴿٥١﴾ قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَن بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ۜ هَٰذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَٰنُ
وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ ﴿٥٢﴾ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً
فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٥٣﴾ فَالْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ
نَفْسٌ شَيْئًا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٤﴾
إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغُلٍ فَاكِهُونَ ﴿٥٥﴾ هُمْ
وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلَالٍ عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَّكِئُونَ ﴿٥٦﴾
لَهُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ ﴿٥٧﴾ سَلَامٌ قَوْلًا مِّن
رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴿٥٨﴾ وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ ﴿٥٩﴾
۞ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ
إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ اعْبُدُونِي ۚ هَٰذَا صِرَاطٌ
مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا ۖ أَفَلَمْ
تَكُونُوا تَعْقِلُونَ ﴿٦٢﴾ هَٰذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٦٣﴾
اصْلَوْهَا الْيَوْمَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٦٤﴾ الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ
أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا
يَكْسِبُونَ ﴿٦٥﴾ وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰ أَعْيُنِهِمْ فَاسْتَبَقُوا
الصِّرَاطَ فَأَنَّىٰ يُبْصِرُونَ ﴿٦٦﴾ وَلَوْ نَشَاءُ لَمَسَخْنَاهُمْ عَلَىٰ
مَكَانَتِهِمْ فَمَا اسْتَطَاعُوا مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ ﴿٦٧﴾ وَمَن نُّعَمِّرْهُ
نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٨﴾ وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ
وَمَا يَنبَغِي لَهُ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ ﴿٦٩﴾
لِّتُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٧٠﴾

يعرض علينا في هذه الآيات مشهدا من مشاهد القيامة التي تعظ المؤمنين وتنذر الكافرين المكذبين، ويأتي خبر النفخ في الصور على صيغة الماضي، فكأنه قد وقع وحدث الهول وذلك لتحقق وقوعه في قضاء الله فهو واقع لا محالة، ليس لوقعته كاذبة.

﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ الاجْدَاثِ إِلَى رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَن بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ﴾

ذكر النفخ مبنيا للمفعول لأن الغرض لا يتعلق بالنافخ من هو؛ إنما العبرة في النفخ وهو أمر هائل يفزع الناس جميعا من في السموات ومن في الأرض إلا من شاء الله، يفزعون ويصعقون للنفخة الأولى ويقومون من قبورهم أحياء للنفخة الثانية، وقد صح أن النافخ إسرافيل عليه السلام، يبعثه الله جل جلاله فيأمره بالنفخ فينادي "أيتها العظام النخرة والأوصال المتقطعة، والأجزاء المتفرقة، والشعور المتمزقة إن الله يأمركن أن تجتمعن لفصل القضاء، ثم ينفخ في الصور فإذا هم من الأجداث -أي من القبور- إلى ربهم وخالقهم ينسلون، أي يسرعون مقبلين إلى أرض المحشر ليوم الفصل ﴿كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ مُّهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِرٌ﴾ (القمر: ٧-٨)، ما هي إلا نفخة فإذا الأرواح راجعة إلى أجسادها وقد أعادها الله وسواها كما كانت لا يفلت منهم أحد، قال هؤلاء الكفار: يا ويلنا من بعثها من مرقدنا، فهم يتعجبون من قيامهم بعد رقادهم الطويل، وللعلماء أقوال في هذا الرقاد؛ فقال قوم: هو الرقاد الذي بين النفختين، وقال آخرون: هو رقاد البرزخ الذي هو بالنسبة لما يستقبلهم من العباد كأنه نوم، وعلى كل فهم يخرجون من الأجداث ويقولون من بعثنا؟ لا يشك أحد يومئذ أن المحيي الباعث هو الله جل جلاله.

﴿هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ﴾

اختلف أهل العلم في هذه الكلمة؛ فقال أكثرهم: هو قول الله تبارك وتعالى، والذي نرجحه ونراه كما قال به بعض أنه هو اعتراف هؤلاء الذين كانوا يكذبون بيوم

الدين، يقولونها وليس إيمانهم يومئذ بنافعهم شيئا، وقال بعض: هو قول الملائكة، وقيل: هو قول المؤمنين، ولا مانع أن يقولوها جميعا، فمن كان له عقل فليتذكر اليوم بكلام الله، وليؤمن بالله ورسله وكتبه، واليوم الآخر، وليعلم أن وعد الله حق وكلامه حق، والجنة حق، والنار حق، وأن رسل الله صادقون، ونسب الوعد إلى الرحمن بهذه الصفة لأن رحمة الله تقتضي أن يجمع عباده ليوم يقضي فيه بينهم، ويوفى العالمون أجورهم ولا ينقصهم من إحسانهم شيئا، بل يضاعف الحسنات ولا يظلم الناس مثقال ذرة فهو العادل البر الرحيم، كتب على نفسه الرحمة، قال تعالى: ﴿كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لاَ رَيْبَ فِيهِ الَّذِينَ خَسِرُواْ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لاَ يُومِنُونَ﴾ (الأنعام١٢)، وأمر الله لابد واقع.

﴿إِن كَانَتْ إِلا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾

ما هي إلا صيحة واحدة وهي نفخة البعث فإذا هم قيام ينظرون يحضَرون إلى ربهم جميعا لا يفلت منهم أحد، يجمعهم الله ليوم الجمع، فليس ثمة جنود تقوم بسَوْقهم وحشرهم بل يسمعون الصيحة فيقبلون مهطعين إلى الداعي فإذا هم مجتمعون في أرض المحشر يزحم بعضهم بعضا في يوم عظيم، يوم يقوم الناس لرب العالمين.

﴿فَالْيَوْمَ لا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً وَلا تُجْزَوْنَ إِلا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾

فاليوم أي هذا اليوم يوم الجمع، الألف واللام هنا للعهد الحضوري كما يقول النحاة؛ لأن المشهد حاضر والخطاب من الله إلى هؤلاء الكفرة المعترفين بالحق فلم يعد لهم ريب في صدق وعد الله، يقول الله لهم: فاليوم لا تظلم نفسا بزيادة مثقال ذرة في سيئاتها، وما ربك بظلام للعبيد ولا تجزون إلا ما كنتم تعملون، فالذي أنتم فيه وما ينتظركم من العذاب ما هو إلا جزاء لكم على كفركم وتكذيبكم لرسل الله وتمردكم عليهم وإيذائكم لهم وكنتم تسخرون بهم حين يخبرونكم بيوم القيامة وتستبعدونه وتقولون لهم: متى هذا الوعد إن كنتم صادقين، فها هو اليوم قد تحقق وعد الله

وأحضرتم جميعا ليوم الحساب الذي كنتم به تمترون، فذوقوا ما كنتم تعملون، وفي عرض هذا المشهد الهائل موعظة لأولي الألباب، فمن كان له عقل فليتعظ، ومن له لب فليتذكّر.

ثم بعد هذا الكلام عن مصير هؤلاء الأشقياء يثني الله تعالى بذكر أهل السعادة فيقول:

﴿إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغُلٍ فَاكِهُونَ هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلَالٍ عَلَى الارَائِكِ مُتَّكِؤُونَ لَهُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ سَلامٌ قَوْلاً مِن رَّبٍّ رَّحِيمٍ﴾

يخبرنا الله تبارك وتعالى ويؤكد الخبر ويخبر هؤلاء الأشقياء بخبر مصير أهل الجنة أن أهل الجنة اليوم في شغل شاغل عن التفكر في أهل النار، فهم لا يهتمون بهم ولو كانوا أقرباء أو جيرانا، وأن هذا الشغل هو التنعم والتفكه مع أزواجهم من الحور العين فهم لا يرون فيها شمسا ولا زمهريرا، وهم على الأرائك المبطنة بالاستبرق متكئون، قد وضعت عنهم التكاليف وأريحوا من أتعاب الدنيا وهمومها، فهم منعمون، لهم في الجنة ما يدعون من الفواكه الكثيرة وغيرها من أنواع الملذات دعواهم فيها سبحانك الله وتحيتهم فيها سلام، تحيتهم فيما بينهم وتحية الملائكة لهم وتحية الله لهم، ﴿سَلامٌ قَوْلاً مِن رَّبٍّ رَّحِيمٍ﴾.

يسلم الله عليهم تحية من عنده لهم قولا من رب رحيم، ربهم الذي كتب لهم رحمته وتقبل اليسير من أعمالهم، غفر لهم ذنوبهم ورضي عنهم ورضوان الله أكبر، فالتعبير بالسلام فيه السلامة من جميع الآفات والهموم والأحزان، وفيه إشعار لهم أنهم مكرمون عند ربهم مرضي عنهم، وفي هذا ما فيه من التباين البعيد بين حالة أهل الجنة المرضي عنهم، وبين أهل النار الممقوتين، فليعتبر المعتبرون، وليتنافس المتنافسون.

وجعل بعض المفسرين ﴿سَلاَمٌ﴾ بدلا من ﴿مَّا يدّعونَ﴾ أي لهم ما يدعون سلام، وهذا المعنى ضعيف ؛ لأن هذا المعنى يفهم من قوله ﴿وَلَهُم مَّا يدَّعُونَ﴾ فليكن السلام مبتدأ وما بعده خبر، والتأسيس خير من التأكيد، وهذا الوجه الذي اخترناه أقوى في التعبير عن النعيم الأعظم الذي هو حفاوة رب الجنة بهم وتسليمه عليهم ورضوانه عليهم، ورضوان من الله أكبر، وهذا أدل على جمع الله لهم بين النعيم المادي الجسماني والنعيم القدسي الروحاني، وكأن هذا تجلٍّ من الله لهم بالمعنى الذي يريده، ونحن نعلم ونعتقد أن الله لن يرى في الدنيا ولا في الآخرة ﴿لاَّ تُدْرِكُهُ الاَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الاَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ (الأنعام: ١٠٣)، إنما يتجلى في الجنة لأوليائه كما تجلى للجبل، ويخاطبهم ويكلمهم بالمعنى الذي يريده وينبغي لجلاله.

﴿وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ﴾

خطاب خزي للكفرة الفجرة الذين كانوا يرتكبون الإجرام ليلاقوا جزاء كفرهم وإجرامهم، وكل الأفعال التي لا توافق شريعة الله كبائرها إجرام وصغائرها سيئات يؤاخذ عليها أصحابها الذين يرتكبون كبائر الإثم، يقول الله لهؤلاء المجرمين ﴿وَامْتَازُوا الْيَوْمَ﴾ أي انفصلوا وتميزوا اليوم عن المؤمنين الذين كنتم تخالطونهم في الدنيا ولكنكم تخالفونهم في الأفعال وتسلكون سبيلا غير سبيلهم، يقال لهم ذلك حين يؤمر بالمؤمنين إلى الجنة نورهم يسعى بين أيديهم وبأيمانهم فيبقى الكفرة المجرمون في ظلام وعذاب ويضرب بينهم بسور باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب، فذلك هو الامتياز الحقيقي بين مصير المؤمنين والكافرين، وذلك هو الانفصال الأبدي وحينئذ ييأس المجرمون من رحمة الله ويحل عليهم الخزي والهوان، ونعوذ بالله من مصير أهل الكفر والإجرام.

﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ وَأَنْ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيراً أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ اصْلَوْهَا الْيَوْمَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾.

استفهام تقريع وتوبيخ يوجهه الله إلى بني آدم ويراد به هؤلاء الكفرة المجرمون، وإنما جاء الخطاب لبني آدم لأنهم داخلون في وصية الله لبني آدم جميعا، فعمل أولياء الله بالوصية وسعدوا بها، وضيع الكفار عهد الله فهلكوا، فاليوم يقطع لهم عذرا بهذا الاستفهام التقريري الذي لا مفر لهم من الإقرار بحقيقته فهم اليوم معترفون واجمون وعلى تفريطهم في جنب الله نادمون، يقول الله تبارك وتعالى:

﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ﴾.

أي ألم أوصيكم؟ والعهد هو الوصية، وهذا العهد هو نحو قوله تبارك وتعالى: ﴿يَا بَنِي آدَمَ لاَ يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَاتِهِمَا...﴾ (الأعراف: ٢٧)، جاءت الوصية إلى بني آدم ليتذكروا ما صنع الشيطان بأبيهم آدم وأمهم حواء حين أخرجهما من الجنة بذنب واحد، غرهما فارتكباه فنزع الله عنهما لباس الكرامة وأنزلهما من جواره، فحذر الله بنيهما من عبادة الشيطان، وعبادته هي طاعته وحسن الظن به.

قال تعالى: ﴿إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾.

أي إنه لكم يا بني آدم عدو، وعداوته ظاهرة قد أعلن بها في محادَّتِه لله أنه ليحتنكنَّ ذريته إلا قليلا، عهد الله إلينا ألا نعبده وأن نعبد الله، قال:

﴿وَأَنْ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾

أمرنا ربنا بعبادته وطاعته وحده وهدانا إلى تلك العبادة فوضع لنا صراطا مستقيما، أرسل من لدنه رسلا يدلوننا عليه، فمن اتبعه سعد وفاز، ومن جانبه شقي وهلك، قال تعالى:

﴿وَلَقَدَ اَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلّاً كَثِيراً اَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ﴾

ولقد أضل الشيطان خلقا كثيرا بوسوسته وإغوائه وإعراضهم عن آيات الله ونذره، ﴿اَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ﴾ استفهام توبيخ وتبكيت: أي أفلم تكن لكم عقول تميزون بها بين الحق والباطل! لقد جعل الله لكم عقولا تدركون بها ولكنكم آثرتم اتباع الهوى فصدكم عن الحق وأعمى بصائركم، لقد كانت لكم قلوب لا تعقلون بها، وكانت لكم أعين لا تبصرون بها، وكانت لكم آذن لا تسمعون بها، وكنتم كالأنعام بل أضل سبيلا، فاليوم:

﴿هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ اصْلَوْهَا الْيَوْمَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾

الخطاب للكفار دائما، يقول الله تبارك وتعالى مقرّعا لهم: هذه جهنم التي كنتم توعدون وكنتم تكذبون بوعيد الله وتسخرون بآياته ورسله وتعرضون عن نذره، جاءت الإشارة بلفظ القريب لأن جهنم محيطة بهم فهم يرونها ويسمعون زفيرها وشهيقها وهم ينتظرون أن يدعّوا فيها دعا ﴿اصْلَوْهَا الْيَوْمَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ احترقوا بنارها اليوم بسبب كفركم وإجرامكم، هي مأواكم ومصيركم ولا مفر لكم منها، فليعتبر المعتبرون، ونعوذ بالله من مصير الكافرين.

﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾

يفضحهم الله تبارك وتعالى بمعاصيهم في ذلك اليوم المشهود فيقيم عليهم شاهدا من أنفسهم ومن جوارحهم الست، ذلك لأن الإنسان خصيم مبين ﴿وَكَانَ الانسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلاً﴾ (الكهف: ٥٤)، يسألهم ربهم فينكرون شركهم ومعاصيهم ويحلفون على ذلك ﴿وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ (الأنعام: ٢٣)، ويخاصمون ربهم فيقيم عليهم من أنفسهم شواهد ويختم على تلك الأفواه التي تكذب وتحلف على الكذب، والختم هو الطبع والإغلاق، قال تعالى:

﴿وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾.

تنطق أيديهم بما عملته من المعاصي والظلم، وتشهد أرجلهم ناطقة بجميع حركاتها في المعاصي التي اكتسبوها، وفي موضع آخر من القرآن: ﴿حَتَّى إِذَا مَا جَاؤُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (فصلت: ٢٠)، تبين هذه الآية أن السمع والأبصار والجلود تشهد عليهم وتنطق بما عملت من الإثم، وعن ابن عباس -رضي الله عنهما- أن الجلود هي الفروج، ولا مانع أن تضاف إليها كل المواضع التي تمتعت باللذة الحرام من أجسادهم.

وجاء في موضع آخر من القرآن أن ألسنتهم تشهد عليهم أيضا، وهي شهادة غير ما عهد من الكلام والتعبير عن أعمال الجسد بأفواههم بل يختم الله عليها وينطق اللسان معبرا عن جميع ما ارتكبه هو من الذنوب كما تنطق أشرطة التسجيل بكل أمانة فهي لا تزيد ولا تنقص، فسبحان الذي انطق كل شيء بقدرته وقطع عذر كل مجادل عن نفسه بإنطاق هذه الشواهد عليهم من أنفسهم، وحينئذ يفتضحون ولا يملكون إلا أن يعترفوا ويسكتوا، وفي عرض هذا المشهد الفظيع تخويف لأولي الألباب وإنذار للناس لعلهم يحذرون، ولا ملجأ من الله إلا إليه فما على من ارتكب إثما إلا أن يتوب إلى ربه وينيب إليه ويسأله المغفرة والرحمة ﴿رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الأَبْرَارِ﴾ (آل عمران: ١٩٣)، ومن يكفر عنه سيئاته لا يفضحه يومئذ ولا يخزيه.

ولا يزال الكلام مستمرا في هؤلاء الكفار المكذبين بيوم الدين فيقول الله تبارك وتعالى فيهم:

﴿وَلَوْ نَشَاء لَطَمَسْنَا عَلَى أَعْيُنِهِمْ فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ فَأَنَّى يُبْصِرُونَ وَلَوْ نَشَاء لَمَسَخْنَاهُمْ عَلَى مَكَانَتِهِمْ فَمَا اسْتَطَاعُوا مُضِيّاً وَلا يَرْجِعُونَ﴾.

بعد أن أنذر الله هؤلاء الكفار وخوفهم بيوم الحساب زاد فخوفهم بعذابه وبطشه في الدنيا قبل الآخرة حتى لا يغرهم حلم الله عليهم فيظنوا أنه عاجز عن أخذهم في الدنيا

بما يريد من أنواع العذاب، إن الله قادر على أن يبطش بهم في طرفة عين أو أقل من ذلك، قال تعالى:

﴿وَلَوْ نَشَاء لَطَمَسْنَا عَلَى أَعْيُنِهِمْ فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ فَأَنَّى يُبْصِرُونَ﴾

جاء فعل المشيئة العليا مسندا إلى "نا" التي هي للعظمة، يقول الله: لو نشاء لطمسنا على أعينهم، والطمس هو إزالة الأثر مطلقا، أي يزيل أعينهم عن وجوههم، يطمس عليها حتى لا يظهر محلها فكأن وجوههم جباه لا أثر للأعين عليها فابتدروا طريقهم راجعين عميا فأنى يبصرون، أي فكيف يبصرون طريقهم، وقد فعل الله بقوم لوط حين راودوه على ضيوفه وهو قادر أن يفعل ذلك بكفار قريش عقابا لهم على كفرهم وعنادهم وإيذائهم لله ورسوله والمؤمنين، فهم يستحقون ذلك لولا حلم الله، ثم قال:

﴿وَلَوْ نَشَاء لَمَسَخْنَاهُمْ عَلَى مَكَانَتِهِمْ فَمَا اسْتَطَاعُوا مُضِيّاً وَلا يَرْجِعُونَ﴾

يقول الله تعالى: ولو نشاء لمسخناهم خلقا آخر حجارة أو حديدا أو خلقا مما يشاء، يمسخهم على مقاعدهم فلا يستطيعون حراكا، لا يستطيعون مضيا ولا يرجعون إلى أهاليهم، كل ذلك مرهون بمشيئة الله في لمح البصر أو هو أقرب، أفلا يخافون، أفلا يعتبرون، أم يشكّون في ذلك ويستبعدونه، فلينظروا إلى مبدأ خلق الإنسان ونهايته، أليس هو يتطور من طور إلى طور حتى ينتهي إلى مثل الطور الذي بدأ فيه! قال الله تعالى:

﴿وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ أَفَلا تَعْقِلُونَ﴾

ضرب الله مثلا بخلقة الإنسان إذا تأمل ذلك أولوا الألباب أيقنوا بالحق واطمأنت قلوبهم بقدرة الله تعالى على ما يشاء، فالقادر على تنكيس خلقتهم بعد تعميرهم قادر على طمس أعينهم ومسخهم لو شاء ﴿أَفَلا تَعْقِلُونَ﴾ استفهام تعجبي إنكاري يخاطب به هؤلاء المنكرين الذين لهم عقول لا ينظرون بها ولو نظروا أو تأملوا لأبصروا الحق، فما لهم عن التذكرة معرضين! ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور، ثم يعود الكلام

كما بدئ إلى إثبات أن هذا الكلام من عند الله، فليس هو بشعر ولا كهانة، وما محمد بشاعر ولا مجنون، بل هو نبي صادق مبلّغ عن ربه ما أنزل إليه، قال تعالى:

﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ لِّتُنذِرَ مَن كَانَ حَيّاً وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾

ذلك لأن الكفار من قومه يتهمونه بالشعر، ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ﴾ (الطور: ٣٠)، أي بل يقولون شاعر، فرد الله عليهم وقال:

﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنبَغِي لَهُ﴾.

إن الله تعالى لم يعلمه قرض الشعر ولا روايته وإن كان يفهمه ويدرك معانيه ومقاصده ويحس بما فيه من روعة وجمال، ومن حكمة وصواب، وهو الذي يقول: {إن من البيان لسحرا وإن من الشعر لحكمة}، ولكن الله لم يجعل له ملكة قرضه وإنشاده، وقال تعالى: ﴿وَمَا يَنبَغِي لَهُ﴾ أي وما يليق به ولا يصح له، وذلك تنزيه لمقام الرسول عن قول الشعر؛ لأن الشعر أوهام وخيالات، ويقال فيه: "أعذبه أكذبه"، وقال الله في الشعراء: ﴿وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لا يَفْعَلُونَ﴾ (الآية: ٢٢٤-٢٢٦)، فأين الشعر من كلام الله، شتان ما بينهما، الشعر خيالات دوافعها الأهواء المختلفة كالغراميات والخمريات والفخر والعصبيات وغير ذلك من الأغراض، والقرآن كلام الله الحكيم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وهو يعلو ولا يعلى.

﴿إِنْ هُوَ إِلا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ﴾

ما هذا الذي جاءكم محمد إلا ذكر لكم، وقرآن مبين، يهديكم للتي هي أقوم ويبين لكم الحق من الباطل، قرآن عجب يهدي إلى الرشد، أنزله الله على محمد ﷺ، في قراءتنا وهي قراءة ورش عن نافع ﴿لِّتُنذِرَ﴾ بالتاء، أي لتبشر، وتنذر يا محمد من أحيا الله قلبه بالإيمان وأنار بصيرته بالهدى، وتقيم الحجة على الكافرين فيحق عليهم

العذاب فلا يكون لهم يوم القيامة حجة على الله، وفي وصف الذين ينفعهم الإنذار بالحياة إشارة إلى أن الكفار أموات القلوب، ولا يستوي الأحياء ولا الأموات، ثم قال تعالى:

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا
لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ (71) وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا
رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ (72) وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلَا يَشْكُرُونَ (73)
وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ (74) لَا يَسْتَطِيعُونَ
نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ (75) فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ
إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ (76) أَوَلَمْ يَرَ الْإِنسَانُ أَنَّا
خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ (77) وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا
وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ (78) قُلْ
يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ (79)
الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنتُم
مِّنْهُ تُوقِدُونَ (80) أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ
بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ (81)
إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ (82) فَسُبْحَانَ
الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (83)﴾

في هذه الآيات عود على بدء، ففيها التذكير ببعض آيات الله على النحو الذي مر في أوائل السورة، وجاء الكلام على صيغة الاستفهام الذي يراد به التعجب من حالهم

وغفلتهم، فهم يتمتعون بنعم الله العظمى، وهي من آياته ولكنهم لا يشكرون ولا هم بها يذكرون، إن أمرهم لعجيب فأين عقولهم؟ وهم يدعون أنهم من أعقل الناس وأحذقهم وأعرفهم بموارد الأمور ومصادرها، يقول الله تعالى:

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلاَ يَشْكُرُونَ﴾

أعمي هؤلاء القوم ولم يروا أنا خلقنا لهم من صنع أيدينا أنعاما فهم لها مالكون يتصرفون فيها كما يشاءون، والأنعام هي الإبل والبقر والضأن والمعز بأزواجها وأنواعها، فهم يتصرفون فيها تصرف المالك المطلق بيعا وشراء وركوبا وذبحا وحلبا، واستخداما في ظعنهم وإقامتهم، ويجزون أصوافها وأوبارها وأشعارها، ويتخذون منها لباسا وفرشا وأثاثا ومتاعا، ويتخذون منها ومن جلودها خياما ينصبونها تقيهم الحر والقر والمطر، ويسخرونها وهي مذللة، من الذي خلقها وسخرها لهم؟ قال الله تعالى:

﴿وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ﴾

أفلا ينظرون إليها كيف خلقها الله وكيف ذللها لهم، فهي مسخرة مطاوعة لهم، يذبحون وينحرون منها ولا تمتنع وهي أقوى منهم وأعظم أجساما، فمن الذي ذللها؟ أليس الله هو الذي ذللها لهم ولو شاءت لامتنعت منهم وشردت واستعصت، لكن الله الذي خلقها سخرها لهم فمنها ركوبهم ومنها يأكلون، أما الإبل فيركبونها وتحمل أثقالهم إلى بلد لم يكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس، وأما البقر فيسخرونها لحراثة الأرض وزجر المياه من الترع والآبار، أما الغنم فيذبحونها ويأكلون منها اللحوم ومن الإبل والبقر، ويترفقون بجلودها وأصوافها وأوبارها وأشعارها في منافع كثيرة، ويشربون من ألبانها ما يغذي أبدانهم ويقويها، ويصنعون منها السّمن والجبن والإقط.

﴿أَفَلاَ يَشْكُرُونَ﴾ أفلا يشكرون لله هذه النعم الكثيرة والكثيرة، والشكر يتحقق بعبادة الله وحده لا شريك له، والاعتراف أنه ما من نعمة فمن الله، واستعمال هذه النعم فيما خلقت له، والاستعانة بها على طاعة الله، هذا هو الشكر الذي يرضاه الله لنا ويجازي عليه خير جزاء وأحسنه.

﴿وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ ءَالِهَةً لَعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ لاَ يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ﴾.

يقول الله تبارك وتعالى: إن هؤلاء الكفار اتخذوا من دون الله آلهة يعبدونهم من دون الله يرجون نفعها ويخافون ضرها، فهم يعبدونها لعلها تنصرهم وهم الذين جنّدوا أنفسهم وأولادهم وعبيدهم لنصرها، إنهم يتقربون إليها بذبح الأنعام ونحرها على تلك النصب التي اتخذوها أوثانا يعبدونها، وقد جعلوا نعمة الله كفرا، فعِوض أن يشكروا الله خالق هذه الأنعام ومذللها لهم ذهبوا يخرّقون له شركاء بغير علم، يتقربون إليهم بالنذر والذبح من تلك الأنعام التي هي من نعم الله عليهم، ورزقه لهم؛ إن الآلهة التي يرجون نصرها لن تنصرهم ولن تستطيع ذلك ولن تقوى حتى على نصر أنفسها، بل هم الذين ينصرونها ويدافعوا عنها، فهم لهم جند محضرون، وكذلك يفعل عباد الأضرحة والقبور والقباب في زماننا يتخذون عندها نصبا يذبحون عليها ويهلون بأسماء معبوداتهم ويدّعون أنهم يذبحون لله، ويجادلون الناس الذين ينهونهم وينصحونهم، والحق أن ذبائحهم لا يجوز أكلها، فهي حرام لأنها أهل بها لغير الله وأشرك بها، فهم ينوونها لمعبوديهم الذين يرجون نصرهم ويخافون ضرهم والله يعلم ذلك.

﴿فَلاَ يُحْزِنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾

الخطاب موجه من الله جل جلاله إلى رسوله ﷺ أولا ثم إلى كل من يقوم بالدعوة بعده، وربطت الجملة بالفاء التي تؤذن بالعليّة، أي لا يحزنك قول هؤلاء فيك: شاعر وكاهن، فما هو إلا سخافات منهم وهم يعلمون أنك صادق ولكن التقليد لأجدادهم

في عبادة هذه الأوثان هو الذي يتحكم فيهم، وحب الشهوات والفجور يرين على قلوبهم، والله يعلم ما يسرون وما يعلنون، فدعهم يقولون ما يقولون، إن ملائكة الله تستنسخ ما يقولون وما يعملون، والله من ورائهم محيط، وسيجزيهم ما كانوا يعملون، وفي هذا الكلام تسلية للنبي ﷺ ومن معه، وتهديد لهؤلاء الكفار المكذبين، فمن أراد الله به خيرا فسينتهي ويغفر الله له ما قد سلف، ومن لم ينفعه الإنذار فقد حق القول على أكثرهم فهم لا يؤمنون، وقد قامت حجة الله على هذا الصنف في كل زمان، وما على الرسول وخلفاء الرسول إلا البلاغ، ثم يعرض الله شبهة من شبه هؤلاء الذين ينكرون البعث فيرد عليهم بما يقمعهم فيقول:

﴿أَوَلَمْ يَرَ الانسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُّحْيِ الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ قُلْ يُحْيِيهَا الذي أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ الذي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الاَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ﴾.

الآية نزلت في أبي بن خلف الجمحي وهو المشهور عند أهل التفسير، وهو المقصود بالإنسان في هذه الآية، غير أن العبرة دائما كما يقولون بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، ذلك أن أبياً هذا أخذ عظما باليا وذهب إلى النبي ﷺ فأخذ يفته أمامه ويقول: أتزعم يا محمد أن الله يرد الحياة في هذا العظم الرميم! فرد الله عليه وعلى أمثاله بهذه الآية الحكيمة:

﴿أَوَلَمْ يَرَ الانسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾

أعمي الإنسان ولم ينظر إلى أصل خلقته! أنسي أنا خلقناه من نطفة مذرة حقيرة فإذا هو رجل قوي عنيد يخاصم ربه ويفصح في خصومته، وما بين تكوّنه من نطفة مهينة إلى صيرورته رجلا قويا إلا وقت قصير، جاء التعبير بالغا ليذكرنا بقرب المدة التي تطورت فيها هذه النطفة من طور إلى طور حتى يولد الطفل ثم يتطور حتى يصير رجلا

كبيرا، ولو تذكر أصل خلقته وتطوره لاستحيا من مخاصمة ربه ونبيه، وهذا غاية الكفران والجحود، قال تعالى:

﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِ الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾

المثل هو الكلمة الموجزة تحوي معنى قويا يصلح لكثير من الأحوال والمناسبات، ويكون صوابا تتقبله العقول، وفي القرآن أمثال كثيرة يضربها الله تبارك وتعالى للناس لعلهم يتذكرون، وما يعقلها إلا العالمون.

يقول الله: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ﴾.

يجادلنا بكلام يظنه هو وأصحابه جاريا مجرى المثل في إصابته وقوة حجته، وما هو -لو عقل- إلا هراء وباطل، ولو تذكر أصل خلقته ما نطق بهذا الهراء وخاصم به رسول الله، وذكر الله هذه الجملة المعترضة حتى لا يجيء مقول الكافر إلا مردودا عليه، ولا تذكر حجته إلا داحضة، ولله ما أبلغ كلام الله وما أروع دلالته وما أقوى حجته! إنه سلطان الكلام، إنه يعلو ولا يعلى، إنه كلام ربّ العالمين.

﴿قَالَ مَنْ يُحْيِ الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾.

جاء برمته يفتتها بين يدي النبي ﷺ وهو يقول في صلف وكبرياء وعجب: من يحي العظام وهي رميم؟ أتزعم يا محمد أن الحياة تعود إلى مثل هذه الرمة؟ من يقدر على ذلك؟ لا حياة ولا بعث ولا نشور، هكذا يريد الشقي أن يبطل كلام رب العالمين، ويكفر باليوم الآخر ويدفع الحق بهذه العبارة السخيفة التي يظنها مثلا لا يرد، فدفع الله في صدره وأدحض حجته بل أزال شبهته الباطلة فقال جل من قائل:

﴿قُلْ يُحْيِيهَا الذِي أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾

قل يا محمد: يحييها الذي أنشأها أول مرة من العدم ويعيدها إلى الحياة، والإعادة أهون من الخلق الأول، وهما عند الله سواء ﴿وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ الله عليم بكل أنواع الخلق دقيقها وجليلها، عليم بتطورات كل مخلوق من طور إلى طور، يُخرج الحي

من الميت، ويُخرج من الميت من الحي، ويحي الأرض بعد موتها، قدير على كل ذلك، لا يعجزه شيء.

﴿الذي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الاَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ﴾

ثم ضرب الله مثلا بشيء فيه البرهان على قدرة الله على خلق الحياة وردها إلى الأموات، فالذي يجمع في الجسم الواحد الماء والنار وهما متضادان قادر أن يبعث الحياة في العظام والرفات، ضرب الله المثل بما يعرفه الناس يوم نزول القرآن وهم يوقدون النار بالمرخ والغفار، وهما شجرتان يحك عود إحداهما بعود الأخرى، وهما رطبان فتنقدح النار من بينهما، وقد كانا من قبل باردين لا حرارة تحس فيهما، فسبحان الله الذي جعل النار منهما نعمة منه لنا وآية تدلنا على قدرته، أفليس الذي يخرج النار من الشجر الأخضر بقادر على أن يرد الحياة إلى العظم الرميم! بلى إنه على كل شيء قدير.

﴿أَوَلَيْسَ الَّذي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالاَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَىٰٓ أَنْ يَّخْلُقَ مِثْلَهُم بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلاَّقُ الْعَلِيمُ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥ إِذَآ أَرَادَ شَيْئًا أَن يَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ فَسُبْحَانَ الَّذي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾.

جاء هذا الاستفهام التقريري الملزم للحجة، وهو مثل يضربه الله وبرهان ساطع يقيم به الحجة البالغة على هؤلاء المنكرين للبعث فلا مجال لهم للإنكار، ولذا يجيب على الاستفهام بنفسه ويقرر الحق الذي لا مرية فيه، يقول الله تبارك وتعالى:

﴿أَوَلَيْسَ الَّذي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالاَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَىٰٓ أَنْ يَّخْلُقَ مِثْلَهُم بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلاَّقُ الْعَلِيمُ﴾.

أيعجز الذي خلق السموات والأرض وما فيهن وما بينهن من خلق مثل هؤلاء البشر وإعادتهم بعد موتهم! وماذا عسى تكون نسبتهم للسموات والأرض! هذه الأرض الكبيرة التي ذرأهم فيها، منها خلقهم وعليها يعيشون، وهي غنية بأرزاقهم ثم فيها يعودون، ومنها يخرجون للعرض والجزاء، وهذه السموات التي تعجز الأبصار عن

إدراك مدى سعتها، وتعجز العقول عن تصور عظمتها وعظمة أفلاكها ومجراتها الملايين، والنجوم التي تسبح في مجراتها، فما أرضنا هذه إلا ذرة تطير في الفضاء تدور حول أمّها الشمس التي هي الأخرى نجم واحد من ملايين النجوم في مجرتنا التي نسبح في فلكها، ونحن نقع في الربع من مسافة عرضها بين شمسنا وطرفها سبعمائة وخمسون ألف سنة ضوئية، والكل خلق لله يسير بتقدير الله وعلمه وقدرته، وقد أحاط ربنا بكل شيء قدرة وعلما، وما أحكم الجواب يأتي من خالق هذه الأكوان ومدبرها ومسيرها ومالك أمرها.

﴿بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلاَّقُ الْعَلِيمُ﴾.

بلى حقا إن الذي خلق السموات والأرض قادر على أن يخلق مثلهم ﴿مَا خَلْقُكُمْ وَلاَ بَعْثُكُمْ، إِلاَّ كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ (لقمان: ٢٨)، وهو الخلاق العليم الكثير الخلق، كل يوم هو في شأن، العليم بأنواع الخلق وأطوارهم، لا يعجزه شيء، ولا يشغله شأن عن شأن.

﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُ إِذَآ أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾

فكل شيء أراده الله خاضع لكلمة "كن" فسبحان من أمره بين الكاف والنون، فنحن نعلم علم اليقين أن إرادة الله تعالى تتعلّق بالشيء فيكون كما أراد، فلا شيء يقع في هذا الكون بغير إرادة الله أو بغير علمه.

﴿فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾.

فتنزيها للرب العظيم الذي بيده ملكوت كل شيء، والملكوت هو الملك في أعظم حقيقته وأوسع كونه وشموله وأدوم بقائه، فلله وحده الملك العظيم الشامل الدائم الباقي، فسبحوه ومجدوه وعظموه، وهو أحق أن ينزه عن كل نقص ويمجّد ويوصف بكل كمال وجلال ويعبد وحده ولا يشرك به شيء، رب كل شيء وخالق كل شيء

ومليك كل شيء ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ وإليه وحده ترجعون بعد بعثكم ليجزيكم على أعمالكم أعدل الجزاء وأوفاه.

هكذا تختتم هذه السورة الكريمة بتقرير مبدأ الخلق والمعاد ليوم البعث والحساب وتنزيه الباري جل جلاله كما بدئت بتقرير مبدأ الإيمان بالله ورسله الذين ينذرون الناس باليوم الآخر، فهي سورة مكية تعتني بتثبيت العقيدة في النفوس على صراط الله المستقيم الذي لا اعوجاج فيه، ويضرب الله أمثلة تقيم الحجج على ما تدعو إليه السورة كأخواتها من السور المكية، ولا تخلو السور المدنية كذلك من مثل ذلك في خلال ما تبيّن من الشرائع والأحكام، وقد جاء في القرآن وصف القرآن أنه بينات من الهدى والفرقان، وأنه نور من الله وكتاب مبين، وأنه الذكر الحكيم، فلا أبلغ من وصف الله لكتابه، وقد فتحت هذه السورة ﴿يَسِ وَالْقُرْءَانِ الْحَكِيمِ﴾ فلنعتن بحفظ سورة (يس) ولنعلّمها أبناءنا وبناتنا فهي كما ورد في الأثر قلب القرآن، نسأل الله العظيم أن يرزقنا تلاوتها والعلم والعمل بما فيها ويُمتّعنا بما فيها من الوعد ويجنبنا ما فيها من الوعيد، ويزيدنا بتلاوتها إيمانا به وتنزيها له وحبا له، وتعظيما وتقديسا له وتقوى، ويوزعنا لشكر نعمه وحسن عبادته ويحشرنا مع عباده المتقين آمين، والحمد لله رب العالمين.

تفسير سورة الصافات

سورة الصافات مكية وآياتها ١٨٢

بسم الله الرحمن الرحيم

وَالصَّافَّاتِ صَفًّا (1) فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا (2) فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا (3) إِنَّ
إِلَٰهَكُمْ لَوَاحِدٌ (4) رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ
الْمَشَارِقِ (5) إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ (6) وَحِفْظًا
مِّن كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ (7) لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلَإِ الْأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ
مِن كُلِّ جَانِبٍ (8) دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ (9) إِلَّا مَنْ خَطِفَ
الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ (10) فَاسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا
أَم مَّنْ خَلَقْنَا إِنَّا خَلَقْنَاهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍ (11) بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ (12)
وَإِذَا ذُكِّرُوا لَا يَذْكُرُونَ (13) وَإِذَا رَأَوْا آيَةً يَسْتَسْخِرُونَ (14) وَقَالُوا
إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ (15) أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا
لَمَبْعُوثُونَ (16) أَوَآبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ (17) قُلْ نَعَمْ وَأَنتُمْ دَاخِرُونَ (18)
فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنظُرُونَ (19) وَقَالُوا يَا وَيْلَنَا هَٰذَا يَوْمُ
الدِّينِ (20) هَٰذَا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ (21)

السورة مكية تعتني بترسيخ العقيدة في القلوب المؤمنة كأخواتها من السور المكية، وتقيم الدلائل على الإيمان بالله ووحدانيته، وملائكته وكتبه ورسله، والبعث بعد الموت والجزاء، وقد سميت بأول كلمة فيها، أقسم الله بها ﴿وَالصَّافَّاتِ﴾ وما جاء بعدها من الأوصاف نعوت لها، ولا يكون الحلف إلا بأمر ذي بال، أو لإثبات أمر ذي بال.

وقد اختلف أهل العلم في المقصود بهذا الوصف؛ فقال فريق منهم: هي صفوف المؤمنين في الجهاد كالبنيان المرصوص، يزجر الله بهم أعداءه وأعداءهم، ويتلون كتابه في صلواتهم ومساجدهم وبيوتهم، ويذكرونه ذكرا كثيرا، وقال الجمهور -وهو الذي

نراه ونرجحه-: إنهم صفوف الملائكة، يصفون أقدامهم صفوفا في السموات لعبادة الله، ويقفون يوم القيامة صفوفا، ويصفون أجنحتهم انتظارا لتنفيذ أوامر الله في هذا الكون كما سيأتي في هذه السورة ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّآفُّونَ وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ(١٦٥-١٦٦).

﴿وَالصَّآفَّاتِ صَفًّا فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا إِنَّ إِلَهَكُمْ لَوَاحِدٌ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الْمَشَارِقِ﴾.

أقسم الله تبارك وتعالى على وحدانيته بالملائكة التي هي من جملة مخلوقاته، ووصفهم بالصافات؛ لأنهم صفوف في السموات يسبحون الليل والنهار لا يفترون، لأن فريقا منهم صافون أجنحتهم مصيخين لأوامر الله، ينتظرون الانطلاق لتنفيذها في مواعيدها من غير تقصير ولا تأخير وقد قواهم الله على ذلك، وينزلهم لذلك تنزيلا.

﴿فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا﴾

وهي الملائكة التي تسوق السحب وتزجرها زجرا، والزجر الدفع القوي وقد تكون معه أصوات وصيحات قوية، ومن ذلك نزولهم بالعذاب والهلاك على الذين حقت عليهم كلمة العذاب فيزجرون بذلك غيرهم من الناس لعلهم يحذرون.

﴿فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا﴾

وهم ملائكة الله الذين يتلون التسابيح والأذكار التي علمهم الله إياها وألهمهم أن يذكروه بها، وهذه الصفات الثلاث هي أبرز أوصاف الملائكة وأعظمها وأروعها، وفيها الإشارة إلى حقارة كفر هؤلاء المشركين وهوانهم على الله، فما وزنهم إلى عظمة وكثرة هؤلاء الملائكة الذين هم جنود الله المطيعة لله المسلطة لإرادته.

﴿إِنَّ إِلَهَكُمْ لَوَاحِدٌ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الْمَشَارِقِ﴾

جاء القسم لإثبات هذه الحقيقة الكبرى التي قامت عليها السموات والأرض وما بينهما، وصلح عليها أمر الدنيا والآخرة، وشهد بها الله وملائكته وأولوا العلم وكفى

بالله شهيدا، إن إلهكم أيها الناس لواحد، هو الله الذي لا إله إلا هو خالق كل شيء، مالك كل شيء، رب العالمين الذي أحاط بكل شيء علما، رب السموات السبع وما بينهما، ورب الأرض ورب المشارق، مشارق الشمس والقمر والنجوم والكواكب، ولله في كل ساعة نجوم تشرق وأخرى تغرب، وذكر المشارق يغني عن ذكر المغارب، وتسميتها مشارق ومغارب إنما هو أمر نسبي، فمشارق أقاليم من هذه الأرض هي مغارب لأقاليم أخرى منها، وهي متعاقبة ففي كل لحظة يشاهد جزء من الأرض مشارق لأفلاك وكذلك الكواكب المظلمة مثل القمر والمريخ والزهرة وأمثالها من الأجرام السيارة التي تشرق عليها نجوم السماء، ولله ما أوسع هذه الكلمة وكم فيها من آيات لله في هذا الكون الواسع لمن يتدبر آيات الله ويستوحيها.

﴿إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَآءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ لاَّ يَسْمَعُونَ إِلَى الْمَلإِ الاَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ إِلاَّ مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ﴾

يلفتنا الله تبارك إلى النظر في السماء ونجومها وكواكبها وشهبها لنزداد إيمانا بسعة قدرته وعلمه، فنعبده وحده ولا نشرك به شيئا، ويأتي الكلام مفتتحا بنون العظمة لأن الأمر عظيم يدل على عظمة الخالق، يقول تعالى:

﴿إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَآءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ﴾

أي جعلنا منظر السماء الأولى وهي أدنى السماوات إلينا، زينها الله بزينة هي الكواكب، والإضافة إضافة بيان، وفي قراءةِ حفص عن عاصم ﴿بِزِينَةٍ﴾ بالتنوين، خلق الله الكواكب والنجوم لتؤدي أغراضا سامية ومنافع كثيرة ولتكون آيات للناس يعرفون بها ربهم وزيّنها وزين بها السماء الدنيا ليتمتع عباده بجمالها نعمة منه وفضلا، والله جميل يحب الجمال، ولا يتمتع بالجمال إلا من زوده الله بالحس المرهف والذوق السليم.

وقال تعالى: ﴿وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ﴾

وجعل الله من هذه الكواكب رجوما للشياطين تحفظ السماء وتدافع عنها مردة الشياطين من الاقتراب.

﴿لاَّ يَسْمَعُونَ إِلَى الْمَلإِ الأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ﴾.

وفي قراءة ﴿لاَ يَسَّمَّعُونَ﴾ أي لا يستمعون إلى الملأ الأعلى وهم الملائكة يتلقون الأوامر بتنفيذ ما يريد الله تنفيذه فيحاولون استراق السمع فتقذفهم الشهب من الكواكب المعدة لذلك فتطردهم دحورا، أي منهزمين فارين، تقذفهم الشهب من كل جانب وتحرقهم، ولهم يوم القيامة عذاب واصب، أي مقيم ملازم لا يفتر ولا يخمد أبدا.

﴿إِلاَّ مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ﴾ هذا الاستثناء من قوله ﴿لا يَسْمَعُونَ﴾ لا مما بعده، فالعذاب لازم لهم جميعا لكن بعضا منهم في بعض الحالات يخطف الخطفة مما يدور من الحديث هنالك في الملأ الأعلى ليفتن بها الله من يشاء من عباده، فهم يتلقفون الكلمة ويخلطون بها مائة كذبة يوحون بها إلى أوليائهم من الإنس وهم الكهان، وقد كانوا قبل مبعث محمد ﷺ يقعدون في مقاعد للسمع ولكنهم بعد مبعثه طردوا بالشهب الرواصد وشددت عليهم الحراسة فلا يمكنون من الاستماع، فمن خطف الخطفة منهم أتبعه شهاب ثاقب، له شعاع نافذ ومحرق، فهم يتهافتون تهافت الفراش على النار ولكن الحراس تقذفهم بالشهب الثواقب، ونهينا عن تصديق الكهان فيما تلقي إليهم شياطينهم ليضلوا الناس، فقد جاء في الحديث الصحيح: {من أتى كاهنا أو عرافا فصدقه فقد كفر بما أنزل على محمد}، ذلك لأنهم يكذبون في أحاديثهم.

﴿فَاسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَم مَّنْ خَلَقْنَآ إِنَّا خَلَقْنَاهُم مِّن طِينٍ لاَّزِبٍ﴾

الاستفتاء هو إلقاء السؤال، أي فاسألهم عن أصل خلقتهم أهم أشد خلقا أم من خلقنا من العالمين، الملائكة والإنس، والسموات ونجومها، والأرض وجبالها، والبحار

وأسماكها وأمواجها، والرياح والسحب، والرعد والبرق والصواعق، أهـم أشد خلقا أم هذه الأشياء مما يبصرون وما لا يبصرون، وليس المقصود من هذا الاستفتاء حقيقة طلب الفتوى التي هي الجواب بل القصد التهكم بهم وتسفيه عقولهم التي تنكر البعث وتستعظم على الخالق العظيم أن يعيد الخلق كما بدأه أول مرة.

ثم إن الله يخبر بالحقيقة التي يتضح بها الفرق بين خلق وخلق فيقول:

﴿إِنَّا خَلَقْنَاهُم مِّن طِينٍ لاَّزِبٍ﴾

أي إنا خلقنا المنكرين من طين لازب، من طين معجون آسن لازج يلتصق بما يلامسه، لا قوة فيه ولا صلابة، فأين الطين من قوة النار والنور والمياه والرياح والرعد والبرق والصواعق، وهي كلها من مخلوقات الله، فيا ويل من حاله من الضعف بهذه المنزلة ثم هو يكذب بالله وآياته وينكر على الله الذي بدأ الخلق أن يعيده! إنهم لفي ضلال بعيد.

﴿بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ وَإِذَا ذُكِّرُوا لاَ يَذْكُرُونَ وَإِذَا رَأَوْا ءَايَةً يَسْتَسْخِرُونَ﴾

بل عجبت يا محمد من حال هؤلاء المكذبين الذين يكفرون بآيات الله، وعجبت من آيات الله المجلوات في الأكوان وهم يسخرون بالحق إذا دعوا إليه، وإذا ذكروا بآيات الله المتلوة في القرآن لا يذكرون، وهذه حال من لج في الإنكار، فهو لا يزداد بالوعظ والتذكير إلا إنكارا وجحوداً، وإذا رأى آية من آيات الله يسخر ويدعو غيره إلى السخرية؛ ذلك لأن الله أظهر على أيدي نبيه آيات وكرامات تدل على صدقه كثيرة، ولكن هؤلاء الذين أعماهم الكبر كلما رأوا آية يتهافتون بالتكذيب والسخرية، وعبارة الاستسخار أبلغ في وصف حالهم، ذلك لأنهم لشدة عتوهم وإنكارهم للحق يسخرون ويدعون غيرهم إلى السخرية، ويستهزءون بآيات الله ورسوله، ويزدادون ضلالا بالذي يزداد به المؤمنون هدى، وهذه حال من انتكسوا على رءوسهم فهم لا يبصرون، وفي

وصف الله إياهم بهذه الصفات تسلية لقلب نبيه ومن يأتي بعده من الدعاة إلى الحق حتى لا يبخعوا أنفسهم أن لا يكونوا مؤمنين، ولا يزال في الناس مؤمن وكافر، ومبصر وأعمى، وفي كلا النوعين درجات.

﴿وَقَالُوا إِنْ هَذَآ إِلاَّ سِحْرٌ مُّبِينٌ أَ.ذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا ائَا لَمَبْعُوثُونَ أَوَءَابَآؤُنَا الاَوَّلُونَ قُلْ نَعَمْ وَأَنتُمْ دَاخِرُونَ فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنظُرُونَ﴾.

وقال هؤلاء الساخرون ما هذا الكلام إلا سحر واضح، أو ما هذه الخوارق كانشقاق القمر ومجيء الشجرة ونبع الماء وغيرها إلا سحر مبين، وتعجبوا من أمر البعث بعد الموت فقالوا: أإذا متنا وكنا عظاما بالية وترابا إنا لمبعوثون خلقا جديدا أوَ آباؤنا الأولون يبعثون، وهذا أعرق في الإنكار والتكذيب، ولم يقصدوا بهذا الاستفهام طلب العلم وإنما قصدوا السخرية والإنكار، ولكن الله أجابهم عليه على طريقة الأسلوب الحكيم، وقرر في جوابه ما هو الحق فقال:

﴿قُلْ نَعَمْ وَأَنتُمْ دَاخِرُونَ﴾

قل لهم يا محمد: نعم ستبعثون بعد الموت وأنتم يومئذ أذلاء صاغرون.

﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنظُرُونَ﴾.

فإنما هي صيحة واحدة، وهي النفخة في الصور فإذا هم قيام ينظرون، والتعبير بإذا يدل على الفجاءة والسرعة، فليس هنالك مهلة ولا تراخ بل الأمر بين الكاف والنون، فإذا أجسامهم مجتمعة وقد رجعت إليها أرواحها وهم قيام ينظرون، شاخصة أبصارهم نظر من فزع قلبه وهاله الأمر فهم ينظرون، وليس هناك شيء غير النظر، ولذا لم يأت بمعمول النظر، فالعبارة في غاية الروعة، وهي في القمة من دقة تصوير المشهد، والدلالة على المقصود يقرؤها المتدبر فيدرك منها كل شيء.

﴿وَقَالُوا يَاوَيْلَنَا هَذَا يَوْمُ الدِّينِ﴾

عندما يبعثون من قبورهم ويجدون أنفسهم في حياة لا تشبه الحياة التي كانوا فيها حينئذ يعترفون بالذي كانوا ينكرون فينادون يا ويلنا هذا يوم الدين، يوم الجزاء وهم يعلمون أنهم سيجازون على كفرهم وجحودهم ولذا فهم ينادون بالويل والثبور، فيجيبهم الله عز وجل:

﴿هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ الذي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾

يقول الله تبارك وتعالى: هذا يوم الفصل، أي يوم القضاء الذي يفصل فيه بين الحق والباطل، ويفصل فيه بين أولياء الله وأعدائه ﴿وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ﴾ (يس: ٥٩) وقد كانوا ينكرون هذا الفصل، فاليوم يعترفون به ويشهدونه ولا ينفعهم إقرارهم بالحق يومئذ شيئا وقد كانوا يكذبون به من قبل، وفي خطاب الله لهم بهذا الكلام تبكيت لهم وتوبيخ يزيدهم عذابا في بواطنهم زيادة على تعذيب أجسادهم، ثم يقول تبارك وتعالى:

۞ ٱحْشُرُواْ
ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَأَزْوَٰجَهُمْ وَمَا كَانُواْ يَعْبُدُونَ (22) مِن دُونِ ٱللَّهِ فَٱهْدُوهُمْ
إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ (23) وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ (24)
مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ (25) بَلْ هُمُ ٱلْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ (26) وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ
عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ (27) قَالُوٓاْ إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ ٱلْيَمِينِ (28) قَالُواْ
بَل لَّمْ تَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ (29) وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ بَلْ كُنتُمْ
قَوْمًا طَٰغِينَ (30) فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَآ إِنَّا لَذَآئِقُونَ (31) فَأَغْوَيْنَٰكُمْ
إِنَّا كُنَّا غَٰوِينَ (32) فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ (33) إِنَّا
كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ (34) إِنَّهُمْ كَانُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ
يَسْتَكْبِرُونَ (35) وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓاْ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ (36)
بَلْ جَآءَ بِٱلْحَقِّ وَصَدَّقَ ٱلْمُرْسَلِينَ (37) إِنَّكُمْ لَذَآئِقُواْ ٱلْعَذَابِ

الْأَلِيمِ ﴿38﴾ وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿39﴾ إِلَّا عِبَادَ
اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿40﴾ أُولَٰئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ ﴿41﴾ فَوَاكِهُ
وَهُم مُّكْرَمُونَ ﴿42﴾ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿43﴾ عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ ﴿44﴾
يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿45﴾ بَيْضَاءَ لَذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ ﴿46﴾
لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ ﴿47﴾ وَعِندَهُمْ قَاصِرَاتُ
الطَّرْفِ عِينٌ ﴿48﴾ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ ﴿49﴾ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ
يَتَسَاءَلُونَ ﴿50﴾ ۞ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ ﴿51﴾
يَقُولُ أَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ ﴿52﴾ أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا
لَمَدِينُونَ ﴿53﴾ قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ ﴿54﴾ فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاءِ
الْجَحِيمِ ﴿55﴾ قَالَ تَاللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ ﴿56﴾ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي
لَكُنتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ ﴿57﴾ أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ ﴿58﴾ إِلَّا مَوْتَتَنَا
الْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿59﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿60﴾
لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ ﴿61﴾ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ
الزَّقُّومِ ﴿62﴾ إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِّلظَّالِمِينَ ﴿63﴾ إِنَّهَا شَجَرَةٌ
تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ ﴿64﴾ طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ
الشَّيَاطِينِ ﴿65﴾ فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ ﴿66﴾ ثُمَّ
إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ ﴿67﴾ ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ ﴿68﴾
إِنَّهُمْ أَلْفَوْا آبَاءَهُمْ ضَالِّينَ ﴿69﴾ فَهُمْ عَلَىٰ آثَارِهِمْ يُهْرَعُونَ ﴿70﴾
وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ ﴿71﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِم
مُّنذِرِينَ ﴿72﴾ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذَرِينَ ﴿73﴾
إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿74﴾

﴿احْشُرُوا الذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْجَحِيمِ﴾.

أوامر صادرة من الله الواحد القهار، ملك يوم الدين، ليس فيها مراجعة ولا مرافعة، ولم يرد هنا ذكر الآمر، ومن يأمر يومئذ غير الله! ولتصور المشهد جاءت العبارات هكذا في إيجاز بديع وإيقاع هائل، يقول الله تبارك وتعالى: احشروا الذين ظلموا، يأمر زبانيته أن يجمعوا الذين ظلموا أنفسهم بالشرك وأنواع الكبائر من الذنوب، وظلموا الناس في دمائهم وأعراضهم وأموالهم، وظلموهم بإضلالهم عن الهدى بعد إذ جاءهم، يأمرهم أن يحشروهم وأزواجهم.

والأزواج هنا على تفسير أكثر أهل العلم هم الأشكال والنظراء والقرناء، وليسوا أزواج النكاح؛ لأن هؤلاء قد يختلفون في الاهتداء والضلالة، إنما يأمر الله الزبانية أن يحشروا الظالمين وأصنافهم وأشكالهم في المعاصي والظلم حتى ينالوا جزاءهم الذي يستحقون معا في جهنم، وهي دركات وأبواب لكل باب منهم جزء مقسوم، والناس في المعاصي والظلم أشكال، ولهم فيه هوايات، فأهل الشرك يحشرون مع أزواجهم، وأهل الجرائم، وأهل الزنا، وأصحاب الربا، وأصحاب الخمر، وأصحاب الميسر، وهكذا كل مع شكله، وذلك معنى قوله تعالى: ﴿وَأَزْوَاجَهُمْ﴾.

ولا مانع أن يدخل في هذا الأزواج بمعنى أزواج النكاح الذي أضل بعضهم بعضا، وكثيرا ما يكون الزوج الضال سببا في ضلال زوجه، ولذا أمرنا أن نختار ذات الدين، وأن نختار لبناتنا الأزواج الذين نرضى دينهم وأخلاقهم، وما ذاك إلا لمدى تأثر أحد الزوجين بالآخر، ثم يدخل في الأزواج قرناء الجن من الشياطين، ويومئذ يحضر كل قرين مع قرينة يختصمان بين يدي الله كما ذكر ذلك في سورة (قٓ) وكذلك يحشر مع المشركين معبودوهم من دون الله، قال تعالى:

﴿وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْجَحِيمِ﴾

احشروهم وآلهتهم التي كانوا يعبدون من دون الله لتحصب معهم في جهنم، وفي ذلك زيادة في تعذيبهم وتنفير من عبادتهم في هذه الدنيا؛ لأنهم إنما يعبدونها لتشفع لهم عند الله فإذا كانت تحشر معهم إلى جهنم وتحصب معهم فيها ففيم التعلق بها، وفيم عبادتها، ففي الآية وعظ وإنذار وزجر لهؤلاء الكفار، ومن أراد الله به خيرا فهو يتعظ ويرجع إلى عبادة الله وحده وينبذ الشرك والأوثان، ثم يقول الله تعالى:

﴿فَاهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْجَحِيمِ﴾

أي دلّوهم على صراط جهنم وسيّروهم عليه، إنهم كانوا في الدنيا يتنكبون صراط الجنة ويأبون إلا أن يسلكوا صراط جهنم ويرون سلوكه هداية ورشدا، ويرون سلوك صراط الجنة ضلالا وسفاهة، فاهدوهم اليوم ما اختاروه لأنفسهم، وفي التعبير بالهداية تبكيت لهم وتوبيخ وتقريع، ثم يقول تبارك وتعالى:

﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ﴾

الفعل يكون لازما ويتعدى بهمزة وبدونها، تقول وقفته وأوقفته، يقول الله تعالى: واحبسوهم في أثناء رحلتهم إلى الجحيم وليُسألوا سؤال توبيخ وتقريع عما كانوا يفعلون من أفعال الشرك والظلم وسائر أنواع الإثم والجرائم، وفي سؤالهم إقامة للحجة عليهم ليعترفوا بذنوبهم وليعلموا أن الله ما ظلمهم بتعذيبهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون، ثم يقال لهم:

﴿مَا لَكُمْ لاَ تَنَاصَرُونَ﴾

يبدو أن السؤال من قِبَل الله تبارك وتعالى يوبخهم ويقول لهم: ما لكم لا ينصر بعضكم بعضا، أين أئمة الضلال الذين كانوا يقولون لأقوامهم وأشياعهم ﴿اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ وَمَا هُم بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُم مِّن شَيْءٍ..﴾ (العنكبوت:١٢)، فاليوم

يقفون مبهوتين أمام هذه السؤال لا يتكلمون وقد تمت خسارتهم وظهرت فضيحتهم، وبان عجزهم، وحقت عليهم كلمة العذاب.

﴿بَلْ هُمُ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ﴾

بل لا يجيبون فهم اليوم مستسلمون أذلاء مدحورون، وليت هذا الاستسلام كان في الدنيا وإذن لنفعهم، وفي هذا العرض بهذا الأسلوب من الخطاب موعظة لمن كان له قلب فيتعظ ويسلك سبيل النجاة، والنجاة في الإيمان بالله واليوم الآخر، وفي الاستسلام لأمر الله اليومَ والخضوع له وخشيته بالغيب، وإذا كان الاستسلام لابد واقعا فليكن اليوم ليكون محمود العاقبة نافعا، ولا يزال عرض المشهد مستمرا، قال تعالى:

﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ قَالُوا إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ قَالُوا بَل لَّمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَاغِينَ فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا إِنَّا لَذَائِقُونَ فَأَغْوَيْنَاكُمْ إِنَّا كُنَّا غَاوِينَ﴾

مشهد آخر يعرضه الله تبارك وتعالى على المعتبرين المتعظين بالقرآن فيه موقف من مواقف أهل الشقاء، يقبل دهماء الناس فيه على سادتهم وكبرائهم يسألونهم فيه، وقد جاء نص السؤال في آية أخرى من كتاب الله حيث يقولون: ﴿إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ النَّارِ﴾ (غافر: ٤٧).

واستشكل بعض الناس إثبات التساؤل هنا ونفيه في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ﴾ (المؤمنون:١٠١)، والحقيقة لا إشكال في الموضوع لاختلاف معنى التساؤل في الحالتين ففي هذه الحالة ينفي الله تعالى التساؤل الذي هو طلب النصرة والنفع، فهم يفر بعضهم من بعض، ﴿لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ (عبس:٣٧)، وفي هذه الحالة التي هي آية اليوم يُثبت الله التساؤل الذي هو التخاصم والتحاجج كالذي يقع بينهم وهم في النار، يقول المستضعفون للذين استكبروا ويقول الضالون لشياطينهم:

﴿قَالُوا إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ﴾

أي تصدوننا عن صراط الله، وقد ضمن الإتيان معنى الصد، ولذا عُدّي بعن، وعبر عن طريق الخير باليمين لأنها علامة الخير والرشد والسعادة، كما أن الشمال علامة الشر والشقاء.

﴿قَالُوا بَل لَّمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾

كشف الله عن طبع في نفوس الفجار وهو الميل إلى الفجور والمعصية وسرعة الانقياد لمن يدعوهم للشر ويصدوهم عن الخير، ولو دعي هؤلاء إلى البر ما كان منهم هذه المطاوعة وسرعة الامتثال، فهم اليوم في هذا الموقف يتعللون بهذه العلة الواهية، ولكن الله يُنطق شياطينهم اليوم بالحق فهم يجيبونهم بهذا الجواب السديد: ﴿بَل لَّمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ ليس الأمر كما تقولون، بل كنتم ميالين إلى الشر كفارا ولم تكونوا من الإيمان في شيء، وهذا طبعكم الأصيل.

﴿وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَاغِينَ﴾

ولم تكن لنا قوة على إضلالكم لو اخترتم طريق الهدى بل كنتم قوما ضالين طاغين فاسقين، طبعكم الفجور والطغيان، ووصفهم بأنهم قوم طاغون أبلغ في وصف تمكن طبع التمرد والطغيان في نفوسهم، فهم قد تميزوا به حتى صاروا قوما طاغين.

﴿فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَآ إِنَّا لَذَآئِقُونَ فَأَغْوَيْنَاكُمْ إِنَّا كُنَّا غَاوِينَ﴾

هكذا يجيب السادة والكبراء أقوامهم "فحق علينا قول ربنا إنا لذائقوا العذاب"، هكذا يعترفون أنهم حقت عليهم كلمة الشقاء، ثم يردفون قائلين: "فأغويناكم" أي فأضللناكم عن الهدى كما ضللنا، إنا كنا غاوين، والغواية ضد الرشد، وهكذا يبين لنا القرآن أهل الغي يسعون جاهدين في غواية أقوامهم حتى يكونوا مثلهم، فلنحذر الغواة ولنتبع أهل الهدى والرشاد، وفي هذا المشهد موعظة زاجرة.

﴿فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾

يقول الله تعالى: فإنهم، أي المتخاصمين يومئذ في العذاب مشتركون لا ينجو منه تابع ولا متبوع، ولا يحمل المتبوعون أوزار تابعيهم بل هم جميعا في عذاب الله مشتركون، ولا يعني ذلك أنهم في دركة واحدة بل هم متفاوتون، ولابد أن المضلين يحملون أوزارهم وأوزارا مع أوزارهم لأنهم في الدنيا كانوا أئمة يدعون إلى النار فهم يوم القيامة أئمة يقدمون أقوامهم فيوردونهم النار وبئس الورد المورود، قال الله تعالى:

﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوا ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ بَلْ جَآءَ بِالْحَقِّ وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ إِنَّكُمْ لَذَآئِقُواْ الْعَذَابِ الْأَلِيمِ وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾

يؤكد الله الخبر لأنّ الأمر يقين لا مجال للشك فيه، والإشارة بكذلك لما تقدم من مواقف الخزي والهوان ومشاهد العذاب، يقول الله تعالى: كذلك نفعل بالمجرمين في كل زمان ومكان منكم وممن كان قبلكم، وهذا الكلام يقطع الأماني الفارغة التي يتمسك بها أهل المعاصي والإجرام كما جاء في الحديث الصحيح: {إن قوما ألهتهم أماني المغفرة حتى خرجوا من الدنيا ولا حسنة لهم، وقالوا نحن نحسن الظن بالله، كذبوا لو أحسنوا الظن لأحسنوا العمل}، فليحذر المجرمون من عدالة الله، فإن ما عند الله لا ينال بالأماني.

﴿إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ﴾

يقول الله تعالى: إن هؤلاء المجرمين كانوا إذا قيل لا إله إلا الله تشمئز قلوبهم ويستكبرون عن هذه المقالة وعلى قائليها لأنها تسفه عقولهم في تمسكهم بهذه المعبودات التي جعلوها لله أندادا، وهذه طبيعة القدامى منهم والمحدثين الذين يعبدون القبور والقباب، ويتمسحون بها، ويتقربون لها، وينذرون لها، وينسكون لها، ويعكفون

عندها، وقد ابتلي الملايين من هذه الأمة بهذا الشرك، يرتكبون الجرائم ثم يرجون أرباب هذه الأضرحة والقبور أن تغفر لهم وتشفع لهم عند الله، وهذه جاهلية ووثنية، وهم يستبشرون عند ذكرها والهتاف لها، ويشمئزون إذا قيل لهم ادعوا الله وحده واتركوا هذه الطواغيت.

﴿وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوا ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ﴾

تقول قريش ومن معها من الكفار في رسول الله ﷺ أنترك آلهتنا وآلهة آبائنا لأجل كلام شاعر مجنون، فهم يصفونه بالشعر مرة وبالجنون مرة أخرى قصد تسفيه ما جاء به حتى ينفروا عنه الناس وهم يعلمون أنه أعقل العقلاء وأصدق الصادقين، وأن الكلام الذي جاء به كلام عظيم بعيد عن الشعر رجزه وقصيده، ولكنها الكبرياء تمنعهم عن التسليم والخضوع للحق، فهم يمكرون ويكيدون، والله أشد مكرا وأعظم كيدا، ولكنه يملي لهم إلى حين، فرد عليهم وقرر الحق فقال:

﴿بَلْ جَآءَ بِالْحَقِّ وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ﴾

ليس محمد شاعرا ولا مجنونا ولم يأت بالباطل بل جاء بالحق وصدق المرسلين من قبله، فقوله مثل قولهم، ودعوته مثل دعوتهم، وليس بدعا من الرسل، وهم يعلمون الرسل السابقين ويعترفون بهم عندما يذكرون، فما لهم ينكرون دعوة هذا الرسول وسبيله ويريدونها عوجا، إن الله تبارك وتعالى يخبرنا أن هذا الذي جاء به نبينا هو الحق الذي دعت إليه الرسل من قبله وكفى بربك هاديا، وكفى بالله شهيدا، فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليهلك عن بينة، وهذه آية موجزة تدفع في صدور المكذبين الجاحدين للحق بعدما ظهر، ولا يقوى ركام باطل هؤلاء وشغبهم على دفع هذه الحقيقة الناصعة أبدا، وما أعظم وقعها في النفوس السليمة! ثم وجه الله تعالى إليهم الخطاب بما يخزيهم فقال:

﴿إِنَّكُمْ لَذَآئِقُو الْعَذَابِ الأَلِيمِ وَمَا تُجْزَوْنَ إِلاَّ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾

يؤكد الله الخبر بإن واللام ليقطع شبهة أهل الرّيب المشككين في وعد الله ووعيده، فقال لهؤلاء المنكرين إنكم لذائقوا العذاب الأليم، أي إنكم لمعذبون العذاب الأليم الذي أعده الله لكم ولأمثالكم من المكذبين، وما تجزون إلا ما كنتم تعملون، أي وما ظلمكم الله حين يعذبكم العذاب الأليم بل ما تلاقون إلا جزاء أعمالكم الذي تستحقونه.

﴿إِلاَّ عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ أُوْلَئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ فَوَاكِهُ وَهُم مُّكْرَمُونَ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ بَيْضَآءَ لَذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ لاَ فِيهَا غَوْلٌ وَلاَ هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ وَعِندَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ عِينٌ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ﴾.

ينتقل الأسلوب القرآني البديع من وصف أحوال أهل النار إلى ذكر أحوال أهل الجنة ليظهر الفرق الفارق بينهما ليعتبر المعتبرون، والقرآن مثاني كما وصفه الله منزله لقصد العظمة والادّكار، والاستثناء هنا يرجح أن يكون منقطعا لأن الكلام السابق في أهل الوعيد المستكبرين، والكلام هنا في أهل الوعْدِ المخلصين، فهو بمعنى الإضراب، أي لكن عباد الله المخلصين ليست حالهم كحال أهل الشقاء، فهم في السعادات.

﴿أُوْلَئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ﴾

والإشارة بالبعيد للتنويه بشرفهم وعلو مقامهم، كما أن تسميتهم بعباد الله وإضافتهم هنا إضافة تقريب وتكريم، ووصف رزقهم في الجنة بأنه معلوم أو معلومة أوقاته، كما جاء في موضع آخر: ﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ (مريم: ٦٢)، وإذا كان وقت نصب الموائد وتنضيدها معلوما كان ذلك أبلغ في اللذة والنعيم، فهم يطوفون بين أنهارها وأشجارها حتى إذا حان وقت نصب الموائد اجتمعوا عليها كالضيوف المكرمين، ووصف الرزق بأنه: **﴿فَوَاكِهُ﴾** وهو فواكه من ثمار الجنة وغيرها، غير أنه وصف بالفواكه لأنهم يأكلونه تفكها لا ضرورة من مجاعة فهم لا يجوعون كما يجوع

أهل العناء في الدنيا، لكنهم يستلذون طعامهم وشرابهم كما يستلذه أهل الجوع والعطش، وهذا ما يدل عليه لفظ فواكه، ثم قال تعالى:

﴿وَهُم مُّكْرَمُونَ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ﴾

جمع الله لهم بين اللذة الجسمية واللذة الروحية المعنوية، فهم في تنعمهم بالفواكه والكؤوس يشعرون بالكرامة، فهم في هالة من الحفاوة والتكريم، أكرمهم الله الذي أسكنهم الجنة وتكرمهم ملائكتها، ويكرمهم خدمها، وهذا التكريم أعظم عندهم من اللذات المتوفرة والأرزاق المبسوطة.

﴿فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾

كل هذا وهم في جنات النعيم، فهي جنات ذات أشجار ونخيل ورمان وأنهار لا يكلفون بفلح أرضها وحراثتها، ولا بسقي نخيلها وأشجارها، بل هم يتنعمون فيها بشتى أنواع النعيم، ولا يتعنون فيها بأي عناء كما هو شأن المالكين لجنات الدنيا، فهم فيها في كد متواصل وعناء، وإذا استغلوا منها منفعة فهي ثمر جدهم المتواصل، أما أهل الجنة المكرمون في الآخرة فهم فيها في راحة ولذة ونعيم، ولذا سميت جنات النعيم.

﴿عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ﴾

من مظاهر النعيم أنهم يتكئون على سرر موضونة من قصب الذهب الخالص مبطنة بالإستبرق، مكللة بالحرير، والسرير يطلق على الكرسي الكبير الواسع الذي يجد الجالس عليه راحته، يتكئ كيف يشاء وينام، فهو أريكة عريضة مبطنة بأنواع الحرير الخالص، وهم عليها متقابلون؛ لأن تمام المتعة والراحة أن يتقابل الإخوان والأصدقاء، فهم جماعات وأسر ترى كل واحد مع أشكاله الذي هم في درجته وهو يأنس بهم وهم يأنسون بقربه.

﴿يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ بَيْضَاءَ لَذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ﴾.

وحين اجتماعهم متقابلين على سرر الجنة يطاف عليهم بكأس من رحيق الجنة، والطائفون غلمان لهم كأنهم لؤلؤ مكنون، والكؤوس ملأى بالرحيق المعين الذي يجري أنهارا في الجنة، وهي بيضاء صافية، وصفها الله بأنها لذة للشاربين، والوصف أبلغ إذا كان بالمصدر كما هو معلوم عند أهل البيان.

﴿لاَ فِيهَا غَوْلٌ وَلاَ هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ﴾.

فهي لذة وليس فيها ما يغول العقل ويحدث الصداع والقيء والبول كخمر الدنيا، ولا هم عنها ينزفون، ليس فيها سكر ولا عربدة، فهي لا تذهب العقل والوعي ولا تضر البدن، بل هي لذة ونشوة للشاربين الذين كانوا يتقون خمر الدنيا ويتنزهون عنها وعن مجالسها المدنسة بالسكر، المليئة باللغو والشتائم، فأكرمهم الله برحيق الجنة الطاهر المبرأ من عيوب خمر الدنيا وأدناسها وأرجاسها.

﴿وَعِندَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ عِينٌ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ﴾.

ولتكتمل صورة ما فيه أهل الجنة من النعيم يضيف الله إلى المشهد هذه الآية الكريمة لتبين لنا تنعم أهل الجنة بأزواج حور عين، قال تعالى:

﴿وَعِندَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ عِينٌ﴾

أي: وعند هؤلاء المنعمين قاصرات الطرف، أي نساء يقصرن أبصارهن على أزواجهن، فيهن خفر وحياء وعفاف، فهن لا ينظرن إلى غير أزواجهن، وهذا خلق حميد في المرأة يزيدها جمالا وروعة، ﴿عِينٌ﴾ جمع عيناء، وهي واسعة العين في جمال وسحر وحلاوة.

﴿كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ﴾.

شبههن خالقهن بالبيض المكنون لصفاء أبشارهن، فهن كأنهن بيض حفظ في كن لا يناله مس ولا غبار ولا دنس، وقد شبههن في آيات أخرى باللؤلؤ المكنون.

﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ يَقُولُ أَئِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَءِنَّا لَمَدِينُونَ قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ فَاطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِي سَوَآءِ الْجَحِيمِ قَالَ تَاللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ إِلَّا مَوْتَتَنَا الْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ﴾.

يخبرنا ربنا تبارك وتعالى أن أهل الجنة في مجالسهم يتجاذبون من الأحاديث ما هو حق وليس فيه لغو ولا تأثيم بل فيه التعبير عن السرور والحبور بما هم فيه من النعيم، وفي أثناء محاوراتهم يذكرون بعض أحوالهم في حياتهم الأولى مما فيه لنا موعظة واعتبار، ويأتي التعبير بالماضي فكأنه قد وقع فعلا وهو لابد واقع، وربط الفعل بالفاء التفريعية لبيان اتصال المشهد وانسجام الحديث، وعبر بالإقبال للممايزة بين الإقبالين، وبضدها تتميز الأشياء، فإقبال أهل الجنة بعضهم على بعض لتمام الإنس وحلاوة المحاورة وبيان اكتمال النعيم، بينما كان أهل النار يقبل بعضهم على بعض للخصام والحجاج والتلاعن مما يزيد ضمائرهم عذابا فوق عذاب أجسامهم، ونعوذ بالله من مصير الكافرين، يقول الله تبارك وتعالى:

﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ﴾

أي أقبل أهل الجنة الجالسون على سررها المرفوعة، أقبل بعضهم على بضع يتساءلون قال قائل منهم: إني كان لي في الدنيا قرين يقول كذا ويقول كذا، ويبدو أن هذا القرين كان يجمع بينهما العمل أو السكن أو السفر، وكانا يتحاوران في الإيمان والكفر، وكان هذا القرين الكافر يسخر بالإيمان ويهزأ بالمؤمن ويضحك على عقله يقول له: أإنك لمن المصدقين لهذا الحديث الذي يزعم أننا سنبعث بعد الموت، أإذا متنا وطال بنا العهد وبليت عظامنا، أإنا لمحاسبون فمجازون على أعمالنا؟ وكان هذا النوع من الناس كثيرين وما أكثرهم في كل زمان ومكان، وقد يفتنون قرناءهم ضعفاء القلوب

فيقلبونهم كفارا لا سيما إذا كانوا ذوي سلطان وأموال وهيئات، فحذرنا الله بعرض هذه المحاورة من الوقوع في مفاتنهم الشيطانية، وإنه لمشهد مؤثر حقا ذو موعظة بليغة.

﴿قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ يَقُولُ أَءِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ﴾

بتخفيف حركة الفتح على الصاد كما في قراءتنا، أي من الإيمان والتصديق، وفي قراءة بتشديد الصاد، أي من المتصدقين، أتتصدق وتزعم أنك تلاقي جزاء ما أعطيت، أتُطلق ما في يديك وتطمع في الغيب؟ استفهام تعجب يراد بها تسفيه عقل المتصدق، ولا تزاحم بين المعنيين، فقد روى المفسرون في ذلك خبرا وقال بعض: إنه سبب في نزول الآية، قالوا: كان رجلان اشتركا في تجارة رجل مؤمن وآخر كافر ثم إنه حدث بينهما ما سبَّب الافتراق فتقاسما ثروتهما فناب لكل واحد أربعة آلاف دينار، فاشترى الكافر قطعة أرض بألف دينار، فقال المؤمن: اللهم إن فلانا اشترى أرضا في الدنيا بألف دينار وإني أشتري عندك أرضا في الجنة، فتصدق بألف دينار، ثم إن صاحبه اشترى دارا بألف دينار أو بناها وأنفق عليها ألف دينار، فقال المؤمن: اللهم إني اشتري عندك بيتا في الجنة فتصدق بألف دينار، ثم إن صاحبه تزوج بامرأة أنفق عليها ألف دينار، فقال المؤمن: اللهم زوجني عندك من نساء الجنة، فتصدق بألف دينار، ثم إن صاحبه جهز بيته بالمتاع والخدم وأنفق في ذلك ألف دينار، فقال المؤمن: يا ربِّ إن صاحبي قد اشترى أثاثا وخدما بألف دينار، وأنا أريد أن أتّخذ لنفسي أثاثا وخدما في الجنة فتصدق بألف دينار، ورغب فيما عند الله، وما عند الله خير وأبقى، ثم مضى زمان فافتقر الرجل المؤمن ومر عليه صاحبه الكافر في زينته وخدمه وحشمه فطلب منه بعض الإعانة، فقال له: أين المال الذي اقتسمناه؟ فقال: تصدقت به، فقال: أإنك لمن المصدّقين؟ ضحك عليه واستهزأ به قال: أتزعم بالبعث والجزاء والبعث بعد الموت وتتلف مالك، تطمع في الغيب فأبى أن يعطيه ولم يسعفه إلى طلبه وأغناه الله عنه، وأنزل في هذا هذه الآيات، والعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

﴿هَلَ انتُم مُّطَّلِعُونَ فَاطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِي سَوَآءِ الْجَحِيمِ قَالَ تَاللَّهِ إِن كِدْتَ لَتُرْدِينِي وَلَوْلاَ نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ﴾.

قال الرجل المؤمن المحاور إخوانه في الجنة وهو يعلم أن صاحبه في النار، ويبدو أنه مات قبله ومات على كفره، قال: هل أنتم مطلعون على النار فنرى صاحبنا، فاطلع - والله يعلم كيفية اطلاعهم على أهل النار-، اطلع الرجل السعيد فرأى صاحبه الشقي في سواء الجحيم، في أطباق النيران المشتعلة التي لا تفتر ولا تخبو، ولا يعلم إلا الله مقدار فرحته وشعوره بعظم نعمة الله عليه أن أنجاه الله من النار وأدخله الجنة مع الأبرار.

﴿قَالَ تَاللَّهِ إِن كِدْتَ لَتُرْدِينِي وَلَوْلاَ نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ﴾.

انطلق لسان ولي الله المؤمن بالقسم بالله أن صاحبه كاد يفتنه عن دينه حين كان يحاوره في الدنيا لولا أن الله ثبته بالقول الثابت، قال: تالله إن كدت لتهلكني وترديني معك في مصيرك المشؤوم، ولولا نعمة ربي بالهداية والعصمة لكنت اليوم من المحضرين معكم في الجحيم، ذلك لأن الأشقياء يُحضرون إحضارا جبريا ولا يحضرون بأنفسهم مختارين، ومن ذا الذي يتقدم طيّعا إلى العذاب، ويكفي هذا المشهد الفظيع زاجرا عن الاغترار بكلام أهل الضلال والكفر والانجرار مع الأشقياء في معاصيهم وفجورهم، ثم يختفي مشهد أهل الجحيم ويتحول إلى محاورة أهل السعادة في بحبوحة النعيم، فيقول الرجل المؤمن:

﴿أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ إِلاَّ مَوْتَتَنَا الأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ﴾.

تتوالى في عرض هذا المشهد استفهامات يراد بها التعجب من أمر ثابت، ويراد من وراء تعجب الرجل المؤمن إظهار عظمة نعمة الله عليه وعلى أصحابه السعداء، جعلنا الله منهم، التفت الرجل المؤمن إلى إخوانه فقال: أفما نحن بميتين إلا موتتنا الأولى وما نحن بمعذبين؟ أنحن خالدون في النعيم فما نحن بميتين أبدا إلا موتتنا الأولى وما نحن

بمعذبين؟ إن هذا لهو الفوز العظيم حقا، لمثل هذا المصير السعيد فليعمل العاملون، هذه كلمات تنبعث من أعماق قلب الرجل السعيد الراضي بمصيره ومصير إخوانه في الجنة، وهي كلمات حية معبرة أصدق تعبير، وفيها موعظة بليغة لأولي الألباب، وفيها دعوة وإرشاد إلى التزود بالأعمال الصالحة، وفيها بيان أن الإيمان لا يتم إلا بالعمل الصالح، ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا لِقَآءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحًا وَلاَ يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ (الكهف: ١١٠)، وقد يكون قوله تعالى: ﴿فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ﴾ من كلام الله، أي من مقوله، ويكون كلام الرجل السعيد انتهى عند قوله: ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾، والكل من عند الله تبارك وتعالى.

﴿أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلاً أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِّلظَّالِمِينَ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ إِنَّهُمْ أَلْفَوْا آبَاءَهُمْ ضَالِّينَ فَهُمْ عَلَىٰ آثَارِهِمْ يُهْرَعُونَ وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِم مُّنذِرِينَ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذَرِينَ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾.

ثم بعد عرض بعض أحوال أهل الجنة في نعيمهم تأتي المناظرة بين حالهم وحال أهل الجحيم ونعوذ بالله من حال أهل الجحيم، وتأتي المناظرة بصيغة الاستفهام، أذلك المصير خير نزلا أم شجرة الزقوم؟ والنزل ما يقدم للضيف من طعام وشراب، وشتان بين نزل أهل الجنة في جنات النعيم، وبين نزل أهل النار في طبقات الجحيم والعياذ بالله، وشجرة الزقوم نوع من الشجر ينبت في تهامة تعرفه العرب وتسميه بالزقوم، وهي شجرة شائكة مرة المذاق، منتنة الريح، تجمع الخسائس كلها، هذا في شجر الدنيا، وهي في الآخرة كما وصفها خالقها شجرة تنبت في أصل الجحيم، طلعها كأنه رؤوس الشياطين، وهذا الوصف كناية عن منتهى الخبث والدمامة والأذى، وليقولن قائل:

كيف يشبه الله شيئا بما لا يراه الناس؟ وقد شبه الناس قديما ما استحسنوه بالملائكة وشبهوا ما استقبحوه بالشياطين واعتادوا هذا في شعرهم ونثرهم، وقد قالت نساء في مصر في يوسف ﷺ ﴿مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَآ إِلاَّ مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ (يوسف:٣١)، وقال امرؤ القيس في تشبيه رماحه بأسنان الغول:

أيقتلني والمشرفي مضاجعي ومسنونة زرق كأنياب أغوال

هذا وقد شبه طلع الزقوم برؤوس الشياطين خالق المشبه والمشبه به، ويكفينا نحن أن نتخيل ما شئنا من القبح والدمامة والأذى في رؤوس الشياطين، وقال تعالى:

﴿إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ﴾.

يقول الله عن الشجرة أنه جعلها فتنة للظالمين، أي في الدنيا وفي الآخرة، أما فتنتهم في الدنيا فما نقل عن الكفار من السخرية والاستهزاء والتكذيب بعد نزول هذه الآية، فتنوا أقوامهم بضربين من الفتنة: الضرب الأول أنهم قالوا لهم: ما نعرف الزقوم إلا التمر والزبد، ويزعمون أن أهل يثرب يعجنون التمر بالزبد ويسمونه الزقوم، وكان أبو جهل يقول: زقمونا زقمونا، أي أطعمونا التمر بالزبد، والضرب الثاني من الفتنة أنهم تعجبوا واستسخروا الناس وقالوا: أيزعم محمدا أن شجرة تخرج في أصل الجحيم وهل ينبت الشجر في النار؟ ألم يعلموا أن الله على كل شيء قدير! ألم يروا أن الله يخرج لهم من الشجر الأخضر نارا، ألم يروا إلى نوع من الطيور يدخل النار ويتجول في جمرها ولا يحترق! ألم يعلموا أن النعام يبتلع الجمر ويبتلع قطع الحديد المحماة بالنار ولا تضره! إن هي إلا فتنة يضل بها الله من يشاء ويهدي من يشاء، وقد رد الله عليهم بما يقمعهم فقال بعد أن وصفها بما تقشعر منه الجلود، قال تعالى:

﴿فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ﴾.

يؤكد الله الخبر بتوكيدين؛ أن هؤلاء المكذبين لآكلون من شجرة الزقوم، ثم إنهم يملؤون منها بطونهم، لا لأنهم استساغوها بل لأنهم أرغموا على أكلها إرغاما.

﴿ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ﴾.

يقول الجبار جل جلاله: ثم إن هؤلاء الآكلين للزقوم يسقون بعدها ماء حميماً آنيا مشوبا، أي ممزوجا بغساق وهو عصارة أهل النار، وهي ما يخرج من أدبارهم من أوساخهم المنتنة.

﴿ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ﴾.

هذه الآية تشعر بأنهم يحولون من حال عذاب إلى حال مثلها إن لم تكن شرا منها والعياذ بالله، وقد جاء في سورة أخرى: ﴿يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ﴾ (الرحمن: ٤٤)، فهم إذا مسهم لهب جهنم وأصلوا حرها يشكون شدة العطش فيحولون إلى أودية الويل والحميم والغيّ ليرتووا منها ما يتجرعونه ولا يكادون يسيغونه مما يزيدهم عذابا فوق العذاب، وهذا ما يدل عليه كلمة ﴿مَرْجِعَهُمْ﴾ فهم يطوفون بين أكل الحرام وشرب الخمور ويستهزئون ويسخرون بالوعيد.

﴿إِنَّهُمْ أَلْفَوْا آبَاءَهُمْ ضَالِّينَ فَهُمْ عَلَىٰ آثَارِهِمْ يُهْرَعُونَ﴾.

ذم الله التقليد الأعمى للآباء والأجداد فقال: إن هؤلاء ألفوا آباءهم ضالين فاتبعوهم على ضلالهم فهم على آثارهم يحثون الخطا بغير هدى من الله، ومعنى يُهرعون أي يسيرون مسرعين، ويا ليتهم كانوا مهتدين، قال الله تعالى:

﴿وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ﴾.

يقسم الله أن أكثر الأولين كانوا ضالين وقليل منهم كانوا مهتدين، ويتبع الناس الضالين يغترون بكثرتهم فنبهنا الله بهذه الآية أن العبرة ليست بالكثرة إنما هنالك دلائل واضحات وآيات بينات تبين أهل الهدى من أهل الضلال، فعلى العاقل أن ينظر بعقله ويميز بين الحق والباطل، ولا يغتر بتقليد الآباء فإن أكثر الناس ضالون، وأهل الحق في كل زمان قليلون إلا في خير القرون فقد كان الحق ظاهرا.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِم مُّنذِرِينَ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذَرِينَ إِلاَّ عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾.

يقول الله تبارك وتعالى: ولقد أرسلنا فيهم رسلا منذرين وما ظلمناهم بل ظلموا أنفسهم وهلكوا عن بينة وصاروا إلى أسوإ العواقب، فانظر كيف كان عاقبة المنذَرين لم ينتفعوا بالنذر إلا عباد الله الذين استخلصهم لعبادته وهداهم الصراط المستقيم، فأولئك مستثنون من الهلاك والشقاء، أولئك الذين استمعوا لنذر الله ناجون من العذاب، وفي هذه الآيات تخويف لكفار قريش وأضرابهم ممن يتصاممون عن النذر ويعرضون عنها ويتولون مدبرين، فانظر أيها العاقل واعتبر بعاقبة المنذَرين الذين تماروا بالنذر، وجاءت نسبة عباد الله هنا نسبة تكريم وخصوصية، وفيما يستقبل من بقية السورة سيأتي الكلام على بعض عباد الله المخلصين، وكيف كانت عاقبتهم والعاقبة للمتقين ولا عدوان إلا على الظالمين.

وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ
الْمُجِيبُونَ ﴿٧٥﴾ وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾
وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ ﴿٧٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴿٧٨﴾
سَلَامٌ عَلَى نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ ﴿٧٩﴾ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٨٠﴾
إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿٨١﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ ﴿٨٢﴾

يقول الله جل جلاله: ولقد نادانا نوح داعيا لنا فأجبنا نداءه ولنعم المجيبون نحن، والتعبير بالنداء فيه ما فيه من معنى التضرع والالتجاء إلى الله بعد خيبة الظنون في قوله إلا قليلا منهم، فقد جأر نوح إلى ربه ﴿أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ﴾ (القمر: ١٠)، فاستجاب الله دعاءه وهو نعم المجيب؛ لأنه القادر الذي لا يعجزه شيء والمنتقم الذي لا يخاف عقبى انتقامه، وهو العزيز الغالب، والرحيم لأوليائه، ينظر إليهم بعين رحمته ويفرج

عنهم بعد الكرب، ويوفيهم على صبرهم أجرهم بغير حساب، فهو القريب المجيب، قال تعالى:

﴿وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ﴾.

أي وأنقذناه من الكرب الذي كان فيه مع قومه المكذبين المؤذين له وللمؤمنين، ونجيناه من الوقوع في الغرق ومن دخول النار، وهو الكرب العظيم الذي وقع فيه الظالمون بظلمهم وتمردهم على الله ورسله، قال تعالى: ﴿مِّمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَنصَارًا﴾ (نوح:٢٥)، أما نوح رسول الله والذين معه فقد نجاهم الله من الكرب ونصرهم من القوم الذين كذبوا بآيات الله، واستجاب نداءهم فلنعم المجيب، ولنعم المولى ونعم النصير، وجاء في وصف المجيب بالواو وهي واو العظمة لا واو الجمع، كما أسند الفعل إلى نون العظمة، وتلك آيات عظيمة تذكر بعظمة الله تعالى وقدرته وإرادته المطلقة، ثم قال تعالى:

﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ﴾.

أي وجعلنا نسله هم الباقين الذين يعمرون الأرض بعد الطوفان، فهو الجد الثاني للبشر وهي منة من الله عليه وإثبات لحق الأبوة له علينا، وإرشاد لنا أن نقتدي به في إيمانه وصبره وشكره لربه، وأحق من اقتدى بالرجل ذريته، ثم قال تعالى:

﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الآخِرِينَ سَلاَمٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤمِنِينَ ثُمَّ أَغْرَقْنَا الآخَرِينَ﴾.

وتركنا على نوح في الآخرين، أي في الأمم بعده ذكرا حسنا وثناء يجري على ألسنة الناس إلى يوم القيامة، وقد اتفقت جميع الملل على تكريم سيدنا نوح عليه السلام لا سيما هذه الأمة أمة القرآن، وقد رأينا ما جاء في القرآن من ذكر نوح عليه السلام والثناء عليه.

﴿سَلَامٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ﴾.

هذا كلام مستأنف مستقل وهو من الله سلام على عبده نوح، والسلام إذا كان من الله جل جلاله، فهو يشمل الدنيا والآخرة، في العالمين عالم الإنس والملائكة، وما أروع هذه الكلمة من الله تعالى، وما أعظم بركتها في الدنيا والآخرة.

﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾.

يقول الله تعالى: إنا كذلك الجزاء الحسن نجزي المحسنين من عبادنا، والإحسان رسوخ الإيمان في القلب واجتهاد الأعضاء في العبادة مع إخلاص القلب في النية ابتغاء ما عند الله.

﴿إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ﴾.

شهادة من الله عظيمة لسيدنا نوح بالإيمان، فهو من عباد الله الذي استخلصهم لرسالته، وهو من المؤمنين الإيمان الذي يرضاه الله، والإضافة هنا إضافة خصوصية وتكريم.

﴿ثُمَّ أَغْرَقْنَا الآخَرِينَ﴾.

تقع "ثُمَّ" هنا للترتيب اللفظي لا الترتيب الزمني، وإلا فوقت إنجاء نوح هو وقت إغراق أعدائه، وإنما يمتن الله على نوح بإنجائه من الكرب العظيم ثم باستجابة دعائه في إهلاك عدوه وعدو الله، وفي ذلك آيات للمعتبرين، وفيه تخويف للكافرين في كل زمان ومكان إن لم ينتهوا عن كفرهم وجحودهم، فإن الله الذي أغرق قوم نوح سينتقم منهم بما يشاء ويريد ولن يفلتوا من قبضته، والله عزيز ذو انتقام.

وَإِنَّ مِن
شِيعَتِهِۦ لَإِبۡرَٰهِيمَ ﴿83﴾ إِذۡ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلۡبٖ سَلِيمٍ ﴿84﴾ إِذۡ قَالَ
لِأَبِيهِ وَقَوۡمِهِۦ مَاذَا تَعۡبُدُونَ ﴿85﴾ أَئِفۡكًا ءَالِهَةٗ دُونَ ٱللَّهِ
تُرِيدُونَ ﴿86﴾ فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿87﴾ فَنَظَرَ نَظۡرَةٗ فِي
ٱلنُّجُومِ ﴿88﴾ فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٞ ﴿89﴾ فَتَوَلَّوۡاْ عَنۡهُ مُدۡبِرِينَ ﴿90﴾ فَرَاغَ
إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمۡ فَقَالَ أَلَا تَأۡكُلُونَ ﴿91﴾ مَا لَكُمۡ لَا تَنطِقُونَ ﴿92﴾ فَرَاغَ عَلَيۡهِمۡ
ضَرۡبَۢا بِٱلۡيَمِينِ ﴿93﴾ فَأَقۡبَلُوٓاْ إِلَيۡهِ يَزِفُّونَ ﴿94﴾ قَالَ أَتَعۡبُدُونَ مَا تَنۡحِتُونَ
﴿95﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمۡ وَمَا تَعۡمَلُونَ ﴿96﴾ قَالُواْ ٱبۡنُواْ لَهُۥ بُنۡيَٰنٗا فَأَلۡقُوهُ فِي
ٱلۡجَحِيمِ ﴿97﴾ فَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيۡدٗا فَجَعَلۡنَٰهُمُ ٱلۡأَسۡفَلِينَ ﴿98﴾
وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهۡدِينِ ﴿99﴾ رَبِّ هَبۡ لِي مِنَ
ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿100﴾ فَبَشَّرۡنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٖ ﴿101﴾ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعۡيَ قَالَ
يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلۡمَنَامِ أَنِّيٓ أَذۡبَحُكَ فَٱنظُرۡ مَاذَا تَرَىٰۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ
ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُۖ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿102﴾
فَلَمَّآ أَسۡلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلۡجَبِينِ ﴿103﴾ وَنَٰدَيۡنَٰهُ أَن يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ ﴿104﴾ قَدۡ
صَدَّقۡتَ ٱلرُّءۡيَآۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿105﴾ إِنَّ هَٰذَا
لَهُوَ ٱلۡبَلَٰٓؤُاْ ٱلۡمُبِينُ ﴿106﴾ وَفَدَيۡنَٰهُ بِذِبۡحٍ عَظِيمٖ ﴿107﴾ وَتَرَكۡنَا عَلَيۡهِ
فِي ٱلۡأٓخِرِينَ ﴿108﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ ﴿109﴾ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي
ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿110﴾ إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿111﴾ وَبَشَّرۡنَٰهُ بِإِسۡحَٰقَ
نَبِيّٗا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿112﴾ وَبَٰرَكۡنَا عَلَيۡهِ وَعَلَىٰٓ إِسۡحَٰقَۚ وَمِن
ذُرِّيَّتِهِمَا مُحۡسِنٞ وَظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ مُبِينٞ ﴿113﴾

ثم يذكر الله تبارك وتعالى القصة الثانية من قصص عباد الله المخلصين مع أقوامهم الضالين، وقد يبسط الله موضعا من القصة في سورة ويطويه في سورة أخرى،

وباستعراض السور تكتمل الصورة، وإنما يذكر الله من القصة موضع الاعتبار، وقصص القرآن يساق مساق العبرة لا لسرد التاريخ كما يصنع القصاص، وهنا يذكر خبر نبي الله إبراهيم عليه السلام ويذكر دعوته لقومه وكيف كان تحمسه لها، وكيف ابتلاه الله بالإلقاء في النار، ثم ابتلاه بكلمة أخرى وهي أمره إياه بذبح ولده ووحيده، فصبر إبراهيم وصدق في الامتحان فشكر الله سعيه، ووهب له إسحاق ويعقوب نافلة وبارك عليه وعليهما وعلى المحسنين من ذريته.

﴿وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ إِذْ جَآءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾.

شيعة الرجل أتباعه وأنصاره، يقول الله تعالى في إبراهيم عليه السلام إنه من شيعة نوح، أي من أتباعه والداعين بدعوته، والدين عند الله الإسلام، وجميع أنبياء الله ورسله يدعون أقوامهم إليه وإن اختلفت شرائعهم، فقد دعا نوح عليه السلام قومه بمثل ذلك، ويقول الله تعالى في إبراهيم:

﴿إِذْ جَآءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾.

أي: واذكر حين جاء إبراهيم ربه بقلب سليم، وليس المقصود بالمجيء التحول من مكان إلى آخر، وإنما المجيء هنا هو اتجاه القلب إلى الله عز وجل، فقد توجه إبراهيم إلى ربه بقلب سليم، أي نقي طاهر بريئ من كل ما يمكن أن تصاب به القلوب، ولم يأت بمتعلق سليم ليفيد العموم، وهو أروع في الدلالة على المقصود، وكم كانت الكلمة متمكنة في موضعها ذات روعة وإعجاز، فهي تدل على سلامة قلب إبراهيم من الشرك والشك والنفاق، ومن الحسد والكبر والرياء والحقد والضغينة، ومن الضعف والجبن والخور، وقل ما شئت في هذه السلامة فدلالتها واسعة شاملة، لا نجد لها مثيلا إلا ما جاء في سورة الشعراء عند قوله تعالى في سياق الكلام على خبر إبراهيم وتوحيده لربه حين قال في وصف يوم القيامة: ﴿يَوْمَ لاَ يَنفَعُ مَالٌ وَلاَ بَنُونَ إِلاَّ مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ (الشعراء:٨٨-٨٩)، ومن سلامة قلب إبراهيم حبه الخير لقومه ونصحه لهم.

﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ أَئِفْكًا آلِهَةً دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

أي أذكر إبراهيم حين قال لأبيه آزر وقومه المشركين: ماذا تعبدون؟ وهذا الاستفهام والذي بعده للتقريع والتوبيخ وإبداء التعجب من حالهم، ما هذه الأصنام التي تنحتونها بأيديكم ثم تعبدونها من دون الله، ترجون نفعها وتخافون ضرها؟! إن أمركم لعجيب، أإفكا آلهة دون الله تريدون؟! الإفك هو أفظع أنواع الكذب، هو الكذب الصراح الذي لا تقبله العقول السليمة ولا ينطلي عليها، وقدم في الذكر هنا لأنه محط الإنكار والتقريع، أي آلهة تعبدون دون الله ربكم ورب آبائكم الأولين! إن هذا لهو الإفك المبين، فما ظنكم بالله رب العالمين! مالك أمركم وأمر العالمين، الذي خلقكم وخلق العالمين الذي يميتكم ثم يحييكم ثم إليه ترجعون، الذي بيده ملكوت كل شيء، أتظنون أنه غافل عنكم، أتظنون أنه عاجز عن نفعكم متى شاء أو ضركم متى شاء، أتظنون أنه لا يبعثكم بعد الموت ولا يحاسبكم يوم القيامة، ولا يجازيكم على شرككم وأفعالكم؟ كل هذه المعاني ونحوها تفهم من هذا الاستفهام التعجبي الذي يراد به توبيخهم وتسفيه أحلامهم، وكل من دعا غير الله أحدا من الأموات أو الأحجار أو الحيوان أو النجوم أو الكواكب أو أيّ شيء من الطواغيت فهو في إرادة الإفك مثل قوم إبراهيم، فليتعظ عباد الأموات الذين يتقربون إلى الأضرحة والأنصاب بالنذور والذبائح، وهم يعكفون عندها ويحلفون بها ويعظمونها، كل ذلك شرك وإفك مبين، والسلامة في عبادة الله وحده ونبذ ما سواه، وفي إخلاص الدين له، ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ...﴾ الآية، (البينة: ٥).

﴿فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ فَرَاغَ إِلَى آلِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ

فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَزِفُّونَ قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَانًا فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الأَسْفَلِينَ﴾.

كان لقوم إبراهيم عيد يخرجون له كلهم ويصنعون طعاما يضعون منه لأصنامهم، وكانوا حريصين على خروج إبراهيم معهم، وقيل أمره نمرود فاعتذر إبراهيم ﷺ بعذر يقبلونه وهو ما اعتادوه من النظر في النجوم، فنظر نظرة في النجوم فقال إني سقيم، أي إني سأمرض فرضوا منه هذا القول فتركوه، والحق أن إبراهيم ﷺ لم يكذب؛ لأن قلبه كاره لأعمالهم فهو بذلك سقيم غير مرتاح، فتولوا عنه مدبرين، انصرفوا إلى وجهتهم وأدبروا عنه وتركوه، وكان إبراهيم يترقب الفرصة المواتية وهي خروجهم كلهم إلى عيدهم فلا يبقى منهم واحد.

﴿فَرَاغَ إِلَىٰ ءَالِهَتِهِمْ﴾.

فراغ، أي انصرف خفية وفي تلطف إلى آلهتهم التي يعبدونها من دون الله.

﴿فَقَالَ أَلاَ تَأكُلُونَ﴾.

فقال: ألا تأكلون؟ ذلك لأنهم وضعوا الطعام بين أيديهم قبل خروجهم، وهي عادة من عاداتهم الموروثة، فقال إبراهيم هذه المقالة تبكيتا لتلك الآلهة المزعومة وتسفيها لأحلام من وضعوا الطعام عندها وهي لا تأكل، ثم أردف قائلا:

﴿مَا لَكُمْ لاَ تَنطِقُونَ﴾.

ما لكم خرس لا تتكلمون، ذلك ليبيّن عجزها وقصورها وسفاهة من يرجو شفاعتها وهي لا تنطق ولا تعي ولا تغني شيئا.

﴿فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْباً بِالْيَمِينِ﴾.

فراغ عليهم، أي فمال عليهم ضربا باليمين، والضرب باليمين فيه إشارة إلى القوة، لأن حركة اليمين أقوى من حركة الشمال، لقد كان إبراهيم يضربها بالفأس

ضربا قويا يحطمها ويتركها جذاذا فهشمها كلها إلا كبيرا لهم لعل القوم يرجعون إليه، فتكون له الحجة عليهم لأنهم يعبدون ما لا يستطيع دفعا عن نفسه ولا تعبيرا عن الذي كسرها وجعلها قطعا.

﴿فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَزِفُّونَ﴾.

فلما رجعوا من عيدهم ذهبوا إلى آلهتهم فوجدوها محطمة فاغتاظوا وقالوا: من فعل هذا بآلهتنا إنه لمن الظالمين، وقد بسطت قصتهم في سورة الأنبياء، وحين علموا أن إبراهيم هو الذي كاد آلهتهم أقبلوا إليه مسرعين وهم على أشد الحر فتلقاهم نبي الله إبراهيم بثبات ورباطة جأش لأنه يعلم أنه على الحق وأن الله معه فكانت له الحجة عليهم.

﴿قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾.

ألقى عليهم سؤالا يريد به توبيخهم والإنكار عليهم، قال أتعبدون أصناما تنحتونها بأيديكم ثم تخافونها وترجونها وتقدسونها من دون الله، والله خلقكم وما تعملون من هذه الأصنام وغيرها، وهذا منطق مفهوم لو كان قوم إبراهيم يعقلون، ولكن تقليدهم للآباء أعماهم وأصمهم، وكذلك يفعل الهوى بأهله فلجأوا إلى أسلوب القوة حين أعوزتهم الحجة، شأن أهل الطغيان المتمسكين بالباطل المعتزين بالإثم.

﴿قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَانًا فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الأَسْفَلِينَ﴾.

تآمر قوم إبراهيم على أن يقتلوه حرقا بالنار وأمر نمرود أن يبنى له بنيانا ليقلوه منه بالمنجنيق إلى نار عظيمة كانوا أعدوا لها حطبا كثيرا وسعروها تسعيرا، وذلك ليُرهبوا الناس فلا يتفكر أحد منهم في تقبل دعوته وليفرغوا من أمره ولينتصروا لآلهتهم المهشمة، لقد أرادوا به كيدا عظيما ولكن الله جعل كيدهم في تباب وجعلهم الأسفلين،

قال الله للنار كوني بردا وسلاما على إبراهيم، فكانت كما أراد الله فكانوا هم الأخسرين.

﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ وَنَادَيْنَاهُ أَن يَا إِبْرَاهِيمُ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ سَلَامٌ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ﴾.

بعد امتحان الله عبده إبراهيم بما ابتلاه به من تمرد قومه عليه وإلقائهم إياه في الجحيم وإنجاء الله إياه من حرق النار أذن الله له بالهجرة، وهو أول المهاجرين في سبيل الله.

﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾.

هاجر أرض العراق التي هي موطنه وموطن آبائه وهاجر من قومه الكافرين بمن معه من المؤمنين القلائل، ومنهم ابن أخيه لوط عليه السلام فسن بذلك سنة الهجرة التي اتبعها رسول الله محمد عليه السلام بإذن الله لينال بذلك ما نال أبوه إبراهيم من فضل الهجرة، وقال إبراهيم عليه السلام إني ذاهب إلى ربي سيهدين ،فهو ذاهب إلى ربه لأنه ممتثل لأمر ربه متوجه الوجهة التي ولاها إياه مخلصا عمله لله، فهو لم يهاجر لدنيا يصيبها إنما هاجر فرارا بدينه، وأرض الله واسعة، ولقد علم إبراهيم أن ربه هاديه ومن معه إلى حيث يطيب به المقام، وعبر بالسين "سيهْدِينِ" وهي هنا للتحقيق لا للتنفيس؛ لأن ربه قد أراه من عنايته ما يطمئن قلبه له فوثق بهدايته ولأنه منفذ لأمر الله في هذه الهجرة، فهو هاديه لا محالة، هاجر إبراهيم وزوجته سارة ولوط ومن معهم من المؤمنين إلى أرض الشام

المباركة بخصوبة التربة، وجودة الثمار، وطيب المناخ، ودعا ربه أن يهب له أولاد صالحين.

﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ﴾.

قال يا رب هب لي ولدا من الصالحين ؛ لأن الوالد لا تقر عينه إلا بالولد الصالح، ولأنه متى كان صالحا فسيكون له عونا على تبليغ دعوته، وسيكون وارثا لحكمته من بعده، قال الله تبارك وتعالى:

﴿فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ﴾.

فاستجبنا له وبشرناه بغلام حليم، بشره الله بولد ذكر سيولد له ويكون حليما، والحلم رجاحة العقل وكماله، وهو خلق من أعظم أخلاق الرجال، وصف الله به في القرآن رجلين هما إبراهيم ﷺ وابنه إسماعيل الذي امتحنه الله بالذبح فصبر لأمر الله.

﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَابُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ﴾.

فلما بلغ الغلام مبلغ السعي على العمل بما ينفع الوالد وينفع العيال، قيل كان ذلك في سن الثالثة عشرة، وهي السن التي يكون الولد فيها خادما مطيعا لوالده ولا يتمرد عليه بالمخالفة والعصيان، هنالك امتحن الله عبده إبراهيم بأمره بذبح ولده ووحيده وقد أصابه الكبر وذلك هو البلاء المبين، فامتثل الأمر من غير معارضة ولا تردد، فخرج به إلى بعض فجاج مكة، فلما بلغ الموضع الذي أرشده الله إليه قال: يا بني إني أرى في المنام أني أذبحك فانظر ماذا ترى، ألقى إليه الخبر وسأله عن رأيه في الموضوع وهو عازم على تنفيذ أمر ربه غير أنه يريد أن يضرب بذلك مثلا أعلى في المشاورة، وقد علم من ولده من قوة الإيمان واليقين ما يجعله يتقبل أمر الله في طواعية واختيار، فيكون له بذلك درجة المطاوعين المستسلمين لأمر الله.

﴿قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُومَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَآءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾.

قال سيدنا إسماعيل الولد المؤمن لأبيه: يا أبت افعل ما تؤمر، هكذا بنداء الأبوة الذي يوحي بالبر والحنان كما ناداه أبوه بنداء البنوة، وفي هذا أعلى تأديب للآباء والأبناء، ورحم الله والدا أعان ولده على بره، قال الغلام لأبيه: يا أبت افعل ما يأمرك به الله ستجدني إن شاء الله من الصابرين على امتثال أمر الله وطاعته، وفي التعبير تأدّب مع الله حيث رد أمره لمشيئة الله بعد عزمه على الطاعة والاستسلام لأمر الله، وقال: من الصابرين ولم يقل صابرا، لعلمه أن هنالك أولياء لله سبقوه في هذا الطريق فأحب أن ينضم إلى زمرتهم ويلتحق بهم، وهم الرعيل الفائز والرفيق الأعلى الذين يود المؤمن الالتحاق بهم عند مفارقة الدنيا.

﴿فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَّا إِبْرَاهِيمُ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَآ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَآؤُ الْمُبِينُ﴾.

فلما استسلم الوالد والولد لأمر الله وأسلما لله رب العالمين وناداهما ربهما وتم الابتداء وصدّق إبراهيم الرؤيا، ناداه الله أن يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا، وجاءت "أن" التفسيرية هنا متمكنة أي تمكن، لقد نفذ إبراهيم عليه السلام ما رأى في المنام أنه يذبح ابنه إسماعيل تقربا لله رب العالمين، نفذ الأمر كله وذبح ولده ووحيده بيده، واستسلم الابن لأمر الله ورضي الله عز وجل عمل الوالد والولد وشهد لهما بالتصديق والإحسان، قال تعالى:

﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾.

تذييل مناسب للمقام، يبين الله تعالى فيه سنته مع المحسنين من عباده يبتليهم ببلاء الدنيا حتى إذا صبروا وصدّقوا يأتيهم نصر الله فينجيهم من الكرب ويرفع عنهم البلاء في الدنيا، ويجتبيهم إليه، ويرفع مقامهم عنده وعند ملائكته وعباده المؤمنين، ويجزل لهم الأجر، ويرفع درجاتهم في الجنة جزاء على صدقهم في الامتحان، كذلك جزى الله

عبده إبراهيم وولده إسماعيل -عليهما السلام- جزاء المحسنين، وفي الآية موعظة للمؤمنين ودعوة لهم إلى أن يحسنوا في عبادتهم لله والمسارعة إلى امتثال أوامره واجتناب نواهيه حتى يفوزوا بجزاء المحسنين.

﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلاَؤُ الْمُبِينُ﴾.

يقول الله تبارك وتعالى: إن هذا البلاء الذي ابتلينا به إبراهيم في ذبح ولده بيده لهو البلاء المبين الذي لا يرتاب فيه أحد، والبلاء هو الاختبار بالأمر الأشق، وأي أمر أشق من هذا الذي ابتلي به إبراهيم وولده إسماعيل عليهما السلام.

﴿وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الآخِرِينَ﴾.

يقول الله تعالى: وفديناه، أي الذبيح بذبح عظيم، والذّبح ما يذبح وهو هنا كبش أملح عظيم في جنسه من الأكباش، قيل نزل به جبريل من الجنة بعد أن كان يرعى فيها مدة كافية لنموه وعظمته، ومنذ ذلك اليوم كانت سنة الضحية وأفضلها الكبش الأملح، وكانت سنة الهدي في منى وهي البقعة التي اختارها الله موضعا للقربان، ولا يزال الموضع المسنون لنحر الهدي وذبحه، وكل هدي بلغ منى يوم النحر فقد بلغ محله، قال تعالى:

﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الآخِرِينَ﴾.

أي وتركنا على إبراهيم ذكرا طيبا وثناء عطرا في الآخرين، ولا يزال في الناس لسان صدق وثناء حسن على إبراهيم، الناس كلهم على اختلاف مللهم يذكرون إبراهيم ذكرا طيبا.

﴿سَلاَمٌ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾.

سلام من الله وملائكته والمؤمنين على إبراهيم، سلام عليه يوم ولد ويوم يموت ويوم القيامة، وصلوات من الله وملائكته على إبراهيم وإسماعيل إلى يوم القيامة،

وصلوات على نبينا محمد وآله وبركات من الله كما صلى ربنا وبارك على إبراهيم وعلى آل إبراهيم في العالمين إن ربنا حميد مجيد.

﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾.

يقول الله تبارك وتعالى كذلك نجزي المحسنين من عبادنا بالذكر الطيب والثناء الحسن، والسلام في الدنيا وفي الآخرة، وقد كررت هذه الكلمة بعد ذكرها قريبا، لأن المقصود هو حث المؤمنين على الاقتداء بأبيهم إبراهيم في الإحسان حتى ينالوا جزاء الإحسان الذي هو عام لكل المحسنين، وفي تكرار الكلمة غرس لشجرة الإحسان في نفوس المؤمنين وسقيها حتى تثبت عروقها في قلوبهم ويَعظم أصلها وتبسق فروعها وتؤتي ثمارها، والأمر كله ينبني على الإحسان فليتكرر ذكره حتى تكون له عناية في وجدان المؤمن وكيانه، والله يحب المحسنين ويجزي المحسنين جزاء حسنا.

﴿إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ﴾.

شهادة من الله عظيمة لعبده إبراهيم أنه من عباده المؤمنين، ولله عباد مؤمنون بعضهم أولياء بعض، قد سلكوا في الإيمان مسلكا قويما واتبعوا صراطا مستقيما، فمن أراد أن يكون من جملتهم ويحشر معهم فليتبع سبيل المؤمنين، وقد سماهم الله عبادا لتأدبهم بآداب العبودية لربهم، ونسبهم إليه نسبة تشريف وخصوصية، فطوبى لمن كان منهم وأحبهم وتشبه بهم، وسار في سبيلهم واقتدى بهداهم، وويل لمن حاد عن طريقهم وشاققهم وجانب هداهم، فليتعظ بهذه الآية الكريمة أولوا الألباب.

﴿وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾ .

يقول الله تبارك وتعالى: وبشرناه، أي إبراهيم بولد اسمه إسحاق، بشره الله أن سيولد له ولد وسيكون نبيا من الصالحين، وذلك بعد أن صدق الرؤيا في ذبح ولده إسماعيل، وفي بشارة الله لإبراهيم بإسحاق وكونه نبيا من الصالحين دليل على أن الذبيح هو إسماعيل إذ لا يمكن أن يمتحنه بذبح ولد وهو يعلم أنه نبيا وسيولد له ولد

اسمه يعقوب، وإنما يحاول الإسرائيليون أن ينازعوا العرب هذا الشرف وينسبوه لأنفسهم، وترتيب هذه الآيات يدل على أن الذبيح إسماعيل عليه السلام وقد مدحه الله بالصبر لصبره على امتحان الذبح، ومدحه بصدق الوعد لقوله لأبيه: ﴿سَتَجِدُنِيَ إِن شَآءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾. فكان كما قال من الصابرين، ثم قال تعالى:

﴿وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ إِسْحَاقَ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ مُبِينٌ﴾.

أي باركنا على إبراهيم وعلى إسحاق، وقال فريق من المفسرين: وباركنا على إسماعيل وإسحاق ومن ذريتهما محسن وظالم لنفسه بالشرك والمعاصي، والمعنى في كلا الوجهين صحيح، فقد بارك الله على إبراهيم وعلى آل إبراهيم، وقضى الله أن الذرية ليسوا كلهم وارثين لصلاح الآباء واستقامتهم بل منهم محسن بالاستقامة في عبادة الله، ومنهم ظالم لنفسه مبين بالإشراك بالله ومعصيته ومشاقة أنبيائه ورسله وكل يستحق جزاءه وفاقا ولا ينفعه يوم القيامة أن يكون من ذرية المرسلين، {من أبطأ به عمله لم يسرع به نسبه}.

وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَىٰ
مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١١٤﴾ وَنَجَّيْنَٰهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ ٱلْكَرْبِ
ٱلْعَظِيمِ ﴿١١٥﴾ وَنَصَرْنَٰهُمْ فَكَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿١١٦﴾ وَءَاتَيْنَٰهُمَا
ٱلْكِتَٰبَ ٱلْمُسْتَبِينَ ﴿١١٧﴾ وَهَدَيْنَٰهُمَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١١٨﴾
وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١١٩﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٠﴾
إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢١﴾ إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا
ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٢﴾

تأتي قصة موسى وهارون عليهما السلام وهما من ذرية إبراهيم المحسنين الذين بارك الله عليهم، يذكر الله خبرهما بعد ذكر خبر جدهما إبراهيم ليرينا سنته في عباده

المحسنين وبتكرر ذكر الإحسان في هذه الآيات وجزاء الله للمحسنين تتأكد الدعوة إلى الإحسان، جعلنا الله من عباده المحسنين، قال الله تعالى:

﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَارُونَ وَنَجَّيْنَاهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ وَنَصَرْنَاهُمْ فَكَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ﴾.

ولقد مننا، أي: أحسنا إلى موسى وأخيه هارون ابتداء منا لا من استحقاق منهما، ثم أحسنا إليهما جزاء إحسانهما، ومنن الله على موسى وهارون كثيرة لا تحصى، منها: منّه على موسى يوم ولد بتنجيته إياه من ذبح فرعون وأعوانه ثم بإلقاء محبته عليه وتسخيره لتربيته والإنفاق عليه وعلى أمه التي كانت ترضعه على الرغم منه، ومنّه على هارون أنه ولد في العام الذي لا يقتل فيه فرعون مواليد بني إسرائيل، ومنّ عليهما بالنبوة، ومنّ عليهما بالآيات البينات وبالتغلب على سحرة فرعون في اليوم المشهود، ومنّ عليهما بإنجائهما وبني إسرائيل وإهلاك عدوهما فرعون وقومه، ومنّ عليهما بإنزال التوراة الذي فيه هدى ونور، ويذكر الله في مننه على موسى وهارون تنجيته إياهما وقومهما من الغرق وهو الكرب العظيم، وقبل الغرق استعباد فرعون لبني إسرائيل وتذبيحه أبناءهم، ويذكر الله في مننه نصرهم على فرعون وقومه فكانوا على ضعفهم وذلتهم هم الغالبين، ومن كان الله معه فلا غالب له، فليعتبر المعتبرون، ثم قال تعالى:

﴿وَءَاتَيْنَاهُمَا الْكِتَابَ الْمُسْتَبِينَ﴾.

وآتيناهما الكتاب المستبين الذي يفرق بين الحق والباطل، وبين الهدى والضلال، وهو التوراة الذي قال الله فيه: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا التَّوراةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ﴾ (المائدة: ٤٤)، وقال: ﴿وَهَدَيْنَاهُمَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾، أي الطريق الهادي إلى سعادة الدارين، من سلكه سعد بمعية الله وفاز برضوان الله، وقد اهتدى موسى وهارون ومن معهما بكتاب الله وعملوا به وساروا على صراط الله المستقيم حتى لقوا الله على ذلك.

﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِي الآخِرِينَ﴾.

وترك الله على موسى وهارون ذكرا حسنا وثناء عطرا في الآخرين، فلا يذكرهم المؤمنون إلا بخير ويصلون ويسلمون عليهما وقد مضت عليهما ثلاث آلاف من السنين.

﴿سَلاَمٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَارُونَ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾.

سلام تحية من الله وملائكته والمؤمنين على موسى وهارون، وسلام على المرسلين، وسلام على عباد الله الصالحين، كذلك يجزي الله المحسنين من عباده جزاء حسنا، والمحسنين هو المخلصون في عبادتهم لله الذين يعبدونه بما شرع لهم ويبتغون وجه ربهم الأعلى بأعمالهم وأقوالهم ونوايا قلوبهم، والله لا يضيع أجر من أحسن عملا، وتكرار هذه الآية دعوة من الله إلى الإحسان، والله يحب المحسنين.

﴿إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤمِنِينَ﴾.

ويؤكد الله شهادته لموسى وهارون أنهما من عباده المؤمنين الذين آمنوا بالله إيمانا خالصا وصدقوه بالأفعال، ولا يكون الإيمان الحقيقي عند الله إلا كذلك، فليتعظ المؤمنون وليقتدوا بسلفهم المؤمنين الصادقين حتى يلحقهم الله بالرفيق الأعلى وحسن أولئك رفيقا.

وَإِنَّ إِلۡيَاسَ لَمِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ (123)
إِذۡ قَالَ لِقَوۡمِهِۦٓ أَلَا تَتَّقُونَ (124) أَتَدۡعُونَ بَعۡلٗا وَتَذَرُونَ
أَحۡسَنَ ٱلۡخَٰلِقِينَ (125) ٱللَّهَ رَبَّكُمۡ وَرَبَّ ءَابَآئِكُمُ ٱلۡأَوَّلِينَ (126)
فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمۡ لَمُحۡضَرُونَ (127) إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلۡمُخۡلَصِينَ (128)
وَتَرَكۡنَا عَلَيۡهِ فِي ٱلۡأٓخِرِينَ (129) سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِلۡ يَاسِينَ (130)
إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ (131) إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُؤۡمِنِينَ (132)

يذكر الله تبارك وتعالى خبر إلياس وقومه بعد خبر موسى وهارون ؛ لأن إلياس من بني إسرائيل، كان في سبط من أسباطهم استوطنوا مدينة بعلبك، وكان أهل بعلبك يعبدون صنما اسمه بعل، يرمزون به إلى كوكب المشتري، وكانوا يعظمونه ويعكفون عنده فأنكر عليهم ذلك وأنذرهم وقال:

﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلاَ تَتَّقُونَ أَتَدْعُونَ بَعْلاً وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ﴾.

ألا تتقون عاقبة الشرك والإجرام، ألا تتقون الله، أتدعون بعلا من دون الله وتذرون أحسن الخالقين، وهو الخالق الذي أحسن كل شيء خلقه، ولا خالق غيره، وهذا معنى قوله أحسن الخالقين، وليس معناه أن هناك خالقين غيره كلا!، وهذا كقوله تعالى في سورة المؤمنين: ﴿فَتَبَارَكَ اللهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ (المؤمنون:١٤).

﴿اللَّهُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ الاَوَّلِينَ﴾ وهذه جملة مستأنفة، أي: الله ربكم ورب آبائكم الأولين هو أحق أن يُعبد ويُخاف ويُرجى ويوحد بالعبادة لا إله غيره، كان ينكر عليهم الشرك ويدعوهم إلى توحيد الله، ولكنهم كانوا لا يستمعون له.

﴿فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ﴾

فكذبوه ولم يؤمنوا برسالته وكفروا بالله، قال تعالى: **﴿فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ﴾** إنهم سيحضرون إلى عذاب الله إحضارا عنيفا لازما، لا يفلت منهم أحد، إنه أمر حتم شديد

لا يحضرون إليه طائعين بل سيُحضرون مكرهين مُرغمين أذلاء، هذا ما يدل عليه التعبير، ويدل أيضا على ما يصاحب المشهد من أنواع الصغار والنكال والحسرات والدعاء بالويل والثبور.

﴿إِلاَّ عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾

يستثني الله من بينهم عباده المخلصين الذين استخلصهم لمعيته وهداهم لطاعته، والاستثناء يدل على أنهم قليلون وهم الذين آمنوا بإلياس واتبعوه وأخلصوا دينهم لله.

﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الآخِرِينَ سَلاَمٌ عَلَىٰٓ ءَالِ يَاسِينَ﴾

أي، وتركنا على إلياس في الأمم المتأخرة ذكرا حسنا وثناء عطرا يجري على ألسن الناس حتى تقوم الساعة، سلام من الله وملائكته والمؤمنين، وسلام في الدنيا والآخرة على آل ياسين، وقد اختلف أهل التفسير في هذه الكلمة، فقال فريق منهم: آل ياسين هم آل إلياس، يعني سلام على إلياس وآله، على غرار قول النبي ﷺ: {اللهم صل على آل أبي أوفى}، وقيل: هو تعديل اللفظ إلياس والعرب تتصرف في الأعلام الأعجمية، وقد جاء نحو ذلك في كلام الله تعالى عند قوله: ﴿مِن طُورِ سِينَآءَ﴾ وقوله: ﴿وَطُورِ سِينِينَ﴾، وعليه فيكون المقصود بآل ياسين هو إلياس نفسه مع شيء من التعديل في اللفظ، وهذا التأويل هو الذي أرجحه، وإنما عدل قليلا ليوافق جرس الآية في مقطعها؛ لأن القرآن بديع ومعجز حتى في إيقاعه الصوتي، وهذا له تأثيره في نفوس تاليه وسامعيه.

﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُومِنِينَ﴾.

وقد سبق تفسير هاتين الآيتين وبيان حكمة تكريرهما، وإن في ذلك دعوة إلى الإحسان والإيمان الصادق، وشهادة من الله تبارك وتعالى لعبده إلياس أنه من عباده المؤمنين المحسنين، وقد جاء في شرح عقيدة العزابة للشيخ داود التلاتي أن إلياس عليه السلام والخضر عليه السلام لا يزالان يعيشان في الأرض كما أن المسيح بن مريم وإدريس عليهما

السلام يعيشان في السماء، وأن إلياس والخضر يجتمعان في موسم الحج في منى يحلق بعضهما لبعض ويدعوان بالدعاء المشهور المروي عنهما ثم يفترقان، والدعاء هو الذي يقرؤه الناس في بعض المساجد: "باسم الله ما شاء الله لا يسوق الخير إلا الله، باسم الله ما شاء الله لا يصرف السوء إلا الله، باسم الله ما شاء الله ما كان من نعمة فمن الله...إلخ"، يقرؤونه بعد صلاة الصبح بعد جملة من الأذكار وقد صحت بنحوه الأحاديث المرفوعة إلى النبي ﷺ ووروده فيه فضل كبير في الدنيا والآخرة.

وَإِنَّ لُوطًا لَّمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿133﴾ إِذْ نَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿134﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِى ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿135﴾ ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿136﴾ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿137﴾ وَبِٱلَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿138﴾

تأتي قصة نبي الله لوط عليه السلام مختصرة وقد بسطت في مواضع أخرى من القرآن الكريم مثل سورة هود وسورة الحجر وسورة العنكبوت، ويخبر الله هنا ويؤكد الخبر أن لوطا من رسل الله، أرسله إلى سدوم وما حولها من القرى، وكانت آهلة بالسكان ملايين عدة، وقيل: كان في سدوم وحدها أربعمائة ألف، فلما جاءهم عذاب الله لم تنفعهم كثرتهم ولا أموالهم، خسف بهم الأرض ودمرهم تدميرا، يقول الله تبارك وتعالى:

﴿وَإِنَّ لُوطًا لَّمِنَ الْمُرْسَلِينَ إِذْ نَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ إِلاَّ عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ﴾.

واذكر لوطا إذ نجيناه وأهله المؤمنين قبل نزول العذاب فلم يصبهم منه شيء إلا امرأته الكافرة فقد كانت من الغابرين الذين بقوا في القرية التي نزل بها العذاب، ووصْف الله لها بالعجوز المراد تحقيرها وتقبيح شأنها، وقرنها بالغابرين لأنها كانت على

كفرهم وموافقة لهم على تمردهم وعصيانهم فهلكت معهم، ويوم القيامة يقال لها ادخلي النار مع الداخلين، قال تعالى:

﴿ثُمَّ دَمَّرْنَا الآخَرِينَ﴾.

التدمير هو الهدم والإهلاك الذي يبيد القوم ولا يذر شيئا من ديارهم، ولا من أشجارهم، ولا من أنعامهم وحيواناتهم، وقد بين الله نوع هذا التدمير في سورة هود حيث قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ مُسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾ (هود: ٨٢-٨٣)، وذلك جزاء لهم على شركهم ومعاصيهم وتكذيبهم لرسل الله واستخفافهم بوعيده، ونعوذ بالله من مصير الظالمين، ثم قال تعالى:

﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ وَبِاللَّيْلِ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ﴾.

وإنكم يا معشر قريش لتمرون على أرضهم مصبحين، وبالليل أفلا تعتبرون بمصيرهم، أفلا تعقلون وتخشون عاقبة التمرد والعصيان، ذلك لأن قريشا لها رحلة في الصيف إلى الشام وكانت تمر في رحلاتها على فلسطين وما جاورها بسدوم وتسمع أخبارها فوبخهم الله على عدم الاعتبار بمصير الظالمين المكذبين المتمارين بالنذر، فالخطاب لقريش ولكن موعظة الآية عامة لجميع من يمر على ديار الظالمين أن يعتبر بمصيرهم، والتوبيخ واقع على كل من يقف على الآثار ولا يعتبر بها، وعذاب الله واقع ولكن له أمد وللأمد انقضاء، والله يمهل ولا يهمل، فلا يغتر الظالمون بإمهال الله إياهم، فكم من مستدرج بالإحسان إليه والعياذ بالله.

وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿139﴾ إِذْ أَبَقَ إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿140﴾ فَسَاهَمَ
فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ ﴿141﴾ فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿142﴾
فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿143﴾ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ
يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿144﴾ ۞ فَنَبَذْنَٰهُ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴿145﴾ وَأَنۢبَتْنَا
عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ ﴿146﴾ وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِا۟ئَةِ أَلْفٍ أَوْ
يَزِيدُونَ ﴿147﴾ فَـَٔامَنُوا۟ فَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿148﴾

يذكر الله تعالى خبر يونس، ويخبرنا أنه من رسل الله، ويذكر الله قصة هروبه من قومه مغاضبا لهم، وأن هذا الهروب كان إباقا من غير إذن من ربه، ولقي عنتا في هذا الإباق غير أن الله حفه بألطافه؛ لأنه كان يسبح الله، فهو ممن عرف الله في الرخاء فعرفه في الشدة، ففي عرض قصته ذكرى للذاكرين.

﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾

يقول الله تبارك وتعالى: وإن عبدنا يونس بن متى لمن المرسلين، أرسله الله في مدينة من مدن شمال العراق تسمّى نينوى.

﴿إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ﴾

أي: واذكر إذ أبق، والإباق هو هروب العبد من غير إذن مولاه، هرب يونس مغاضبا لقومه حين عصوه وأنذرهم بعذاب الله لكنهم تماروا بالنذر، وبعد مرور ثلاثة أيام من إنذاره أو تكاد ذهب مغاضبا لهم حين لم يظهر له أثر من عذاب الله، خاف بطشهم لأنهم كانوا يقتلون الكاذبين، هرب يونس إلى ناحية البحر فوجد سفينة فانظم إلى ركابها فسارت بهم، فلما كان في عرض البحر أدركهم الخطر فخافوا الغرق لأن حمولة السفينة المشحونة كانت فوق طاقتها، ولأنهم تشاءموا بوجود شخص مشؤوم

معهم، فاستهموا بينهم فطلع سهم يونس فأبت رفقته من طرحه في الماء لما رأوا من سيما الخير والصلاح في وجهه، فأعادوا المساهمة فطلع سهمه ثم أعادوها ثالث مرة فطلع سهمه فلم يجدوا بدا من إلقائه في البحر ليجري عليه قضاء الله المحتوم، فألقوه فأرسل الله إليه الحوت فالتقمه، فجعل الله من جوفه كنا يقيه الغرق فكان هناك حيا يتنفس الهواء، وقوله تعالى: ﴿فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ﴾ أي: من المغلوبين في تلك المساهمة.

وقوله: ﴿فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ﴾.

أي وهو فاعل ما يلام عليه من هروبه من قومه بغير إذن من الله، غير أن الله لطف به لأنه عبد صالح كان كثير الذكر لله والتسبيح له، قال تعالى:

﴿فَلَوْلَآ أَنَّـهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾.

أي: فلولا أن يونس كان مداوما للتسبيح لله للبث في بطن الحوت إلى يوم البعث، وفي هذا الكلام موعظة وذكرى لأولي الألباب، وبيان للناس أن من تعرف إلى الله في الرخاء يعرفه في الشدة، وفيه أن التوسل يكون بالعمل الصالح، وكذلك شفعت له الملائكة فقبل الله شفاعتهم فيه، فأمر الحوت أن ينبذه على شاطئ البحر، فامتثل الحوت لأمر ربه فنبذه في العراء، وأنبت الله فيها شجرة من يقطين، كان له منها فراش وغطاء وظل، واليقطين هي شجرة الدُّبّاء التي لها أوراق لينة ناعمة، وكانت صحة يونس قد ضعفت إلى حد كبير وذلك من حرارة جوف الحوت، وذلك قوله تعالى: ﴿فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَآءِ وَهُوَ سَقِيمٌ وَأَنبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّنْ يَّقْطِينٍ﴾.

ثم قال تعالى:

﴿وَأَرْسَلْنَاهُ، إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلْفٍ اَوْ يَزِيدُونَ﴾.

فلما ذهب سقم يونس ورجعت إليه صحته أرسله إلى قومه الذين يزيد عددهم على مائة ألف، فحرف "أوْ" بمعنى بل ولا يتعلق الغرض بتحديد عددهم والله عليم بحقيقته غير أن القرآن كتاب ذكرى وموعظة، والإعجاز البياني والصوتي يقتضي أن يجري التعبير على هذا النسق البديع ذي الفواصل المتشابهة، وكان قوم يونس قد افتقدوه فلما لم يجدوه توقعوا عذاب الله النازل فخرجوا كلهم بأولادهم وبهائمهم يتضرعون إلى الله وحده نابذين كل الطواغيت، وكان لهم جؤار وصراخ وضجيج لا سيما وقد روي أنهم فصلوا بين الأمهات وصغارها فارتفعت الأصوات فاستمع الله إليهم ونظر إليهم بعين رحمته فكشف عنهم العذاب، قال تعالى:

﴿فَئَامَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمُۥ إِلَىٰ حِينٍ﴾.

فآمن قوم يونس فمتعهم الله بالحياة إلى حضور آجالهم، وهذا لطف منه خاص بقوم يونس نفعهم إيمانهم عند توقع العذاب، وقد علم الله أنهم لم يصلوا بعدُ إلى الحد

الذي لا ينفع فيه نفسا إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيرا، وقد جاء ذكرُ هذه الخصوصية لهؤلاء القوم في سورة يونس عند قوله تعالى: ﴿فَلَوْلاَ كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَانُهَآ إِلاَّ قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾ (يونس:٩٨).

وإلى هنا ينتهي الكلام عن الأنبياء والرسل في هذه السورة الكريمة، ثم ينتقل الحوار إلى مخاطبة النبي ﷺ ليخاطب المشركين ويقيم عليهم الحجة في تمسكهم بعبادة الملائكة ويظهر باطلهم ويقرر ما هو الحق في أمرهم، وتنتهي السورة كما بدئت بتوحيد الله رب العالمين.

فَاسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ ٱلْبَنَاتُ وَلَهُمُ ٱلْبَنُونَ ﴿149﴾ أَمْ خَلَقْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِنَٰثًا وَهُمْ شَٰهِدُونَ ﴿150﴾ أَلَآ إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ﴿151﴾ وَلَدَ ٱللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿152﴾ أَصْطَفَى ٱلْبَنَاتِ عَلَى ٱلْبَنِينَ ﴿153﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿154﴾ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿155﴾ أَمْ لَكُمْ سُلْطَٰنٌ مُّبِينٌ ﴿156﴾ فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿157﴾ وَجَعَلُوا۟ بَيْنَهُۥ وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ نَسَبًا وَلَقَدْ عَلِمَتِ ٱلْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿158﴾ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿159﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿160﴾ فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ ﴿161﴾ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَٰتِنِينَ ﴿162﴾ إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ ٱلْجَحِيمِ ﴿163﴾ وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ ﴿164﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ ﴿165﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلْمُسَبِّحُونَ ﴿166﴾ وَإِن كَانُوا۟ لَيَقُولُونَ ﴿167﴾ لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿168﴾ لَكُنَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿169﴾ فَكَفَرُوا۟ بِهِۦ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿170﴾

الخطاب موجه للنبي ﷺ، والمقصود به تقريع هؤلاء الكفرة المكذبين وإنذارهم بالعذاب الشديد على إشراكهم بالله وتقولهم عليه بغير علم، وفيه تنزيه لله عما يصف

هؤلاء الأفاكون، وقد جاء الأمر باستفتائهم في أوائل السورة في أمر الخلق تبكيتا لهم بعد بيان مخلوقات الله العظيمة التي تدل على عظم الخالق، ثم جاء الأمر باستفتائهم في أعقاب هذه السورة عودا على بدء، وما هذا إلا لشدة مناسبة أوائل السورة لأواخرها، فكأنها حلقة متصل طرفاها، وجاء الأمر مقرونا بالفاء لترتب معنى الاستفتاء المقصود به التهكم على ما سبقه من الآيات البينات التي تدل على سخافة عقولهم وقبح ما يتشبثون به من الضلالات، فكان الربط بالفاء متمكنا لاتصال مناسبة الاستفتاء بما سبق من بيان الحق وسطوعه.

﴿فَاسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنَاثًا وَهُمْ شَاهِدُونَ﴾.

والاستفتاء هو السؤال عن جواب فيه علم، ولا يكون إلا في أمر مهم مفيد، وهو هنا للتبكيت والتوبيخ لهؤلاء الكفار الذين يكرهون البنات وينسبونها إلى ربهم، تعالى الله عما يصفون علوا كبيرا، إسأل هؤلاء الكفار: ألربك البنات ولهم البنون، أم خلقنا الملائكة إناثا وهم شاهدون، فمن أين لهم علم بذكورية الملائكة أو أنوثتهم، ولا علم لهم مطلقا، إن يقولون إلا كذبا، والملائكة لا يوصفون بالذكورية ولا بالأنوثية ولا شأن لهم بالشهوات ولا يتوالدون، بل هم كما وصفهم ربهم: عباد مكرمون لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون، و"أمْ" هنا للإضراب عن الاستفهام الأول إلى الاستفهام الثاني، وفي كليهما رد على زعم الكفار وتوبيخ لهم، وإظهار لسخافة عقولهم وفساد اعتقادهم.

﴿أَلَا إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ وَلَدَ اللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾.

"أَلَا" حرف تنبيه واستفتاح، ويفتح بها كلام مفيد يراد به إحقاق الحق وإبطال الباطل، وكثيرا ما يأتي الكلام بعدها مؤكدا، والإفك هو الكذب في الأمر الكبير، ينبه الله تعالى على إفكهم وزورهم في نسبتهم الولد إلى الله وهذا أمر عظيم، تكاد السموات

تتفطر منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هدًّا، وهم في عتوهم على ربهم وجراءتهم عليه يقولون ولد الله، وهي مقالة إفك وزور تكتب عليهم، وسوف يعاقبون عليها عقابا أليما إن لم يتوبوا، قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾، يؤكد الله الإخبار على كذبهم ليحذر الناس من الافتتان بكلامهم الباطل، ويقرر الله الحق في سورة الإخلاص: ﴿قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ اللهُ الصَّمَدُ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُن لَّهُ، كُفُوًا اَحَدٌ﴾، ثم يستمر الحوار في الموضوع فيقول الله تبارك وتعالى:

﴿أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ أَفَلاَ تَذَّكَّرُونَ﴾.

استفهام آخر يراد به الإنكار على هؤلاء الكفار الذين يزعمون أن الملائكة بنات الله، تعالى الله عما يصفون، يقول الله تبارك وتعالى لهؤلاء: أَصطفى البنات على البنين، هل اختار ربكم البنات لنفسه واصطفاها دونكم؟ ما لكم كيف تحكمون، وهذا إنكار عليهم وتوبيخ لهم على نسبه الولد إلى الله، ثم على جعله أنثى وهي التي ينفرون منها، ثم على تقولهم بغير علم، ﴿أَفَلاَ تَذَّكَّرُونَ﴾ أفلا ترجعون إلى عقولكم فتدركون خطأ هذا الزعم وبطلانه؟ أليست لكم عقول تدركون بها الحق وتميزون بها بين الحق والباطل وأنتم تعرفون قبح الكذب والافتراء.

﴿أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُّبِينٌ فَاتُوا بِكِتَابِكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾.

السلطان هو سلطان الحجة والبرهان، أم لكم برهان على ما تقولون؟ فأتوا بكتابكم إن كنتم صادقين في دعواكم، وهذا تحدٍّ لهم وتعجيز، ولا سلطان ولا كتاب لهم، وهو أسلوب من أساليب التبكيت له تأثير في نفوس المخاطبين، وإن زعمهم ليتلاشى أمام القوارع من الآيات البينات ﴿إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ (الإسراء: ٨١).

﴿وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا﴾ .

يتعرض القرآن الكريم لأسطورة من أساطير الوثنيين أهل الجاهلية الأولى فيبطلها، وذكر أنهم يزعمون باطلا أن بين الله والجنّة مصاهرة، يزعمون أن الله اتخذ من سروات الجن صاحبة فولدت له الملائكة، تعالى الله عما يقولون علوا كبيرا، يقول الله تعالى:

﴿وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ﴾.

أي: ولقد علم الجن أنفسهم أنهم لمحضرون في العذاب إلا عباد الله المخلصين منهم، أي الذين يوحدون الله وينزهونه ولا يشركون به شيئا ولا يفترون على الله كذبا، أي هؤلاء الذين جعلتم بينه وبينهم نسبا سيحضرون في العذاب.

﴿سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ إِلاَّ عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾.

تنزه ربنا وتقدس عما يصف الظالمون، لكن عباد الله المخلصين ينزهون ربهم ولا يقولون على الله الكذب فأولئك مستثنون من المحضَرين من الجن والإنس، وينزه الله نفسه في أثناء الكلام، ولهذه الجملة المعترضة سلطانها في نفوس الواعين من الناس.

﴿فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَاتِنِينَ إِلاَّ مَنْ هُوَ صَالِ الْجَحِيمِ﴾.

يعود الخطاب لهؤلاء الكفار المكذبين لله ورسله، الكاذبين على الله، المفترين عليه ليفتنوا الناس عن دين الله الحق، يقول الله تبارك وتعالى: فإنكم أيها الأفاكون وما تعبدون من دون الله ما أنتم عليه بفاتنين إلا الأشقياء الذين هم صالوا الجحيم، فلستم أنتم ولا آلهتكم بفاتنين المؤمنين الذين أنار الله بصائرهم بنور الإيمان، إنما تفتنون الذين أضلهم الله بأنواع الفجور والإجرام، فنفوسهم خبيثة ميالة إلى الفجور مستعدة للافتتان، أما عباد الله المخلَصون فليس للشيطان ولا لأوليائه عليهم سلطان، فلا يفتتن بالشيطان وأولياء الشيطان إلا الغاوون الذين هم صالوا النار، وكذلك جعل الله بعضهم لبعض فتنة، وهكذا تدفع الآية في صدور أهل الكفر والضلال الذين يدعون الناس إلى كفرهم وضلالهم، وما كيد الكافرين إلا في ضلال.

﴿وَمَا مِنَّآ إِلاَّ لَهُ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّآفُّونَ وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ﴾.

هذا كلام يحكيه الله تبارك وتعالى عن الملائكة ينطقون فيه بالحق يُجريه الله تبارك وتعالى على ألسنتهم، يقول ملائكة الله:

﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّآفُّونَ﴾.

الصافون أجنحتنا أو الواقفون صفوفا، فالكلُّ في مقامه المعلوم لا يتعداه، وما منا إلا له مقام معلوم عند الله، يقف الملائكة صفوفا في السموات قائمين أو راكعين أو يصطفون ساجدين لربهم يسبحونه الليل والنهار لا يفترون، وجعلت صفوفنا في الصلاة كصفوف الملائكة في السموات، ويقف فريق من الملائكة صفوفا صافين أجنحتهم ينتظرون أمر الله، فهم خلق الله وهم عبيده لا يستنكفون عن عبادته ولا يفترون عن تسبيحه، ولا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون، وهم بأمره يعملون، فليسوا بنات لله كما يزعم الأفاكون، وليسوا آلهة كما يزعم المشركون، وليسوا شركاء لله بل هم عبيد لله يسبحون له ويقدسونه.

﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ﴾

هكذا تبين الآية بكل وضوح مركز الملائكة ومقامهم فتدفع بذلك شبهة كل أفاك أثيم، وكذلك يقذف الله بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق ولهم الويل مما يصفون، ثم يرجع الحديث إلى تفنيد أقوال أهل الكفر والضلال فيقول الله تبارك وتعالى:

﴿وَإِن كَانُوا لَيَقُولُونَ لَوَ اَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا مِّنَ الاَوَّلِينَ لَكُنَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ فَكَفَرُوا بِهِ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾.

إن هؤلاء المشركين كانوا قبل نزول القرآن يقولون: لو أن عندنا ذكرا من الأولين، أي كتاب من كتب الأولين ورسولا مثل رسلهم لكنا عباد الله المخلصين، نؤمن بالكتاب والرسول ونهتدي بهداه، إنهم كانوا يقولون ذلك ويقسمون عليه جهد أيمانهم لئن

جاءهم نذير ليكونن أهدى من إحدى الأمم، فلما جاءهم ما زادهم إلا نفورا وإعراضا، قال الله تعالى: ﴿فَكَفَرُوا بِهِ﴾ أي فجاءهم ما طلبوا فكفروا به، وقد كانت قريش يتناقلون أخبار الأنبياء والرسل والكتب والأمم التي كذبت بهم فيتعجبون وينكرون على اليهود والنصارى تكذيبهم لرسلهم ويزعمون أنهم لو جاءت الرسل إليهم لآمنوا بهم واتبعوهم، فلما جاءهم الذكر كفروا به، قال الله تعالى:

﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ فسوف يعلم هؤلاء الكافرون ما يؤول إليهم أمرهم، وهذا تهديد من الله، نفهم منه فظاعة العقاب الذي يصيرون إليه، وقد أفصحت الفاء هنا بالمعنى المقدر المفهوم، أي: فجاءهم ذكر الأولين فكفروا به، ولهذا نظائر في كتاب الله، وهذا من إيجاز القرآن وبلاغته ودقة تعبيره.

وَلَقَدْ
سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿171﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿172﴾ وَإِنَّ
جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿173﴾ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿174﴾ وَأَبْصِرْهُمْ
فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿175﴾ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿176﴾ فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ
فَسَآءَ صَبَاحُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿177﴾ وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿178﴾ وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ
يُبْصِرُونَ ﴿179﴾ سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿180﴾
وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿181﴾ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿182﴾

قضاء قضاه الله تبارك وتعالى وأخبرنا به وأكد الخبر بعدة مؤكدات بليغة، يقول الله تعالى:

﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾.

أي ولقد سبق قضاؤنا المبرم الذي لا راد له ولا مبدل لعبادنا المرسلين، وأضاف الله رسله بالعبودية لنفسه وهي إضافة تشريف واستحقوا هذه النسبة لأنهم حققوا عبوديتهم

لله بالخشوع له والإخبات له قبل أن يكرمهم بالرسالة والوحي، قضى الله لهم بقضائه السابق وأضاف الكلمة لنفسه بنون العظمة، إنهم لهم المنصورون الذين ينصرهم الله ويؤيدهم بروح من لدنه.

﴿وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾.

وقضى الله وسبقت كلمته أن جنده هم الغالبون، وأضاف الجند لله إضافة تشريف وخصوصية، وجعل لجنده الغلبة، وجنده هم عباده الذين يستمسكون بكتابه ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، ويقيمون حدود الله، أولئك الذين كتب الله لهم الغلبة والنصر، ولا تكون العاقبة إلا لهم، وأولئك الذين يمكن الله لهم دينهم الذي ارتضى لهم، ويبدلهم بعد خوفهم أمنا، وتلك هي الغلبة.

ولا يقدح في الوعد بالغلبة والنصر ما يصابون به من النكسات في بعض المعارك بسبب تقصيرهم في بعض الأوامر ولكنهم لا ينهزمون ولا يخذلون، ولا يكون النصر النهائي إلا لهم، وتكون لهم العزة ولدين الله، فهم المنصورون في الحياة الدنيا وفي الآخرة كما قال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الأَشْهَادُ﴾ (غافر: ٥١) ووعد الله لابد محقق لا شك فيه، وهذه من الله بشارة للذين آمنوا في كل زمان ومكان ولو كانوا قلّة فإنهم منصورون إذا تمسكوا بدين الله ونصروه: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ اللهُ مَن يَنصُرُهُ، إِنَّ اللهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ (الحج: ٤٠)، وقد حقق الله نصره لهذا الدين فلا يزال في نصر وعلو وانتشار.

﴿فَتَوَلَّ عَنهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ﴾.

فأعرض عنهم حتى حين يا محمد وأبصرهم فسوف يبصرون، ولم يبين الله هنا مقدار هذا الحين، ويعلم الله أجله وقد حان حين هؤلاء قريبا يوم بدر ومن بقي منهم كفى الله رسوله شرهم فطهر الله الأرض منهم، وكذلك يفعل الله بالظالمين في كل زمان ومكان، **﴿وَأَبْصِرْهُمْ﴾** وأبصر أعمالهم وانتظر عاقبتهم **﴿فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ﴾** أي

فسوف يرون سوء أعمالهم وما تؤول إليها من سوء العواقب، وهذا من الله إنذار ووعيد لكل جبار عنيد ولا شك أنهم يستخفون بوعيد الله وعلمَ الله ذلك من قلوبهم فأردف عليهم بهذه الآية التالية فقال:

﴿أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ﴾.

أي أبعذاب الله يستعجل هؤلاء القوم؟ كان ينبغي أن يحذروا نزول العذاب ويخشوه ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا﴾ (الإسراء: ٥٧)، ولكن هؤلاء المكذبين قُسَاة القلوب فهم عوض أن يخشوا نزول عذاب الله يستعجلونه ويقولون متى هو؟ وما ذلك إلا لسخافة عقولهم، وقساوة قلوبهم، وتكذيبهم بوعيد الله، قال تعالى:

﴿فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَآءَ صَبَاحُ الْمُنذَرِينَ﴾.

فإذا نزل عذاب الله بساحتهم، أي: بدارهم ولم يعد لهم منه مناص فساء صباح هؤلاء المنذرين المكذبين بالنذر، وقد جاء وصف الصباح بالسوء وهو السؤم والنحس، والصباح يكون عادة وقت نزول العذب، ووقت إغارة العدو؛ لأنه وقت راحة القوم وغفلتهم وتواجدهم في منازلهم فيعمهم العذاب، ويفجؤهم وهم نائمون، وكذلك يفعل الله بأعدائه الذين أمنوا مكره واستخفوا بنذره ﴿فَلاَ يَامَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾ (الأعراف: ٩٩)، ثم قال تعالى:

﴿وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ﴾.

تكرر الأمر بالتولي عنهم والإبصار، وجاء الأمر هنا بالإبصار غير متصل بالضمير ليدل على معنى آخر، وتكرر التهديد بقوله تعالى: **﴿فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ﴾** وذلك أوقع في النفس وأعمق أثرا وأبلغ في الموعظة، وقد جاء الأمر الأول بالتولي عنهم وإبصارهم بعد تقرير الوعد بالنصر والغلبة لرسل الله وجنده، وجاء الأمر الثاني بالتولي والإبصار بعد الوعيد بنزول العذاب على أعداء الله، فدل أن الأمر بالإبصار هنا هو انتظار النصر والتمكين لجند الله، وما أعد الله لهم من حسن العواقب في الدنيا والآخرة، وتلك هي

طريقة القرآن في المزاوجة بين الوعد والوعيد وإتيان أحدهما عقب الآخر وإن كان تكرار الكلام في بعض المواعظ والزواجر فيه وقع بليغ في نفوس السامعين، ويتجدد المعنى بتجدد المناسبات والتأسيس خير من التأكيد، وبعد هذا يختم الله السورة بكلمة جامعة فيها خلاصة ما سبق وفيها التنزيه المطلق لله تبارك وتعالى، ويختم الله السورة بإسناد الحمد لله رب العالمين، وهو أهل للحمد والثناء.

قال الله تعالى:

﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾.

يختم الله هذه السورة الكريمة بالتنزيه المطلق لله رب العالمين كما ختم السورة التي قبلها بمثل ذلك، والمناسبة قوية بين ختام السورتين الكريمتين كما هي قوية أيضا بين الآيتين الخاتمتين وما قبلهما من الكلام، وهنا يأتي التسبيح الذي هو التنزيه والتقديس مسندا إلى رب النبي المرسل بالحق رب العزة الذي يعز أولياءه ورسله بالنصر والغلبة، والعزة هي الغلبة والقهر والكبرياء، وهي من أوصاف الذات للخالق العظيم، القوي الغالب، وإضافة الرب أوّلا إلى المخاطب الذي هو الرسول إضافة تشريف وتكريم، أي تنزيها لربك رب العزة عما يصف هؤلاء الأفاكون من نسبة الشريك والولد، تنزيها لربك العزيز الذي أرسلك بالحق ووعدك النصر والغلبة والعزة ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُومِنِينَ﴾ (المنافقون: ٨)، إنه العزيز الوهاب يهب العزة لمن يشاء من عباده، ومن أعزه الله فهو العزيز الغالب المنتصر، فسبحوه أيها المؤمنون بكرة وأصيلا، واطلبوا العزة منه لا من غيره.

﴿وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

تسبيحٌ وتنزيهٌ لله رب العزة عما يصف الكافرون، وسلام على المرسلين الصادقين الذين بلغوا رسالات الله ودعوا إلى توحيد الله، فلهم ولأتباعهم من الله سلام في الدنيا وفي الآخرة، والحمد لله رب العالمين، أي الثناء المطلق على الله بإسناد أوصاف الجلال

والجمال والكمال إليه، فسبحوه واحمدوه ووحدوه بالعبادة، إنه ربكم ورب العالمين في السموات والأرضين وما بينهما، فهو رب الجميع وخالق الجميع، ومالك الجميع، وإله الجميع، وهو الله في السموات وفي الأرض وهو رب الدنيا والآخرة، مالك الأمر فيهما.

وهكذا تقرر الآية الأخيرة من السورة وحدة الربوبية بعد تقرير وحدة الألوهية لله كما قررت الآية الكريمة في فواتح السورة وحدة الألوهية والربوبية ﴿إِنَّ إِلَهَكُمْ لَوَاحِدٌ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الْمَشَارِقِ﴾، وتختتم السورة بإسناد الحمد لله رب العالمين.

وقد جاءت الأخبار الصحيحة في فضل هذه الآية الكريمة، جاء مرويا عن النبي ﷺ: {من سره أن يكتال بالمكيال الأوفى فليقل آخر مجلسه حين يريد أن يقوم: ﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، وورد مثل هذا في فضل قراءتها دبر الصلاة ثلاث مرات، وكذلك في اختتام المجالس كلها، فلنفتتح بها المجالس ولنختمها بها حتى نظفر بالمكيال الأوفى من الأجر.

هكذا نأتي على نهاية ما تيسر لنا في تفسير هذه السورة المباركة، والحمد لله رب العالمين.

تفسير سورة ص

سورة ص مكية وآياتها ٨٨

بسم الله الرحمن الرحيم

۞ صٓ وَالْقُرْءَانِ ذِي الذِّكْرِ (1) بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ (2) كَمْ
أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ فَنَادَوا وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ (3) وَعَجِبُوٓا
أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ وَقَالَ الْكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ (4) أَجَعَلَ
الْءَالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ (5) وَانطَلَقَ الْمَلَأُ
مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ (6)
مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِي الْمِلَّةِ الْءَاخِرَةِ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا اخْتِلَٰقٌ (7) أَءُنزِلَ
عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنۢ بَيْنِنَا بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّن ذِكْرِي بَل لَّمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ
(8) أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ (9) أَمْ لَهُم
مُّلْكُ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَلْيَرْتَقُوا فِي الْأَسْبَٰبِ (10) جُندٌ
مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ الْأَحْزَابِ (11)

السورة مكية وهي تعالج أمر العقيدة وترسيخ الإيمان بالله ورسله وكتبه واليوم الآخر في القلوب بما تأتي به من المواعظ والزواجر وضرب الأمثال، وعرض مشاهد يوم القيامة، وأيام الله في إهلاك أعدائه ونصر أوليائه، وفي كل ذلك ذكرى لأولي الألباب، وتقيم الحجة والبراهين على صدق رسل الله، وأن ما جاؤوا به من الكتب القيمة حق من عند الله.

وسميت هذه السورة ﴿ص﴾ لافتتاحها بهذا الحرف من الحروف المقطعة الهجائية التي افتتحت بها بعض سور القرآن، ولا يعلم تأويلها إلا الله، وللمفسرين أقوال في معانيها وتأويلها، وأظهر هذه الأقوال أنها رموز لإعجاز القرآن الذي هو مركب من

الحروف التي ينطق بها العرب ولكنهم لا يستطيعون أن يأتوا ولو بسورة من مثله، ويعجز عن ذلك الإنس والجن ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا.

﴿صٓ وَالْقُرْءَانِ ذِي الذِّكْرِ﴾.

الواو للقسم، أقسم الله تعالى بالقرآن ذي الذكر، وما الذكر هذا الذي أضيف إليه القرآن؟ بعض المفسرين قالوا: هو الشرف والرفعة والمجد، وقال الآخرون: بل هو الموعظة والذكرى والدعوة إلى الهدى والرشاد، والمعنى الأول ـ وإن كان صحيحا ـ ولكني أميل إلى المعنى الثاني وأرجحه لكثرة وروده في القرآن مثل قوله تعالى: ﴿وَهَـٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَـٰهُ أَفَأَنتُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ﴾ (الأنبياء: ٥٠)، وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾، وتكرر هذا مرارا في سورة القمر، وقوله تعالى في أعقاب هذه السورة: ﴿هَـٰذَا ذِكْرٌ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَـَٔابٍ﴾ (ص: ٤٩)، والإشارة إلى القرآن الكريم، وتكرر هذا كثيرا بهذا المعنى في صيغ مختلفة كالتذكرة والذكرى وصيغ الأفعال من ماض إلى مضارع إلى أمر، وصيغ النعوت والصفات.

وأقسم الله تعالى بالقرآن لعظم شأنه عند الله، ولله تعالى أن يقسم بما شاء من مخلوقاته، وليس للخلق أن يحلفوا إلا بالخالق، وفي الحديث: {من حلف بغير الله فقد أشركَ}، وقال أيضا: {مَنْ كَانَ منكمْ حَالفاً فَلْيَحْلِفِ بالله أَوْ لِيَصْمُتْ}، ولا يزال كثير من الناس يحلفون بأسماء من يعتقدون فيهم وفي أضرحتهم النفع، وهذا شرك يجب تطهير عقائد المسلمين من لوثته.

وفي هذه الآية يذكر القسم ولا يصرح بالمقسم عليه فما هو؟ المقسم عليه هو ما ذكر في السورتين السابقتين: ﴿إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ تَنزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ﴾ هذا في سورة (يس: ٣ -٥)، وفي سورة الصافات: ﴿إِنَّ إِلَـٰهَكُمْ لَوَاحِدٌ﴾ (الصافات: ٤)، فالقسم إنما هنا لتقرير أحدية الإله، وصدق الرسل وأن ما جاؤوا به حق من عند الله، فالقرآن والتوراة والإنجيل والزبور تنزيل العزيز الرحيم.

﴿بَلِ الذينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ﴾.

الإضراب هنا عن معنى مقدّر يعرف من السياق، وهو أن الذين كفروا يعرفون أن الذي جاءهم به حق وصدق في قرارة نفوسهم ولكنهم يجحدون، وقد جاء هذا المعنى في سورة الأنعام: ﴿فَإِنَّهُمْ لاَ يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِئَايَاتِ اللهِ يَجْحَدُونَ﴾(الأنعام:٣٣)، فإنهم لا يكذبون رسول الله ولكن الذين كفروا في عزة وشقاق، يمنعهم من الإيمان التعزز بالباطل، وهو التمانع والكبر والمشاقة لله ولرسوله وللمؤمنين، يقول الله هذا لرسوله تسلية له وللمؤمنين حتى لا يهلكوا حزنا على هؤلاء إن لا يؤمنوا، وحتى لا يظن الرسول أنه إنما كذّبوه لتقصير منه في التبليغ، ثم قال تعالى تخويفا لهؤلاء المكذبين وإنذارا لهم:

﴿كَمَ اَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ﴾.

كم للتكثير، أي ما أكثر الأمم التي أهلكنا قبلهم! والقرن أمة من الناس في فترة من الزمن، فهم أمم كثيرة متعاقبة أهلكها الله لتكذيبها لرسل الله وعقاب الله شديد، ألا يخشى هؤلاء عاقبة الأمم من قبلهم وهم يتناقلون أخبار كثير منها ويمرون على مساكنهم، قال الله تعالى:

﴿فَنَادَوْا وَّلاَتَ حِينَ مَنَاصٍ﴾.

لما جاءهم بأس الله جأروا وارتفعت أصواتهم بالاستغاثة والصراخ ولا ينفعهم ذلك شيئا لفوات الأوان، فليس ذلك الحين حين مفر وهروب، والمناص هو الهروب من أمر خطير، كذلك كان حالهم عند حلول بأس الله بهم فليخش الذين من بعدهم مثل حالهم، وفي هذه الآية تهديد وتخويف لهؤلاء المكذبين، ومن أراد الله به خيرا فإنه يزدجر وينفعه الإنذار، ولكن هؤلاء المرعوين قليلون في قوم النبي ﷺ وما يذكر إلا أولوا الألباب، ثم إن الله تبارك وتعالى يذكر لنا أقوال هؤلاء الكفار المكذبين والشبه التي يتعلقون بها وليس لهم متعلق، فيقول:

﴿وَعَجِبُوا أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ أَجَعَلَ الآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾.

يبين الله تبارك وتعالى في هذه الآية الكريمة حقيقة هؤلاء القوم الذين هم في عزة وشقاق، وهي التي حجبت عنهم نور الإيمان ولكنهم لابد يختلقوا لهم قولا يكون تكأة على عدم تصديقهم بالرسول وبالكتاب وينشرونه في الناس ليصدوهم به عن سبيل الله، وتلك طبيعة أهل الكبر والشقاق عندما تلزمهم الحجة يلجؤون إلى القوة والبطش والظلم، وليبرروا بطشهم وظلمهم يختلقون أساليب التزوير والإفك يكيدون بها الحق وأهله، وما كيد الكافرين إلا في ضلال، والله متم نوره ولو كره الكافرون، يقول الله تعالى:

﴿وَعَجِبُوا أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ﴾.

عجوا، أي عجب هؤلاء الكفار أن يأتيهم رسول منهم، وقالوا لولا أرسل الله ملكا، والعجب من تعجبهم، والأمر على العكس، يكون العجب لو أرسل الله إليهم رسولا من غير جنسهم أما أن يكون من جنسهم ومن أنفسهم يعرفون نسبه وسيرته، ويحس بما يحسون به من أعراض الجبلة البشرية فتلك من الله رحمة بعباده لا سيما وهو على جانب عظيم من الأخلاق الفاضلة، فلا عجب مطلقا من هذا، ولو أرسله الله ملكا لجعله رجلا حتى يمكن الاتصال به ورؤيته ومخاطبته من غير تكلف وصعوبة، فما لهم أنى يؤفكون، كيف يعجبون من منذر صادق منهم يعرفون صدقه وأمانته ولا ينكرون من أخلاقه شيئا.

﴿وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ﴾.

اتفقوا على كلمة يصرفون بها عنه الناس فلم يجدوا إلا أن يقولوا ساحر يتقول هذا الكلام من عنده ويفرق به بين المرء وزوجه، وبين المرء وأبيه وأمه، وبين الأخ وأخيه، وهم يعلمون أنه ليس بسحر ولا كذب، ويعلم العقلاء أنه كلام يعلو ولا يعلى، وأن

أعلاه مثمر وأسفله مغدق، وأنه ليس بكذب ولا كهانة ولكنهم يموهون على البسطاء من الناس ليصدّوهم عن الحق إذ جاءهم من الله، وتعجبوا وقالوا:

﴿أَجَعَلَ الآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾.

روي أن كبراء قريش ذهبوا إلى أبي طالب عم النبي ﷺ بعد إسلام حمزة وعمر فكبر عليهم ذلك، فذهبوا إلى أبي طالب فقالوا له: افصل بيننا وبين ابن أخيك، فقال أبو طالب للنبي ﷺ: يا ابن أخي هؤلاء قومك يسألونك النَّصفة فلا تمل كل الميل عن قومك، قال: وماذا يسألونني؟ قال: يقولون لك: ارفضنا وارفض آلهتنا وندعك وإلهك، فقال لهم: تعطوني كلمة واحدة تملكون بها العرب وتدين لكم بها العجم، قال أبو جهل: لله أبوك لنعطينَّكَها وعشر أمثالها، فقال رسول الله ﷺ: قولوا "لا إله إلا الله" فنفر الكفار من ذلك وقاموا مغضبين وقالوا:

﴿أَجَعَلَ الآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾.

أجعل الآلهة الكثيرة إلها واحدا، تعجبوا من توحيد الله بالألوهية، ذلك بأنهم ألفوا تعدد الأصنام وأشربوا في قلوبهم حبها وتعظيمها وهم يعلمون أنها لا تملك، ولا تنفع ولا تضر، ولا تغني شيئا إلا أنهم يزعمون أنها تقربهم إلى الله زلفى وتشفع لهم عند الله، وباطل ما يزعمون، وقالوا: إن هذا لشيء عجاب، أي بالغ النهاية من العجب، كأنه فوق العجب، والعجب هو إنكارهم وحدانية الله الذي هو الخالق المالك القادر القاهر فوق عباده.

﴿وَانطَلَقَ الْمَلأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَى ءَالِهَتِكُمْ﴾.

كانوا جالسين مع النبي ﷺ عند عمه أبي طالب فلما دعاهم إلى كلمة التوحيد قاموا ينفضون ثيابهم وانطلقوا مسرعين يقول بعضهم لبعض: امشوا واصبروا على آلهتكم لا تتركوها، وهذا يصور حالة نفورهم وعنادهم وإعراضهم عن الله ورسوله، فهم قد قطعوا الكلام وأنهوا المحاورة بينهم وبين محمد ﷺ وأملى عليهم كفرهم

ومكرهم كلاما جديدا يصرفون به عامة الناس وهم الملأ والناس لهم تبع قد وضعوا ثقتهم فيهم، قال الملأ:

﴿إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ﴾.

إن هذا الأمر الذي يدعوكم له مقصد من ورائه يريده وهو السيادة والملك وكذلك تكون الدعاية المضللة تصدر من كبراء القوم وساداتهم ويتلقاها بسطاء الناس بالقبول وهي أشد ما تكون كيدا للدعوة والدعاة، وهؤلاء الملأ الكافرون أشد ما يكون على الرحمن عتيا، وقالوا:

﴿مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْمِلَّةِ الآخِرَةِ إِنْ هَذَآ إِلاَّ اخْتِلاَقٌ﴾.

الملة الآخرة هي ملة المسيح كان أتباعها اختلقوا التثليث، وقيل هي ملة أهل الشرك وعبادتهم الأصنام، تمسكوا بما وجدوا عليه آباءهم وقالوا: ما سمعنا بتوحيد الإله فيما أدركنا عليه آباءنا وأدركنا عليه أهل دين المسيح، تمسكوا بالباطل وجادلوا به الحق وقالوا ما هذا الذي يدعونا إليه هذا الرجل إلا اختلاق، أي كذب مبتدع.

﴿أَ.نزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّن ذِكْرِي﴾

قال الكافرون: أأنزل عليه الوحي من بيننا وفينا من هو أولى بالفضل منه، ألم يجد ربنا من يوحي إليه إلا هذا الفتى الفقير اليتيم ﴿وَقَالُوا لَوْلاَ نُزِّلَ هَـذَا الْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ (الزخرف: ٣١)، هذا ما أملت عليه كبرياؤهم وعزتهم أن يشاقوا به الله ورسوله ظلما وعلوا، قال الله تعالى:

﴿بَل لَّمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ﴾.

هذا من الله تهديد عظيم لو كانوا يفقهون، يقول الله: إنهم يقولون هذا لأنهم لم يروا عذابي ولم يذوقوه وهم ذائقون، ولو ذاقوه ما أنكروه، وسيأتي اليوم الذي يعترفون فيه بالحق، والشك في كتاب الله كالإنكار فهو شرك، وقد أعد الله للمشركين عذابا عظيما وحرم الله عليهم الجنة ومأواهم النار وما للظالمين من أنصار.

﴿أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِــنُ رَحْمَةِ رَبــِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ﴾.

أم هذه للإضراب الاستفهامي الذي يراد به تبكيت الكفار وتوبيخهم على سخافة عقولهم، يقول الله تعالى: أعند هؤلاء الذين ينكرون على الله أن يجعل رسالته حيث يشاء من عباده، أعندهم خزائن رحمة الله فيقسمونها كما تهوى أنفسهم! أليس الأمر لله ينزل من رحمته على من يشاء من عباده! أليس الله هو العزيز الوهاب، يهب رحمته لمن يشاء من عباده، وهو العزيز لا مطمع لأحد أن ينال ما عنده إلا بإذنه! فما أسخف عقول هؤلاء القوم وما أجرأهم على ربهم!.

﴿أَمْ لَهُم مُّلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَلْيَرْتَقُوا فِي الأَسْبَابِ﴾.

لا يزال أسلوب التهكم والسخرية بعقول هؤلاء الكفار مستمرا في غاية الإحكام والإعجاز، يقول الله تعالى: أم لهؤلاء القوم ملك السموات والأرض وما بينهما فيتصرفون فيها كما يحبون لا كما يريد الله خالق السموات والأرض، منزل الرحمات على من يشاء من عباده، وإن كان لهؤلاء ملك في السموات فليرتقوا في الأسباب، أي في المعارج التي تعرج بهم في السموات فينزلون منها ما يشاءون على من يشاءون وإلا فكيف يعترضون على الله وهم أهون من ذلك وأعجز حتى من العروج إلى السموات، أليس من الخير لهم أن يمسكوا عن هذا الشقاق ويسلموا لله رب العالمين! ثم قال تعالى:

﴿جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ الأَحْزَابِ﴾.

هم جند ما، و"ما" هذه للتحقير والتقليل، أي ما أحقرهم من جند وما أذلهم وما أقلهم في جنود الله في السموات والأرض وما بينهما، جند مهزوم حقير هنالك، والإشارة بهنالك فيها التعبير بعظمة جنود الله وعلو شأنهم وأنهم فوق جنود الباطل وأحزاب الشيطان، ولقد تحزب قوم النبي ﷺ ومن معهم في مكة وغيرها ضد النبي ﷺ ومن معه من المسلمين وظنوا أن تحزبهم يقويهم فيغلبون، فحكم الله عليهم بالهزيمة مسبقاً فقال: ﴿جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ الأَحْزَابِ﴾. والتعبير بالجند فيه إشارة إلى أنه

ستكون حروب دموية بين قريش والأحزاب وبين المسلمين وأن النصر سيكون لجند الله والهزيمة ستكون للأحزاب جند الشيطان، وقد صدق الله وعده ونصر جنده وهزم الأحزاب وحده، وأيد رسوله والمؤمنين بجنوده فكانوا هم الغالبين، وكانت الهزيمة على الكافرين فلا عدوان إلا على الظالمين.

﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتَادِ ﴿١٢﴾ وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ لْـَٔيْكَةِ أُولَٰئِكَ الْأَحْزَابُ ﴿١٣﴾ إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ ﴿١٤﴾ وَمَا يَنظُرُ هَٰؤُلَاءِ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ ﴿١٥﴾ وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ ﴿١٦﴾ اصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴿١٧﴾ إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾ وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَّهُ أَوَّابٌ ﴿١٩﴾ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ ﴿٢٠﴾﴾

يضرب الله المثل لهؤلاء الكفار الذين تحزبوا ضد النبي ﷺ بأحزاب الضلال الذين سبقوا كفار قريش فهزمهم الله وأهلكهم وأبادهم، يذكر الله خبرهم بإيجاز للاعتبار وينذر الله قريشا مثل مصيرهم إن هم تمادوا في المشاقة والعناد، ويذكر الله مبلغ ما انتهوا إليه من العتو والجرأة على الله ورسوله، قال تعالى:

﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الأَوْتَادِ وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ لَيْكَةِ أُوْلَئِكَ الأَحْزَابُ﴾.

لقد كذب الذين قبل قومك رسلهم كما كذبك قومك فانتقم الله منهم، وفي هذا إنذار للمكذبين وتسلية لقلب النبي ﷺ والمؤمنين معه، قال الله تعالى: كذبت قبلهم قوم

نوح وعاد قوم هود وفرعون وقومه وثمود قوم صالح، وقوم لوط وأصحاب الأيكة وهم قوم شعيب، كذبوا رسل الله الذين أرسلهم الله إليهم.

﴿إِن كُلٌّ إِلاَّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ﴾.

ما منهم إلا كذب رسل الله فحق عقاب الله عليهم فلم يفلتوا منه فأهلكم الله ونصر رسله والمؤمنين معهم، ووصف الله فرعون بأنه ذو الأوتاد إشارة إلى الأهرام التي هي كالأوتاد لبقائها عبر آلاف السنين كما وصف الله الجبال بالأوتاد، وهذا عندي أرجح الأقوال في تفسير الأوتاد، والله أعلم، ووصف تلك القرون بقوله: ﴿أُوْلَئِكَ الأَحْزَابُ﴾ إشارة إلى شدة تمكنها في الأرض بقوة أجسادها ووفرة أسباب المعيشة، وقوة جنودها وطول أعمارها، وعظمة ملكها وسلطانها.

وفي قوله هذا تعريض بقلة قريش وذلتها، فما قيمتها بالنسبة لأولئك الأحزاب، فوصفهم بتعريف الطرفين المبتدأ والخبر فكأنهم هم الأحزاب حقا دون من سواهم، ولكنهم رغم شدتهم، وقوة ملكهم، ومتانة بنيانهم، أهلكهم الله فلم تغن عنهم قوتهم شيئا ولا ما اتخذوا من دون الله أولياء لما جاء بأس الله وحاق بهم ما كانوا به يستهزؤون، قال تعالى:

﴿وَمَا يَنظُرُ هَؤُلاَءِ إِلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ﴾.

الإشارة إلى قريش قوم النبي ﷺ ومن حولهم، أي ما ينتظرون إلا صيحة تهلكهم مثل صاعقة عاد وثمود وقوم لوط وأصحاب مدين وأصحاب ليكة، وليكة أو الأيكة هي غيضة من أشجار ملتفة كانوا غرسوها وامتلكوها فخرجوا منها إلى عذاب الله كما خرج فرعون وقومه من مصر ليلاقوا عذاب الله الغرق ثم النار، وما لهم من دون الله من أنصار.

فماذا تنتظر قريش وما منعهم من الإيمان برسول الله وكتابه المنزل؟! ما ينظرون إلا صيحة واحدة تهلكهم فلا يستطيعون ردها ولا تأخيرها ولو مقدار فواق ناقة، وكانت

العرب تعبر بفواق الناقة عن الوقت القليل لأنه لم تكن لديهم آلات لضبط الأوقات، والفواق هو الانتظار ما بين الحلبتين، وهو وقت قليل، فما أضعفهم إذا جاء أمر الله! لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون.

﴿وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ﴾.

بلغ من طغيان هؤلاء المكذبين أن طلبوا نصيبهم من العذاب في الدنيا واستعجلوه قبل يوم القيامة، فقالوا ربنا عجل نصيبنا من العذاب قبل يوم الحساب، وما ذاك إلا لأنهم كذبوا بيوم الحساب وما كانوا ليتفوهوا بهذه الكلمة لو كان في قلوبهم ذرة من الإيمان بيوم الحساب، وكذلك يفعل المكذبون الضالون.

والقط في اللغة هي قطعة من ورق أو نحوها يكتب فيها الملوك والأمراء نصيب أحد العمال من رعاياهم ليصرف إليهم، وهو مأخوذ من قطَّ يقطُّ بمعنى قطع يقطع، ورجحنا أن يراد بالقِط هنا نصيبهم من عذاب الله، ذلك لأن الرسول أنذر المكذبين عذاب الله فاستعجلوا هذا العذاب استهزاء وسخرية بالوعيد، وقال بعض المفسرين: هو نصيبهم من الثواب استعجلوه في الدنيا، وهذا الوجه مستبعد لأن حال المكذبين تنتظر العذاب لا الثواب، والله أعلم، ثم قال تعالى:

﴿اصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾.

يأمر الله نبيه بالصبر على أذى هؤلاء الكفار، اصبر على ما يقولون ولا تهتم بهم ولا بأذاهم، فإن الله سيكفيكهم، وفي هذا تسلية لقلب النبي ومن معه من المؤمنين لأن قلوبهم قد تهتم وتحزن بما يقولون ويسخرون، فأمرهم الله بالصبر والتجاوز، فإن حسابهم على الله سيجازيهم أو يتوب عليهم إن تابوا، قال تعالى:

﴿وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾.

واذكر يا محمد عبدنا داود النبي الرسول، واختار الله وصف العبودية للتشريف ولتواضعه وتذلله لربه ﴿ذَا الأَيْدِ﴾ أي ذا القوة والعزيمة في عبادة ربه بالصيام وقيام الليل

وقوة الثبات في الحرب وقيامه على الملك، وكان يصنع دروع الحديد ويقتات من كسب يده، ثم إنه كان قويا في فصل الخصومات، وكان قويا في الحق، يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ويقبض على يد الظالم ويأطره على الحق أطرا، وتلك هي القوة ﴿إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ إنه كثير الرجوع إلى ربه لا يغفل عن ذكره والتسبيح له والإنابة إليه، وكذلك يحب الله من عباده أن يكونوا أوابين، ويقول: ﴿فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلْأَوَّٰبِينَ غَفُورًا﴾ (الإسراء: ٢٥)، ثم يذكر الله من معجزاته وكراماته لعبده داود عليه السلام من تسبيح الجبال والطير معه، فيقول:

﴿إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَّهُ أَوَّابٌ﴾.

هكذا يأتي التسخير مسندا إلى نون العظمة والله على ما يشاء قدير، سخر الله الجبال تؤوب مع داود عليه السلام وترجع ألفاظ التسابيح معه، وكذلك الطيور، وليس ترجيع الجبال هو الصدى المعروف بل هو ترجيع خاص تتحقق به المعجزة الإلهية فهو مثل ترجيع الطير خرق للعادات، فإذا انطلق لسان سيدنا داود عليه السلام بالتسبيح ورجعه بصوته الشجي بالأذكار والتسبيح سبحت معه الجبال وحشرت حوله الطيور.

﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ﴾.

قال الله تبارك وتعالى: وآتينا داود الحكمة وهي النبوة وكمال العقل، وفصل الخطاب وهو إصابة الحق بالقول السديد، فكان سيدنا داود عليه السلام يخطب الناس ويرشدهم إلى الصواب وما فيه هدايتهم، ويفصل بينهم في الخصومات ويعطي كل ذي حق حقه، وينصف للمظلوم من الظالم، وتلك نعمة من الله وكرامة لعبده داود عليه السلام، وقال بعض المفسرين: فصل الخطاب هو: أما بعدُ، وهذا عندي تفسير ضعيف لأنه قصر لمعنى الكلمة على بعض أجزائها، والله أعلم.

۞وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا۟ ٱلْمِحْرَابَ
﴿٢١﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَىٰ دَاوُۥدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ خَصْمَانِ
بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَٱحْكُم بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ
وَٱهْدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ ﴿٢٢﴾ إِنَّ هَٰذَآ أَخِى لَهُۥ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ
نَعْجَةً وَلِىَ نَعْجَةٌ وَٰحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِى فِى ٱلْخِطَابِ ﴿٢٣﴾ قَالَ
لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ لَيَبْغِى
بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ
مَّا هُمْ وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ
۩ ﴿٢٤﴾ فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٢٥﴾
يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ
بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ
عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٦﴾

تأتي هذه الآية في صيغة الاستفهام الذي يراد به إلفات الانتباه لهذه الحادثة التي وقعت لسيدنا داود عليه السلام وسماها الله نبأ لأهمية خبرها إذ فيه عبرة للمعتبرين، وفيه موعظة للمتقين، كان سيدنا داود عليه السلام قسم أيامه على أربعة: يوم للتبتل لعبادة ربه، ويوم للحكم بين الناس والفصل بين الخصوم، ويوم يجلس فيه لبني إسرائيل ينذرهم ويعظهم ويعلمهم ما يلزمهم من أمر دينهم، ويوم لأشغاله الخاصة التي منها صناعة الدروع، وكان له محراب خاص يتعبد فيه يقيم حوله حراسا.

وبينما كان يتلو تسابيحه ويقرأ الزبور في محرابه ويذكر الله، إذ تسور عليه المحراب خصمان من ملائكة الله في صورة بشر، فلما مثلا بين يديه فزع منهم، داخله خوف ودهشة من مجيئهم بدون إذن ولا إعلام من قبل ولا يعلم قصدهم من هذا المجيء المفاجئ، فأمّنوه وقالوا له: لا تخف إننا خصمان جئناك لتقضي بيننا فاحكم بيننا بالحق

ولا تشطط، والشطط هو البعد عن الحق، واهدنا إلى سواء الصراط، أي إلى الصواب والسداد الذي هو الصراط السوي، وفي خطابهم جرأة على القاضي وذلك في قولهم: "ولا تشطط" وفيه امتحان لصبر داود فوجدوه صابرا كما وصفه الله، وكذلك تكون أخلاق الأنبياء وسراة الصالحين، أما نوع بغي أحدهما على الآخر فهو مثل ضربه الله لما يقع فيه كثير من الخلطاء.

﴿إِنَّ هَذَآ أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِي نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْخُلَطَآءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلاَّ الذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾.

ذكر الأخوة أولا وهي الأخوة في الدين أو النسب في الدين حتى يعظم جرم البغي، فكيف يبغي الأخ على أخيه، ثم أبان نوع الظلم وهو شنيع، فكيف يكون الذي يملك تسعا وتسعين نعجة هو الذي يطالب صاحب النعجة الواحدة ويعزه في الخطاب، أي يغلبه حتى لا يستطيع الدفاع عن نفسه ويشتكيه إلى القاضي، فهذه المطالبة بغي ولو كانت من الفقير للغني، فلو خاطب صاحب النعجة الواحدة صاحب التسعة والتسعين أن يكفله نعجة من نعاجه ويعزه في الخطاب لكان باغيا فكيف من القوي للضعيف، وقوله: **﴿أَكْفِلْنِيهَا﴾** فمعناه اجعلني كفيلا لها، أي مالكا لها مع نعاجي.

أما قول بعض المفسرين نقلا عن الإسرائيليات أن المقصود بالنعاج هي النساء فنحن نذكره للرد عليه ولا نرضاه لنبي من أنبياء الله أبدا، وقد نعلم أن بني إسرائيل يؤذون أنبياء الله بأنواع الأذى فكيف يغتر بعض أهل التفسير من المسلمين فينقلوا مثل هذا الكلام الذي فيه تهمة لنبي الله داود الأواب عليه السلام.

زعموا أن داود الذي كانت له تسع وتسعون زوجة رغب في زوجة أحد قواده وهو أوريا، وذلك أنه رآها وهي تغتسل رؤية مفاجئة من غير قصد، فتعلق قلبه بها فأمر

بدفع زوجها إلى صف المواجهة في القتال التي تحمل التابوت ليموت فيتزوجها، وقيل: إنه تزوجها فعلا فامتحنه الله بهذه الخصومة فعلم أنه امتحان من الله فخر ساجدا واستغفر ربه وطال تضرعه وبكاؤه حتى نبت العشب من دموعه وأخيرا تاب الله عليه وغفر له ذنبه، وهذه التهمة الشنيعة لا نرضاها لولي من أولياء الله مثل داود النبي الرسول عليه السلام، وروي عن علي بن أبي طالب أنه قال: "من تكلم بهذه التهمة جلدته حدين لأنها تهمة نبي"، ونحن نعجب من أهل التفسير الذين راجت عليهم هذه المقالة فذكروها في كتبهم، ونكل أمرهم إلى الله.

ولنرجع إلى معنى فتنة الله لداود فماذا تكون إذن وما هي المعصية التي يستغفر داود ربه منها؟ نذكر وجهين لمعنى هذه الفتنة ثم نرجح ما نراه في نظرنا أقرب إلى الصواب والله أعلم:

الوجه الأول: وهو الذي ذكره بعض العلماء وهو أنه هو تسرع داود عليه السلام للحكم قبل أن يسمع كلام الخصم الآخر لعله تكون له حجة تبرر عمله هذا إن كان واقعا أو تفند كلام خصمه، قيل هذا هو ذنب داود الذي استغفر ربه منه وأناب إلى الله.

أما الوجه الثاني لمعنى الفتنة فهو من فهمي الخاص وأرجو أن يكون صوابا، وهو انشغال داود لحظة من زمان عن عبادة ربه بالطائر المزخرف الذي امتحنه الله به فحاول داود أن يمسكه ويضمه إلى الطيور التي عنده لجمال صورته وحلاوة صوته وتغريده فانصرف عما كان فيه من التسبيح حتى خرج الطائر من الكوة وجاءه الخصمان.

أما قولهم هو التسرع في الحكم قبل الاستماع للخصم الآخر هذا أيضا ننزه عنه داود النبي عليه السلام، وقد يكون حاور الخصم الثاني واستمع إليه ولم تذكره الآية كما هي طريقة القرآن لا يستوعب كل أجزاء القصة إنما يذكر منها موضع العظة والذكرى، فنرجح أن يكون هو انصراف داود عن ذكره ربه إلى محاولة الإمساك على الطير العجيب ليضمه إلى طيوره وما عنده من مكاسب الملك وأثاثه.

وتلك هي النسبة بين صاحب النعجة الواحدة وصاحب التسعة والتسعين، وهذا الانشغال من داود في هذه اللحظة عن ذكر ربه في اليوم المخصص للذكر يعتبر منه ذنبا لعظيم منزلته عند الله، وقديما قالوا: "حسنات الأبرار سيئات المقربين" لا سيما إذا كانت الرواية التي رووها في هذا المقام حقا، وذلك أنهم ذكروا أن داود عليه السلام دعا ربه يوما بحق آبائه إبراهيم وإسحاق ويعقوب فأوحى الله إليه أيّ حق لآبائك عليّ؟ بل المنة عليهم أن هديتهم واستخلصتهم لعبادتي وقد بلغوا عندي درجة لن تصلها.

فسأل داود ربه أن يمتحنه حتى يصبر فيصل درجتهم بالصبر على البلاء والامتحان، فامتحنه الله بهذا الطائر في يوم تبتله لعبادة ربه فأغواه حسنه فافتتن به فشغله عن تسابيحه فأدرك المقصود من كلام الخصمين.

﴿وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ﴾.

فظن أي أيقن أنها فتنة من الله، فندم على ما فرط منه وأدرك ذنبه وتقصيره في حق الله، وبعد التضرع والبكاء الطويل امتن الله عليه بالمغفرة، فقال تعالى:

﴿فَغَفَرْنَا لَهُ ذَٰلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَآبٍ﴾.

يخبرنا الله في هذه الآية الكريمة أنه غفر لعبه داود عليه السلام ذنبه وتقبل منه سجدته وأعد له زلفى وحسن مئاب، أي قربة وحسن عاقبة ومصير، وكذلك يغفر الله للأوابين ذنوبهم ويرحمهم ﴿فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُورًا﴾ (الإسراء: ٢٥)، وأما قوله:

﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾.

فقيل هو كلام الله، وقيل هو من قول داود حكاه الله وصدّقه، وكلا القولين مقبول، وهو كلام الله على كل حال، وهو استثناء قليل من كثير، وهو موعظة من الله لعباده المتقين ليتورعوا ويحتاطوا لأنفسهم ولا تغرهم كثرة الهالكين، فلنحذر حب الدنيا والرغبة فيها، فإن حب الدنيا رأس كل خطيئة، ثم يأتي في الآية التالية نداء من الله

تعالى لعبده داود وأمثاله من القضاة الذين ينتصبون لفصل الخصومات بين الناس، قال تعالى:

﴿يَادَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلاَ تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ﴾.

نداء من الله تبارك وتعالى لعبده داود الأواب يعظه ويسدده ويحذره من اتباع الهوى، ويبين له وللناس جميعا عاقبة اتباع الهوى، يقول تبارك وتعالى: يا داود إنا جعلناك خليفة في الأرض فاحكم بين الناس بالحق، قال أهل التفسير: الخليفة الذي يكون خليفة الله في الأرض، هذا خاص بالأنبياء والرسل وأيمة الهدى من بعدهم، وقد يراد هنا جعل داود خليفة لموسى أو خليفة لمن كان قبله من أنبياء بني إسرائيل وملوكهم، يخلفهم داود في ملك الأرض، وليست كل الأرض بل هي الأرض التي يشملها ملك بني إسرائيل، وهذا امتنان من الله على عبده داود حتى يشكر نعمة الله في هذه الخلافة ويقوم بعظيم حقها بالقيام بالعدل بين الناس وأمرهم بالقسط.

فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى أياً كان، سواء كان هوى النفس، أو هوى من تحب، أو هوى من تخاف وترجو، أو هوى الناس الذين هم رعيته، فاتباع الهوى يضل عن سبيل الله، إن الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا، أي بسبب نسيانهم يوم الحساب وما بعده من الثواب والعقاب، وإعراضهم عن النذر والناصحين.

وفي هذا التحذير من الله لعبده داود إشارة إلى نوع الذنب الذي صدر من النبي داود على قول بعض أهل التفسير أنه التسرع إلى الحكم قبل التثبت من الدعوى والاستماع إلى الخصم الآخر، وقد يكون هذا القول حقا، وقد يراد باتباع الهوى مجرد ميل القلب إلى الدنيا وانشغاله بها عن عبادة الله، ويراد بالضلال مطلق الخروج عن السبيل الذي يجب أن يكون عليه أهل الخصوصية والسبق والله أعلم.

أما الذين يضلون عن سبيل الله الذين توعدهم بالعذاب الشديد فهو ضلال الشرك وفعل الكبائر والإصرار على الذنوب ؛ لأن أصحاب هذه الخصال هم الذين نسوا يوم الحساب ، وهذه من الله موعظة وذكرى لأولي الألباب ، وإنذار منه لمن يتبع الهوى وينسى يوم الحساب ، ونعوذ بالله من اتباع الهوى والإعراض عن النذر ونسيان يوم الحساب.

وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟
فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿27﴾ أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟
ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ
﴿28﴾ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟
ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿29﴾

تأتي هذه الجملة معترضة في خلال الكلام في قصة داود وسليمان عليهما السلام لتقرر أصول العقيدة الصحيحة التي هي الأساس وهي الإيمان بالله واليوم الآخر، والعمل الصالح، والإيمان بالقرآن، الذي هو كتاب الله المنزل بالحق على رسول الله المبعوث للناس بشيرا ونذيرا، وتلك سنة القرآن لأنه كتاب ذكر وموعظة لا كتاب قصص وأساطير، فهو يعمد إلى مواطن العبرة من القصة ويخلل القصة بآيات فيها مواعظ وإرشادات وتقرير للعقيدة التي هي الحق، وهنا يقول الله تبارك وتعالى:

﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَآءَ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلاً ذَٰلِكَ ظَنُّ الذينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِّلّذينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ﴾.

ينفي ربنا تعالى نفيا باتا أن يكون خلق السماوات والأرض وما بينهما باطلا، ويثبت في آيات أخرى أنه ما خلقهما إلا بالحق، وذلك ليبلو عباده في هذه الحياة الدنيا ثم يجازيهم بما يستحقون يوم الحساب يوم تنصب موازين العدالة الإلهية، يوم يجزي الله الذين أساؤوا بما عملوا ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى، ويظن الذين كفروا أن الله خلق السماوات والأرض وما بينهما باطلا، جلت أفعال ربنا عن الباطل، بل كل أفعاله

حق، وظن الذين كفروا هو الباطل، فويل للذين كفروا من نار جنهم، وهذا من الله وعيد شديد لهم بسبب كفرهم بالله واليوم الآخر، وبسبب فجورهم، والويل هو الشقاء والعذاب الأليم، وهو عاقبة كل من مات فاجرا كفارا.

﴿أَمْ نَجْعَلُ الذينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ﴾

أم هنا للإضراب الذي لا يفارقه معنى الاستفهام الإنكاري، ينكر الله على هؤلاء الذين يزعمون باطلا أن عاقبة المؤمنين المصلحين وعاقبة الكفار المفسدين سواء، فيقول تعالى: هل نجعل الذين آمنوا بالله واليوم الآخر وعملوا الصالحات كالكفار! وهذا من الله إنكار شديد للذين يزعمون التسوية بين الفريقين بكفرهم بيوم الحساب والجزاء، وهذا هو الاعتقاد الباطل.

والحق أن الله سيجازي كلا بما يستحق، وشتان بين سعي المتقين وسعي الفجار! والمتقون هم الذين يراقبون الله في حركاتهم وسكناتهم فيأتون بالأوامر ويجتنبون النواهي ويتقربون إلى ربهم بأنواع القربات مخلصين دينهم لله لا يشركون به شيئا، وقد فسر أهل العلم التقوى أنه: الخوف من الرب الجليل، والعمل بالتنزيل، والاستعداد ليوم الرحيل، وقال آخرون: هو أن تستحي من ربك أن يراك حيث نهاك، أو يفقدك حيث أمرك.

والتقوى كلمة جامعة لكل خير، رادعة عن كل شر، وأصلها من الوقاية وهو الحذر من أمر مخوف، تجعل بينك وبينه وقاية، وذلك أن تجعل بينك وبين سخط الله وعذابه وقاية وذلك باستقامتك على الحق، وإخلاصك لله عز وجل، قال تعالى: ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلاَ تَطْغَوا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ (هود: ١١٢)، أما الفجور فهو خلاف التقوى وهو الفسوق عن أمر الله وفعل المعاصي وترك الفرائض

والواجبات، فلا يستقيم في العقل أن يسوي الله تعالى في الجزاء بين أهل التقوى وأهل الفجور.

﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا ءَايَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُوا الأَلْبَابِ﴾.

هذا القرآن الذي أقسم الله به في أول السورة يقول الله فيه: كتاب أنزلناه إليك مبارك، قرآن كريم في كتاب مكنون لا يمسه إلا المطهرون، أنزله الله تبارك وتعالى إلى رسول الله ﷺ منجما ليقرأ ويكتب ويتلوه الأبرار وليدبروا آياته، أي ليتفكروا فيها وفي عواقب ما تبشر به وتنذر منه، وليتذكر به أولوا العقول والألباب، والكتاب كثير البركات والنفع، وبركاته تنال تاليه والعاملين به، وتنزل عليهم في الدنيا والآخرة، فيسعدون في الدارين، وويل للمكذبين به المعرضين عنه، الناسين يوم الحساب.

وَوَهَبْنَا لِدَاوُدَ سُلَيْمَٰنَ نِعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٣٠﴾
إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِٱلْعَشِيِّ ٱلصَّٰفِنَٰتُ ٱلْجِيَادُ ﴿٣١﴾ فَقَالَ إِنِّىٓ
أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّى حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ ﴿٣٢﴾
رُدُّوهَا عَلَىَّ فَطَفِقَ مَسْحًۢا بِٱلسُّوقِ وَٱلْأَعْنَاقِ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا
سُلَيْمَٰنَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ﴿٣٤﴾ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ
لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٣٥﴾
فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾ وَٱلشَّيَٰطِينَ
كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ ﴿٣٧﴾ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٣٨﴾ هَٰذَا
عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٩﴾ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ
مَـَٔابٍ ﴿٤٠﴾

يعود القصص القرآني الحكيم إلى ذكر داود وسليمان، فيذكر هنا من أمر سليمان ما لم يذكره في مواضيع أخرى، من امتحان الله تعالى عبده سليمان في موقفين من

مواقفه، وكيف خرج منها بسلام وأناب لربه وأسلم له، ودعاه فاستجاب لـه واستغفره فغفر له، قال الله عز وجل:

﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُودَ سُلَيْمَانَ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾.

رزق الله عبده داوُد ولدا صالحا ألهمه أن يسميه سليمان، وهو هبة من عند الله؛ لأنه ولد صالح، وقد أثنى الله عليه فقال: ﴿نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ أي: نعم العبد لله، إنه أواب، أي كثير الرجوع والإنابة إليه، وكذلك ينبغي أن يكون عباد الله الصالحون لا يغفلون عن ربهم ولا ينسونه بل يذكرونه دائما، وإذا مسهم طائف من الشيطان سرعان ما يتذكرون ويؤوبون إلى ربهم ويتوبون إليه، أما أنبياء الله فهم معصومون من الذنوب التي هي الفسوق، إنما ذنوبهم ما لا ينبغي لهم في حق الله الذي اصطفاهم وهم يستغفرون الله من التقصير في حقه ويؤوبون إليه بعد كل حالة يغفلون فيها عن ذكره، وهو ما أثنى الله به على سليمان حيث قال: ﴿نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾، ثم قال:

﴿إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّي حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ رُدُّوهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحاً بِالسُّوقِ وَالأَعْنَاقِ﴾.

الصافنات الجياد: وصفان للخيل الجيدة المختارة، وهما وصفان يعرفهما أصحاب الخيل، والصفن أن تقف الفرس أو الحصان بثلاث قوائم وتلامس الرابعة الأرض بطرف حافرها لنشاطها وتحفزها للانطلاق، لقد كان نبي الله سليمان ﷺ نبيا رسولا ملكا، فكان يستعرض الخيل، والخيل قوة الدولة، قال تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ﴾ (الأنفال: ٦٠).

عرضت الصافنات الجياد على سيدنا سليمان ﷺ في عشية من العشايا، وقيل: كانت عشرين ألفا، فلبث في استعراضها حتى توارت الشمس بحجاب الأفق، أي غربت وحينئذ شعر سليمان بالتقصير في حق الله إذ شغلته عن التسبيح الذي كان قد فرضه على

نفسه في مثل ذلك الوقت، فقال: إني أحببت حبّ الخير، أي الخيل حتى شغلني عن ذكر ربي، فسمى الخيل خيرا، وهي خير عتاد للدولة.

لكن نبي الله سليمان الأواب رأى انشغاله بها عن ذكر ربه تقصيراً يجب الاستغفار منه والتكفير، فأمر بردها عليه ﴿رُدُّوهَا عَلَيَّ﴾ فردوها عليه فطفق مسحا بسوقها وأعناقها، أي جعل يعقرها وينحرها ويتصدق بلحمها على الفقراء كفارة لما فرط منه من الانشغال عن ورده في ذكر ربه والتسبيح له، وفي قوله تعالى: ﴿تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ﴾ تعبير بديع في غاية الروعة والإبداع، ولله ما أبدع الأساليب في كلام الله تبارك وتعالى!

﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ﴾.

اختلف أهل التفسير في معنى الآية، والأظهر في ذلك ما روي في صحيح البخاري أن رسول الله ﷺ قال: {قال سليمان: لأطوفن الليلة على تسعين امرأة كلهن تأتي بفارس يجاهد في سبيل الله، فقال له صاحبه: قل إن شاء الله، فلم يقل إن شاء الله، فطاف عليهن جميعا فلم تحمل منهن إلا امرأة واحدة جاءت بشق رجل، وأيم الذي نفسي بيده لو قال: إن شاء الله لجاهدوا في سبيل الله فرسانا أجمعون}.

يروى أنه لما ولد له ذلك الجسد ألقي على كرسيه، فلما رآه وعرفه علم أنه فُتن فأناب إلى ربه وطلب منه المغفرة على غفلته، وهذا أقرب أقوال المفسرين إلى الصواب في نظري، فلنأخذ به ولننبذ الأقوال الأخرى التي لا تليق بمقام نبي الله سليمان وإخلاصه لله وقربه من ربه، ولا نظن بأنبياء الله ورسله إلا خيرا، ولا نظن ترك قوله: إن شاء الله إلا عن غفلة، وتكون هذه الغفلة من أمثاله سيئة يستغفر الله منها ويتوب إليه، ثم إنه سأل الله عطاء يكون فيه دلالة على مغفرة الله لذنبه ورضاه عنه، فقال:

﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنبَغِي لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِيٓ إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ﴾.

سأل سليمان ربه أن يهب له ملكا لا ينبغي لأحد دونه في زمانه أو بعده، أي لا يتأتى له ولو طلبه وذلك ليكون معجزة على صدق نبوته ورسالته المؤيدة من الله،

وليقيم للناس الحجة على القيام بحق الإمامة للناس، وليجمع بين تكاليف الملك وعبادة الله تعالى، ولم يكن سأل هذا الطلب ليتعالى على الناس ويستكبر في الأرض بغير الحق، ولذلك أسعفه الله على مطلبه وأناله مبتغاه وأقام به الحجة على ملوك الدنيا، قال تعالى:

﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ﴾.

سخر الله الريح لعبده سليمان وجعلها طوع أمره تهب له عاصفة متى شاء ورخاء حين يريدها كذلك، ولكل من العصوف والرخاوة موضعه، فهي حين ينهض بساطه من الأرض عاصفة قوية لأن بساطه العامر يسع موكبه الحافل، وحين يستوي بساطه في جو السماء تسير به رخاء لينة في سرعة غدوها شهر ورواحها شهر، وهذا يعرف من طبيعة إقلاع الطائرات تعصف محركاتها قوية عند الإقلاع وحين تستوي في الطيران في أجواء السماء تنقص من قواها وتسير رخاءً في طيرانها، وقوله تعالى: ﴿حَيْثُ أَصَابَ﴾ أي حيث توجه وقصد، وهي لغة حمير، وقيل: لغة هجر، وهو من الصوب أي الجهة، وكذلك تتوجه الريح حيث توجهت سفن سليمان في البحر تدفعها لتصل سريعا حيث يريد.

﴿وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الاَصْفَادِ﴾.

وسخر الله الشيطان وذللها لسليمان وهم شياطين الجن يعملون له ما يشاء من كل بنيان متين، وغوص في البحار يستخرجون منها اللآلئ والمرجان والجواهر، ومن لم يطاوعه في العمل يقرنهم في الأصفاد مقيدي الأيدي والأرجل، قال تعالى:

﴿هَذَا عَطَآؤُنَا فَامْنُنَ اَوَ اَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾.

هذا عطاء الله لسليمان، يمتن الله عليه ويبيح له أن يتصرف في ملكه كما يريد من غير محاسبة، فامنن على من تشاء من غير حساب منا، وكذلك يجزي الله المحسنين من عباده، فقد كان سليمان شاكرا لربه متواضعا أوابا، ولم يكن متكبرا جبارا.

﴿وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَئَابٍ﴾.

يقول الله تبارك وتعالى: وإن له، أي لسليمان عندنا لزلفى، أي منزلة قرب وتكريم وحسن عاقبة، ومرجع في الآخرة، وهذه من الله شهادة لنبي الله سليمان عليه السلام، وكذلك يجتبي الله من عباده من يشاء ويرفع من يشاء من رسله درجات.

وَٱذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴿٤١﴾ ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ هَٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴿٤٢﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٤٣﴾ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَٱضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٤٤﴾ وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ أُو۟لِى ٱلْأَيْدِى وَٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٥﴾ إِنَّآ أَخْلَصْنَٰهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى ٱلدَّارِ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٧﴾ وَٱذْكُرْ إِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَذَا ٱلْكِفْلِ وَكُلٌّ مِّنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٨﴾

القصة الثانية في هذه السورة بعد قصة داود وسليمان هي خبر أيوب عليه السلام الذي أثنى الله عليه بما أثنى على داود وسليمان، قال الله فيه: ﴿نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ وقال مثل ذلك في داود وسليمان، ومدح داود وسليمان بالشكر، ومدح أيوب بالصبر، وكلا الخبرين ذكرى لأهل العقول، ذكر أنه ابتلى داود وسليمان بالنعم فشكراً لله، وابتلى أيوب بالنصب والعذاب فصبر لله، والله تبارك وتعالى يبتلي من يشاء من عباده بما يشاء من النعم والرزايا لينظر من يشكر ومن يصبر، قال تعالى:

﴿وَاذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ﴾

واذكر خبر عبدنا أيوب حين نادى ربه يدعوه، قال: رب إني مسني الشيطان بنصب أي بمشقة وتعب، وعذاب أي بآلام، ابتلاه بمرض الأكلة تقرح بها جلده

وأصابته حمى ولازمه المرض بضع سنين، وأقصي عن أهله في عريش معزول وكان لا يزوره أحد إلا امرأته "رحمة" عليها السلام، تتفقده وتخدمه وتحمل إليه الطعام والماء، وفي هذه الحالة كان الشيطان يوسوسه ويقول له: لو كنت رسول الله حقا لما سلط عليك هذه القروح والأمراض التي عزلتك عن الناس ولما أصابك بذهاب أهلك ومالك، ثم إنه يتركك مقصيا عن الناس ولا يفرج عليك، فلما أكثر عليه الشيطان بهذه الوساوس تضرع لربه بالدعاء: ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ﴾ فاستجاب الله له وفرج عنه وشفاه من مرضه ورد عليه أهله ومثلهم معهم ورد عليه أمواله وزيادة.

والذي اشتهرت به الروايات أن الله فتنه وابتلاه بتسلط أحد الشياطين المردة على أمواله فأهلكها، ثم على أولاده فأسقط عيهم البنيان فهلكوا ليبتليه أيصبر أم يجزع، وليجعله حجة على الشياطين وأسوة لأهل البلاء في هذه الدنيا، كما جعل من سليمان حجة لأهل الملك والسلطان وأسوة لأهل النعم، ولله في خلقه شؤون.

ثم أذن الله للشيطان أن يصيبه في بدنه إلا قلبه ولسانه فلم يجعل الله للشيطان عليها سبيلا، روي أن الشيطان نفخ في منخره وهو ساجد فاشتعل جسمه بالمرض والحمى وتقرح جلده فكان يسيل دما وصديدا، وأصابته الأكلة ودام به هذا الحال مدة طويلة، سنوات عدة فنبذه أهله وجعلوه في عريش وذلك خشية للعدوى واستقذارا لحاله، فكانت زوجته رحمة تترد عليه تخدمه.

ثم إن الشيطان حاول أن يفتنه عن طريقها، فظهر لها على صورة إنسان ذي هيئة حسنة عليه جلال السلطان فقال لها: أنا رب أيوب فاذبحي هذه السخلة أشفه من مرضه وأزيل ما به من نصب وآلام، وكانت رحمة حريصة على شفاء زوجها، فطلبت من زوجها أيوب أن ينفذ المطلب فغضب أيوب عليها غضبا شديدا وحلف يمينا ليجلدنها مائة سوط وطردها فذهبت تبكي، ثم إنها أدركتها الشفقة عليه فرجعت إليه تتفقده ولكنها لم تجده هذه المرة ووجدت قريبا من المكان رجلا حسن المنظر، نظيف الثياب،

عليه رواء وجلال، فاستحيت أن تكلمه فسألها: ماذا تريدين؟ فقالت: أريد زوجي، هل رأيت رجلا مريضا صفته كذا وكذا؟ قال: هل تعرفينه إذا رأيته؟ قالت: نعم، قال: أنا أيوب، فتأملته فإذا هو أيوب حقا، قد فرج الله عنه وأزال ما به من أسقام وأوجاع، ورد عليه صحته وجماله، وكساه بكسوة نظيفة، لقد فرج الله على عبده أيوب عند اشتداد الكرب حين بقي فريدا فأمره الله أن يركض الأرض برجله فأنبع له عينا عذبة باردة فأمره أن يغتسل منها ويشرب، ففعل فشفاه الله ورد عليه صحته.

﴿ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ﴾.

اضرب برجلك، ففعل فنبع الماء وقال له الله: هذا مغتسل لك بارد يزيل ما بك من حمى وسقام، وهذا شراب فيه لك شفاء، وهكذا فرج الله على عبده أيوب بعد صبر طويل، وفي ذكر خبره هذا ذكرى لأولي الألباب الذين يتفكرون بعقولهم ويعتبرون بأحوال الصابرين، قال تعالى:

﴿وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾.

رد الله على أيوب أهله وولده ومثلهم معهم، ورد الله عليه أمواله التي ذهبت وفاز بثواب الصابرين، فمدحه الله بمثل الذي مدح به سليمان **﴿نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾**، أنعم الله على داود وسليمان فكانا أوابين إلى الله لم تفتنهما نعمة المال والملك، وابتلي أيوب بأشد أنواع البلاء فكان صابرا أوّاباً لله لم يُضعفه البلاء، فبين الله بهاتين الآيتين ما للشاكرين وما للصابرين الأوابين من عظيم المنزلة عند الله تعالى.

ثم إن الله تبارك وتعالى لطف بعبده أيوب فبر يمينه من غير أن يؤذي زوجته التي كانت برة به وفية له في حال الشدة، فأفتى له أن يأخذ حزمة فيها مائة سوط من مثل شماريخ العرجون فيضرب زوجته مرة واحدة حتى يبر بيمينه ولا يحنث، ولم تكن كفارة اليمين مشروعة لهم يومئذ، ولو شاء الله لسامحه بدون ضرب، ولكن الله يريد أن يبين لنا خطر اليمين حتى لا نتهاون بأيماننا ونحفظها ولا نستعملها إلا فيما هو حق

وصدق، ثم نبر بما حلفنا على فعله أو تركه ما لم يكن معصية، وإذا حلفنا على يمين فرأينا غيره خيرا منه فلنكفر عن يميننا ولنأت الذي هو خير.

﴿وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِب بِّهِ وَلاَ تَحْنَثْ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِّعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾.

رخص الله له أن يأخذ ضغثا فيه مائة من سوط من النبات فيضرب به ضربة واحدة ولا يحنث في يمينه، وهي رخصة له من الله خاصة، وقال بعض الفقهاء: بل يرخص بها للناس، وشرع من قبلنا هو شرع لنا إذا لم يبدل بشرع آخر، ورخصوا بمثل هذا في إقامة الحد على المريض إذا لم يمكن إنظاره إلى زوال المرض، والله أعلم.

﴿وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُوْلِي الأَيْدِي وَالأَبْصَارِ﴾.

واذكر يا محمد عبادنا إبراهيم وإسحاق ويعقوب أولي الأيدي والأبصار، شرفهم الله بلقب العبودية، وهي إضافة اختصاص وتشريف، ذلك لأن هؤلاء المصطفين الأخيار حققوا عبوديتهم لربهم بإخباتهم وتذللهم له واتباع أوامره واجتناب نواهيه، أولي الأيدي، أي أولي القوة والعزيمة في عبادة الله وتحمل الأذى في سبل الله، وأولي الإحسان إلى الناس بدعوتهم إلى الخير والصبر على أذاهم في الدنيا، فهم قد أنار الله بصائرهم وشرح صدورهم للإسلام، فهم على نور من ربهم، وهم سلسلة كرم وإيمان وخير: الأب والابن والحفيد، يقول الله تعالى فيهم:

﴿إِنَّآ أَخْلَصْنَاهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الأَخْيَارِ﴾.

اجتباهم الله وأخلصهم بشأن عظيم من شؤونه وهو خالصة ذكرى الدار، فهم لا يذكرون إلا الدار الآخرة، ولا يسعون إلا لها، وهم عن الدنيا وفتنتها وأشغالها معرضون، ومن كان كذلك لا يصدر منه إلا الخير ولا يهتم إلا بتقديم الزاد لتلك الدار، ويأتي نعتهم مؤكدا ومضافا إلى نون العظمة، يقول الله: وإنهما عندنا لمن

المصطفين الأخيار، اصطفاهم الله من بين خلقه واختارهم وفضلهم على الناس، وما ذاك إلا لأنهم أتقياء أبرار محسنون.

﴿وَاذْكُرِ اسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ وَكُلٌّ مِّنَ الأَخْيَارِ﴾.

واذكر أيضا يا محمد إسماعيل واليسع وذا الكفل، هؤلاء الثلاثة الأنبياء الأبرار، ولقد شهد الله لهم أنهم من الأخيار، وما ذاك إلا لخصال خيّرة اتصفوا بها، وقد علمنا صبر إسماعيل وصدقه في طاعة ربه، ولم نعلم من خبر اليسع وذي الكفل شيئا، ويكفي أنهم من الأخيار، ولابد من صفة أو صفات تجمع بين هؤلاء الأنبياء الثلاثة الذين قرن الله بينهم في الذكر في نسق واحد.

هَٰذَا ذِكْرٌ
وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ ﴿49﴾ جَنَّاتِ عَدْنٍ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ الْأَبْوَابُ
﴿50﴾ مُتَّكِئِينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ ﴿51﴾
۞ وَعِندَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ أَتْرَابٌ ﴿52﴾ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ
الْحِسَابِ ﴿53﴾ إِنَّ هَٰذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُ مِن نَّفَادٍ ﴿54﴾ هَٰذَا ۚ وَإِنَّ
لِلطَّاغِينَ لَشَرَّ مَآبٍ ﴿55﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴿56﴾ هَٰذَا
فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ ﴿57﴾ وَآخَرُ مِن شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ ﴿58﴾ هَٰذَا
فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ ۖ لَا مَرْحَبًا بِهِمْ ۚ إِنَّهُمْ صَالُو النَّارِ ﴿59﴾
قَالُوا بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْحَبًا بِكُمْ ۖ أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا ۖ فَبِئْسَ الْقَرَارُ ﴿60﴾
قَالُوا رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَٰذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِي النَّارِ ﴿61﴾
وَقَالُوا مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ الْأَشْرَارِ ﴿62﴾ أَتَّخَذْنَاهُمْ
سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ الْأَبْصَارُ ﴿63﴾ إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ
النَّارِ ﴿64﴾

بعد ورود خبر بعض أنبياء الله ورسله وثناء الله عليهم الثناء الحسن تقتضي حكمة الله أن يذكر لنا ما أعد للمؤمنين الأبرار من ثواب، وما أعد للكافرين الطاغين من عقاب على طريقة المزاوجة بين الوعد والوعيد في القرآن الكريم، وفي ذلك موعظة وذكرى لأولي الألباب، يقول الله تبارك وتعالى:

﴿هَذَا ذِكْرٌ﴾.

"هذا" الإشارة إلى ما تقدم من الكلام على الأنبياء المذكورين هنا، أي هذا ذكر لهم وثناء حسن تخليدا لذكراهم لاستحقاقهم ذلك بصبرهم وعزائمهم في طاعة الله، جعل الله لهم لسان صدق في الآخرين، و من المفسرين من يقول في "هذا" الإشارة إلى القرآن الكريم، أنزله الله ذكرا للمتقين مثاني تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم، بما فيه من ذكر الوعد والوعيد كما جاء في بداية هذه السورة: ﴿وَالْقُرْءَانِ ذِي الذِّكْرِ﴾ وهذا المعنى الأخير هو الذي أرجحه، والله أعلم، والجملة لها وقعها في قلوب الذين يفقهون إيقاعات القرآن.

﴿وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَئَابٍ﴾.

يبدأ الله بعباده المتقين تعميما لرحمته لهم بعد ذكر الرسل ليبين أن رحمته لا تختص برسله بل هي عامة تسع جميع عباده المتقين الأبرار، والتقوى هي مزيج من المحبّة والهيبة والخوف والحذر، فهم يراقبون الله في حركاتهم وسكناتهم ونيات قلوبهم، ويطلبون رضاه، ويتقون سخطه، يؤكد الله الخبر لتطمئن قلوبهم بما أعد لهم من حسن مآب، والمآب هو المرجع، فكما أن الغائب يرجع إلى أهله وهو أشد ما يكون شوقا إليهم، ويود أن يجدهم في أحسن حال، فكذلك عباد الله المتقون سينقلبون خير منقلب إلى ما أعد الله لهم من حسن الثواب، وتأتي هذه الكلمة مجملة تحمل كل معاني الحبور والسعادة، فهي كنعيم الله المقيم لا نفاد لمؤداها، وما تحمل من معاني السعادات، ثم يأتي بعض التفصيل لمعانيها في الكلمات التي تليها:

﴿جَنَّاتِ عَدْنٍ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ الأَبْوَابُ﴾ .

أي جنات إقامة وخلود، فهي جنات كثيرة تجري من تحتها الأنهار لا جنة واحدة فيها غرف كثيرة، وقصور وخيام من درر مجوفة يرى ظاهرها من باطنها، وهذه الجنات يجدون أبوابها مفتحة، قد فتحتها الملائكة وزينتها استعدادا لاستقبالهم واحتفالا بمقدمهم السعيد، يقفون لهم في مداخل الجنة ليسلموا عليهم ﴿سَلامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ﴾ (الزمر: ٧٣)، وليبشروهم بما فيها من الرضوان والنعيم ﴿سَلامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾ (الرعد: ٢٤)، فهم يبشرونهم بالجنة وحسن مآبها.

﴿مُتَّكِئِينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ﴾.

يدخلون الجنة وينعمون فيها بالراحة من جميع المتاعب والتكاليف التي كانت عليهم في الدنيا، فهم متكئون على الأرائك المبطنة بالاستبرق، وقد نصبت أمامهم الموائد، فهم يدعون بفواكه كثيرة، وإنما سميت مطاعمهم فواكه لأنهم يأكلونها تلذذا وتفكها لا لإطفاء ألم الجوع، فهم فيها لا يجوعون وإنما يلتذون بما يطعمون كما أنهم لا يظمؤون، ويلتذون بأنواع الأشربة فهم يشتهون الأطعمة والأشربة ويدعون بها، وفي هذا المعنى جاء قوله تعالى: ﴿وَفَاكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ﴾ (الواقعة: ٢٠ -٢١)، والشراب قد يراد به الخمر بأنواعها وكذلك ماء التسنيم والسلسبيل وأنواع من الأشربة اللذيذة التي لا يعلمها إلا خالقها، وهذه المآكل والمشارب تقدم إليهم في صحاف من ذهب وأكواب، وكذا في قوارير من فضة، وفضة الجنة كذهبها لأنها لا تصدأ، وفي الجنة أصناف لا يعلمها إلا الله تبارك وتعالى.

﴿وَعِندَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ أَتْرَابٌ﴾.

وعندهم أزواج من الحور العين أترب في سن واحدة هي سن الشباب، لا يهرمن أبدا ولا يهرمون، وهن قاصرات الطرف، أي يقصرن نظرهن على أزواجهن، لا تمتد

أبصارهن إلى غيرهن ولا تشتهي نفوسهن غيرهم، وكمال اللذة أن يشعر الزوج أن زوجته معجبة به محبة له لا تشتهي غيره.

﴿هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ الْحِسَابِ﴾.

يقول الله تعالى: هذا النعيم الذي كنتم توعدون ليوم القيامة، يوم الجزاء بعد الحساب، وقد آمنوا بوعد الله وعملوا ليوم الحساب فوجدوا ما وعدهم ربهم حقا، ثم قال تعالى:

﴿إِنَّ هَذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُ مِن نَّفَادٍ﴾.

إن هذا الذي ينعم به أهل الجنة رزق الله الذي لا نفاد له، وإضافة الرزق إلى نون العظمة يؤذن بالطيب والكثرة والدوام، والله خير الرازقين، ورزق المؤمنين في الجنة لا انقضاء له ولا نفاد.

﴿هَذَا وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ لَشَرَّ مَآبٍ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾.

"هذا" اسم إشارة، ويؤتى به في هذا المقام لإنهاء الكلام عن الغرض السابق والانتقال إلى الغرض اللاحق، وهي الفاصلة هنا بين الكلام في أهل الوعد والكلام في أهل الوعيد، قال تعالى:

﴿وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ لَشَرَّ مَآبٍ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾ .

الطاغون هم المتكبرون وهم الذين طغت نفوسهم بالظلم والمعاصي، قال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ طَغَىٰ وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَىٰ﴾ (النازعات: ٣٧-٣٩)، والطغيان هو تجاوز الحدود والخروج عن سواء الصراط، توعَّد الله الطاغين أن لهم شر مآب يؤوبون إليه وهو جهنم دار العذاب والشقاء فبئس المهاد، والمهاد هو الفراش، قال تعالى: ﴿لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ﴾ (الأعراف: ٤١)، فهي فراشهم وغطاؤهم ليذوقوا العذاب من جميع الجهات، فهم يصلونها، أي يحترقون بلظاها ويذوقون عذابها.

﴿هَذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَاقٌ﴾.

أي هذا نوع آخر من العذاب وهو شراب الحميم والغساق، وهو ما يخرج من بطون أهل النار وفروجهم، وهو في غاية الحرارة والنتن يتجرعونه، ثم قال تعالى:

﴿وَءَاخَرُ مِن شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ﴾.

ونوع آخر من شكله أصناف وأصناف من العذاب لا يعلمها إلا خالقها والعياذ بالله، وهذا في العذاب نظير قوله تعالى في أهل النعيم: ﴿كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا قَالُوا هَذَا الذِي رُزِقْنَا مِن قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا﴾ (البقرة: ٢٥)، ذلك لأن لأهل النار في الدنيا صنوفا من الطغيان، ولأهل الجنة الأبرار أصنافا من البر، فجازى الله هناك كلا بما يستحق جزاء وفاقا، وكفى بهذا الوعد والوعيد موعظة وذكرى لأولي الألباب.

﴿هَذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ لاَ مَرْحَباً بِهِمْ إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارِ قَالُوا بَلَ اَنتُمْ لاَ مَرْحَباً بِكُمْ أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا فَبِيسَ الْقَرَارُ﴾.

يُبرز الله تعالى في هذه الآيات مشهدا من مشاهد أهل النار وهم يتخاصمون فيها، يلعن بعضهم بعضا، وكذلك عاقبة الفجار، وفي هذا العرض اعتبار وأي اعتبار، وفي الكلام التفات، فهذا الخطاب قيل من زبانية جهنم لأهل النار، وقيل من تقريع بعضهم لبعض، فهم يدعون فيها أفواجا، كلما ألقي فيها فوج قالوا هذا فوج مقتحم معكم، أي أقحموا فيها إقحاما لنفرتهم من العذاب ولشدة دفع الزبانية لهم، فيقول الذين سبقوهم فيها لا مرحبا بهم إنهم صالوا النار، فهم لا يرجون منهم خيرا ولا شفاعة، والكل في غضب الله، فيجيبونهم: بل أنتم لا مرحبا بكم أنتم قدمتوه لنا، أي كنتم السبب لنا في دخول العذاب بإضلالكم إيانا وصدكم عن سبيل الله، يقول الله تعالى: فبئس القرار، أي ما أقبحه وما أشأمه من مستقر ذلك لأنهم يخلدون فيه، ولا مناص لهم منه ولا مطمع لهم في الخروج.

﴿قَالُوا رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِي النَّارِ﴾.

قالوا ربنا من قدم لنا هذا العذاب بإضلاله إيّانا فضاعف له العذاب في النار.

﴿وَقَالُوا مَا لَنَا لاَ نَرَىٰ رِجَالاً كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ الاَشْرَارِ أَتَّخَذْنَاهُمْ سُخْرِيًّا اَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ الاَبْصَارُ﴾.

هؤلاء الطاغون المستكبرون حين يدخلون جهنم لا يجدون فيها ضعفاء المؤمنين الذين كانوا يحتقرونهم ويتخذونهم سخريا مثل بلال وعمار وصهيب وعبد الله بن مسعود، كان أبو جهل وأمية بن خلف وأضرابهم يسخرون منهم ويحسبونهم من سقط المتاع فلا يجدونهم معهم في جهنم ويقولون "أم" أي "بل" هل زاغت عنهم أبصارنا فلم نرهم! لا ليس الأمر كما زعمتم بل هم في رحمة الله ورضوانه ونعيمه المقيم، وهذه من الله تسلية لضعفاء المؤمنين ليصبروا على أذى الكفار والمنافقين ويثبتوا على إيمانهم وتلقي الأذى، والعاقل يستعذب العذاب إذا كانت عاقبته حميدة، وكل أذى في سبيل الله هين، لأن عاقبته الدرجات العلى في الجنة ورضوان من الله أكبر، ثم قال تعالى:

﴿إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ﴾.

إن ما قصصته عليكم من تحاور أهل جهنم وتخاصمهم وتلاعنهم أمر حق واقع لا مرية فيه، وهذا من الله تأكيد للوعيد حتى لا يرتاب المؤمنون، وليعتبر المعتبرون، وفيه إنذار عظيم لأتباع الطغاة الذين يسيرون في هواهم من غير أن يتفكروا بعقولهم في الأمر الذي يدعوهم إليه رسل والهداة من بعدهم وإنذار للطاغين الذين يصدون أقوامهم عن سبيل الله ويسخرون بمن اهتدى منهم ويؤذونهم ويرمونهم بالعداوات.

قُلْ إِنَّمَا أَنَا مُنذِرٌ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ
﴿٦٥﴾ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ ﴿٦٦﴾ قُلْ هُوَ
نَبَأٌ عَظِيمٌ ﴿٦٧﴾ أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ﴿٦٨﴾ مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَإِ
الْأَعْلَىٰ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٦٩﴾ إِن يُوحَىٰ إِلَيَّ إِلَّا أَنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٠﴾

بهذه الآيات يبتدئ المقطع الأخير من السورة، فكأنها فذلكة لما مضى من أول السورة، ونجد بين أواخر السور وأوائلها تناسبا في المعنى والمغزى، كما نجد بين آخر السورة والتي تليها أيضا مناسبة فكأنها حلقات ذهبية يشد بعضها بعضا، وهذا التناسب والتناسق من إعجاز القرآن وبلاغته، في أول السورة يقرر الله الحق من أمر القرآن وينذر الله الكفرة الذين ينكرون نبوة محمد ﷺ ويصفونه بالسحر والكذب والافتراء، وينكرون عليه أن يجعل الآلهة إلها واحدا، ثم يضرب الله الأمثال ببعض الرسل وأممهم الذين كذبوهم فنصر الله رسله وأهلك أعداءهم ويذكر مصير هؤلاء ومصير هؤلاء، وهنا في خواتم هذه السورة يبين الله تعالى مهمة الرسول وقيمة الكتاب الذي جاءهم به من عند الله أنه نبأ عظيم ولكن الكفار عنه معرضون.

﴿قُلِ انَّمَآ أَنَا مُنذِرٌ وَمَا مِنِ الَه الاَّ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالاَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ﴾.

قل يا محمد لهؤلاء المكذبين أنا منذر أخوفكم من عذاب الله الشديد الذي أعده للكافرين، فلست بشاعر ولا كذاب بل أنا مرسل من الله إليكم صادق، وما من إله إلا الله الواحد القهار، وهذا رد على قولهم: ﴿اجَعَلَ الاَلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا﴾ فليس ثمة إلا إله واحد هو الله الواحد في ألوهيته كما هو الواحد في ربوبيته وصفاته، فما لكم تتعجبون من جعل الآلهة إلها واحدا، وليس هناك إلا خالق واحد هو الله الواحد القهار الذي قهر خلقه، فهو الإله الحق وكل ما سواه مقهور خاضع لإرادته وقدرته، فكيف تجعلون

من المقهورين الضعفاء آلهة، إن أمركم هو الذي يدعو إلى العجب، إن الله وحده هو رب السماوات والأرض، خالقهما ومالكهما، فهو أحق أن يعبده من في السموات والأرض وما بينهما.

﴿الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ﴾.

العزيز الغالب، وهو مع ذلك كثير المغفرة لذنوب عباده ولو عظمت وكثرت إذا أقبلوا إليه مؤمنين به تائبين، وإنما يحمد العفو والغفران من العزيز القادر على الانتقام الذي لا يخشى المتابعة واللوم، وهذه أوصاف ثلاثة: الربوبية والعزة والمغفرة تدعو العباد إلى الإنابة إلى ربهم، وتفتح لهم أبواب الإنابة إليه.

﴿قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ﴾.

قل يا محمد لهؤلاء المكذبين: إن هذا القرآن الذي أنتم عنه معرضون نبأ عظيم، فإعراضكم عن النبأ العظيم أمر عجاب تتعرضون به لسخط الله وأليم العقاب، وفي هذا المعنى يأتي الحديث الذي رواه الحارث الهمداني عن علي بن أبي طالب كرم الله وجهه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: {ستكون بعدي فتنة، فقلتُ: ما المخرج منها يا رسول الله؟ قال: كتاب الله، فيه نبأُ ما كان قبلكم، وخبرُ ما بعدكم، وحكمُ ما بينكم، وهو الفصلُ ليس بالهزل، من تركهُ من جبَّارٍ قصمهُ الله، ومن ابتَغى الهدى في غيره أضلَّهُ الله، وهُوَ حبلُ الله الْمَتِينُ، وهو الذِّكرُ الْحَكيمُ، وهوَ الصِّراطُ الْمُسْتَقِيمُ، هو الذي لا تَزيغُ به الأَهْوَاءُ، ولاَ تَلْتَبِسُ به الأَلْسِنَةُ، ولاَ يشبعُ مِنْهُ العُلَمَاءُ، ولاَ يَخْلُقُ على كَثْرَةِ الرَّدِّ، ولاَ تَنْقَضِي عَجَائِبُهُ، هُو الذي لَمْ تَنْتَهِ الْجِنُّ إِذْ سَمِعَتْهُ حَتَّى قَالُوا: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَئَامَنَّا بِهِ﴾ (الجن: ١ -٢)، مَنْ قَالَ بِهِ صَدَقَ، ومَنْ عَمِلَ بهِ أُجِرَ، ومَنْ حَكَمَ بِهِ عدَلَ، ومَنْ دَعاَ إِلَيْهِ هَدَى إلى صِرَاطٍ مُستقِيمٍ}.

فليس هناك هداية إلا هداية القرآن، فمن طلب الهداية في غيره أضله الله، فمن المؤسف حقا أن يعرض أكثر الناس عن كتاب الله ويجرون وراء فلسفات الطواغيت

وخزعبلاتهم كأن في عيونهم عمى، وفي آذانهم صمما، وكأن قلوبهم في أكنة، ومن العجب أن يقع الإعراض من المسلمين عن حفظ القرآن وتحفيظه أبناءهم ويستبدلون بذلك الاشتغال بعلوم الدنيا، ولا ننكر تحصيل سائر العلوم ولكن بعد تعلم القرآن والتحصيل عليه.

﴿مَا كَانَ لِي مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلإِ الأَعْلَىٰٓ إِذْ يَخْتَصِمُونَ إِنْ يُوحَىٰٓ إِلَـيَّ إِلاَّ أَنـَّمَآ أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾.

يقول الله تبارك وتعالى لنبيه: قل لهم: ما كان لي من علم مطلقا بالملإ الأعلى إذ يختصمون حين يجري الحوار بينهم وبين ربهم، حوار الملائكة وحوار إبليس بينه وبين الله ثم بينه وبين آدم وزوجه، لا علم لمحمد ﷺ بذلك لولا أن علمه الله، إن هو إلا وحي من ربه لينذر الناس، فهو ليس ملكا مع الملائكة وليس له علم بالغيب إن هو إلا نذير مبين يفهم نذارته العرب والعجم، هذه الآية تثبيت من الله لنبيه ومن معه من المؤمنين، وتبيين لمهمته، ورد على هؤلاء الذين يرمونه بالسحر والافتراء، ويقترحون عليه المعجزات تحديا وتمردا على أمر الله، فما محمد إلا نذير قد خلت من قبله النذر، وما هو إلاّ مبلّغ للناس ما يوحى إليه من ربه وأمر بتبليغه، ولا يعرض عنه إلا شقي مسرف مرتاب.

إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ
وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٧٢﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ
كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ
يَٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ ۖ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ
ٱلْعَالِينَ ﴿٧٥﴾ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ ۖ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ
﴿٧٦﴾ قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٧٧﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ
ٱلدِّينِ ﴿٧٨﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٧٩﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ
ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٨٠﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٨١﴾ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ
لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾
۞ قَالَ فَٱلْحَقُّ وَٱلْحَقَّ أَقُولُ ﴿٨٤﴾ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ
أَجْمَعِينَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ ﴿٨٦﴾
إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍۭ ﴿٨٨﴾

اذكر يا محمد إذ قال ربك للملائكة إني خالق بشرا من طين، وذلك حين اقتضت حكمة الله أن يخلق جنس البشر، آدم وبنيه، بدأ الله بخلق آدم أبي البشر من سلالة من طين الأرض، وقال لملائكته إني خالق، أي سأخلق أو شرعت في خلق هذا الرجل الذي سميته آدم من طينة الأرض، فإذا سويت جسده على الصورة التي أريده ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين سجود تعظيم لآية الله في شخص هذا المخلوق الجديد، وسجود امتثال لأمري، وسجود تحية واحترام لآدم سجودا كاملا تخرون فيه واقعين إلى الأرض، أمر صادر من الله يجب على جميع المأمورين امتثاله.

فامتثل الملائكة فسجدوا لآدم كلهم مجتمعين سجودا واحدا ولم يشذ منهم أحد إلا إبليس الذي كان معهم، وأصله من الجن، ولكن أمر الله يعمهم جميعا ولعله أمر بأمر

خاص، امتنع إبليس من السجود استكبارا وكفرا وتمردا على أمر الله، وحسدا منه لآدم، فوجه الله إليه السؤال وهو أعلم بحاله:

﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْعَالِينَ﴾.

ناداه الله يا إبليس: ما الذي منعك من السجود لهذا المخلوق الذي خلقته بيدي، وفي نسبة الخلق إلى يديه إضافة اختصاص وتكريم لهذا البشر الذي سيكون له شأن، أترفعت عن امتثال أمري أم كنت من الملائكة الأعلون الذين عند الله والذين لم يكلفوا بالسجود، ولم يكن إبليس من العالين، فهو قد امتنع من السجود استكبارا وكفرا، ولذلك كان جوابه:

﴿قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ﴾.

قال: أنا خير من هذا الذي أمرتني بالسجود له، خلقتني من نار وخلقته من طين، والنار في زعم إبليس خير من الطين، وكلاهما خلق لله باعترافه، فلو كان موفقا لامتثل أمر خالقه ولا يمنعه من ذلك تفاضل الجنسين، ولكن الحسد والكبرياء منعاه من امتثال أمر الله فوقع في غضب الله ومقته، ونعوذ بالله من سوابق الشقاء.

﴿قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ﴾.

قال الله تعالى لإبليس اللعين: فإذا أبيت من امتثال أمري فاخرج من الجنة التي كنت فيها مكرما فإنك رجيم، أي مطرود مرجوم، وأن عليك لعنتي إلى يوم الدين، وأن عليك إبعادي وغضبي يلزمانك إلى يوم القيامة وذلك جزاء كبريائه على أمر الله وحسده لآدم، فظهر من أمر إبليس ما كان خفيا، ولولا أن الله علم منه الكبر والتمرد والإصرار ما حكم عليه بهذا الحكم، وما ربك بظلام للعبيد، ولذا فإنه لم يتب من عصيانه هذا ولم يستغفر بل طلب الإمهال إلى يوم القيامة ليزداد في الطغيان والإثم، وليمعن في إضلال بني آدم، وقد ظهرت عداوته لهم.

﴿قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ إِلَىٰ يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ﴾.

علم إبليس أن الله بيده الأمر كله فطلب منه لا من غيره، قال: يا رب أنظرني، أي أمهلني وأنسئ أجلي إلى يوم البعث؛ لأنه يعلم أن الأولين والآخرين سوف يبعثون فدعا ربه أن يُنظره إلى يوم البعث لئلا يموت ولكن الله كتب الموت على كل حي، فأجابه قال: فإنك من المنظرين إلى يوم الوقت المعلوم، وهو موعدٌ معلوم يوم ينفخ في الصور فينتهي أجله فيموت مع الهالكين ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ﴾ (القصص: ٨٨)، ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلاَلِ وَالإِكْرَامِ﴾(الرحمن: ٢٦ـ٢٧) كذلك كانت استجابة الله لإبليس في هذا المطلب الدنيوي لتتم حكمةُ الله في امتحان خلقه بهذا العدو المبين، ولتتم كلمة الله في انقسام الإنس والجن إلى فريقين: فريق في الجنة وفريق في السعر.

﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾.

أقسم إبليس بعزة الله لأنه يعلم أن العزة لله، والعزة هي الغلبة والقهر، وهي صفة ذاتية لله عز وجل ومن أسمائه تعالى العزيز، قال: لأغوينهم، أي لأضلنهم أجمعين إلا عبادك الذين استخلصتهم، وهو يعلم أنه ولو اجتهد في إغوائهم لن يبلغ مراده منهم وقد أخلصهم الله واصطفاهم لهدايته، وفتح لهم باب التوبة لمن ابتلي منهم بشيء من الذنوب يتوب إلى الله فيتقبل الله توبته وقد علم اللعين أنه لن يستطيع إغواء عباد الله كلهم ولكنه قد قنع أن يتخذ منهم نصيبا مفروضا.

﴿قَالَ فَالْحَقَّ وَالْحَقَّ أَقُولُ لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾.

قال الله تبارك وتعالى: فالحقّ والحق أقول: فالحق الأول بمعنى القسم، والحق الثاني يفيد القصر، فالله تبارك وتعالى لا يقول إلا الحق، أقسم الله تعالى وأكد قسمه أنه

يملأ جهنم من إبليس وجنوده وأوليائه أجمعين، لا يشذ منهم أحد، وقسم الله لابد مبرور ووعده لابد واقع، فليتعظ أولوا الألباب وليتخذوا من إبليس عدوا، وليحذروا نفخه ونفثه وغروره، وليستعيذوا بالله العظيم وبوجهه الكريم وسلطانه القديم من الشيطان الرجيم.

﴿قُلْ مَآ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنَ اَجْرٍ﴾.

بهذه الآيات الثلاث يختم الله تبارك وتعالى هذه السورة من كتابه الكريم، وفي هذه الآيات فذلكة لما مضى من أول السورة، وفيها عود على بدء، فقد أقسم الله في أول السورة بالقرآن ذي الذكر، ووصف الذين كفروا أنهم في عزة وشقاق، وقال هنا: ﴿إِنْ هُوَ﴾ أي القرآن إلا ذكر للعالمين، ولتعلمن أيها الكفار المكذبون نبأه بعد حين، ويحمل الكلام ضمائر من غير إظهار صاحبها ومرجعها إلى القرآن ذي الذكر المذكور في أول السورة، وما ذاك إلا لشدة اتصال آخر السورة بأولها حيث يلتقي طرفاها لتتصل بالسورة التي تليها، وما هذا إلا لأنه تنزيل من حكيم حميد، ولو كانت من عند غير الله لوجدا فيه اختلافا كثيرا.

قل لهؤلاء يا محمد: ما أسألكم على هذا الأمر الذي جئتكم به أجرا لا أطمع من ورائه في مال ولا جاه ولا ملك، وكذلك جميع رسل الله أمروا أن يقولوا لأقوامهم هذا الكلام لأنهم لو طلبوا الأجر لاتّهِمُوا أنهم إنما تكلفوا هذه الدعوة ابتغاء لأعراض الدنيا القريبة، فلما تبرؤوا من هذا تبيّن أن دعوتهم إنما هي تبليغ لما أمرهم به ربهم لإخراج الناس من الظلمات إلى النور، لا يريدون من ورائها جزاء ولا شكورا.

﴿وَمَآ أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ﴾.

أمر النبي ﷺ أن يقول لقومه: ولست من المتكلفين الذين يحاولون ما ليس من حقهم ويتحايلون على الناس ليتزعموهم وليبتزوا منهم عرض الدنيا، أما دعوة محمد ﷺ ومن سبقه من رسل الله فهي أمر من الله، وما هو إلا نذير مبلغ ما أوحي إليه.

﴿إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ﴾.

ما هذا الكلام الذي جاءهم به إلا وحي من الله، وما هو إلا ذكر للعالمين، الإنس والجن أجمعين، وفيه إشعار لهم أنهم إن لم يؤمنوا به فسيقبل عليه غيرهم ممن يريد الله هدايته من الإنس والجن، فهو تذكرة لجميع الناس حتى تقوم الساعة فخير لهم أن يسعدوا به وينتفعوا به هم الأولين قبل أن يسبقهم إليه أقوام آخرون غيرهم.

﴿وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ﴾.

الخطاب للمكذبين والممترين في هذا الأمر، يقول الله تبارك وتعالى لهم: وليظهرن هذا الأمر ولينتشرن هذا الدين وليمكنن الله لأهله في الأرض وليهزمن الله أعداءه فيهلك من يهلك منهم بالسيف، ويذل من يؤثر البقاء على كفره، وليفتحن الله بالقرآن قلوبا غلفا، وأعينا عميا، وآذانا صما، ولتعلمن صدق هذا النبأ بعد حين، والنبأ هو الخبر الذي له قيمة وشأن، والحين هو الزمن الذي يكون من الساعة إلى أربعين سنة، وقد أظهر الله دينه ونصر عباده المؤمنين وصدق وعده، وهزم أحزاب الكافرين، وهكذا يختم الله هذه السورة بهذه الكلمات المحكمة الموجزة المشعرة بانتهاء الكلام المشتملة على خلاصة ما تقدم من أول السورة، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل، وعنده مفاتح الغيب وبيده الأمر، والحمد لله رب العالمين.

تفسير سورة الزمر

سورة الزمر مكية وآياتها ٧٥

بسم الله الرحمن الرحيم

تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ
ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿٢﴾ أَلَا لِلَّهِ
ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ
مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِى
مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَٰذِبٌ
كَفَّارٌ ﴿٣﴾ لَّوْ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّٱصْطَفَىٰ مِمَّا
يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ سُبْحَٰنَهُۥ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٤﴾ خَلَقَ
ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ
وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ
كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى أَلَا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ ﴿٥﴾

السورة مكية وهي كأخواتها من السور المكية تعالج موضوع ترسيخ العقيدة الدينية في القلوب، وتتعرض لمشاهد يوم القيامة وأمور الوعد والوعيد، وتقيم البراهين على وجود الله ووحدانيته وقدرته وعلمه وحكمته وقهره وعزته وصدق رسالاته وكتبه، وسميت "الزمر" لذكر زمر الكافرين وزمر المؤمنين فيها، ومصير كل من الفريقين، وفي ذلك موعظة للمتقين وذكرى للذاكرين.

﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ﴾ .

المناسبة شديدة بين أول هذه السورة وآخر سابقتها، ففي أواخر سورة (ص) تقرير أن القرآن ذكر للعالمين وأنه نبأ عظيم سيعلمون نبأه بعد حين، وفي أول هذه السورة بيان

أن القرآن تنزيل من الله العزيز الحكيم، وإذا كان التنزيل من العزيز الغالب الحكيم العليم الذي لا تجري كلماته إلا بمقتضى الحكمة فلا يكون إلا حقا؛ لأن الحكيم ينزل الحكمة ويقول الحق ولا يخاف لومة لائم؛ لأنه العزيز القاهر، وقيل: المراد بالكتاب الأول جنس الكتاب، والمراد بالثاني القرآن المنزل على محمد ﷺ.

﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ﴾.

يؤكد الله تعالى حقيقة إنزال الكتاب أنه من الله، وأنه نزل بالحق الثابت من الله لا ريب فيه على قلب محمد ﷺ، وإسناد الإنزال إلى نون العظمة يدل على عظم شأنه وشمول بركاته لمن آمن به وعمل بما فيه.

﴿فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ أَلاَ لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾.

جاءت الجملة هذه مربوطة بالفاء؛ لأنها ـ أي العبادة ـ متفرعة عن الإيمان بأن الكتاب حق وهو من عند الله، فاعبد الله أيها المؤمن عبادة تخلص فيها النية لله وحده، ألا لله الدين الخالص، تنبيه وتقرير من الله أن الدين الخالص لله رب العالمين، ولا يقبل الله إلا الدين الخالص الذي لا يشوبه شرك جلي ولا خفي، وفي هذا إرشاد للمؤمنين إلى إخلاص دينهم لله وأن لا يشركوا بعبادة ربهم أحدا، وفيه تعريض بالكافرين الذين يتخذون من دون الله تعالى شفعاء كما سيأتي التصريح بذلك في الآية التالية.

﴿وَالذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾.

يفند الله تعالى في هذه الآية مزاعم أهل الأوثان التي يعبدونها من دون الله ويزعمون أنها تشفع لهم عند الله، ويحكم عليهم بالكذب والكفر الشديد، والضلال البعيد، ذلك لأن كفار قريش ومن نحا نحوهم من الوثنيين يعترفون بأن الرب هو الخالق وهو المالك، وهو رب العرش العظيم، غير أنهم يتخذون من دونه أولياء يحبونهم كحب الله، ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله، أي وسطاء بينهم وبين الله.

﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٓ﴾.

وتزين لهم شياطينهم هذا الزعم ويقولون: إننا نستحي أن ندعو الله ونحن نعصيه، وهذه الأصنام مبرأة عن العصيان، وهي رموز للملائكة والصالحين وللشمس والقمر والكواكب، وقد ينسبونها إلى الله نسبة الولدية للوالد، ويكذبون على ربهم، وما أنزل الله بذلك من سلطان، إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس، ويعرضون عن الهدى الذي جاءهم من ربهم فهم به يكفرون، وقد جاء في القرآن في غير موضع اعترافهم بالخلق والملك لله رب العالمين، ففي سورة العنكبوت:

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالاَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّا يُوفَكُونَ اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَّشَآءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ السَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ الاَرْضَ مِنۢ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلَ اَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ﴾ (العنكبوت: ٦١ـ٦٣)، وفي سورة المؤمنون: ﴿قُل لِّمَنِ الاَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ سَيَقُولُونَ لله قُلَ اَفَلاَ تَذَّكَّرُونَ قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ سَيَقُولُونَ لله قُلَ اَفَلاَ تَتَّقُونَ قُلْ مَنۢ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلاَ يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ سَيَقُولُونَ لله قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ﴾ (المؤمنون: ٨٤ـ٨٩).

إن هؤلاء الكفار ومن كان على شاكلتهم من هذه الأمة ممن يتخذ من دون الله أولياء من قبور الصالحين يتوسلون بهم ويستشفعون بهم إلى الله مشركون بربهم، فليحذر القبوريون الذي يجادلون الناس في شركهم بزعمهم أنهم غير عابدين للقبور، ولا ينفعهم جدالهم ما داموا يعتقدون في أصحاب القبور ويتقربون لهم بالذبائح وينذرون لهم، ويحلفون بهم، ويعظمونهم ثم يزعمون أنهم لربهم موحدون، وقد اتبعوا هؤلاء المشركين المتخذين من الصالحين أوثانا ورموزا زعموا أنهم شفعاء لهم عند الله ففند الله لهم هذا الزعم ووصفهم بالكذب والكفر فقال:

﴿إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لاَ يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ﴾.

إن الله يحكم بين طوائف المشركين فيما كانوا فيه يختلفون، ذلك لأنهم في عباداتهم طرائق شتى لكل منهم معبود وطريقة في عبادته، فالله يحكم بينهم يوم القيامة ويحكم بين متبوعيهم وتابعيهم، ويحكم عليهم بالضلال جميعا، ويلقيهم في النار، إن الله لا يهدي من هو كاذب يفتري الكذب على الله، لا يهيئ له أسباب الهداية والتوفيق ثم هو يكفر بالله وكتبه ورسله واليوم الآخر، فقد صرفهم عن الهدى كذبهم على الله ونسبتهم الأنداد له وغلوهم في الكفر، فأنى يأتيهم الهدى.

﴿لَوَ اَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا لاَّصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ سُبْحَانَهُ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾.

يزعم المشركون من أهل مكة أن اللات والعزى ومنات بنات الله ويحلفون بها ويقولون باسم اللات، فرد الله عليهم في هذه الآية ودحض دعواهم ونزه نفسه عن الشريك والولد، يقول الله تبارك وتعالى: لو أراد الله أن يتخذ ولدا لاصطفى من خلقه ما يشاء لا ما تشاءون أنتم.

وقوله تعالى: ﴿لاَّصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾ يفيد أن الولد مستحيل في حق الله بل الكل خلقه، ذلك لأن الولد جزء من الوالد، والله تعالى واحد يستحيل في حقه التركيب والتجزي سبحانه، تنزه عما يقولون، وتقدس ربنا عز وجل، هو الله الموصوف بالكمالات، الواحد في ذاته وصفاته، لم يلد ربنا ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد، الواحد القهار، الذي تفرد بالألوهية، واتصف بالواحدانية والأحدية، القهار الذي قهر جميع مخلوقاته فليس فيها ولد ولا متبنى ولا شريك وولي يُعبد ليقرّب عابديه إلى الله زلفى، تسربل ربنا بالعزة والكبرياء، هو الله الواحد القهار، وتعالى الله عما يقولون علوا كبيرا.

﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى أَلاَ هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ﴾.

بعد أن ذكّرنا الله تبارك وتعالى بتقرير ألوهيته ووحدانيته وقهره يذكّرنا بخلقه للسموات والأرض، وهما آيتان من آيات الله تدلان على وجود الخالق الواحد القهار، فهو وحده خالق السموات السبع والأرض وما بينهما، خلقهما بالحق لا بالباطل ولا عبثا، جلت أفعاله عن العبث، وإنما ذلك ظن الذين كفروا، أما المؤمنون فيقولون: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ (آل عمران: ١٩١).

وفي تأمل خلق السموات والأرض وأبراج النجوم في السماء، وجبال الأرض وبحارها وما فيها من الحيوان والأشجار، وما يجري فيها من الرياح والسحب والأمطار، ومطالع الشمس والقمر والكواكب لدليل واضح على وجود المدبر الحكيم الواحد القهار، وكل هذا النظام الذي هو منذ ملايين السنين يجري لأجل مسمى، لنهاية محدودة يعلمها الله خالق السموات والأرض وحده لا يطمع أحد من خلقه في إدراك أمدها ونهايتها.

﴿أَلاَ هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ﴾.

ألا حرف تنبيه واستفتاح، أي فتنبهوا أيها العباد واعلموا أن ربكم خالق السموات والأرض وما بينهما هو العزيز الغالب الذي لا يُغلب، الغفار الذي وسعت مغفرته ذنوب التائبين من عباده، فهو يغفر الذنوب جميعا، وفي ذكر وصف الغفار هنا بعد ذكر وصف القهار فالعزيز تلطف وإيناس لقلوب عباده وفتح لباب الرجاء في عفوه ورحمته وقربه، ولولا ذكر وصف المغفرة هنا لغلب الروع على قلوبهم وربما يتسرب إليهم عدوهم إبليس من باب اليأس فيوئسهم من روْحه، ولا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون، ولله أسلوب القرآن الحكيم ما أبلغه وأشد تأثيره على نفوس أولي الألباب

الذين يلقون السمع وهم شاهدون، ولله ما أروع هذه الآيات الفواصل التي تذيّل الكلام والتي تأتي بعد حرف التنبيه أنها تقرر معنى الإيمان وتزكيه في قلوب المؤمنين، وتزيدهم معرفة بربهم، ثم يقول الله تعالى:

خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ
لَكُم مِّنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ
أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِّن بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ
لَهُ الْمُلْكُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٦﴾ إِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ
غَنِيٌّ عَنكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِن تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ
وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا
كُنتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٧﴾

لا يزال الكلام مستمرا في تعداد آيات الله وآلائه التي لا يُكذّب بها إلا كل ختار كفور، أعمى الله بصيرته فضل عن سبيل الله، فصرفه الشيطان إلى حيث يريد، يقول الله تعالى:

﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾.

أي تفكروا أيها الناس في خلق أنفسكم وفي أصل خلقتكم، أليس الله هو الذي خلقكم من نفس واحدة ثم جعل منها ومن طينتها زوجها، ومن نعمة الله أن تكون أزواجكم التي تسكنون إليها من طينتكم ومن طبيعتكم وجبلتكم، فتأملوا في أصل خلقتكم من نفس واحدة، وتأملوا في خلق جنس الإناث من جنس الذكور، فإنكم بتأملكم في هذا تدركون عظمة الخالق وقدرته وعلمه ووحدانيته فتعبدونه وحده ولا تشركون به أحدا من خلقه.

﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ الأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ﴾.

هذه الأنعام الثمانية كما جاء تفصيلها في سورة الأنعام: ﴿ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ مِّنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ...﴾ إلى أن يقول: ﴿وَمِنَ الإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ﴾ (الأنعام: ١٤٣ـ١٤٤)، تفكر في خلق الأنعام الذي هو مثل خلقكم في بطون أمهاتكم زوجين زوجين وسخرها لكم تأكلون من لحومها، وتشربون من ألبانها، وتنتفعون بأصوافها وأوبارها وأشعارها، ومنها ما يحملكم ويحمل أثقالكم، وتتخذون من جلوده بيوتا تستخفونها يوم ظعنكم ويوم إقامتكم، أليس في ذلكم آيات لكم على وحدانية الله الواحد القهار.

﴿يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِّنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلاَثٍ﴾.

ثم تأملوا في خلق الأجنة منكم ومن الأنعام في بطون أمهاتها أطوارا خلقا من بعد خلق، من النطفة إلى العلقة، ومن العلقة إلى المضغة، ثم يصيّر الخالق المضغة عظاما ثم يكسو العظام لحما، ثم ينشئه خلقا آخر، كل ذلك التطور الدائب في ظلمات ثلاث، في ظلمة المشيمة وهي وعاء الجنين، والمشيمة في ظلمة الرحم، والرحم في ظلمته، فيخلقه الله خلقا محكما هناك في ظلمات ثلاث، فتبارك الله أحسن الخالقين.

﴿ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ﴾.

الإشارة إلى البعيد وهو أقرب قريب، والمعنى المقصود علو الرتبة وعظم الشأن، أي ذلكم الله القادر على هذا دون غيره، هو ربكم المستحق للعبادة وحده، لا إله إلا هو لا معبود بحق إلا هو، ربكم ورب العالمين، خالقكم ومصوركم ومربيكم، يحييكم ويميتكم ويعيدكم تارة أخرى، ﴿فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ﴾ كيف! وإلى أين تصرفون عن عبادته إلى عبادة أصناف ضعاف لا تخلق ذبابة ولا تملك لنفسها ضرا ولا نفعا، وفي التذييل بهذا المقطع روعة وسلطان على القلوب الواعية والعقول المبصرة فلا تلبث أن تخر ساجدة لسلطان البرهان في كلام رب العالمين.

﴿إِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ وَلاَ يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِن تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ﴾.

يقول الله تبارك وتعالى: إن تكفروا يا عبادي فإن كفركم لا ينقص من ملك الله شيئا فربكم غني عنكم ولا تضروه بكفركم لكن تضرون أنفسكم، ولا يرضى لكم الكفر لأنه وبال عليكم ومقت وعذاب لكم، وإن تشكروا يرض لكم شكركم وإيمانكم ولن يزيد في ملكه إيمانكم شيئا، إنما يرضى لكم الإيمان لأنه يسعدكم وتنالون به رضى ربكم عليكم، وليس الرضى والحب بمعنى الإرادة والمشيئة، فإن الله لا يقع في ملكه إلا ما يشاء ويريد، خلافا للمعتزلة الذين يخلطون بين المعاني ويزعمون أن الله لا يريد المعصية ولا يخلقها، بل الكل خلق الله وبإرادة الله ولكنه لا يرضى لعباده الكفر ولا يحبه لهم، والأفعال خلق لله واكتساب من العباد.

﴿وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾.

كل نفس تحمل ذنبها وتعاقب به وحدها ولا تحمل نفس ذنب أخرى كما أنها ليس لها إلا سعيها، وهذه عدالة الله لا كما يزعم الكفار الذين يقولون للمؤمنين اتبعوا سبيلنا ولنحمل خطاياكم، قال الله تعالى: ﴿وَمَا هُم بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُم مِّن شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ (العنكبوت: ١٢)، وإنما يحملون أثقالهم على أنفسهم ويحملون أثقالا مع أثقالهم، وهي أوزار إضلال الناس وإغوائهم كما أن الذين يطاوعونهم يحملون أثقالهم وأوزارهم التي ارتكبوها ولا يطمعون أن يحملها عنهم قرناءهم وكبراؤهم الذين جروهم إلى الهاوية وأضلوهم، بل يضاعف لهم العذاب هم الآخرون لإهانتهم عقولهم حين لم يبصروا بها ليفرقوا بين الغواية والرشاد.

﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

وأخيرا بعد هذه الأطوار والمراحل منذ تَخلّقكم في بطون أمهاتكم ثم خروجكم إلى الدنيا، واختلاف وجهاتكم فيها يكون مرجعكم أخيرا إلى ربكم الذي أحياكم ثم يميتكم

ثـم يحييكم فينبئكم يوم القيامة بما كنتم تعملـون، وبالـذي كنتم فيه تختلفـون في الـدنيا فيجازي كلا بما يستحق، ولا يظلم ربك أحدا، ولا يخفى عليه شيء من أعمالكم.

﴿إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾.

إن ربكم عليم بالنوايا والهواجس التي في الصدور، عليم بما يجري في قلوبكم من رشاد أو غي، من إيمان أو كفر، وإذا كان علمه محيط بما في صدوركم فما ظهر على الجوارح أهون، والكل سواء عند الله الذي لا تخفى عنه خافية، فاحذروا أيها العباد أن يطلع ربكم على ما لا يرضاه منكم، واحرصوا أن تكون أفعالكم ونواياكم تجري على صراط الله المستقيم، وتحلّوا بالشكر الذي يرضاه منكم حتى تنالوا منه جزاء الشاكرين، وما أروع هذا التذييل المحكم بهذه الآيات البينات التي فيها موعظة للمتقين!.

۞وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ
ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِىَ مَا كَانَ
يَدْعُوٓا۟ إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦ
قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ ﴿٨﴾ أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ
ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ
قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ
أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٩﴾ قُلْ يَٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟
رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ
ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١٠﴾

ضرب الله مثلا للإنسان الظلوم الكنود الذي يضرع إلى ربه حال الشدة والبلاء وينساه في حال العافية والرخاء، ويجعل له أنداد ثم يمعن في الضلال حتى يكون فتنة لمن يتبعونه ويقتدون به فيضلهم عن سبيل الله، وقد توعد الله هذا الصنف وأنذرهم وحكم عليهم بالخلود في النار، قال تعالى:

﴿وَإِذَا مَسَّ الانسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّـهُ مُنِيبًا الَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِن قَبْلُ﴾.

وإذا مس الإنسان ضر، والمقصود بالإنسان جنس الإنسان كله، إلا المؤمنين الشاكرين لربهم، إذا مس الإنسان ضر دعا ربه منيبا إليه ناسيا أصنامه التي كان يعبدها لأنه يعلم في قرار نفسه أن الضر لا يكشفه إلا الله رب العالمين فيرجع إليه يتضرع إليه أن يكشف عنه الضر الذي أصابه أو يتوقعه، ثم إذا خوله الله نعمة منه وحده، وخوله أي أفاض عليه نعمة من غير استحقاق منه ولا رجاء لمكافأة فإذا بهذا الإنسان ينسى الضر الذي كان يدعو ربه أن يكشفه، أو ينسى الذي كان يدعوه وينيب إليه لكشف الضر.

وجاء التعبير هنا بـ "ما" وليست هي التي في اصطلاح اللغويين لغير العاقل بل هي لشيء عظيم لا يدرك كنهه، وهذا على غرار ما جاء في مواضع من القرآن الكريم، منها ما جاء في سورة "الشمس"، حيث يقول تعالى: ﴿وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا وَالأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا قَدَ افْلَحَ مَن زَكَّاهَا وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا﴾ (الشمس: ٥ـ١٠) وهذا المعنى الأخير أروع وأقوى.

﴿وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِ﴾.

وجعل لربه أندادا شركاء من الإنس والجن، والأحياء والأموات والأشياء التي ينسب إليها النفع الذي ناله وكشف الضر الذي انكشف عنه، الأنداد التي يتقرب إليها بالقرابين والنذر ويعكف عندها، ويعتقد فيها جلب النفع وكشف الضر، ولئن سألتهم ماذا تملك هذه الأصنام أو هذه القباب والقبور التي مات أصحابها وأفضوا إلى ربهم وهم عن دعائكم غافلون، ليقولن: إنا وجدنا آباءنا كذلك يفعلون، فهم قد ضلوا عن سبيل الله بعبادتها وأضلوا غيرهم من ذريتهم وممن يتبعونهم، أضلوهم عن سبيل الله القاصد، ولذا كان خطاب الله لهذا النوع.

﴿قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلاً اِنَّكَ مِنَ اَصْحَابِ النَّارِ﴾.

وهذا الأمر أمر تهديد وإنذار، أي قل لهذا الإنسان الضال المضل: تمتع بكفرك هذا قليلا في الحياة الدنيا، وما متاع الحياة الدنيا في الآخرة إلا قليل، وأسند التمتع إلى الكفر لأن الكافر يطغى بكفره ويستكبر ويبغي ويتبع هواه، إذ الكفر ليس له حدود ولا زواجر، فهو يركب هوى نفسه ويتبع خطوات الشياطين ويرجو الأنداد التي يزعمها شفعاء تقربه إلى الله زلفى، فهم يتمتعون بكفرهم ويعبدون هواهم ويتخذونه إلها من دون الله، ومن كان كذلك فليس ينفع فيه وعظ ولا تذكير، إنما يقال له: تمتع بكفرك قليلا إنك من أصحاب النار، إن مصيرك نار جهنم التي سبقك إليها أمثالك وأشكالك، فأنت منهم وأنتم أصحاب النار التي خلقت لهم وخلقوا لها، وسيخلدون فيها أبدا، وهذا ما يدل عليه لفظ الصحبة، وبئس مثوى الظالمين وبئس المصير.

﴿أَمَنْ هُوَ قَانِتٌ ـ انَآءَ الَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ الاَخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ﴾.

يضرب الله لنا مثلا آخر ويناظر بين المؤمن الخائف الراجي الذي يقوم الليل بالصلاة وبين الذي يغفل عن الآخرة وينام الليل ملء جفنيه ولا يأخذ منه حظه من القنوت والركوع والسجود لجهله وقساوة قلبه، يقول الله تعالى:

﴿أَمَنْ هُوَ قَانِتٌ ـ انَآءَ الَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ الاَخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ﴾.

أمّن يؤمن بالله فهو قانت له ساجد، وقائم يخشع في صلاته ويطيل القيام يدعو ربه، يحذر الآخرة وعذابها ويرجو رحمة ربه يرجو الجنة وثوابها، أهذا خير أم قساة القلوب الذي ينامون الليل كله ولا يذكرون الله، وقد ذكر الله المثل من عباد الله الأبرار ولم يذكر معادله وتركه للمستمع يقدّر في نفسه ما شاء مما يستوحيه من سياق الكلام، ويوجد نظير هذا الحذف في غير موضع من كتاب الله، من ذلك قوله تعالى في هذه السورة: ﴿افَمَنْ يَّتَّقِي

بِوَجْهِهِ سُوءَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ...﴾ (الزمر: ٢٤)، ومن ذلك قوله تعالى في السورة نفسها: ﴿أَفَمَن شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلإِسْلاَمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِ...﴾ (الزمر: ٢١).

فالعاقل يفهم المعادل من الكلام الذي يلي هذا الاستفهام، وهذا من إيجاز القرآن الذي يحذف ما لا ضرورة لذكره مما يعرف من سياق الكلام ضرورة، وحذفه أبلغ من ذكره ليذهب الفكر مذاهب في تقديره لها في النفس أثر أشد فعالية من التصريح به، ويصف الله هؤلاء الذين يصلون في الليل ويتضرعون إلى ربهم بالخوف والرجاء، وهما سر الإيمان والاستقامة، فهما زمام النفس وسوطها اللذان يزجرانها عن الشر ويقودانها إلى كل خير، ولا يكون هذا الخوف إلا في نفس تعلم من أمر دينها ما يجب علمه مما يحملها على العمل الصالح، ولذا يأتي على الأثر قوله تعالى:

﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الذِينَ يَعْلَمُونَ وَالذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ .

وهذا تقرير للمستمع ليحكم بنفسه أنه لا يستوي الذين يعلمون من دينهم ما ينفعهم والذين لا يعلمون، وهذا تنظير فيه استثارة لهمم ذوي الألباب الذين آمنوا ليتعلموا العلم النافع وليعملوا به ولا يكونوا كالذين يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون، والخوف الصادق هو الذي يحجز النفس عن الكفر والفسوق والعصيان، والعلم النافع هو الذي يصحبه العمل الصالح والجد في أنواع القربات، أما إذا لم يكن عمل فهو مُنى فارغة، وكم من أناس غرتهم الأماني فهم يفرطون ويتمسكون بالأماني ويقولون نحن نحسن الظن بالله وكذبوا، لو أحسنوا الظن لأحسنوا العمل، ولا أدل على هذا من هذه الآية التي تقرن بمكابدة الليل بالصلاة التي فيها طول القيام والتضرع بالدعاء في السجود، أولئك الذين يرجون رحمة الله.

﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا الأَلْبَابِ﴾.

فلا يتذكر بهذا إلا أولوا الألباب الذين أنار الله بصائرهم فتذكروا وانتفعوا بهذا الكلام، أما قساة القلوب فكأنهم ليست لهم ألباب، فهم لا يتذكرون بل يمعنون في

ضلالهم وغواياتهم ويضربون عن الذكر صفحا، ومن بينهم وبين كلام الله حجاب، ونعوذ بالله من أحوال الغافلين المعرضين، ونسأله أن يجعلنا من أولي الألباب المتذكرين.

﴿قُلْ يَاعِبَادِ الذينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ﴾.

أمر الله نبيه أن ينادي عباده الذين آمنوا، وهو في الحقيقة نداء من الله لعباده، وفي إدراج نبيه بين المنادِي والمنادَون تشريف له ورفع لمقامه، وفي النداء بـ "يا" التي هي للبعيد إيذان بأهمية الأمر الذي بعد النداء حتى ترعى له الأسماع وتفتح له القلوب، نداء لعباد الله المؤمنين خاصة وهم الذين ينتفعون بالنداء ويستمعون القول: ﴿اتَّقُوا رَبَّكُمْ﴾ فالتقوى برهان الإيمان الصحيح، وهي معنى يكون في قلب المؤمن يفسر بالخوف والمهابة والمراقبة والحذر، وفسره العلماء أنه الخوف من الجليل والعمل بالتنزيل والاستعداد ليوم الرحيل، ولا يكون هذا إلا من قلب يقظ وقَر فيه الإيمان وصدق فيه العزم واليقين، فهم الذين يتقبل منهم، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ (المائدة: ٢٧)، فالتقوى التي يدعونا الله إليها هي مراقبة الله وطلب رضاه واتقاء سخطه وخشيته في السر والعلانية.

﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ﴾.

وعد من الله لعباده المحسنين في هذه الدنيا أن تكون عاقبته حسنة جزاء على إحسانهم، ومن المفسرين من يقول: إن معناه أن تكون لهم حسنة في هذه الدنيا ثم يوفون أجرهم يوم القيامة، والمعنى الأول عندي أظهر، وفيه الحث على المبادرة بالإحسان في هذه الدنيا قبل زوالها، والصبر على مكابدة الإحسان، ولا يتأتى الإحسان إلا بالصبر على ما تكره النفس.

﴿وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ انَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾.

الكلام في هذه الآية موجه إلى المؤمنين الأوائل المستضعفين في مكة الذين لم يتمكنوا من إظهار دينهم وقد أذن الله لهم ورغبهم في الهجرة، وأرشدهم النبي ﷺ إلى

الهجرة إلى أرض الحبشة ؛ لأن فيها ملكا لا يضام من دخل في جواره ولا يظلم عنده أحد، فامتثلوا أمر الله فهاجروا إلى الحبشة: وهم عثمان بن عفان وجعفر بن أبي طالب ومن معهما في ثلاث وثمانين رجلا وتسع عشرة امرأة، وذلك في السنة الخامسة قبل الهجرة إلى يثرب، وفي قوله تعالى:

﴿وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ﴾، ترغيب لهم في الهجرة تلطفا بهم إذ لم يوجه إليهم الأمر الموجب، ووعد من الله لهم أنهم إن امتثلوا فهاجروا فسيجدون سعة وسيكون الله معهم ويجعل لهم من أمرهم يسرا، وفي قوله تعالى:

﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ وعد من الله أنه سيجزل ثوابهم ويعظم أجرهم، وما ذاك إلا لما في الهجرة ومفارقة الأوطان من وحشة القلب وملاقاة العنت والتعرض للأهوال، فيحتاج الأمر إلى صبر وعزيمة، فوعد الله الصابرين أنه يوفيهم يوم القيامة أجرهم بغير حساب، يُفيض عليهم الثواب من فضله إفاضة لا يأتي على ذلك عد، وكل شيء عند الله بمقدار، غير أن هذا التعبير يراد به عظم الأجرة وكثرة الثواب، وفيه ترغيب في الصبر في جميع ألوانه ومعانيه.

أما الهجرة فقد اختلف الناس في وجوبها: فذهب جمهور العلماء إلى وجوبها متى لزمت، وذلك أن يكون المسلمون في بلد يظهر عليه حكم الكفار ويقعون في حرج شديد لا يستطيعون القيام بشعائر دينهم والنزول عند أحكام القرآن والسنة، وقال الإباضية ومن معهم: لا تجب الهجرة بل يجب الصبر والمصابرة، ومن هاجر فرارا بدينه من الفتن فلا حجر عليه وحسنا فعلا، أما الوجوب فلا، وذلك لقول النبي ﷺ بعد فتح مكة: {لا هجرة بعد الفتح}.

قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ ﴿١١﴾ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ
أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٢﴾ قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ
﴿١٣﴾ قُلِ اللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَهُ دِينِي ﴿١٤﴾ فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ مِنْ
دُونِهِ قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ
أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ ﴿١٥﴾ لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ وَمِنْ
تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ذَلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ يَا عِبَادِ فَاتَّقُونِ ﴿١٦﴾
وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَى
فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ
الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿١٨﴾ أَفَمَنْ حَقَّ
عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنْتَ تُنْقِذُ مَنْ فِي النَّارِ ﴿١٩﴾ لَكِنِ
الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِنْ فَوْقِهَا غُرَفٌ مَبْنِيَّةٌ تَجْرِي
مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَعْدَ اللَّهِ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ الْمِيعَادَ ﴿٢٠﴾

﴿قُلِ انِّيَ أُمِرْتُ أَنَ اَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ وَأُمِرْتُ لأَنَ اَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ﴾.

قيل إن كبراء مكة قالوا للنبي ﷺ: ما هذا الذي ابتدعته من هذا الدين الذي يجعل الآلهة إلها واحدا! ألا ترجع إلى دين آبائك وأجدادك وعشيرتك! فأمره الله أن يجيبهم بهذا الكلام: **﴿قُلِ انِّيَ أُمِرْتُ أَنَ اَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ﴾** أي وحده مخلصا له الدين لا أشرك به غيره، وإذا كان الأمر من الله فلابد باتباعه ولا طاعة لكبراء ولا للآباء والأجداد في مخالفته **﴿وَأُمِرْتُ لأَنَ اَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ﴾** اللام قيل لتقوية التعدية، أي أمرت أن أكون أول المسلمين، وقيل: هي لام التعليل، أي أمرت بذلك لأجل أن أكون أول المسلمين، وأولية الرسول ﷺ هي أولية السبق في حسن الامتثال لا أولية الزمن لأن

جميع الأنبياء والرسل من قبله كانوا مسلمين، والنبي ﷺ إمام المرسلين، وهو بالتالي إمام المسلمين وأولهم.

﴿قُلِ انِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾.

وأمره الله أن يقول لهم: إني أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم وهو يوم القيامة، وإذا كان النبي المصطفى أمر أن يقول هذا القول فكيف يكون حال من هو دونه، وفي هذا زجر للذين يتبعون أهواءهم ويتعلقون بالأماني الفارغة ويطمعون في شفاعات الأموات، ويصرون على الذنوب الكبائر ويزعمون أنها تغفر بدون توبة، وأنهم يدخلون الجنة بدون عمل وساء ما يحكمون.

﴿قُلِ اللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُ دِينِي فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِ﴾.

القول موجه إلى الناس جميعا مؤمنهم وكافرهم، قل لهم يا محمد: الله وحدَه أعبد مخلصا له ديني لا أعبد معه غيره، فاعبدوا أيها الكفار المعاندون ما شئتم من دونه، لكم دينكم ولي دين، الأمر هنا منصب في مساق التهديد لمن يصر على أن يتخذ من دون الله أندادا يحبونهم كحب الله، وإلى هؤلاء يوجه القول التالي:

﴿قُلِ انَّ الْخَاسِرِينَ الذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلاَ ذَٰلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾.

قل لهم يا محمد: إن الخاسرين حقا هم الذين خسروا أنفسهم يوم القيامة، طردوا من رحمة الله وأحضروا في عذاب الله وخسروا أهليهم لأنهم أضلوهم في الدنيا وصدوهم عن سبيل الله، فكانوا سبب شقائهم وخسروهم فتعذبت ضمائرهم كما تعذبت أجسامهم، ألا ذلك هو الخسران المبين، ألا فتنبهوا واعلموا أن ذلك حقا هو الخسران البيّن الذي لا لبس فيه، فكأن لا خسران غيره، والقصر إضافي والتوكيد واحد على الحكم عليهم بأثقل أساليبه ليعتبر المعتبرون ويتعظ أولوا الألباب، وليبادر الذين

أراد الله هدايتهم إلى التوبة قبل الفوات، ومن لم يؤثر فيه هذا الأسلوب فلا خير فيه، ومن يضلل الله فما له من هاد.

﴿لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ النَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ يَاعِبَادِ فَاتَّقُونِ﴾.

لهم في جهنم ظلل من النار تظللهم من فوق ومن تحتهم ظلل، وتسميتها ظللا من باب المشاكلة، وقد تكون ظللا لمن هو تحتهم؛ لأن أهل النار دركات، إنما المراد العذاب محيط بهم من كل جانب، ومن فوقهم ومن أسفل منهم فلا متنفس لهم أبدا، ذلك يخوف الله به عباده الذين يستمعون الكلام وينفعهم التخويف فيتقون الله، ولذا توجه النداء إليهم خاصة وبإضافة الخصوصية ﴿يَاعِبَادِ فَاتَّقُونِ﴾ أي احذروني واخشوني يا عبادي الذين آمنوا، وارجوني وتيأسوا من رحمتي، ففي النداء تحذير من عذاب الله وترغيب في رحمة الله، وبيان أن التقوى هي وحدها سبب النجاة من عذاب الله.

﴿وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فَبَشِّرْ عِبَادِ﴾.

بعد أن ذكر الله تعالى حال الخاسرين الذين خسروا أنفسهم وأهليهم ومآلهم يوم القيامة وخوّفنا من عاقبتهم المشؤومة يثنّي عنان الأسلوب القرآني الحكيم بذكر مصير عباده المتقين ويذكر عاقبتهم المحمودة وذلك على عادة التعبير القرآني الذي هو مثاني الأسلوب، يذكر الوعد بعد الوعيد، ومصير الأبرار بعد مصير الفجار، أو العكس حتى يعظم الخوف ويقوى الرجاء في قلوب المؤمنين فيجدّون في طاعة الله، قال تعالى:

﴿وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فَبَشِّرْ عِبَادِ﴾.

الطاغوت رؤساء الكفر وكل ما عبد من دون الله، والذين اجتنبوا عبادة الأصنام وكل ما عبد من دون الله وتابوا إلى الله ورجعوا إليه يعبدونه على صراطه المستقيم

مخلصين له الدين حنفاء، أولئك لهم البشرى من الله في الدنيا وفي الآخرة، فبشر عبادي، والإضافة للخصوصية والتكريم.

﴿الذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ﴾ .

الذين انتفعوا بعقولهم فميزوا بها بين الحق والباطل، الذين استمعوا القول فاتبعوا أحسنه، ذلك لأنهم يستمعون أقوال أهل الهدى وأقوال أهل الضلال فيتبعون أحسنها ويذرون أسوءها، والمقصود بالإحسان هنا الحسن، أي الكلام الذي هو حق وهدى وخير.

﴿أُوْلَئِكَ الذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُوْلَئِكَ هُمْ أُوْلُوا الأَلْبَابِ﴾.

جاء اسم الإشارة مذكورا هنا مرتين لمزيد العناية بأولياء الله الذين أراد الله هدايتهم فيسر لهم أسباب الهداية في ضمائرهم وأنار لهم الحق فأبصروه ببصائرهم، أولئك هم أولوا الألباب الذين أبصروا الحق ومالت إليه قلوبهم، وتعريف الخبر ثم الإتيان بضمير الفصل في الجملة الثانية يفيد القصر، أي هم المهديون لا غيرهم، وهو أولوا الألباب الذين لهم البشرى، والبشرى هي الإخبار بما فيه النفع والمسرة وحسن المآل، وهذا مقابل أضدادهم الذين بشرهم الله بالخسران المبين ؛ لأنهم عبدوا من دونه أولياء ولم يستمعوا لكلام الناصحين ولم ينتفعوا بعقولهم، بل أعماهم التقليد واتباع الهوى فكأنهم لا ألباب لهم ولا عقول.

﴿أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِي النَّارِ﴾.

يسلّي الله تبارك وتعالى قلب نبيه حتى لا تضيق نفسه بإعراض هؤلاء الكفار عن النذر وتكذيبهم بآيات الله البينات وبغضهم للناصحين، يسليه بهذه الآية، أفمن حق عليه العذاب قولا من الله أنه من الهالكين فهو من أهل النار الواقعين في الأعمال التي تدخلهم النار يوم القيامة، فكأنهم واقعون فيها اليوم فهم فيها، أفأنت تنقذ من في النار؟ والاستفهام إنكاري، أي وما أنت بمنجيهم من العذاب الذي اختاروا لأنفسهم

الوقوع فيه، ففي الآية دليل أن النبي لا ينقذ الذين يقعون في النار بشركهم وبارتكابهم كبائر الذنوب ثم الإصرار عليها، فأولئك هم الظالمون، والله تعالى يقول: ﴿مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلاَ شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾ (غافر: ١٨)، ونعوذ بالله من مصير الظالمين.

﴿لَكِنِ الذينَ اتَّقَوْا رَبــَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِي مِــن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ وَعْدَ اللَّهِ لاَ يُخْلِفُ اللَّهُ الْمِيعَادَ﴾.

تأتي هذه الآية مفتوحة بحرف الاستدراك لتقرير الفارق الكبير والمضادة بين حال المؤمنين وحال الكافرين، والآية فيها وصف لنوع الجزاء الذي أعده الله للمؤمنين، ويأتي الحكم خبرا لصلة الموصول ليشعر بعليتها لنيلهم هذا الجزاء، فهم أدركوا النعيم في تلك الغرف بسبب تقواهم لربهم الذي هداهم ويسر لهم ما تعسر من عزائم الأمور ذلك لأنهم اجتنبوا الطاغوت أن يعبدوها وأنابوا إلى الله، فبشرهم بغرف في الجنة مبنية من فوقها غرف تجري من تحتها الأنهار وذلك وعد الله لهم، والله لا يخلف الميعاد.

وفي الآية مقابلة وصف أهل النعيم بأهل الجحيم فلأهل الجنة الغرف المبنية من فوقها غرف أخرى، ولأهل النار ظلل من تحتها ظلل من النار، وما أروع المناظرة بين الوصفين وبضدها تتميز الأشياء، والله لا يُخلف ميعاده لأهل النعيم كما لا يخلف ميعاده لأهل الجحيم ولا نجاة إلا لأولي الألباب الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه، أولئك لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة قولا من ربّ رحيم.

﴿أَلَمْ تَرَ
أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ
يُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ
يَجْعَلُهُۥ حُطَٰمًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ (21)
أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ فَوَيْلٌ
لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ (22)﴾

﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ
ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ
ٱللَّهِ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ
فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ (23) أَفَمَن يَتَّقِي بِوَجْهِهِۦ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ
ٱلْقِيَٰمَةِ وَقِيلَ لِلظَّٰلِمِينَ ذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ (24) كَذَّبَ
ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ (25)
فَأَذَاقَهُمُ ٱللَّهُ ٱلْخِزْيَ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ
لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ (26)﴾

يضرب الله المثل في هذه الآية الأولى من هذه الآيات على كمال قدرته وإتقان صنعه ورحمته بعباده وتفرده في ربوبيته وألوهيته، ويلفتنا بذلك إلى كونه وآياته المنزلة في القرآن الذي يشبه نزوله نزول الغيث، يصنع بالقلوب ما يصنع الغيث في السيح، وقد جاء التمثيل لذلك في حديث صحيح عن النبي ﷺ حيث يقول: {مَثلُ ما بَعَثَنِي الله به من الهُدَى والعِلْم كمثل الغَيْثِ الكثيرِ أصاب أرضاً فكَانَ منها نقيَّةٌ قبلَتِ الماءَ، فأَنبَتَتْ الكَلأَ والعُشْبَ الكثِيرَ، وكانتْ مِنْهَا أَجَادِبُ أَمْسَكَتِ الْمَاءَ فَنَفَعَ الله بهَا النَّاسَ، فَشَرِبُوا وَسَقَوْا وَزَرَعُوا، وأَصَابَتْ مِنْهَا طَائِفَةٌ أُخْرَى إِنَّمَا هِيَ قِيعَانٌ لاَ تُمْسِكُ مَاءً ولاَ تُنْبِتُ كَلأً، فَذَلِكَ مَثَلُ مَنْ فقه في دِينِ الله وَنَفَعَهُ مَا بَعَثَنِي الله بِهِ، فَعَلِمَ وَعلَّمَ، ومَثَلُ مَنْ لَمْ يَرفعْ بِذلكَ رَأْساً، وَلَمْ يَقْبَلْ هُدى الله الذّي أُرْسِلْتُ بِهِ}.

وفي الآية أيضا إلفات اعتبار إلى أحوال هذه الدنيا بدايتها ونهايتها، وفيها أيضا ضرب المثل على بعث الأجساد بعد فنائها واختلاط رفاتها بتراب الأرض كما اختلطت به بذور النباتات فأخرجها الله بنزول الماء والله على كل شيء قدير، وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَآءِ مَآءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ﴾.

الاستفهام تقريري والرؤية حقيقية بصرية، والخطاب لكل من يصلح للخطاب، أي أَغفَلت أيها العاقل، ألم تر أن الله أنزل من السحاب الذي في السماء ماء في مطر وابل أو طل أو برد أو ثلج فسلكه، أي فأدخله في شعاب الأرض وجعله فيها ينابيع، أي عيونا جارية فيها، وقد تنبع ينابيع متفرجة على وجه الأرض سُقيا للدواب والأنعام ثم يخرج به، أي بالماء زرعا مختلفا ألوانه، والألوان هنا هي الأصناف والأشكال، فالأرض واحدة والماء واحد والألوان مختلفة، وفي هذا ما يدل على قدرته، فالق الحب والنوى، وفي إنزاله الماء من السحب وفي سلوكه ينابيع في الأرض آيات لأولي الألباب على وجود الخالق الرازق الواحد القهار، ثم يخرج باختلاط الماء بالأرض زرعا مختلفا ألوانه، ألا تتفكروا في هذه الآيات البينات فتستدلون بها على وحدانية الله فتعبدونه وحده وتتركون ما سواه من الأنداد التي لا تخلق شيئا ولا تملك ضرا ولا نفعا.

﴿ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَامًا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُولِي الأَلْبَابِ﴾.

وفي إتمام وصف مراحل الزرع عبرة لأمور الدنيا والناس فيها ومآلهم بعد النمو والهياج إلى البلى والفناء، والهياج شدة الشيء، يقال هاجت الريح، وهياج النبات نموه وشدته وغلظه، وعندئذ تراه مصفرا آن حصاده، لأنه لو لم يحصد يكون حطاما يتهشم لأدنى حركة وكذلك يصير جسم الإنسان والحيوان بعد موته، إن في ذلك التطور من حال إلى حال عبرة لأولي القلوب الذين يعقلون فيقيسون حال الإنسان بحال الزرع ويعلمون أن الذي ينبت الزرع بعد أن يصير حطاما قادرا على أن يعيد خلق الإنسان بعد الفناء، وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه، وما يذكر إلا أولوا الألباب.

﴿أَفَمَن شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلإِسْلاَمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّـهِ﴾.

يضرب الله بهذه الآية مثلا للذي شرح الله صدره، أي جعل قلبه منشرحا لقبول الإسلام وشرائع الإسلام، وللقاسية قلوبهم التي تضيق بالإسلام وشرائعه، ويذكر الصنف الأول ولا يذكر له معادلا، ولا يستحق الذكر لحقارته وهوانه على الله، ويفهم من السياق والتقدير، أفمن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه خير أم من ضاق صدره بالإسلام فهو في ظلام الكفر والجاهلية، وشتان بين النور والظلام، ووصف الله الذي شرح صدره للإسلام بالجملة الاسمية، فهو على نور من ربه ليدل على الاستمرار والدوام، وأضيف النور إلى الرب، فهو من ربهم الذي هو بهم حفي لا ينطفئ ولا يخبو ولا يزداد إلا نورا وضياء، وهم دائما يقولون: ﴿رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَآ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (التحريم: ٨)، أهؤلاء خير أم قساة القلوب الذين لا يستمعون القول ولا يتأثرون بالموعظة ولا هم يذكرون.

﴿فَوَيْلٌ لِّلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ اللَّهِ أُوْلَئِكَ فِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ﴾.

الويل هو العذاب الشديد في جهنم، توعدهم الله بالويل، ووعيد الله لابد واقع للذين قست قلوبهم من ذكر الله، فهي لا تزداد بالذكر إلا قساوة وغلظة وتجافيا عن الحق، أولئك في ضلال بين واضح لا لبس فيه، قد أضلهم الله بقساوة قلوبهم فهم لا يتوبون ولا هم يذكرون، ونعوذ بالله من قساوة القلوب، وقد سأل الصحابة عند نزول هذه الآية سألوا رسول الله ﷺ عن معنى شرح الصدور فقال: {إن النور إذا وقع في القلب انشرح وانفتح، فقالوا: يا رسول الله، هل لذلك من علامة؟ قال: نعم، الإنابة إلى دار الخلود، والتجافي عن دار الغرور، والاستعداد للموت قبل نزوله}، نسأل الله أن يشرح صدورنا للإسلام وينورها بنور منه آمين.

﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ذَٰلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾.

الله هو الذي أنزل القرآن الذي هو أحسن الكلام، وقد سمي القرآن حديثا في غير موضع من القرآن، فهو الحديث الذي هو بمعنى القول، والحديث الذي هو بمعنى الخبر، وإسناد الإنزال إلى اسم الجلالة المقدم ذكره يفيد الاختصاص، أي أنه كلام الله لا كلام البشر ويفيد تقوية هذا الكلام الذي نزله الله على عباده ليهديهم به إلى صراط مستقيم، نزله كتابا متشابها تشابهت آياته وسوره في الكمال والحسن والإعجاز، فليس فيها تفاوت إلا ما تقتضيه المقامات من البسط والإطناب في بعضها، ومن الإيجاز والطي في بعضها الآخر، وتلك هي البلاغة التي يقول عنها أهل الفن بأنها مراعاة الكلام لمقتضى الحال، ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ (النساء: ٨٢).

ونجد هذا الاختلاف والتفاوت في كلام البلغاء من الكتاب والخطباء والمصاقيع من الشعراء؛ لأن للنفس إقبالا وإدبارا، وتطرأ على الإنسان أحوال تؤثر عليه فيضعف تصوره للأشياء وتسترخي أمراسه نتيجة انعكاس ما يطرأ على تفكيره وذاكرته، أما كلام الواحد القهار العزيز الحكيم فليس فيه اختلاف ولا يوجد فيه تفاوت، فهو أحسن الحديث، لا يخلق على كثرة الرد، ولا يشبع منه العلماء، ولا تنقضي عجائبه، ولا يزداد عنه تاليه إلا حلاوة تزيده إيمانا وهو كما قال منزّله:

﴿مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ﴾.

وصفه الله بالمثاني لأنه يتكرر بأساليب متنوعة تتوزع في طوال سوره ومفصله، فلا يفوت تاليها ما يثني فيها من الذكر والقصص والأحكام، ويراد أيضا بالمثاني أزواج الأغراض التي فيه مثنى كالوعد والوعيد، والحلال والحرام، وصفات الأبرار

وتبشيرهم بحسن المآل، وصفات الفجار وإنذارهم بالعذاب، وكيف كانت عاقبة الظالمين، وكيف كان النصر والنجاة عاقبة الصابرين المحسنين، فهو بهذا مثاني تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ويؤمنون بيوم الحساب، عندما يقرؤون آيات الوعيد تقشعر جلودهم، أي تنقبض وتنكمش من الفزع والرهبة التي تملأ قلوبهم الوجلة المؤمنة، وعندما يقرؤون آيات الرحمة والمغفرة والثواب تلين جلودهم نتيجة ارتياح قلوبهم لوعد الله واستبشارها بفضل الله ورحمته، فقلوبهم تلين لتلاوة كتاب الله، وهذا مقابل ما تقدم في وصف المكذبين القاسية قلوبهم من ذكر الله، أولئك في ضلال مبين.

فكلام الله أحسن الكلام تلين به القلوب وتخشع لذكر الله، أما الذين لا تلين قلوبهم لذكر الله فلِقساوة فيها لا لقصور في الكلام ولا لتقصير في تبليغ النبي ﷺ، وكما وصف الله القاسية قلوبهم أنهم في ضلال مبين فهو يصف الذين تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله بالهدى.

﴿ذَٰلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾.

الإشارة بالبعيد لشرف وعلو مرتبة المشار إليه، ونسب الهدى إلى الله لأنه مشرّع الهدى وملّين فطرة من يريد هدايته من الناس، ومن يضلله الله ويختم على قلبه بكفره ويجعله قاسي القلب لا ينصاع للوعاظ فماله بعد الله من هاد.

﴿أَفَمَنْ يَتَّقِي بِوَجْهِهِ سُوءَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَقِيلَ لِلظَّالِمِينَ ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾.

وهذا موضع آخر من المواضع التي يأتي فيها ذكر الاستفهام بالهمزة بدون ذكر معادله، وبشيء قليل من التدبر يفهم السامع معادله من السياق، والاستفهام للتقرير على نفي استواء الطرفين وإنكار أن يكونا مستويين، فهو يقول: أفمن يتقي بوجهه سوء العذاب يوم القيامة كمن يأتي آمنا وهو ناج من العذاب بل هو في النعيم المقيم! ما لكم أيها العقلاء تغفلون عن مصير الفريقين، والبون الشاسع بينهما ولا تتعظون، وهذا

مصير القاسية قلوبهم الذين هم في ضلال مبين، فهم يوم القيامة يتقون سوء العذاب بوجوههم لأن أيديهم قد أمسكتها الأغلال، والوجه هو أعز أعضاء الإنسان، فهو يتقي عنه بما أمكن من أعضائه ويفدي بها وجهه، ولا يتقي بوجهه إلا إذا كان مقيدا مغلولا، وهي حالة تقشعر الجلود من ذكرها، وليبين الله لنا أنهم استحقوا هذا المصير المشؤوم بأعمالهم، وما ظلمهم الله ولكن كانوا هم الظالمين، تلك الوجوه التي كانت معرضة عن رسل الله مقبلة على عبادة الطاغوت تتقي اليوم عذاب النار بنفسها.

ثم قال تعالى: **﴿وَقِيلَ لِلظَّالِمِينَ ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾**.

لم يذكر القائل من هو لأن الغرض يتعلق بالمقول لا بالقائل، وجاء القول مسندا للظاهر مع إمكان الإضمار للإيذان بأن هذا الوصف المصرح به هو علة استحقاقهم سوء العذاب، وهو ظلم أنفسهم بالشرك وكبائر الذنوب، وظلم غيرهم بأنواع البغي والتعدي، يومئذ يقال للظالمين ذوقوا، والذوق هو الإحساس بالأبشار، وأسند الذوق لا إلى النار بل لكسبهم لأنه السبب في صليهم عذاب النار وما فيها من النكال والهوان، فهم الذين اختاروا بكسبهم السيئ هذا المصير الملعون فهم فيه خالدون وفي العذاب مبلسون، لا يفتر عنهم ولا يموتون فيستريحوا.

﴿كَذَّبَ الذينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لاَ يَشْعُرُونَ فَأَذَاقَهُمُ اللَّهُ الْخِزْيَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾.

في هاتين الآيتين إنذار لهؤلاء المشركين المكذبين من قوم النبي ﷺ، قريش وغيرهم أن يمسهم من عذاب الدنيا والآخرة ما أصاب الذين من قبلهم من الأمم الذين كذبوا بالرسل، وفيها تسلية لرسول الله ﷺ، وأصحابه المؤمنين أنهم سينصرهم الله وسينتقم من أعدائه الذين يؤذونهم كما انتقم من أشكالهم ممن قبلهم، يقول الله تعالى: كذب الذين من قبلهم، أي الكفار من الأمم الماضية فأتاهم عذاب الله من حيث لا يشعرون، أهلك الله أقواما بالخسف، وآخرين بالغرق، وآخرين بالصيحة،

وآخرين بالريح العاصفة، وأهلك مدين بعذاب يوم الظلة، ويهلك الله من يشاء من الطغاة بالزلازل وبالفتن وبالسنين ونقص من الثمرات، وما يعلم جنود ربك إلا هو وما هي إلا ذكرى للبشر لعلهم يتوبون ويعتبرون.

وقد أهلك الله قريشا بقطع رقابهم وبالأسر والذل يوم بدر، وما كانوا يظنون أنهم يصابون بذلك وهم الأعزة المكرمون الذين تهابهم العرب لمكانهم من حرم الله، فأذاقهم العذاب والخزي من حيث لا يشعرون، فأذاقهم الله الذي أذاق من قبلهم من الخزي في الحياة الدنيا ولعذاب الآخرة الذي ينتظر هؤلاء إن لم يتوبوا أكبر من عذاب الدنيا وأشد، وقد أصاب الذين من قبلهم فهم اليوم في العذاب، وما ينتظرهم من عذاب النار أكبر لو كانوا يعلمون، أي لو كان قومك المكذبون يعلمون ما ينتظرهم من شؤم المصير وسوء العواقب، فهم غافلون.

وفي هذه الكلمة إنذار شديد واستفزاز للمشاعر الغافلة وليس المراد "لو" الشرطية ذات الجواب وليس في السياق جواب، وعدم ذكر الجواب أبلغ من ذكره، فلتذهب النفس مذاهب في تصور عذاب الآخرة، ولا يعلم حقيقته إلا الله، وسوف يعلمون حقيقة ما هم اليوم مكذبون به.

وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن
كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (27) قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي
عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (28) ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ
مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ الْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ
بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (29) إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ (30)
ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ (31)
۞ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ
إِذْ جَاءَهُ ۚ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ (32) وَالَّذِي
جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ ۙ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ (33)
لَهُم مَّا يَشَاءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ۚ ذَٰلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ (34)
لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا وَيَجْزِيَهُمْ
أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ (35)

هكذا يأتي الوصف بضرب المثل مسندا إلى نون العظمة إشعارا بشرف هذه الأمثال التي تأتي في القرآن لأنها من العزيز الحكيم، الكبير المتعال، وضرب المثل مما يتبارى فيه البلغاء والحكماء، يرسلون في نثرهم ونظمهم كلمات لها مدلول قوي صادق، كلمات تحز المفصل في صياغة موجزة محكمة لها في النفوس أثر خلاب، يرسلونها وتتلقفها الألسنة والأقلام، وقد يكون من هذه الأمثال تشبيه حالة بحالة، وتنظير حالة بحالة مقابلة لها، وهنا بعد قوله تعالى: ﴿**اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيث كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ...**﴾ تأتي هذه الآية: ﴿**وَلَقَد ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ**﴾.

ووصفه بما وصفه به يذكر أنه ضرب لنا فيه من كل مثل معبر عن الحقيقة أحسن تعبير، ويصور الحالة أجلى تصوير، فلا يعرض عنه إلا قساة القلوب، الذين طمس الله فطرتهم بما ارتكبوه من الشرك وكبائر الذنوب، بل حتى المشركين الذين لهم بقية وعي وإدراك يدركون حلاوة أمثال القرآن، ويفهمون معانيه، فيشرق نور الحق في قلوبهم، فيهديهم الله فيؤمنون، وما يضل الله به إلا الفاسقين الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون في الأرض، أولئك هم الخاسرون.

فالمثل إذن من شأنه أن يهدي الله به المستحقين للهداية، فهو الإشراقة الربانية التي يهتدي بها من لهم أدنى استعداد للفهم والتذكر.

﴿قُرءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾.

يصف الله الكلام بكونه قرآنا عربيا، سماه قرآنا وسماه فرقانا، لأنه جمعت فيه معاني الهداية والحكمة والبيان، فهو يفرق بين الحق والباطل، ووصفه بالعربي لأنه عربي اللغة، عربي البلاغة والبيان، عربي اللهجة والمنطق والأسلوب، ولا يمكن ترجمته إلى لغة أخرى إلا أن توضّح معانيه إلى اللغات الأخرى مجردة عن البلاغة العربية وأسرارها قصد تقريب فهمه إلى الأعاجم استجلابا لهم إلى إدراك حقيقة هذا الدين لعلهم يؤمنون به فيتعلمون لغته فيقرؤونه ويفهمونه عربيا كما أنزله الله.

وقوله تعالى: **﴿لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾** بيان منه أن من شأن هذا الكلام أن يتذكر تاليه وسامعه ما كان عنه غافلا أو له ناسيا، وقوله: **﴿غَيْرَ ذِي عِوَجٍ﴾** نفي العوج عن معانيه ومبانيه، فلا شيء فيه من الباطل والانحراف أبدا، فقد وصفه منزله بالنفي والإثبات في سورة الكهف فقال: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الذِي أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجًا قَيِّمًا﴾ (الكهف: ١ـ٢) حتى يكتمل الوصف بتظاهر مزايا النفي والإثبات.

﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً رَّجُلاً فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلاً سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلَ اَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ﴾.

ضرب الله مثلا لهؤلاء الذين اتخذوا من دون الله شركاء بالرجل الذي يمتلكه شركاء متشاكسون غير متوافقين، فلكل منهم وجهة، فيكون هو في تعب شديد، وعذاب من أوامرهم المختلفة، لا يقوى على القيام بها كلها، ويكون غرضا لتشجيبهم وشتائمهم وعقوباتهم، هل يستوي هذا المسكين ورجل آخر هو سَلم لرجل واحد، فهو يخدمه ويلبي رغبته في راحة ويسر، لا يستويان مثلا، هذا هو جواب السؤال؛ لأن الاستفهام هنا لتقرير النفي، ثم قال تعالى:

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلَ اَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ﴾.

الحمد لله المستحق للمحامد كلها، وهو الله الواحد الأحد المعبود بحق وما سواه باطل، بل أكثر هؤلاء الكفار لا يعلمون الحق فهم معرضون لأن أكثر هؤلاء القوم أتباع لرؤسائهم وساداتهم فهم لا يعلمون؛ لأنهم يقلدونهم ولا يفتحون أعين قلوبهم للحق فتبصره، فهم عمون، وساداتهم أيضا أعماهم حب العلو، وأصمهم حب المال والشرف.

﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾.

إنك صائر إلى الموت الذي ينتظرونه لك وإنهم أيضا صائرون إليه ليلقوا جزاءهم، والموت حق لا مفر لأحد منه، ثم إنكم يوم القيامة عند ربكم تختصمون، وثم هذه للرتبة والمهلة معا، ثم إنكم يوم القيامة تصيرون إلى الله وتختصمون لديه فيفصل بينكم وحينئذ يظهر المحق من المبطل، وفيه إقرار الحق من أمر البعث الذي لا ريب فيه، وفيه إنذار للمكذبين بيوم الفصل، وفيه تسلية لقلب النبي ﷺ وللمؤمنين معه ليصبروا على

أذى هؤلاء الكفار المكذبين، فكل آت قريب، ويومئذ يحكم الله بينكم وهو خير الحاكمين.

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جَآءَهُ﴾.

يبين الله تعالى في هذه الآيات مصير كل من المكذبين الكاذبين، والمصدقين الذين آثروا الصدق، وهو البيان الفاصل الذي يحكم بين المختصمين يوم القيامة، والفاء في أول الكلام للتفريع، والاستفهام الأول لتقرير النفي، أي لا أحد أظلم ممن كذب على الله بنسبة الشركاء والولد إليه، وقولهم إن الله أمرنا بالباطل والفحشاء، وكذّب بالصدق حين جاءه فبادر بالتكذيب من غير روية ولا تريث وتثبت، فكذبوا رسل الله وكتبه وكذبوا بالحق الذي جاءهم من عند الله، هؤلاء لا أظلم منهم، ظلموا مرتين: ظلموا بتكذيب الصدق، وظلموا بالكذب على الله، وظلموا أنفسهم أيضا بارتكاب المعاصي فعرّضوها لعذاب جهنم.

﴿أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلْكَافِرِينَ﴾.

وهذا استفهام تقريري ولا يسع المستمع لهذه الأوصاف الفظيعة إلا أن يحكم لهؤلاء بالخلود والبقاء في عذاب جهنم جزاء لهم على كذبهم على الله وتكذيبهم بالصدق الذي جاءهم من عند الله، وجاء الإظهار عوضا عن الإضمار للحكم لهم ولأمثالهم من الكفار المكذبين في كل زمان ومكان بالثواء، وهو الخلود في جهنم، فسيلحق بعضهم بعضا في التردي فيها مع إمامهم إبليس، ونعوذ بالله من مصير الكافرين، ثم يتحول الأسلوب القرآني البليغ إلى الكلام عن أهل الصدق حتى تتم المقارنة التي هي محط الاعتبار، فيقول تعالى:

﴿وَالَّذِي جَآءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾.

والذي جاء بالصدق هو رسول الله ﷺ وكل من دعا بدعوته من بعده وصدّق به، فهم كل المؤمنون وفي مقدمتهم رسول الله ﷺ ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ

وَالْمُومِنُونَ﴾ (البقرة: ٢٨٥)، ﴿أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ الإشارة بالبعيد لعلو شأنهم عند الله وملائكته، وتعريف الخبر والإتيان بضمير الفصل لحصر صفة التقوى فيهم، والتقوى ثمرة التصديق وخلاصة الإيمان، والجنة أعدت للمتقين، فالمتقون في الجنة، وهذا وما بعده مقابل قوله: ﴿أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلْكَافِرِينَ﴾ ففي الآيتين الوعد والوعيد.

﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ذَٰلِكَ جَزَآءُ الْمُحْسِنِينَ﴾.

الذين وصفهم الله بالتقوى مثواهم في الجنة، لهم ما يشاؤون عند ربهم، وهذه العندية تفيد التكريم والحفاوة والخصوصية، وإضافة الربّ إليهم كذلك فيها عناية الله بهم وإكمال نعمه عليهم، ثم تأتي الإشارة التي تفيد علو الرتبة والمقام، ذلك جزاء المحسنين، أي ذلك النعيم جزاء من الله لهم على تقواهم وإحسانهم في عبادة ربهم، والإحسان كما جاء في الحديث الشريف: {أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك}، ولإفادة هذا المعنى والحث عليه جاء الإظهار مكان الإضمار، فعوض أن يقول ذلك جزاؤهم، قال: ذلك جزاء المحسنين، ليرغبنا في الإحسان في عبادة ربنا حتى نفوز بجزاء المحسنين، ثم قال تعالى:

﴿لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الذِي عَمِلُوا وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ الذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

أي كانت تلك منزلتهم عند ربهم ليكفر الله عنهم سيئاتهم، والتعبير بالأسوأ يفيد تكفير كل سيآتهم؛ لأن تكفير أسوئها يفيد بالفحوى تكفير ما دونها ويجزيهم أجرهم بأحسن الذي كانوا يعملون، ذلك لأن تكفير السيئات ومغفرة الذنوب لا ينقص من حسناتهم بل هو فضل من الله فهم لا يبخسون من أعمالهم الصالحة شيئا بل يجازيهم عليها أحسن الجزاء، وذلك فضل الله يفيضه على المحسنين، والتكفير هو الستر فهو يعفو عنهم ولا يؤاخذهم عليها ولا يفضحهم بها يوم القيامة، بل يقيهم شرها ويضاعف حسناتهم ويؤتيهم أجورهم كاملة غير منقوصة، نسأل الله الكريم أن يجعلنا من عباده المحسنين آمين.

أليس الله
بكاف عبده ويخوفونك بالذين من دونه ومن يضلل
الله فما له من هاد (36) ومن يهد الله فما له من مضل
أليس الله بعزيز ذي انتقام (37) ولئن سألتهم من
خلق السماوات والأرض ليقولن الله قل أفرأيتم
ما تدعون من دون الله إن أرادني الله بضر هل هن
كاشفات ضره أو أرادني برحمة هل هن ممسكات رحمته
قل حسبي الله عليه يتوكل المتوكلون (38) قل
يا قوم اعملوا على مكانتكم إني عامل فسوف تعلمون (39)
من يأتيه عذاب يخزيه ويحل عليه عذاب مقيم (40)
إنا أنزلنا عليك الكتاب للناس بالحق فمن اهتدى
فلنفسه ومن ضل فإنما يضل عليها وما أنت عليهم
بوكيل (41)

بعد المقابلة بين مثوى الكافرين أهل الكذب والتكذيب، وبين مثوى المحسنين أهل الصدق والتصديق يتوجه الاستفهام الذي يراد به التقرير إلى هؤلاء الكفار الذين يخوفون رسول الله بأوثانهم التي اتخذوها آلهة من دون الله ويحذرونهم من الكلام فيها والاستهانة بها، فيقول الله تبارك وتعالى:

﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾.

أليس الله يكفي عبده الذي أرسله شر كل ذي شر، وبيده نواصي الخلق، وهو على كل شيء قدير، وهو العزيز المنتقم الغالب على أمره، ثم يلتفت الخطاب إلى النبي ﷺ ليثبت الله قلبه وقلوب المؤمنين.

﴿وَيُخَوِّفُونَكَ بِالذِينَ مِن دُونِهِ﴾.

والحال أنهم يخوفونك يا محمد بالذين يعظمونهم ويعبدونهم من دونه، فما أجهلهم، وما أسخف عقولهم.

﴿وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾.

إن هؤلاء القوم ممعنون في الضلال، وقد نشأوا عليه وتوارثوه خلفا عن سلف، فطبع الله على قلوبهم وأضلهم الله فأصمهم وأعمى أبصارهم، ومن يضلل الله فلا هادي له ولا سبيل له إلى هدى.

﴿وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّضِلٍّ﴾.

ومن شرح الله صدره للهدى فلا مضل له وهم المؤمنون رسول الله ﷺ وأصحابه الذين يطمع هؤلاء القوم في صرفهم عن الهدى بشتى الأساليب، فآيسهم الله من إضلالهم فلا مطمع لشياطين الجن والإنس في إضلال من هداه الله في كل زمان ومكان، والله عاصمهم ولا يضرهم من ناواهم إلا أذى ينالهم منهم في أبدانهم وأموالهم، ولا يزيدهم إلا ثباتا على الحق ورفعا لدرجاتهم عند الله.

﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِي انتِقَامٍ﴾.

جاء بهذا الاستفهام التقريري لأنه قد تقرر لديهم أن الله عزيز ذو انتقام وقد عرفوا خبر عاد وثمود ومدين وقوم نوح وقوم لوط، فهم لا يشكون في عزة الله وسطوته وجبروته فإذا كان الله هو الذي أرسل نبيه محمدا فهو كافيه وهو معزه وناصره، وهو لا محالة سينتقم له من أعدائه وسيظهر أمره ولو كره الكافرون، فكيف يخاف غيره من الطواغيت التي لا تملك ضرا ولا نفعا.

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾.

يرجع الأسلوب إلى محاجة المشركين ومساءلتهم سؤالا يلزمهم الحجة، يقول الله تعالى: ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله، إن هؤلاء المشركين لا

ينكرون وجود الله فإنك حين تسألهم من خلق السموات والأرض يجيبون خلقهن الله وما فيهن، ولكننا نعبد هذه الأصنام ليقربونا إلى الله زلفى، ثم يتدرج السؤال إلى المقدمة الثانية التي يكون بعدها الحكم الصحيح ببطلان آلهتهم التي يدعونها من دون الله، إنها لا تكشف ضرا ولا تجلب نفعا ولا تمسك رحمة أرسلها الله.

﴿قُلْ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ﴾.

قل لهؤلاء الكفار المشركين: أفرأيتم هذه الأصنام التي تخافون ضرها وترجون نفعها إن أرادني الله بضر هل هي ترد الضر قبل نزوله أو ترفعه بعد نزوله؟ الجواب: لا طبعا، أو أرادني برحمة هل يمسكن رحمة ربي فلا تصل إليّ؟ الجواب لا كذلك، فهن أضعف من ذلك، وإذا كان الأمر كذلك فلم تعبدونها من دون الله وأنتم تعلمون ضعفها، وهذا جواب لهم بعد قوله تعالى: **﴿وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِن دُونِهِ﴾** والجواب في غاية من الدقة والإحكام، ثم يأتي قوله تعالى:

﴿قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾.

قل لهؤلاء المفلسين من الجواب: حسبي الله هو كافيني وكافي كل مؤمن توكل عليه، فعليه وحده يتوكل المتوكلون من عباده ويفوضون أمورهم كلها إليه، وهذه الآية من الله رد عليهم بعد عجزهم وإفلاسهم من الحجة وإرشاد لعباده المؤمنين أن يتوكلوا عليه وحده، وهو حسبهم ونعم الوكيل.

﴿قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾.

أمر الله نبيه أن ينادي هؤلاء بهذا النداء **﴿يَا قَوْمِ﴾** إشعار لهم بالنصح لهم والإشفاق عليهم، ومن أراد الله به منهم خيرا فإنه يتأثر بهذا النداء ويلقي السمع لما سيقال له **﴿اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ﴾** اعملوا على هذه الحالة التي أنتم مقيمون عليها ولا

تريدون أن تتحولوا عنها بعد أن تبين الهدى من الضلال، والرشد من الغي، إني عامل في مكانتي التي اختارها الله لي وللمؤمنين فسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه في الدنيا ويحل عليه عذاب مقيم في الآخرة، وقد أتاهم عذاب الخزي يوم بدر وانتقلوا إلى العذاب المقيم وهم فيه مقيمون كما أقاموا على الضلال في الدنيا بعد أن تبين لهم الرشد من الغي جزاء وفاقا، كما أحل الله المؤمنين دار المقامة من فضله جزاء إقامتهم على الحق بعد أن تبين لهم، ومن يضلل الله فما له من هاد، ومن يهد الله فما له من مضل، وفي ذكر حال هؤلاء وحال هؤلاء عبرة للمعتبرين وذكرى للذاكرين.

﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾.

تأتي هذه الجملة بعد تهديد المقيمين على الضلال تثبيتا لقلب النبي ﷺ وأصحابه المؤمنين وكل من دعا بدعوته من بعده، فيثبت الله قلب نبيه بهذه الآية الكريمة ويهوّن عليه فيها كفرهم وضلالهم ويُطمئن قلبه لئلا يحزن ويبخع نفسه على عدم إيمانهم، فإنما عليه البلاغ وليس عليه هداهم ولكن الله يهدي من يشاء، يقول الله تبارك وتعالى مخاطبا لنبيه ﷺ بنون العظمة: إنا أنزلنا عليك الكتاب، أي القرآن بالحق لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه لتنذر به الناس جميعا، فمن اهتدى به فإنما يهتدي لنفسه وسينال جزاء اهتدائه موفورا، ومن يضل فإنما يضل عليها ولا يضرك ضلاله بعد أن بلّغت إليه ما أنزل الله من الحق وما أنت إلا مذكّر ليست عليهم بمسيطر وما أنت عليهم بوكيل، ليس عليك من ضلالهم إن ضلوا إثم ولا عتاب إن عليك إلا البلاغ ثم إن حسابهم على الله وهو وحده الوكيل الذي يتولى أمور عباده ويجازي كلا بما يستحق، يقول الله هذا لنبيه حتى لا توسوس له نفسه لعله أن يكون ضلالهم لتقصير في التبليغ وذلك لتسكن نفسه ويعلم أن الناس على صنفين: صنف ينتفع بما أنزل الله من الهدى والفرقان، وصنف أضله الله فلا يرفع بذلك رأسا، وما هو عليهم بوكيل.

﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ ٱلَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَمْلِكُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٣﴾ قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًا لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٤٤﴾ وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٥﴾ قُلِ ٱللَّهُمَّ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ عَٰلِمَ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٤٦﴾

آيات متتالية في تقرير عقيدة الإيمان بالله ووحدانيته ونبذ كل ما عبد من دونه من الطواغيت، وفي هذا الجو يأتي التنبيه من قبل الله على الإيمان ببعث الأجساد بعد فنائها ورجوع الحياة فيها للقيام لرب العالمين يوم البعث والنشور، يقول الله تبارك وتعالى:

﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الانفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ التِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُسَمًّى انَّ فِي ذَٰلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

الله خالق الأنفس هو الذي يتوفى الأنفس ويقبضها حين موتها والتي لم تمت يتوفاها في منامها فيمسك التي قضى عليها الموت إلى يوم البعث والنشور ويرسل الأخرى عند أجلها المسمى، إن في ذلك الإمساك وذلك الإرسال لآيات، أي علامات لقوم يتفكرون بعقولهم ويعتبرون، فقضية الموت والبعث تتكرر دائما عند كل نوم

ويقظة، وقد جاء التنبيه إلى هذا في قول الرسول ﷺ {لَتُموتُنَّ كمَا تَنامُونَ وَلَتُبْعَثُنَّ كَما تَستَيْقِظُونَ، ولَتُسأَلُنَّ عَمَّا تَعمَلُونَ..إلخ} فمن شك في قضية بعث الأجساد بعد موتها فلينظر نظر تفكر واعتبار إلى قبض النفوس في منامها وإرسالها عند استيقاظها، وفي كل من الموت والنوم آيات لأولي الألباب الذين يتفكرون ويؤمنون بالله القابض الباسط، المحي المميت، المبدئ المعيد.

﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ شُفَعَآءَ قُلَ اَوَلَوْ كَانُوا لاَ يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلاَ يَعْقِلُونَ قُل لِّلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا لَّهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالاَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾.

إن هؤلاء القوم المنكرين للبعث لا يتفكرون في الآيات الدالة على قضية الموت والبعث التي تتكرر في كل نومة وصحوة بل هم في غمرتهم ساهون وهم عاكفون على أصنامهم التي وجدوا آباءهم لها عابدين، ولذا جاءت "أمْ" الإضرابية على رأس هذه الآية، يعني بل اتخذوا من دون الله شفعاء يزعمون أنهم شفعاؤهم عند الله.

قل لهؤلاء الضالين: أتتخذون شفعاء من لا يملك من الأمر شيئا وهم لا يعقلون ولا يشعرون بعبادتكم وهم عن دعائكم غافلون، فما أسخف عقولكم وما أبعدكم عن الصواب، وما أشد ضلالكم حين ألحقتم بالله شفعاء لا يعقلون شيئا ولا يهتدون، قل لله الشفاعة جميعا، أي الشفاعة كلها ملك لله ليس لأحد من خلقه فيها نصيب إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى، فملائكة الله ورسله لا يشفعون إلا من بعد أن يأذن الله لهم ويحد الله حدا من الناس يشفعون لهم إلا الشفاعة العظمى لفتح باب الحساب فهذه منزلة ادخرها الله تبارك وتعالى لنبيه محمد ﷺ، يسجد تحت العرش يثني على ربه بكلمات يلهمه الله إياها فيرفع رأسه بعد أن يأذن الله له بذلك فيكون ذلك فتحا لباب الحساب، فيحد الله له حدا ممن ارتضاهم الله فيشفع فيهم فيدخلون الجنة بغير حساب، ثم يحد الله له حدا آخر، ثم يحد له حدا ثالثا يشفع فيهم، ثم تقع الشفاعات الخاصة لمن

يستحقونها من أهل الوفاء التائبين من ذنوبهم في الدنيا فالشفاعة للتائبين وتطلب من الله لا من رسول الله فهو لا يملكها بل هي ملك لله تعالى، قال الله تعالى: ﴿مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ﴾ (البقرة: ٢٥٥)، فأمر الشفاعة لله وحده له ملك السموات والأرض في الدنيا والآخرة، وذلك ما تدل عليه الآية:

﴿ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾.

ثم إلى الله مالك يوم الدين تحشرون ويحاسبكم ويجازيكم على أعمالكم، فقدموا لذلك اليوم وأحسنوا العمل، ولا تعولوا على الأماني الغرارة فإنها لا تنفعكم عند الله، إنه لا ينفع يومئذ إلا الإيمان والعمل الصالح واجتناب كبائر الإثم والفواحش، والتوبة من جميع الذنوب، وكثرة الاستغفار والتنصل من المظالم، وقضاء الفوائت، ونسأل الله بعد كل هذا أن يشفع فينا نبيه ﷺ يوم نرجع إليه ويغفر لنا إنه هو الغفور الرحيم.

﴿وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الذِينَ لاَ يُومِنُونَ بِالآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الذِينَ مِن دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾.

إن هؤلاء الكفار المكذبين بالآخرة يعدلون بربهم ويتخذون من دونه أندادا يحبونهم كحب الله ويرجحون حبهم على حب الله، فهم إذا ذكر الله وحده يغضبون وتشمئز قلوبهم، أي تنقبض لشدة كراهيتهم أن يفرد الله بالألوهية، وإذا ذكر الذين من دونه من الطواغيت يستبشرون ويظهر على وجوههم البشر والسرور، وكذلك حال القبوريين عباد الأضرحة والقباب في زماننا، فهم يستبشرون لذكر أوليائهم والكرامات المنسوبة بالحق وبالباطل إليهم، ويكرهون أن يذكر الله وحده، وتشمئز قلوبهم لذلك، وكذلك حال الملاحدة الذين لا يؤمنون بالآخرة تميل قلوبهم إلى أحكام الناس وقوانينهم الوضعية ولا ترتاح لحكم الله، فإذا استشهد المؤمنون بآية من كتاب الله أو بقول رسول الله ﷺ فهم يتضايقون وتشمئز قلوبهم، وحين يذكر قول ماركس أو لينين أو فرويد أو أحد طواغيتهم المشرعين فهم يستبشرون، وترتاح قلوبهم لذلك، وينظرون بعين الإكبار

إلى طواغيتهم، والمستمسك بأقوالهم، ويحتقرون الذين يكتفون بتشريع الله ورسوله، وما ذلك إلا لأنهم لا يؤمنون بالآخرة ويشكّون فيها وفي القرآن والرسول.

﴿قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾.

أمر الله نبيه وكل مؤمن بعده أن يقول هذا الكلام حين يذكر حال هؤلاء الكافرين المكذبين بوحدانية الله وبالآخرة، وهو نداء حذف منه حرف النداء، وذلك أن تقول: اللهم فاطر السموات والأرض خالهما وخالق من فيهما، يا عالم الغيب والشهادة أنت وحدك تحكم بين عبادك - أي يوم القيامة - فيما كانوا فيه يختلفون فيه، أي في الدنيا، ثم تترك هؤلاء المكذبين وتعرض عنهم ولا تشتغل بفلسفاتهم وسفسطائهم.

ونفهم أيضا من الآية أن الحكم الحق بين الناس هو ما أنزل الله في كتابه وعلى لسان رسوله، فهو فاطر السموات والأرض، فاطر الناس، عالم الغيب والشهادة هو وحده يحكم بين عباده فيما هم فيه يختلفون، ويفصل بينهم بشرعه المنزل الحق في هذه الدنيا، ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ للهِ يَقُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ﴾ (الأنعام: ٥٧)، وكل حكم يشرعه الطواغيت دون حكم الله فهو باطل وجوْر عن صراط الله المستقيم، فلنستمسك بحكم الله ولنرض بشريعته ولنسلّم بذلك تسليما، فذلك هو الإيمان المحض ولنعرض عن كل ما سواه فهو وحده الحاكم بين عباده فيما كانوا فيه يختلفون.

ولهذه المناسبة لا يفوتنا أن نذكر الموقف الذي وقفه بعض العلماء في اختلاف الصحابة وما وقع بينهم من الفتن، سئل بعض العلماء العارفين عنها فقال: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾، ولم يزد على هذه الآية، وهو جواب موفق فيه سلامة الدين والدنيا.

﴿وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦ مِن سُوٓءِ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۚ وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا۟ يَحْتَسِبُونَ ﴿47﴾
وَبَدَا لَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿48﴾ فَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَـٰنَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَـٰهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍۭ ۚ بَلْ هِىَ فِتْنَةٌ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿49﴾ قَدْ قَالَهَا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿50﴾ فَأَصَابَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟ ۚ وَٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْ هَـٰٓؤُلَآءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟ وَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ﴿51﴾ أَوَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿52﴾

﴿وَلَوَ انَّ لِلَّذينَ ظَلَمُوا مَا فِي الاَرْضِ جَميعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لافْتَدَوْا بِهِ مِن سُوءِ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَبَدَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُون﴾.

يتوعد الله الظالمين الذين اتخذوا من دون الله شفعاء يفرحون ويستبشرون لذكرهم وتشمئز قلوبهم لذكر الله، هؤلاء الظالمون وأمثالهم في كل زمان ومكان بظلم الشرك وما دون الشرك من أنواع المظالم، حين يرون العذاب يوم القيامة يودّون لو يفتدون من سوء عذاب يومئذ بملء الدنيا ذهبا ومثله معه، ولو كان ذلك في حوزتهم فلن يقبل منهم ولو افتدوا به، وقد كانوا في الدنيا يملكون أن يفتدوا من عذاب الله بأقل من ذلك لو كانوا يفقهون.

قال الله تعالى: ﴿وَبَدَا لَهُم مِّنَ اللهِ﴾ .

أي من عذاب الله وسخطه ومقته ما لم يكونوا يحتسبون، أي ما كانوا يظنون أن ظلمهم يفضي بهم إلى ذلك المصير المشؤوم والعياذ بالله، إنهم كانوا يرتكبون السيئات ويتكلون على الشفعاء فإذا بأمانيهم ترجع سرابا وبدا لهم سيئات ما كسبوا من الظلم وكبائر الإثم، وكانوا يستهزئون بالنذر ويتشبتون بالأماني فأخلفتهم الأماني الغرارة، وبدا لهم ما لم يحتسبوا، وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون، أي انقلب عليهم استهزاؤهم بالوبال وخيبة الآمال، وفي هذا الكلام موعظة بليغة وإنذار للذين يستهزؤون بنذر الله ويتمسكون بالأماني الفارغة لا سيما الذين يعتمدون على الشفعاء، والشفاعة لله جميعا، وحتى الذين يأذن لهم الله بالشفاعة يوم القيامة لا يشفعون إلا لمن ارتضى وهم من خشيته مشفقون.

﴿فَإِذَا مَسَّ الانسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ قَدْ قَالَهَا الذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَالذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هَؤُلَآءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ أَوَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَّشَآءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُومِنُونَ﴾.

ضرب من ضروب الكفر في الناس تتعرض الآية لكشفه، وهو طبيعة من طبائع النفوس المفتونة المغرورة والعياذ بالله، يقول الله تبارك وتعالى:

﴿فَإِذَا مَسَّ الانسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾.

يكشف الله تعالى عن حقيقة الإنسان الذي لم تهذب طبيعته عقيدة الإسلام وشرائعه، أنه إنسان كنود جحود مغتر بنفسه، إذا مسه ضر من مرض أو عطب أو فقر

أو ضيم فزع إلى الله يدعوه وحده ونسي ما كان يدعو من دونه من أولياء، ثم إذا خوله نعمته، أي أعطاه إياها ومتعه بها بعد إتيان الفرج من الضر الذي كان فيه نسي المنعم الذي منه وحده الفرج وجميع النعم، وذهب يقول في صلف وتيه وغرور: إنما أوتيت هذا الشفاء أو هذا الغنى، أو هذا العز على علم عندي، ولا فضل لأحد عليّ، وهذا ضرب من ضروب الكفر والجحود والطغيان، وإلا ما أنت وما علمك في قضاء الله، ومن أعطاك هذا العلم وهذه الحذاقة والمعرفة؟ أليس الله هو الذي علمك ما لم تكن تعلم، أليس الله هو الذي كشف عنك الضر! أليس الله هو الذي خولك هذه النعمة وغيرها من النعم التي لا تحصى! قال الله تعالى:

﴿بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ﴾.

بل هي فتنة وامتحان يبتلي الله بها عباده فيضل بها من يشاء منهم ولكن أكثر هؤلاء المفتونين لا يعلمون الحق فهم جاهلون، ولو نظروا بعقولهم لعلموا أن الفضل بيد الله، وأن المنعم المتفضل هو الله وحده كاشف الكرب فارج الهم والغم، مجيب دعوة المضطرين، وهذه آية عظيمة من تأملها انكشف له سر التوفيق والخذلان في الناس، وفتح الله عليه من مكنون علمه ما ينفعه ويهديه إلى صراط الله المستقيم وعصمه الله من فتنة الضلال والحيرة، قال الله تعالى:

﴿قَدْ قَالَهَا الذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾.

هذه كلمة طالما قالها الكفار الجاهلون وليس قومك أول من قالها، فقد قالها الذين من قبلهم وسيقولها الذين من بعدهم ممن أضله الله، وختم على سمعه وقلبه، وقد حكاها الله عن قارون الذي كان من قوم موسى فبغى عليهم فخسف الله به وبداره الأرض فما أغنى عنه عزه ولا ماله ولا جاهه، وكذلك تكون عاقبة المتكبرين الظالمين، وكذلك أهلك الله قبل قارون من هم أشد منه قوة وأكثر جمعا، وتلك سنة الله في

الظالمين في كل زمان ومكان، ولن تجد لسنة الله تبديلا، ولن يغني عن هؤلاء الظالمين من الله المنتقم الجبار ما كسبوا من مال وعز وسلطان وجنود وأنصار، قال الله تعالى:

﴿فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَالذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هَؤُلَآءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ﴾.

فأصابهم العقاب من الله بسيئات ما اقترفوا من كبائر الإثم والفواحش، والذين ظلموا من هؤلاء، أي من قومك سيصيبهم مثل ما أصاب الذين من قبلهم من سيئات ذنوبهم وما هم بمعجزين، أي لا يعجزون الله ولا يفوتونه وهم أهون من ذلك، والله من ورائهم محيط، وفي هذا الكلام تخويف للظالمين وإنذار لهم لعلهم يرجعون، وفيه تسلية لقلب النبي وقلوب أصحابه المستضعفين، وتثبيت لقلوبهم وقلوب المؤمنين في كل عصر ومصر حتى تقوم الساعة، ثم قال الله تعالى:

﴿أَوَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَّشَآءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُومِنُونَ﴾.

أعميت أبصارهم ولم ينظروا فيعلموا أن الله هو الذي يقسم الأرزاق فيبسطها لمن يشاء من عباده ويضيقها على من يشاء، إن في ذلك البسط والتقدير لآيات، أي علامات دالات لقوم يؤمنون بالله الباسط القابض الرازق آيات تزيدهم إيمانا على إيمانهم فيتوكلون عليه وحده ويثقون بوعده ويرضون بقسمته، ويشكرون إنعامه وفضله في حالي البسط والتقدير، تلك هي النفوس المطمئنة المؤمنة التي تؤمن بلقاء الله وترضى بقضائه، وتقنع بعطائه، ولا تزداد على تقلبات الأحوال إلا إيمانا.

قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ
ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾
وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُواْ لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ
ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿٥٤﴾ وَٱتَّبِعُوٓاْ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ
إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ بَغْتَةً
وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٥٥﴾ أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ
أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِي لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٥٧﴾ أَوْ تَقُولَ
حِينَ تَرَى ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾
بَلَىٰ قَدْ جَآءَتْكَ ءَايَٰتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَٱسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ
مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٩﴾ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَى
ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٦٠﴾

في هذه الآيات نداء من الله لعباده الذي أسرفوا على أنفسهم بالشرك وكبائر الإثم، يأمر نبيه أن يناديهم ويبلغهم نداء الله ﴿يَا عِبَادِي﴾ وتأتي هذه الإضافة إلى ياء العظمة والخصوصية لاستعطافهم واستخلاصهم من تلبيس إبليس وجنوده، يوسوسونهم ليوئسوهم من مغفرة الله ورحمته، فناداهم الله وتلطف إليهم في هذا النداء المحبوب:

﴿قُلْ يَاعِبَادِيَ الذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لاَ تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّـهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾.

قال علي بن أبي طالب ومن معه من المفسرين: هذه أرجى آية في كتاب الله، وقال ابن عباس ومن معه: أرجى آية هي قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ﴾ (الرعد: ٦)، وقال آخرون: أرجى آية هي قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لاَ يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَنْ يَّشَآءُ﴾ (النساء: ٤٨)، ومهما يكن من الاختلاف

ففي الآية فتح لأبواب التوبة على مصاريعها فتحا مطلقا لا استثناء فيه ولكن ليس فيها متمسك لما يزعمه المرجئة من مغفرة الله للذنوب بلا توبة بل الآيات التالية ترد عليهم ردا صريحا لا لبس فيه، إن الله تبارك وتعالى يفتح بهذه الآية الكريمة باب التوبة من جميع الذنوب، الشرك فما دون الشرك.

وقد اختلف المفسرون في أسباب نزول هذه الآية وإن كان العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، قال بعضهم: نزلت في حق المشركين الذين قالوا للنبي ﷺ: هل يغفر الله لنا الشرك والقتل والزنا وسائر المآثم، فأنزلت، وقيل: أنزلت في حق وحشي قاتل حمزة عم النبي ﷺ، والآية عامة لجميع المسرفين على أنفسهم، والإسراف هو الإكثار من الذنوب الكبائر، يقول الله تعالى لهؤلاء لا تقنطوا، أي لا تيأسوا من رحمة، إن الله يغفر الذنوب جميعا، والمغفرة الستر وعدم المؤاخذة، إنه هو الغفور الرحيم، فقد وصف نفسه بصيغة المبالغة من المغفرة وأكدها بتعريف الطرفين من الجملة الاسمية وبضمير الفصل، ثم بين تعالى شروط المغفرة فقال:

﴿وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِن قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطْتُ فِي جَنبِ اللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾.

الإنابة هي الرجوع بالقلب إلى الله، ففيها معنى التوبة وزيادة، فالأمر صادر من الله لهؤلاء المسرفين أن يقلعوا عن الذنوب ويرجعوا إلى ربهم تائبين منيبين إليه قبل فوات الأوان، فحينئذ لا ينفع اعتذار ولا تقبل توبة ولا فدية **﴿وَأَسْلِمُوا لَهُ﴾** أي أخبتوا إلى ربكم متضرعين مسلمة له ظواهركم وبواطنكم، منيبة إلى الله راغبة إليه، راهبة منه من قبل أن يأتيكم عذابه ثم لا تنتصرون ولا تجدون من ينصركم منه.

﴿وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَنْ يَّاتِيَكُمُ العَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لاَ تَشْعُرُونَ﴾.

واتبعوا أحسن ما أنزل إليكم من ربكم، وهو القرآن الكريم، فهو أحسن الحديث الذي أنزل فيه من الإرشادات ما هو خير وأحسن تأويلا، بادروا باتباعه من قبل أن يأتيكم العذاب بغتة، أي فجأة من غير إنذار وأنتم لا تشعرون بمجيئه قبل نزوله ولا تملكون دفعه إذا نزل ولا صرف بعضه.

﴿أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَاحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطْتُ فِي جَنبِ اللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ﴾.

ولابد بتقدير كلمة قبل "أنْ" هذه التي قبل القول وتقديرها "كراهة أو حذر" أن تقول نفس المجرم حين ينزل به العذاب: ﴿يَاحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطْتُ فِي جَنبِ اللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ﴾ ينادون بهذه الصيغة لشدة ما نزل بهم من البلاء الذي أيسوا من دفعه فيتحسرون على ما ضيعوا وفرطوا في جنب الله، أي في حق الله، والعرب تستعمل هذه اللفظة "الجنب" أو "الجانب" وتضيفه إلى الشخص أو الشيء وتريد بذلك في حق ذلك الشخص أو الشيء، فهؤلاء لم يفرطوا في جنب الشيطان فقد أطاعوه واتبعوا أوامره، ولكنهم فرطوا في جنب الديان فقد عصوه وجفوا نذره وسخروا بالداعين إليه، وهذا ما يدل عليه قولهم:

﴿وَإِن كُنتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ﴾ أي، وإني كنت في الدنيا حقا من الساخرين بآيات الله ورسله، والسخرية ذنب آخر زيادة على ارتكاب المخالفة، وربما تكون أعظم منها إذ لو اعترف العاصي بالحق وأظهر الأسف على معصيته وأنصت إلى الناهين لكان أرجى لتوبته وإنابته لكن الخطر الكبير في كبريائه وعدم قبوله النصح وسخريته بالناصحين فهو حينئذ في ضلال بعيد.

﴿أَوْ تَقُولَ لَوَ اَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾.

ويحاول المفرطون أن يبرروا تفريطهم في جنب الله ويلقون المسؤولية على قدر الله، يقول أحدهم: لو أن الله هداني لكنت من المتقين، وهذه شبهة سيرد الله على أصحابها في الآيات التالية حتى يقطع كل طمع لمن يحاول أن يتعلق بهذه الشبهة الواهية، يود أحدهم لو أن الله هداه وقد أرسل الله من يهديهم ولكنهم أعرضوا عن هداه.

﴿أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوَ اَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾.

أو تقول النفس المفرطة لو أن لي رجعة إلى الدنيا فأكون من التائبين المحسنين بالعمل الصالح وهم بشهادة الله كاذبون في هذا المقال، قال تعالى: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ (الأنعام: ٢٨)، فهذه المقالة إذن مردودة عليهم، وفيها تنبيه وإنذار لمن كان فيه بقية من العمر ليتوب ويستقيم إلى الله قبل الفوات، إن الله تبارك وتعالى يرد على هذه المقالات وأصحابها بقوله:

﴿بَلَىٰ قَدْ جَآءَتْكَ ءَايَاتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾.

يقيم الله الحجة بهذه الآية الكريمة ليكذب بها الجبرية ومن لف لفهم ممن يرتكب الآثام ويلقيها على قدر الله، والله تبارك وتعالى قد أرسل الرسل وأنزل الكتب، وبيّن شرائع الهدى وأعطى الاختيار للناس، قال تعالى: ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ (الإنسان: ٣)، وهنا يخاطب الله الإنسان الذي يحاول تبرير تقصيره وتفريطه يقول له: بلى، أي ليس الأمر كما زعمت، بل قد جاءتك آياتي تبين لك الحق وتنير لك طريق الهدى فكذبت بها واستكبرت حين دعاك الداعون إلى الهدى، وسخرت منهم وكنت من الكافرين، كفرت بالله وبرسله وكتبه واليوم الآخر، وكفرت بأنعم الله، فلا تعتذر اليوم فلن يقبل منك اعتذار ولا كلام.

وهذه الآيات البليغة تبرز هواجس الإنسان وتندماته حين يرى العذاب ومحاولاته تبرير كفره ومعاصيه وتفضح أمر المتكبرين في الدنيا الذين يستنكفون عن عبادة الله

ويترفعون عن حشر أنفسهم مع الضعفاء والفقراء في بيوت الله ، ويعدون ذلك حطة لهم لأنهم قوم لا يفقهون ، وفي هذا العرض لهذا المشهد القرآني البديع موعظة وذكرى لأولي الألباب ، وإنذار لمن فيه بقية من عقل حتى يتجنب الوقوع في مثل ذلك المصير المشؤوم ، والعياذ بالله.

﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلْمُتَكَبِّرِينَ﴾.

الخطاب للنبي ﷺ ولمن يصلح له الخطاب من بعده ، وهو مشهد فظيع مؤثر ، يذكر الله فيه يوم القيامة ليذكرنا بمجيئه وأنه حق لا ريب فيه ، ويعرض فيه حالة الكاذبين على الله ، فهم في حالة بؤس وشقاء ، وجوههم مسودة لأنهم بشروا بالعذاب ، فهم يرون جهنم وهي تتلهف على أبنائها وتنتظرهم بشوق ، فكيف لا تسود وجوههم وهم واقعون في العذاب لا محالة وماكثون فيه أبدا ، **﴿أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلْمُتَكَبِّرِينَ﴾** استفهام تقريري يراد به تحقيق الإخبار بمصير المتكبرين ، وفي ذكر الوصف هنا وصف الكبر إيذان بأنه علة إلقائهم في جهنم وتخليدهم فيها ، وكذلك يكون مصير كل جاحد للحق كاذب على الله.

وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ
وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (61) اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى
كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ (62) لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ
كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (63) قُلْ أَفَغَيْرَ
اللَّهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ (64) وَلَقَدْ أُوحِيَ
إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ
وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ (65) بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُنْ
مِنَ الشَّاكِرِينَ (66)

هكذا على الطريقة الازدواجية في القرآن الكريم يثني الله بذكر مصير أهل الجنة بعد ذكر مصير أهل النار، وبضدها تتميز الأشياء، يقول الله تعالى: وينجي الله الذين اتقوه وعبدوه مخلصين له الدين، وآمنوا بوعده ووعيده، ينجيهم من الوقوع في العذاب فهم في نضرة وسرور، وجوههم مبيضة قد أسفرت بما تلقاها من بشائر الأمر فهم في مفازتهم آمنون، وجوههم ناضرة إلى ربها ناظرة، تنتظر بشوق متى يأذن الله لها بدخول الجنة، لا يمسهم السوء الذي مس الكفار ولا يحزنون كما حزنوا، وعلام الحزن وهم ناجون مبشرون بالسعادات لا تمسهم النار إلا تحلة القسم ولا يجدون حرها، فليسوا يدخلون ثم يخرجون منها ولو كان الأمر كذلك لمسهم السوء ولحزنوا إذن، والله يقول: لا يمسهم السوء ولا هم يحزنون، وقد ورد أن غمسة واحدة تنسي المغموسَ سوءُها وحزنها أطول عمر في نعيم الدنيا، نسأل الله السلامة والعافية.

﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ لَّهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَالذِينَ كَفَرُوا بِئَايَاتِ اللَّهِ أُوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾.

الله خالق كل شيء بدون استثناء إلا نفسه فهو شيء لا كالأشياء، وهو الموجود أبدا، الأول والآخر، والظاهر والباطن، لا أولية لأوليته، ولا آخرية لآخريته، وكل ما سواه مخلوق له وهو على كل شيء وكيل، أي المتصرف المطلق الذي لا يُعقّب، له مقاليد السموات والأرض، والمقاليد قيل الخزائن، قيل المفاتيح، وقيل المدخرات والنفائس، وقيل: أصل الكلمة إقليدس رومية، وقيل: فارسية، وقيل: كليد، وقيل يمانية، وقيل: مما تقاربت فيها اللغات، وهي مفاتيح أسرار هذا الكون علويه وسفليه، وبحاره وأجوائه، وسماواته وأبراجها ونجومها وكواكبها، ومدخرات الأرض ونفائسها ومعادنها هي كلها ملك لله وحده، هو خالقها وعالم أسرارها وخفياتها، وبيده مفاتحها، فهذه ثلاث جمل تثبت الخلق والأمر والملك لله الواحد القهار، فهو وحده أحق أن يعبد ويتوكل عليه، وتأتي الجملة الرابعة في التشنيع على من يكفر بآيات الله.

﴿وَالذِينَ كَفَرُوا بِئَايَاتِ اللَّهِ أُوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾.

والذين كفروا بآيات الله الدالة على عظمته وعلو شأنه وقدرته والتفرد بالخلق والملك أولئك هم الخاسرون الذين خسروا الدنيا والآخرة، فلا خسارة تشبه خسارتهم، فكأن كل خسارة غير خسارتهم لا تسمى خسارة، وهو المعنى الذي نستفيده من تعريف الطرفين المبتدأ وخبره، والإتيان بضمير الفصل وبالمفهوم العكسي نفهم أن المؤمنين الذين آمنوا بالله وآياته هم الفائزون السعداء الناجون، وهذه الجمل الأربعة تمهيد لما سيقال بعدها.

﴿قُلَ اَفَغَيْرَ اللَّهِ تَامُرُونَنِي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ﴾.

يأمر الله نبيه أن يخاطب هؤلاء القوم خطاب تبكيت وإنكار لجهلهم، قل يا محمد لهؤلاء: أفغير الله تأمروني أعبد أيها الجاهلون، ينسبهم إلى الجهل الذي هو عدم العلم، وفي هذا تسخيف لعقولهم وهم أهل لأن يوصفوا بهذه الصفة الدنيئة، صفة الجهل بعد أن قامت عليهم الحجج القاطعة والبينات الساطعة على وحدانية الرب الخالق المالك الوكيل المتصرف، فكيف يستقيم في عقل العاقل أن يعبر غيره أو يشرك بعبادته غيره وهو الله الواحد القهار، بيده مقاليد السموات والأرض، وقد كان هؤلاء الكفار يحاولون من النبي أن يعبد آلهتهم يوما ويعبدون إلهه يوما، كأن الدين مساومة فثبته الله وحذره من كيدهم، فقال تعالى:

﴿وَلَقَدُ اوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنَ اَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾.

يبين الله تعالى في هاتين الآيتين الكريمتين أصل الدنيا من أول إنشاء هذه الخليقة أنه توحيد الله بالعبادة وتخليصها من شائبة الشرك، وأن الشرك مفسد للأعمال وأنه يؤدي إلى الخسار، ولقد أوحي إليك، والموحي هو الله، عدل عن ذكر الفاعل للعلم به يقينا، لقد أوحى الله إليك أيها النبي وإلى جميع الأنبياء من قبلك لئن أشركت بالله في عبادة أو

عمل ليحبطن عملك، أي ليبطلن ويردّن عليك ولا يقبل أبدا، ولتكونن من الخاسرين الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة، ولا ينفع مع الشرك عمل، وكثيرا ما يقوم أهل الشرك بأعمال خيرية كإعانة المنكوبين وإغاثة الملهوفين، والإنفاق على أهل الفقر والحاجة، وعلاج المرضى، وغير ذلك من الأعمال التي هي في ظاهرها صالحة غير أن الله تبارك وتعالى لا يقبلها ولا يجازيهم عليها في الآخرة ويجعلها هباء منثورا، ذلك لأنهم لم يريدوا بها وجه الله خالصا، وربما يجازيهم على إحسانهم في الدنيا ببسط أرزاقهم ورفع شأنهم، وتقوية أبدانهم وعمرانهم، وتوفير أولادهم وأنصارهم، أما في الآخرة فليس لهم عند الله إلا النار وباطل ما كانوا يعملون، وذلك هو الخسران المبين، يقول الله تبارك وتعالى لنبيه ولكل من يصلح للخطاب:

﴿بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ﴾.

بل الله وحده فاعبد لا تشرك به شيئا، وإياك أن يستميلوك بترهاتهم وقد عصم الله نبيه من الشرك والمعاصي، ولكن هذا التحذير قيل المقصود به غيره وهم المؤمنون الذين يتعظون بكلام الله وتنفعهم الذكرى، ويأمر الله نبيه والمؤمنون أن يكونوا من الشاكرين، وكل عبادة لله شكرٌ له لأنه المنعم المتفضل الخالق الرازق الهادي إلى سواء السبيل، وسيجزي الله الشاكرين الجزاء الأوفى كما أنه يعذب الكافرين ويحبط أعمالهم.

﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿67﴾ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴿68﴾ وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ وَجِا۟ىٓءَ بِٱلنَّبِيِّۦنَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿69﴾ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿70﴾﴾

تأتي هذه الآيات العظيمة لعرض مشاهد فناء هذا العالم وما فيه، وقيام الساعة، ورجوع الناس إلى ربهم ليقضي بينهم بالحق، وليجازي كلا بما يستحق، فإما نار يدوم جحيمها وإما جنة يدوم نعيمها، وتستهل هذه المشاهد بذكر عظمة سلطان الله وقدرته وتنزيهه عما يصفه به المشركون.

﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾.

الكلام موجه لهؤلاء المشركين الذين يتخذون من دون الله أندادا وهو خالق كل شيء، له مقاليد السموات والأرض، وما عرفوا حق قدر الله، ولو عرفوه ما عدلوا به غيره، ومن ذا الذي يقدر الله حق قدره، وإنما عرفه المؤمنون ووحدوه وعبدوه في حدود معرفتهم واستطاعتهم، ولا يكلف الله نفسا إلا وسعها، وقد خاطبهم بقوله: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ (التغابن: ١٦)، وهو الله العلي العظيم القادر، الفعال لما يريد.

﴿وَالأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

ترد ألفاظ في القرآن فيها ذكر اليد والقبضة واليمين والعين والوجه، ولا يجوز أن نفسرها على ظاهرها لأن ذلك يفضي إلى التشبيه، والله جل جلاله ليس كمثله شيء،

وإنما يراد بها معان تفهم من هذه الألفاظ على طريقة ورود التعبير العربي الفصيح، والقرآن إنما نزل بلسان عربي مبين، وهذا تعبير عن سلطان الله القاهر، وقدرته التي أحاطت بكل شيء، ذلك لأن الإنسان إذا قبض على شيء في قبضته فهو أشد ما يكون تمكنا منه، وليس في ألفاظ اللغة ما يعبر عن معنى السلطة والتمكن والقهر إلا هذه، فهي كناية عن قدرة الله وامتلاكه لنواصي الأمور بقدرته العظيمة، وسلطانه القاهر، ولا يجوز لنا أن نفسر الألفاظ بظاهرها حتى لا نقع في التشبيه والتجسيم.

ثم إن قوله: ﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ ليس معناه أن ملكه مقصور على يوم القيامة فقط بل هو الملِك المطلق، الفعال لما يريد في الدنيا والآخرة، غير أن ملكه يتمحض يوم الدين ويزول هنالك سلطان كل ذي سلطان، لأن الله يؤتي الملك من يشاء في الدنيا، فيزعم الملوك والسلاطين والرؤساء في الدنيا، يزعمون أن بيدهم الملك والقدرة والتمكن فيطغون بذلك، ويتمردون على رسل الله، أما في الآخرة فيضمحل سلطان كلّ ذي سلطان إلا سلطان الله الدائم: ﴿لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ (غافر: ١٦)، بيده نواصي الأمور كلها، فالأرض جميعا قبضته، والسموات مطويات بيمينه، إن هذا لهو السلطان المطلق الذي لا يدانيه سلطان ولا يقاربه ملك، ثم قال تعالى:

﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

أي: تنزيها لله تعالى علوا كبيرا عما يصفه المشركون، وتنزه ربنا عما يصفه المشبهون المجسمون، سبحانه وتعالى.

﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ إِلاَّ مَن شَآءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾.

جاء التعبير في كتاب الله بالنفخ تارة، وبالصعق تارة، وبالنقر تارة أخرى، وبهذا تكتمل الصورة المراد رسمها في النفوس حتى تتعظ، فهذه النفخة صيحة عظيمة كأنها النقر في الناقور تصعق بها الأحياء إلا من شاء الله، ولم يبيّن الله من هو النافخ،

والمشهور أنه إسرافيل -إن صح الحديث - ولو تعلق الغرض بذكر النافخ من هو لسماه الله، وكذلك لم يبين لنا أسماء هؤلاء المستثنين من هم.

﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾.

ثم نفخ في الصور نفخة أخرى، وهنالك مهلة بين النفختين ورَد أنّها أربعون، ولا ندري أربعون عاما أو أربعون يوما أو أربعون ألف عام، والله وحده يعلم مقدارها، والذي نعلم أن هناك نفختين بينهما أجل يعلمه الله، وحين ينفخ في الصور النفخة الثانية يقوم الأبدان وترد إليها أرواحها ليوم النشور والحشر والحساب والجزاء، قال تبارك وتعالى: **﴿فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾** أي: فإذا المكلفون قيام ينظرون وهم أحياء قد ردت إليهم أرواحهم، أعادهم الذي فطرهم أول مرة، ولله ما أعظمها عبارة تأخذ بمجامع القلوب لا سيما وقد جاءت الصيغة بعبارة الماضي، فكأنها قد وقعت بعدُ وذلك لتحقق وقوعها، وذلك يوم آت لا ريب فيه، وتلك حياة محققة لا شك فيها.

﴿وَأَشْرَقَتِ الأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيئِينَ وَالشُّهَدَآءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ﴾.

أشرقت الأرض يومئذ بنور ربها الذي خلقها، وكيف هو إشراقها؟ والذي نراه ويراه جمهور أهل التفسير هو إشراقها بنور العدل الإلهي المطلق، فلا ظلم يومئذ ولا سلطان إلا سلطان الله، ووضع الكتاب، وهو جنس الكتاب، أي كتاب كل واحد يوضع عند كل أحد فيشفق المجرمون مما فيه كما جاء في سورة الكهف، أو الكتاب الإلهي الذي هو اللوح المحفوظ الذي دوّن الله فيه كل شيء.

﴿وَجِيءَ بِالنَّبِيئِينَ وَالشُّهَدَآءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ﴾ .

وهم الملائكة الرقباء الكتبة لأعمال العباد يشهدون له أو عليه، وكذلك الرسل يشهدون على أممهم يومئذ وتقبل شهادتهم، والله تعالى يعلم ما يشهدون به، وهو بكل شيء عليم، عالم الغيب والشهادة، قد أحاط بما لديهم وأحصى كل شيء عددا،

يقضي بينهم بالحق وهم لا يظلمون فتيلا، لا يُنقص من حسناتهم ولا يزاد في سيئاتهم، والله تبارك وتعالى يمن بالرحمة ولا يظلم بالعذاب.

﴿وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾.

يقول الله تعالى: ووفي كل عبد جزاء ما عمل من خير أو شر، وذلك ما يقتضيه العدل الإلهي، والله تعالى أعلم بما يفعلون، فهو غني عن الكتب والأشهاد، وإنما يجاء بالكتاب والشهداء ليقيم الله بهم حجته على عباده، وليس أحد أحب إليه العذر من الله، ثم بعد هذا العرض وبعد ظهور عدالة الحكم الإلهي يذكر مصير هؤلاء وهؤلاء، أهل النار وأهل الجنة في معرض أخاذ مليء بالحركة والإحسان، فيقول تعالى:

وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا
فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ
يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ
هَٰذَا قَالُواْ بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧١﴾
قِيلَ ٱدْخُلُوٓاْ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى
ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٢﴾ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ
زُمَرًا حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ
لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ﴿٧٣﴾
وَقَالُواْ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ
نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿٧٤﴾
وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ
رَبِّهِمْ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٥﴾

يختم الله تبارك وتعالى هذا العرض الموجز البليغ بهذين المشهدين المؤثرين في القلوب أبلغ الأثر، وهما مصير أهل النار ومصير أهل الجنة، إن هؤلاء وهؤلاء يساقون

إلى مصيرهما الأخير، تسوقهما الملائكة، غير أن هناك فارقا كبيرا بين سَوق وسَوْق، فأهل النار تسوقهما زبانية العذاب سوق دفع وغلظة وهوان، وأهل الجنة تسوقهم ملائكة الرحمة سوق ترحيب وتكريم، وهم ركبان على نجائب تأتيهم من الجنة.

﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا قَالُوا بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾.

وساق الزبانية الذين كفروا بربهم وأجرموا بارتكاب الكبائر والإصرار عليها، ساقوهم إلى جهنم أفواجا داخرين، حتى إذا جاءُوها فتحت أبوابها وكانت مغلقة ففتحت لهم ليدخلوها، وفي ذلك ما فيه من زيادة العذاب لهم حين يفجؤون بتلك النيران المستعرة ذات الشهيق والزفير والتغيظ والفوران، وقانا الله شرها ولظاها، ووبخهم يومئذ خزنة جهنم يقولون لهم: ألم يأتكم رسل منكم تعرفونهم وتعرفون أنسابهم، وينذرونكم ويخوفونكم لقاء يومكم هذا، قالوا بلى، فهؤلاء لا يملكون يومئذ إلا الاعتراف بالحق، قالوا بلى أنذرونا ووعظونا ولكن حقت كلمة العذاب والشقاء على الكافرين جزاء اختيارهم الكفر على الإيمان، وسلوكهم سبيل الشيطان، وتعالى الله عما يقول المجبرة، ونحن بريئون من مقالتهم، وما ربك بظلام للعبيد.

﴿قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾

لم يذكر القائل هنا للمعرفة به، وهو الله تبارك وتعالى ملك يوم الدين، صدر الأمر من الله الواحد القهار أن يُدخلوا أبواب جهنم خالدين فيها، ولا مردّ لأمره، وبئس المنزل مثوى للمتكبرين، لأنهم كانوا يتكبرون عن آيات الله، ويكذبون برسله، ويسفهون الحق وهم السفهاء، وبئس الخلق خلق الكبر، لا تفتح أبواب السماء للمتكبرين ولا لأعمالهم بل توصد عليهم أبواب الحطمة، ولله وحده الكبرياء في

السموات والأرض، وفي الحديث القدسي يقول الله تبارك وتعالى: {الكبرياء ردائي والعظمة إزاري فمن نازعني فيهما أدخلته ناري}، وفي رواية: {قصمته}.

﴿وَسِيقَ الذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّىٰ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الاَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾.

وسيق الذين اتقوا ربهم، وهم النبيون والصديقون والشهداء والصالحون، يذهبون إلى الجنة ركبانا تسوق الملائكة نجائبهم، وهم جماعات حتى إذا جاءوها وفتحت أبوابها، وقد كانت قبل وصولهم إليها مفتحة، وقال لهم خزنتها، وهم ملائكة الرحمة: سلام عليكم طبتم وطابت أعمالكم الصالحة في الدنيا، وطبتم باغتسالكم في نهر الكوثر فادخلوا الجنة خالدين فيها أبدا.

﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الاَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ﴾.

انطلقت ألسنتهم تلهج بالحمد لله الذي صدقهم وعده، فوجدوا ما وعدهم حقا، وأورثهم الجنة، والمقصود بالأرض أرض الجنة يتبوءون منها حيث يشاءون في ممالك كبيرة واسعة، ينعمون فيها أبدا ولا يبغون عنها حولا.

﴿فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾.

هذا قول الحق جل جلاله، وهذا منه تكرّم وتفضل، وقد دخلوها برحمته لا بأعمالهم، وإنما قربتهم أعمالهم من رحمته فاستحقوها بإحسانهم، وقوله: فنعم أجر العاملين، إشعار لنا بأن الإيمان ليس هو مجرد أقوال يتفوه بها اللسان بل لابد من العمل الصالح، فالآية مدح للعاملين، فلا مطمع للغافلين اللاهين المضيعين للأعمال،

المتمسكين بالأماني الفارغة، فهذا المعنى هو محط الفوائد في الآية الكريمة، فنعمت الدار أجرا للمؤمنين الذين يعملون الصالحات.

﴿وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

وترى يومئذ ملائكة الله المقربين حافين، أي دائرين محيطين من حول عرش الرحمن، يسبحون بحمد ربهم لا يفترون عن التسبيح والتحميد، وقضي بين العباد بالحق، وقال الجميع الحمد لله رب العالمين على عدله، وقال المؤمنون: الحمد الله على عدله وفضله ورحمته، وهو وحده المستحق لجميع أوصاف المحامد، وهكذا تختتم السورة الكريمة بهذا المشهد الرائع من مشاهد يوم القيامة، وأي مؤمن يتلو هذه الآيات ولا يلين قلبه لهذه المشاهد المؤثرة البليغة، نسأل الله قلوبا خاشعة لربها خانعة، وعيونا دامعة، ونفوسا بمواعظ القرآن منتفعة، ولشريعته تابعة، وللحق قابلة، وبه عادلة عاملة، وقد روي من حديث ابن عمر أن رسول الله ﷺ قرأ على المنبر آخر سورة الزمر فتحرك المنبر مرتين، فكيف يتحرك الجماد ولا تتحرك قلوبنا! نسأل الله أن ينفعنا بهدى كتابه، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

تفسير سورة غافر

سورة غافر مكية وآياتها ٨٥

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿حمٓ ١ تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ٢ غَافِرِ الذَّنبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ ٣ مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلَادِ ٤ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزَابُ مِن بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ٥ وَكَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ ٦﴾

السورة مكية كسوابقها، وتسمى سورة (غافر) وسورة (المؤمن)، وهي تعنى كمثيلاتها بأمر العقيدة وتثبيت قلب النبي وقلوب المؤمنين بذكر الرسل من قبل، وتبسط السورة من قصة موسى وفرعون والرجل المؤمن من آل فرعون ما يثبت المؤمنين الأوائل ويقويهم على دعوة أقوامهم إلى الإيمان بالله ورسله واليوم الآخر، والمناسبة شديدة بين فاتحتها وفاتحة سورة الزمر من قبلها، وهو الإخبار أن هذا الكتاب منزل من عند الله العزيز العليم، وفي سورة الزمر الإخبار أنه تنزيل من الله العزيز الحكيم، وفي خاتمتي السورتين تقوى المناسبة أيضا إذ تذكر مصير المكذبين أنهم سيعترفون بالحق ويؤمنون به آخر الأمر ولكنهم لا ينفعهم إيمانهم يومئذ، وتلك سنة الله التي قد خلت في عباده.

﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ حم تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ غَافِرِ الذَّنبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾.

تفتتح السورة بالحروف الهجائية المقطعة ﴿حم﴾ والذي يقال في هذه الحروف هو ما قد قيل في مثيلاتها، والله أعلم بحقيقة مراده منها، فهي فاتحة الحواميم السبعة، وجاء

فيها أنها رياض القرآن، وجل هذه الحروف المقطعة يذكر بعدها الكتاب والقرآن وآيات الكتاب مما يرجح أن تكون هذه الحروف للتنبيه على ما سيذكر بعدها، وللتنبيه أن هذا القرآن مؤلف من الحروف التي تنطقون بها وهو معجز للخلق إنسهم وجنهم أن يأتوا بمثلها ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا.

﴿تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾.

إن الكتاب منزل من لدن رب عزيز قاهر لا يغالب، عليم بالغيب والشهادة، عليم بما يصلح عباده إنسهم وجنهم، أفرادهم ومجتمعاتهم، عليم بما يصلح لدنياهم وأخراهم، عليم بما في قلوب المكذبين، وسيجازي المؤمنين على إيمانهم كما يجازي المكذبين على تكذيبهم، جزاء وفاقا.

﴿غَافِرِ الذَّنبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾.

ستة أسماء من أسماء الله الحسنى تأتي متوالية تملأ قلوب المؤمنين جلالا ومحبة ورهبة ومهابة: العزيز الذي ذلت لعزته جميع مخلوقاته، العليم الذي أحاط علمه بكل شيء دقيقه وجليله، خفيه وجليه، غافر الذنب، والمراد بالذنب جنس الذنوب كبيرها وصغيرها، يمحوها حتى كأنها لم تقع، وذلك للتائبين المنيبين، وقابل التوب، وهو الذي يقبل التوبة عن عباده ويبدل للتائبين سيئاتهم حسنات، شديد العقاب على المذنبين المصرين على ذنوبهم، ليس كعقابه عقاب، ولا كثوابه ثواب، ذي الطول، ذي الأفضال والزيادة، فهو المنعم المتفضل على مخلوقاته من غير استحقاق منهم، لا إله إلا هو، تقرير لحقيقة التوحيد بعد ذكر هذه الأسماء الحسنى، فلا يستحق العبادة إلا الموصوف بهذه الصفات وهو الله جل جلاله إليه وحده إليه المصير، مصير المخلوقات يوم الحشر ومصير الأمور كلها، ألا إلى الله تصير الأمور، فأنى تصرفون أيها الكافرون المكذبون.

وروي أن عمر بن الخطاب ﷺ افتقد رجلا ذا بأس شديد من أهل الشام فقيل له: تتابع في هذا الشراب، فقال عمر لكاتبه اكتب: "من عمر إلى فلان: سلام عليك وأنا أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو، بسم الله الرحمن الرحيم: حم~ ... إلى قوله: إليه المصير، وختم الكتاب وقال لرسوله: لا تدفعه إليه حتى تجده صاحيا، ثم أمر من عنده بالدعاء له بالتوبة، فلما أتته الصحيفة جعل يقرؤها ويقول: قد وعدني الله أن يغفر لي وحذرني عقابه، فلم يبرح يرددها حتى بكى، ثم نزع فأحسن النزوع، وحسنت توبته، فلما بلغ عمر أمره قال: هكذا فاصنعوا إذا رأيتم أخاكم قد زال زلة فسددوه ووقفوه وادعوا له الله أن يتوب عليه، ولا تكونوا أعوانا للشياطين عليه" وهكذا تنفع الموعظة بآيات الله من في قلوبهم بقية خير، أما قساة القلوب فما تزيدهم إلا طغيانا، وإذا ذكروا بها خروا صما وعميانا، وهم يجادلون في الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير.

﴿مَا يُجَادِلُ فِي ءَايَاتِ اللَّهِ إِلاَّ الذِينَ كَفَرُوا فَلاَ يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلاَدِ﴾.

آيات الله البينات المنزلات من عند الله لا يجادل فيها إلا كل مكابر كفار، وجدال الكفار جدال اعتراض وتعنت وتكذيب، أما مناقشة المؤمنين فقد تكون لطلب معرفة الحقيقة ولا تسمى جدالا، فالكفار يحاولون طمس الحقيقة بأنواع من الجدال في آيات الله بالباطل، فحذرنا الله من جدالهم وقال:

﴿فَلاَ يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلاَدِ﴾.

والكلام موجه بكاف الخطاب، وليس المقصود به النبي وحده بل هو خطاب لكل من يصلح للخطاب بعده، وكأن قائلا يقول: فما بال هؤلاء المكذبين المجادلين في آيات الله المعاجزين لرسل الله يتقلبون في نعم الله في البلاد وقد نالوا من الملك والأموال ومتع الدنيا ونعيمها وهم يجادلون في الله ويحادونه بالمعاصي وأنواع الظلم، قال تعالى: فلا يغررك ما تراهم فيه من متع الدنيا ونعيمها فمآل ذلك للزوال، فما هو إلا فتنة من الله

واستدراج لهم وكيد لهم متين، وإن لهم موعدا لن يُخلفوه، وإن ربك لبالمرصاد، ثم إن الله ضرب لنا مثلا بالذين سبقوهم من أهل الكفر والضلال فقال:

﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالأَحْزَابُ مِن بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ وَكَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَاتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ﴾.

تأتي هاتان الآيتان لتسلية قلب النبي والمؤمنين وتخويف الكافرين والمكذبين من وعيد الله، يقول الله لنبيه عليه السلام: إن يكذبوك فقد كذبت قبلهم قوم نوح نوحا رسول الله إليهم، وكذب الأحزاب من بعدهم وهم أمم كثيرة، كل أمة تحزبت على تكذيب رسولها والكفر بالله واليوم الآخر، وهمت به لتأخذه فتنكل به وبالمؤمنين وتنزل عليهم ألوانا بالعذاب والنكال والقتل أحيانا، كما قتلت بنو إسرائيل أنبياء الله، وإن كان الله ليعصم رسله من الناس حتى يبلغوا رسالاتهم، وجادل الكفار رسل الله بالباطل ليبطلوا به الحق الذي جاءهم من الله، قال الله: فأخذتهم، لقد هموا بأخذ رسل الله فأخذهم الله أخذا وبيلا فلم يفلتوا من قبضته.

﴿فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾.

استفهام تعجب من شدة عقاب الله وإحاطته بهم، أي فانظروا كيف كان عقابي لهم، ولعذاب الآخرة أشد وأبقى، وكذلك حقت كلمات ربك على الذين كفروا أنهم أصحاب النار، كلمات الله التي نزلت على رسله بالوعيد على مكذبيهم حقت عليهم أنهم أصحاب النار، أو كذلك حقت كلمات ربك على الكفار من قومك إن لم يتوبوا أنهم أصحاب النار، أي لأنهم أصحاب النار، فكان مصيرهم مثل مصير من سبقهم من الأمم المكذبين، إن مصير هؤلاء جميعا في جهنم وبئس المصير.

﴿ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ
وَمَنۡ حَوۡلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيُؤۡمِنُونَ بِهِۦ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ
لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَا وَسِعۡتَ كُلَّ شَيۡءٖ رَّحۡمَةٗ وَعِلۡمٗا
فَٱغۡفِرۡ لِلَّذِينَ تَابُواْ وَٱتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ وَقِهِمۡ عَذَابَ ٱلۡجَحِيمِ ﴿٧﴾
رَبَّنَا وَأَدۡخِلۡهُمۡ جَنَّٰتِ عَدۡنٍ ٱلَّتِي وَعَدتَّهُمۡ وَمَن صَلَحَ
مِنۡ ءَابَآئِهِمۡ وَأَزۡوَٰجِهِمۡ وَذُرِّيَّٰتِهِمۡۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ
ٱلۡحَكِيمُ ﴿٨﴾ وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوۡمَئِذٖ
فَقَدۡ رَحِمۡتَهُۥۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴿٩﴾﴾

إن الله تبارك وتعالى يعرض مشهدا هو أعلى المشاهد في هذا الكون، وهو من الغيب الذي أطلعنا الله لنزداد إيمانا بالله وتعظيما لآياته، وإنما تدرك عظمة الله بالتفكر في آياته، والحديث عن العرش العظيم يتكرر في كتاب الله ولا نعلم حقيقة هذا العرش، إنما نعلم أنه عظيم وكريم، وأنه فوق السموات، ولا نعلم ولا تدرك عقولنا مقدار سعته وعظمته، ولهذا العرش حملة من ملائكة الله المقربين وحولهم صفوف من الملائكة حافون من حول العرش وهم جميعا يسبحون بحمد ربهم وخالقهم، يقدسون له ويسندون إليه جميع المحامد، ويستغفرون للذين آمنوا لشدة محبتهم وولائهم لهم.

وذكر الملائكة حملة العرش ومن حولهم بعد ذكر الكافرين مشعرا بحقارة هؤلاء الجاحدين المكذبين، وما يضير كفرهم وجحودهم، وملائكة الله في السموات لا يفترون عن التسبيح له وحده وحمده، فما ضر جهل هؤلاء السفهاء وكل ملائكته في السموات وحملة العرش الذين من حولهم يعرفونه ويؤمنون به والمؤمنون من عباده في المقام الشريف إذ حملة العرش ومن حوله يستغفرون لهم، فلله ما أروع هذه المقابلة العجيبة بين الفريقين، وما أعمق أثرها في القلوب!

أما دعاء الملائكة ففيه أيضا تعليم لنا كيف ندعو لأنفسنا وللصالحين ونستغفر للتائبين المتبعين سبيل الله القويم، وتلك هي دعائم الولاية لأهل الاستقامة والبراءة من أهل الضلال، فلا مطمع لغير التائبين في المغفرة، ولا متمسك لغير الصالحين المتبعين غير سبيل الله في النجاة، فمن أراد النجاة يومئذ فليتب إلى الله وليعتصم بحبله المتين، ﴿وَمَنۡ أَرَادَ ٱلۡأٓخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعۡيَهَا وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَأُوْلَٰٓئِكَ كَانَ سَعۡيُهُم مَّشۡكُورٗا﴾ (الإسراء: ١٩).

﴿رَبَّنَا وَسِعۡتَ كُلَّ شَيۡءٖ رَّحۡمَةٗ وَعِلۡمٗا﴾.

أي وسعت رحمتك وعلمك كل شيء، والتعبير بطريقة التمييز أبلغ في الإحاطة والشمول، فلا يشذ عن علمه الواسع جلي ولا خفي، ورحمته في الدنيا وسعت كل شيء من مخلوقاته، ولا يكتبها يوم القيامة إلا للمتقين، ولو أطاع الناس ربهم كلهم لما ضاقت بهم رحمة الله الواسعة.

﴿فَٱغۡفِرۡ لِلَّذِينَ تَابُواْ وَٱتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ وَقِهِمۡ عَذَابَ ٱلۡجَحِيمِ﴾.

والغفر هو التجاوز والتغطية والستر، وكذلك يتجاوز الله عن التائبين ولا يفضحهم بذنوبهم و يعاقبهم بها بل يقيهم عذاب الجحيم، وينجيهم من حر لظى، ويستجيب فيهم دعاء ملائكته المقربين.

﴿رَبَّنَا وَأَدۡخِلۡهُمۡ جَنَّٰتِ عَدۡنٍ ٱلَّتِي وَعَدتَّهُمۡ وَمَن صَلَحَ مِنۡ ءَابَآئِهِمۡ وَأَزۡوَٰجِهِمۡ وَذُرِّيَّٰتِهِمۡۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾.

وكذلك يدعو ملائكة الله لآبائهم وأزواجهم وذرياتهم أن يجمعهم معهم في جنات عدن، والعدن الإقامة والخلود لكنهم يدعون للصالحين منهم فقط، والله هو العزيز الذي لا ينال ما عنده إلا بطاعته، الحكيم الذي يضع الأشياء في مواضعها، ولا يظلم ولا يجورُ.

﴿وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ وَمَن تَــقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾.

أي احفظهم وجنبهم ما يسوءهم يوم القيامة، ومن تحفظه يومئذ وتقيه ما يسوءه فقد رحمته، وذلك هو الفوز العظيم الذي ليس كمثله فوز؛ لأنه فوز بالنجاة من السيئات وفوز بنيل عالي الدرجات في جنات عدن، جعلنا الله من الفائزين.

ثم يتحول الأسلوب القرآني الرائع إلى الكلام عن ضد هؤلاء السعداء وهم الكفار الأشقياء فيقول:

إِنَّ ٱلَّذِينَ
كَفَرُوا۟ يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ
إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى ٱلْإِيمَٰنِ فَتَكْفُرُونَ ﴿١٠﴾ قَالُوا۟ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا
ٱثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ فَٱعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ
خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ ﴿١١﴾ ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِىَ ٱللَّهُ وَحْدَهُۥ
كَفَرْتُمْ وَإِن يُشْرَكْ بِهِۦ تُؤْمِنُوا۟ فَٱلْحُكْمُ لِلَّهِ ٱلْعَلِىِّ
ٱلْكَبِيرِ ﴿١٢﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ
ٱلسَّمَآءِ رِزْقًا وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾ فَٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ
مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١٤﴾

إن الذين كفروا ينادون يوم القيامة حين يرون العذاب ويمقتون أنفسهم التي أوصلتهم إلى سوء العواقب، والمقت أشد من البغض، وكذلك المجرمون إذا أحضروا إلى العذاب يمقتون أنفسهم ويمقت بعضهم بعضا، تناديهم ملائكة الله: لمقت الله إياكم حين كنتم تدعون إلى الإيمان فتكفرون أشد من مقتكم اليوم لأنفسكم، وهذا توبيخ لهم يزيدهم عذابا فوق العذاب، وموعظة لمن يسمع هذا الكلام البليغ لعله يرجع عن غيه

ويقبل على داعي الهدى فيستجيب النداء، لقد كان هذا دأبهم في الدنيا، كلما دعوا إلى الإيمان وكلما وعظهم الواعظون يكفرون ويعرضون وينفرون، وهذا شيء يوجب المقت من الله ويؤدي إلى هذا المشهد المشؤوم والعياذ بالله.

﴿قَالُوا رَبَّنَآ أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ﴾.

جاء جوابهم بالاعتراف بذنوبهم وبالحياة الثانية، وتمني الخروج من العذاب بأي سبيل وكل ذلك لا ينفع، والمراد بالميتتين، الميتة الأولى قبل خروجهم إلى الحياة الدنيا، ثم الميتة التي بعدها، وبالحياتين، الحياة الدنيا ثم حياة البعث والنشور، وهذا يفسره قوله تعالى في سورة البقرة: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ (البقرة: ٢٨)، وما فسر القرآن مثل القرآن.

وقال بعض المفسرين: المراد بالميتتين الميتة بعد الحياة ثم ميتة الصعق عند النفخة ولكن يلزم من قولهم هذا أن تكون ثلاث مراحل للحياة فيشكل الأمر، وقولهم هذا فيه اعتراف بما كانوا أنكروه من الحياة الثانية، كما أنهم اعترفوا بذنوبهم وليتهم اعترفوا بها في الدنيا حين ينفع الاعتراف، أما اليوم فهيهات ولات حين مناص وهم يعلمون هذا، ولذا جاء قولهم: ﴿فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ﴾ بهذه الصيغة التي يُشتم منها اليأس، فهو تمنٍّ في صيغة استفهام، فهم يودون لو أن هناك خروجا مما هم فيه من الغم والعذاب ولو إلى عذاب أخف أو لوقت قصير، وأنى لهم ذلك وقد علموا أن لا رجوع إلى الدنيا ولا خروج، وما لهم من محيص، فليعتبر المعتبرون، وليتعظ المتعظون، ﴿فَاعْتَرَفُوا بِذَنبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ (الملك: ١١)، ثم إنهم لم يأتهم الجواب لهذا المطلب وقد أويسوا منه، إنما جاء التوبيخ.

﴿ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِيَ ٱللَّهُ وَحۡدَهُۥ كَفَرۡتُمۡ وَإِن يُشۡرَكۡ بِهِۦ تُؤۡمِنُواْۚ فَٱلۡحُكۡمُ لِلَّهِ ٱلۡعَلِيِّ ٱلۡكَبِيرِ﴾.

ذلكم جزاؤكم بكفركم ومعاصيكم، فقد كنتم في حياتكم الدنيا إذا دعي الله وحده تكفرون وإن يشرك به غيره تؤمنوا بالأوثان والأصنام والأنداد والشفعاء، فقد صدر الحكم من الله العلي الكبير ولا مرد لحكمه ولا تغني عنهم معبوداتهم اليوم، فلا حكم إلا ما حكم به الله العلي الكبير، وليس لأحد أن يحكم في شيء حكم فيه رب العالمين، فما لنا ألا نسمع ونطيع ونسلم تسليما وننفذ حكم الله العلي الكبير، ولا حكم إلا لله.

﴿هُوَ ٱلَّذِي يُرِيكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزۡقٗاۚ وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ﴾.

هو الذي يريكم آياته التي تدل على وجوده وعلمه وقدرته من تقلبات السحب والرياح والرعود، وينزل لكم من السماء ماء يسقيكم منه، يكون به نبات أرزاقكم التي ينبتها لكم من الأرض، فاعتبروا وتذكروا بالنظر في آيات الله في السماء والأرض لتزدادوا إيمانا، وما يتذكر إلا من ينيب إلى ربه وينقلب إليه ولا يعرض عن آياته كدأب الغافلين قساة القلوب، فهم يمرون عليها صما وعميانا.

﴿فَٱدۡعُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾.

فإذا كانت آيات الله العلي الكبير ظاهرة وقدرته باهرة، وإذا كان الذين يكفرون بالله وآياته ويدعون غيره قد رأيتم مصيرهم المشؤوم من الذل والهوان والعذاب المستقر، فادعوا الله مخلصين له الدين، والدعاء هو العبادة، أي اعبدوه مخلصين له العبادة والدعاء ولو كره الكافرون، واغتاظوا بذلك فلا يمنعنكم كرههم عن مخالفتهم ومغايظتهم بإخلاص لله والكفر بما هم له من دون الله عابدون، فلا تهنوا ولا تضعفوا أمامهم، وتمسكوا بدينكم وتوكلوا على الله ربكم وربهم، وسينصركم عليهم وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين.

﴿رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ذُو ٱلْعَرْشِ يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ لِيُنذِرَ يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ ﴿١٥﴾ يَوْمَ هُم بَٰرِزُونَ لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَىْءٌ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿١٦﴾ ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٧﴾ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْءَازِفَةِ إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ كَٰظِمِينَ مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴿١٨﴾ يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ﴿١٩﴾ وَٱللَّهُ يَقْضِى بِٱلْحَقِّ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَقْضُونَ بِشَىْءٍ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿٢٠﴾

يصف الله تبارك وتعالى نفسه بثلاث أوصاف عظيمة يختص بها كما تفرد من قبل بالعلو والكبرياء، فهو الله العلي الكبير، رفيع الدرجات، أي عالي المقام ماجد، عظيم الشأن، فهو وصف ذاتي معناه العلو والعظمة والمجد والكبرياء، ذو العرش، أي صاحب العرش العظيم الذي لا يشابهه شيء من مخلوقاته، وهو مصدر أحكامه ومركز سلطانه، وروي أنه خلق عظيم ياقوتة حمراء، والسموات والأرض ما هي بالنسبة إليه إلا كحلقة في فلاة، وحقيقة أمره لا يعلمها إلا خالقها، وعظمة العرش من عظمة رب العرش، وسعة مكله وعظمة سلطانه، وهي أوصاف تمتلئ القلوب وتخشع النفوس من جلالها، وترتعد الفرائص من روعتها، ويتضاءل كل سلطان دون سلطان الله رب العرش العظيم.

﴿يُلْقِي الرُّوحَ مِنَ اَمْرِهِ عَلَىٰ مَنْ يَّشَآءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾.

جاء ذكر الروح بمعنى الوحي، وجاء بمعنى القرآن الكريم، وجاء بمعنى جبريل عليه السلام والذي نختاره المعنى الأول، وهو الوحي، وسمي روحا لأنه يحيي النفوس بالعلم

والإيمان كما تحي الروح الأبدان، والروح من أمر الله لا علم لأحد غيره بحقيقتها، وهذه الروح التي هي الوحي يلقيها على من يشاء من عباده بمحض مشيئته وإرادته، لا تسبب لهم فيها ولا علم لهم ولا دراية، قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلاَ الإِيمَانُ...﴾ (الشورى: ٥٢)، والوحي شرف عظيم يختص الله به من يشاء من عباده من الناس والملائكة، وهو بركة وهدى للناس جميعا، من استجاب منهم لأنبياء الله ورسله، به سعادتهم وفوزهم العظيم، والإضافة في عباده إضافة خصوصية وتكريم.

﴿لِيُنذِرَ يَوْمَ التَّلاَقِي يَوْمَ هُم بَارِزُونَ لاَ يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ﴾.

يوحي ربنا تبارك وتعالى إلى من يشاء من عباده لينذروا الناس، أي يخوفونهم من يوم البعث والنشور، وهو اليوم الذي يتلاقى فيه الأولون والآخرون، الإنس والجن والملائكة، ويلاقي المخلوقات ربهم ليجازيهم على أفعالهم، فهو يوم التلاقي لم يسبق له مثيل في الأيام، وقد سماه الله تعالى بأسماء كثيرة في كل منها روعة، واختار له هنا معنى التلاقي ليشعرنا بالجمع الحاشد، ويتلاقي الظالمين بالمظلومين لينصف للمظلومين من ظالميهم، ويتلاقي التابعين مع المتبوعين ليتبرأ الذين اتبعوا من الذين اتبعوا، يوم هم بارزون على أرض المحشر المستوية، فلا جبل ولا واد ولا شجر ولا بناء ولا شيء يسترهم، لا يخفى على الله منهم شيء، وقد كانوا في الدنيا وهم في بيوتهم ومخابئهم لا يخفى على الله منهم شيء، وإنما كانوا يظنون أنها تخفيهم عن الله، واليوم تزول تلك الظنون والأوهام فيعلمون علم اليقين أن شيئا من أفعالهم وأسرارهم ونواياهم ما كان خافيا عن الله رب العالمين، عالم الغيب والشهادة.

﴿لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾.

سؤال عظيم يلقيه الله على الخلائق جميعا وهم ساكتون يستمعون فما يمنعهم من الجواب إلا الروعة والهيبة والفزع الذي هم فيه، وهم يعلمون الحق يومئذ فيجيب الله

نفسه بنفسه ويقول الحق وهو العلي الكبير: ﴿لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾. ثلاثة أسماء لذي العرش ذي الجلال والإكرام تفرد بها، واحد هو اسم الجلالة الله، وهو علم الذات العلية الواجب الوجود الذي لا معبود بحق سواه، واثنان لا مطمع لأحد من الخلق في منازعته فيهما، فهو وحده الواحد الأحد في ربوبيته وألوهيته وعظمته، القهار الذي قهر جميع خلقه بالغلبة، فهو القوي ونحن الضعفاء، وهو القاهر فوق عباده ونحن المقهورون، هذا هو الذي ندعوه وحده مخلصين له الدين ولو كره الكافرون.

﴿الْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لاَ ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾.

يقول الله تبارك وتعالى: اليوم يوم العدل الإلهي المطلق لا ظلم اليوم، اليوم تنصب المحكمة الإلهية العظمى بعد أن ألقيت الكتب ووجد الناس فيها أعمالهم لم يظلموا بزيادة مثقال ذرة في سيئاتهم ولا بنقصان مثقال ذرة من حسناتهم، إن الله يحاسبهم جميعا في وقت واحد لا يشغله شأن عن شأن فهو سريع الحساب، لا يعجزه محاسبتهم، قيل لعلي بن أبي طالب كرم الله وجهه: كيف يحاسب الله الناس على كثرتهم؟ فقال: كما يرزقهم على كثرتهم، وروي عن ابن عباس ﷺ: إذا أخذ في حسابهم لم يَقِل أهل الجنة إلا فيها ولم يَقِل أهل النار إلا فيها، هذه عدة جمل بليغة تتسلسل في نظام قرآني بديع لا تربطها حروف الوصل، وتكاد تكون البلاغة كما يقول البلغاء في إتقان مواضع الفصل والوصل، فمن تلا هذه الجمل بتدبر أدرك من روعتها وبلاغتها ما تنفعه الموعظة من أسلوبها القرآني البديع، ولا تزداد على التكرار إلا جدة وبلاغة يتملك سلطانها قلوب ذوي الألباب.

﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الآزِفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَاظِمِينَ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلاَ شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾.

الإنذار هو التخويف من شر مقبل، والخطاب هنا للنبي ﷺ ولخلفائه الوعاظ من بعده، وأنذرهم، أي خوفهم يوم الآزفة، أي القيامة، وسميت آزفة لشدة قربها، ونحن في آخر الزمان، فقيام الساعة قريب، وكل آت قريب.

﴿إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَاظِمِينَ﴾.

حينئذ تبلغ القلوب الحناجر، والحنجرة هي العضلة في أعلى الحلق، ووصفت القلوب بذلك لشدة الهول والفزع، تكاد القلوب تقتلع من أمكنتها من شدة الخوف، وهي كاظمة حزنها وفزعها من فرط الذل والهوان، فلا متنفس لها بالشكوى ولا بالاعتذار ﴿وَلاَ يُوذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ﴾ (المرسلات:٣٦)، والكظم هو الربط على الشيء المضغوط ربطا قويا فلا يخرج، وقد مدح الله الكاظمين الغيظ من الحلم في الدنيا، وجعل هذا الفعل من أوصاف أهل الجنة ولا يطيقه إلا ذو حظ عظيم، ثم قال تعالى:

﴿مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلاَ شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾.

الذين ظلموا أنفسهم بالشرك أو بارتكاب الكبائر والإصرار عليها ليس لهم من حميم مطلقا، أي قريب أو صديق يدافع عنهم أو يشفع لهم، وحتى ولو شفع لا تطاع شفاعته، فليس ثمة شفاعة مطلقا للظالمين؛ لأن الشافعين يومئذ لا يشفعون إلا لمن ارتضى، فالمقصود بالنفي ليس هو قبول الشفاعة فحسب بل الشفاعة من أولها لا تكون للظالمين، وجاء التصريح هنا بوصف الظالمين للإيذان بأن ظلمهم هو الذي أوقعهم في الهوان.

﴿يَعْلَمُ خَآئِنَةَ الاَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ لاَ يَقْضُونَ بِشَيْءٍ اِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾.

الله الواحد القهار السريع الحساب، يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، لذا كان قضاؤه حقا وعدلا، وحسابه سريعا، وخائنة الأعين هي النظرات الخائنة، روي عن ابن عباس أن الرجل يكون جالسا في جماعة فتمر امرأة فينظر إليها وهم لا يشعرون، وربما يكرر النظر فينظر مرات، ومن خائنة الأعين الغمز بالعين من حيث لا يشعر المغموز إليه ويخفى على بعض الحاضرين، وفي هذا ورد الحديث الشريف الذي فيه: {ما كان ينبغي لنبي أن تكون له خائنة الأعين} والله يعلم ما تخفي الصدور من

النوايا ومن الحب والبعض ويجازي على خيرها خيرا وعلى شرها شرا، ويعفو عن الهواجس ما لم تبلغ درجة العزم

هاجس خاطر حديث لنفس   ثم هم لا إثم إلا بعزم

وكذلك تجاوز الله لهذه الأمة أشياء مما تخفي الصدور ما لم تبرز إلى الجوارح وذلك قوله ﷺ: {إذا ظننت فلا تحقق، وإذا حسدت فلا تبغ، وإذا تطيرت فامض}، وقد قال الله في خواتم البقرة: ﴿وَإِن تُبْدُواْ مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ اللهُ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَاللهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (البقرة: ٢٨٤)، ثم قال تبارك وتعالى هنا:

﴿وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ وَالذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ لاَ يَقْضُونَ بِشَيْءٍ انَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾.

والله يقضي بين الخلائق وقضاؤه الحق لا جور فيه ولا باطل ولا ظلم، أما الذين تدعون من دونه من آلهتكم التي تدعونها أيها المشركون فلا يقضون بشيء وأنى لهم وهم لا يملكون لأنفسهم ضرا ولا نفعا، ولا ينطقون ولا يعقلون، وأسماع لهم ولا أبصار، إنما القضاء الحق لله السميع البصير العليم بما في الصدور.

﴿أَوَلَمْ يَسِيرُواْ فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُواْ مِن قَبْلِهِمْ كَانُواْ هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِي الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِن وَاقٍ ﴿٢١﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَكَفَرُواْ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ إِنَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٢٢﴾﴾

يراد بالكلام الكفار من قوم النبي الذين كذبوه، يقول الله تبارك وتعالى: أعمي هؤلاء القوم عن الاعتبار، أغفلوا فلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين

من قبلهم من الأمم ممن كان يعمر الأرض في شمال الجزيرة وجنوبها مثل عاد وثمود وسبأ وقوم إبراهيم وقوم لوط وأصحاب مدين والمؤتفكات، وفرعون وقومه، وأمم كثيرة بقيت آثارها شاهدة على ما كانوا عليه من شدة البأس وقوة الأجسام، وكثرة العدد وطول الأعمال وقوة السلطان، ثم كيف كان عاقبتها الهلاك المدمر لما كذبوا الرسل، فمنهم من أغرقهم الله، ومنهم من خسف بهم الأرض، ومنهم من أرسل عليه حاصبا، ومنهم من أخذته الصيحة، ومنهم من أمطر عليه مطرا من العذاب، ومنهم ومنهم من الأمم التي لا يحصيها إلا الله، فهذه آثارها باقية وهذه بيوتها خاوية بما ظلموا، فسيروا في الأرض أيها الغافلون وانظروا في آثارهم واعتبروا واخشوا ربكم أن يصيبكم مثل ما أصابهم فيأخذكم بذنوبكم مثل ما أخذهم، فإنكم لن تفلتوا من قبضته، تلك الأمم طغت وتجبرت وأعجبها سلطانها وقوتها وكثرة عددها فلم يغن ذلك عنها شيئا حين حقت عليهم كلمة العذاب وحضر أجلهم، لقد أخذهم الله متلبسين بكفرهم وآثامهم سادرين في غوايتهم، وما كان لهم من الله من واق يقيهم شر بأسه وعذابه، ومن ذا يقي من عذاب الله إذا نزل بقوم!

وفي هذا إنذار وتخويف لهؤلاء المكذبين من قوم النبي ﷺ لعلهم يحذرون أمثال تلك العواقب وقد نفع الإنذار من أراد به خيرا فأسلم ولكنهم قليلون لأن الأهواء كانت تحول بينهم وبين الرجوع إلى الحق.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَتْ تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَكَفَرُوا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ إِنَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾.

ذلك الأخذ من الله لأعدائه بسبب أنهم كانت تأتيهم رسل الله المرسلون إليهم بالبينات من آياته وبالمعجزات فكفروا وكذبوا بها وعصوا رسل الله فأخذهم الله أخذا وبيلا ولم يكونوا معجزين، إن الله قوي قاهر شديد العقاب، ليس كمثل عقابه عقاب

ولا كمثل ثوابه ثواب، فليس إمهاله لهؤلاء القوم لإعجازهم بل إملاء لهم ليزدادوا إثما إن كيده متين، وإن أخذه أليم شديد، وما يذكر إلا أولوا الألباب.

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ
بِـَٔايَـٰتِنَا وَسُلْطَـٰنٍ مُّبِينٍ ﴿23﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَـٰمَـٰنَ وَقَـٰرُونَ
فَقَالُوا۟ سَـٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴿24﴾ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ مِنْ عِندِنَا
قَالُوا۟ ٱقْتُلُوٓا۟ أَبْنَآءَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ وَٱسْتَحْيُوا۟
نِسَآءَهُمْ ۚ وَمَا كَيْدُ ٱلْكَـٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَـٰلٍ ﴿25﴾
وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِىٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ
أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ ﴿26﴾ وَقَالَ
مُوسَىٰٓ إِنِّى عُذْتُ بِرَبِّى وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ
لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿27﴾

يرجع بنا الأسلوب القرآني البليغ إلى تفصيل بعض ما أجمل من قبل من ذكر الأحزاب المكذبين لرسل الله المجادلين بالباطل فأخذهم الله أخذ عزيز مقتدر، وما هم بمعجزين، من هؤلاء الأحزاب من بعد نوح فرعون وقومه، يذكر الله جانبا من أخبارهم وهو تكذيبهم لموسى رسول الله إليهم وجدالهم بالباطل وكيف انتقم الله عنهم ونجى موسى ومن معه، وفي هذا تسلية لقلب النبي والمؤمنين معه وتخويف وإنذار لقومه المكذبين.

﴿وَلَقَدَ اَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِئَايَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ فَلَمَّا جَآءَهُم بِالْحَقِّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَآءَ الَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَآءَهُمْ وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلاَّ فِي ضَلاَلٍ﴾.

﴿ولقد﴾، اللام هنا موطئة لقسم محذوف، يؤكد الله خبر إرسال موسى لهؤلاء المكذبين الذين بلغ بهم التكذيب أن قالوا: ما أنزل الله على بشر من شيء، ولقد

تواترت الأخبار بإرسال موسى وفي إرساله أسوة لمن يريد أن يتحقق من رسالة محمد ﷺ، وجاء الإرسال مسندا إلى نون العظمة ؛ لأن الوحي والرسالة من أمر الله يجتبي الله من رسله من يشاء، فالأمر عظيم يختص به الرب العظيم ويهدي لنوره من يشاء.

يخبرنا الله أنه أرسل عبده موسى بن عمران إلى فرعون وهامان وزيره الأول، وقارون الذي كان من قوم موسى ولكنه كان من أكبر أنصار الطاغية فرعون، وكثيرا ما انضم إلى الظالمين بعض الأنانيين صغار النفوس طلاب العلو في هذه الدنيا، عباد المال، يركنون إلى الذين ظلموا أقوامهم، وربما يكونون على أقوامهم أشد عتوا من الجبار المستعبد لهم، وهذا معروف في تاريخ الأمم وليس بدعا في الناس، وطبائع الناس تختلف وحب الدنيا رأس كل خطيئة، وقد بلونا هذا في عهد الاستعمار، فإن المستعمر يستظهر بأبناء الوطن المحتل على تذليل أقوامهم ويغدق عليهم الأموال والألقاب والنياشين ويجعلهم من المقربين.

يخصص القرآن ذكر هؤلاء المستبدين الجبابرة ليرينا شيئا من مكر ذوي الاستبداد وليرينا كيف يؤول كيدهم آخر الأمر إلى تباب، وفي هذا القصص ما فيه من العظة والاعتبار، أرسل الله موسى بآياته البينات وسلطان مبين من المعجزات الباهرات التي أيده بها، وهي الآيات البينات التي أظهرها الله، العصا واليد وغيرهما، وقد يراد أيضا بالآيات كلمات الله في التوراة الذي فيه النور والهدى والمواعظ، الآيات التي تأمرهم بالمعروف وتنهاهم عن المنكر، وتحل لهم الطيبات وتحرم عليهم الخبائث، وتضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم.

أنذر نبي الله موسى فرعون وهامان وقارون فلم يزدهم إنذاره إلا عتوا واستكبارا في الأرض، فاتفقت كلمتهم على المكر والكيد بعد الجحود والإنكار ﴿**فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ**﴾ لما جاءهم موسى بالآيات البينات وسلطان الله المبين قالوا هذا سحر مبين،

وكذب وافتراء، فليس ثمة وحي ولا رسالة ولا بعث ولا نشور ولا إله، كذبوا بكل شيء وازدادوا ضلالا وظلما وعتوا.

﴿فَلَمَّا جَآءَهُم بِالْحَقِّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَآءَ الَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَآءَهُمْ﴾.

لما جاءهم الحق من عند الله جحدوا به واستيقنته أنفسهم ظلما وعلوا، وقالوا اقتلوا أبناء الذين آمنوا مع موسى واستحيوا نساءهم، أمر فرعون ومن معه من ملائه بقتل أبناء المؤمنين ليقهروهم ويضعفوهم فلا ينمو عددهم، أما البنات فأمروا باستحيائهن لينفعن للخدمة في بيوت الأقباط، وهذا القتل المذكور هنا غير القتل الأول لأن القتل الأول انقطع لما أخبر الكهان فرعون أن الولد الذي يكون هلاك ملكه على يده قد ولد بعد، هكذا بلغوا من الكيد والمكر إلى هذا الحد ولكنهم لم يبلغوا مرادهم من هذا القهر والكيد، فقد حكم الله عليهم وعلى كيدهم بالتباب والضلال، وكتب الله الحسنى لعدوهم موسى وبني إسرائيل.

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥ إِنِّيَ أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ وَأَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ﴾.

مقالة فرعون هذه تنم عن طبيعة من طبائع الاستبداد والطغيان في الأرض وقلب الحقائق عند البسطاء وضعفاء الشعوب، فإن فرعون الطاغية الكافر الجبار يتظاهر بمظهر الغيور على الدين، الحريص على الصلاح، فهو يخشى على رعيته من رجل يبدل عليهم دينهم ويظهر الفساد في الأرض، يقول فرعون لقومه:

﴿ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ﴾ وهل كان هؤلاء الملأ يمنعونه من القتل لو قرره وأراده؟ كلا بل كان يشعر من نفسه بشدة الرهبة من ذلك لما كان شاهده من الآيات البينات ويعلم أن موسى صادقا ويخاف من دعواته، فقوله: وليدع ربه، مدافعة لما يثور في ضميره من الخوف الشديد من مسه بسوء لو أنه باشر ذلك أو حاوله، وليس أدل على

ذلك من تقاعسه عن قتله، وليس أحد من رعيته يحول دون ذلك، وكذلك طبائع أهل الجبروت والظلم، فإن نفوسهم ضعيفة وهم في الحقيقة أذلاء بل هم أذل خلق الله وأجبنهم لو تشجع المظلومون من أقوامهم على مقاومتهم، فما هذه الكلمات من فرعون إلا محاولة لتغطية الجانب السلبي في قرارة نفسه، وقد يخفى هذا الضعف على كثير من الناس، ثم إن فرعون تظاهر بمظهر المحب الغيور الحريص على دين شعبه حيث يقول:

﴿إِنِّيَ أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ﴾.

كأن لقومه دينا قيّما فهو يخاف من موسى أن يبدل دينهم وأن يظهر في الأرض الفساد، وكأن فرعون مصلح كبير فهو يخاف ظهور الفساد في الأرض، وليس هذا الكلام مستغربا من الجبابرة العتاة المفسدين في الأرض، وكذلك يرمون المصلحين بألقاب شائنة يبغضونهم بها إلى الناس، وكذلك يطلق المستعمرون على الثوار المطالبين بحقوقهم، يطلقون عليهم اسم الخارجين عن القانون، وهي لفظة أطلقت على المحكمة الأوائل الذين قالوا: لا حكم إلا لله، أطلق عليهم لفظ الخوارج ووصموا بالفتنة والشغب والغلو والإفساد في الأرض، نعم كانت فرق غلاة في أحكامهم وقد تبرأ منهم أهل البصائر ولكن الظلمة يطلقون على جميع الخارجين عليهم اسم المارقين وأهل الشغب والفساد، ويجعلون قتالهم وتشريدهم قمعا للفتنة والفساد، ويموّهون بفعلهم هذا على ضعفاء الناس ويظاهرهم على ذلك علماء السوء طلاب الدنيا، وكان للإعلام دوره في عكس الحقائق وتشويه التاريخ، وهو الأمر الذي ترك هذه الأمة مستذلة ضعيفة وأفرادها غثاء كغثاء السيل، فهل من منصف يحرر ما كتب وينصف الذين ظلمهم التاريخ ويبيّن الحق لطالبيه فيحسن بذلك إلى نفسه وإلى الناس! ولا يقوم بهذا إلا عالم قوي تقي يقول الحق ولا تأخذه في الله لومة لائم.

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لاَّ يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ﴾.

اعتصم موسى بربه وقال: إني عذت بربي وربكم الذي خلقني وخلقكم فهو ربنا جميعا، أني استجرت به ولذت به والتجأت إليه ليحفظني ويجيرني من كل جبار متكبر لا يؤمن بيوم الحساب والجزاء، يقصد به فرعون وأمثاله من الجبارين الذي يلجأون إلى العنف والظلم حين تعوزهم الحجة وكان الحق أن ينصفوا ويعترفوا بالحق ولكنهم يلجون في عتوهم ونفورهم لأنهم لا يؤمنون بيوم الحساب، ولا شيء يقوم النفس وينهاها عن غيها وهواها مثل الإيمان باليوم الآخر والخوف من الحساب والجزاء، ولا ينفع وعظ ولا نصح إذا خلا القلب من الإيمان بيوم الحساب، نعوذ بالله من كل متكبر لا يؤمن بيوم الحساب.

وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ
يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ
جَاءَكُم بِالْبَيِّنَاتِ مِن رَّبِّكُمْ وَإِن يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ
وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ
لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴿28﴾ يَا قَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ
الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِن بَأْسِ اللَّهِ إِن
جَاءَنَا قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَىٰ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا
سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴿29﴾ وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُم
مِّثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ ﴿30﴾ مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ
وَالَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ ﴿31﴾ وَيَا قَوْمِ
إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ ﴿32﴾ يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم
مِّنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴿33﴾

كان من آل فرعون من أقاربه رجل شرح الله صدره للإسلام فآمن بموسى غير أنه كتم إيمانه خوفا من مكر فرعون، وقد يسوغ كتم الإيمان في بعض الحالات، وقيل اسم هذا الرجل حبيب، ولم يخبرنا الله تبارك وتعالى باسمه، ولو تعلقت حكمته بتسميته لسماه لنا، والعبرة بموقفه وإيمانه لا باسمه، والعبرة أيضا بكونه مؤمن من آل فرعون كما آمنت آسية امرأة فرعون.

قال الرجل المؤمن لفرعون وقومه أتقتلون رجلا لأجل أن يقول ربي الله، وقد جاءكم بالآيات البينات من ربكم، وذلك مثل العصا وانقلابها حية ورجوعها كما كانت، ومثل اليد التي تخرج بيضاء من غير سوء، وقد شاهدوا هذه الآيات التي تدل ولا ريب على صدق موسى فهو يذكرهم بها لعلهم ينتهون، ثم استعمل الحكمة في محاورتهم حتى لا يتهم بالإيمان فقال:

﴿وَإِنْ يَّكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَّكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ الذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لاَ يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾.

نصب لهم ميزانا يزنون أمر هذا الرجل ولا يخلو الأمر من أحد الوصفين إما أن يكون كاذبا وإما أن يكون صادقا، وبدأ باحتمال كونه كاذبا حتى لا يظهر التعصب له فيتهم بالميل إليه وتلك هي الحكمة على أن الآيات البينات هي التي تثبت صدقه لو كانوا يعقلون، قال: وإن يكن هذا الرجل كاذبا في دعواه فسيرجع كذبه عليه بالوبال وأن الله لا محالة سينتقم من المفترين عليه، وإن يكن صادقا يصبكم بعض الذي يعدكم به، ولم يقل كل الذي يعدكم به حتى لا يُظهر الميل إليه والانحياز إلى دعوته، وفي إصابة بعض الذي يعدهم به ما يكفي لإهلاكهم، ثم قال: والراجح أن هذه الكلمة من قوله، ومن المفسرين من قال: إنها من كلام الله، والذي يظهره السياق أنها من كلام الرجل المؤمن، والكلمة تنطبق على من كان كاذبا من الحزبين، وإن كان القوم يتوهمون أن المقصود بها موسى، وفي هذا ما يبعد الظنون عن قائلها، والحق أن الله لا يهدي أهل

الإسراف على أنفسهم بالمعاصي والظلم، ولا يهدي كل كذاب يكذب على الله أو يكذّب بالصدق يجيئه من الله، وفي الكلمة تقرير الاعتراف بالله الواحد القهار، وهي نفس الدعوة التي جاء بها نبي الله موسى ﷺ وكل من أنكر أن الهداية بيد الله فهو من المسرفين الكاذبين.

﴿يَاقَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الأَرْضِ فَمَنْ يَنصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِن جَآءَنَا قَالَ فِرْعَوْنُ مَآ أُرِيكُمْ إِلاَّ مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلاَّ سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾.

لا يزال الحوار مستمرا بين مؤمن آل فرعون وقومه فرعون وملائه فهو يحذرهم بأس الله الذي لا يدفعه ملكهم الظاهر على أرض مصر، وفي نسبة الملك إليهم اعتراف بتمكنهم فيه وغلبتهم، الأمر الذي يجعلهم واثقين بولائه لهم فلا يخالجهم فيه ريب لا سيما وقد أقحم نفسه في مجموعهم حين قال: فمن ينصرنا من بأس الله إن جاءنا، أي من ذا الذي يدفع عنا عذابه إن نزل بنا حين يصيبنا بعض الذي يعدنا موسى، فاحذروا يا قوم سوء العواقب.

وهنا يبرز فرعون الطاغية في مظهر الناصح الواعظ، الداعي إلى الرشاد، وكذلك فعل الجبابرة العتاة لا يكتفون بحمل الناس على اتباعهم بالقهر حتى يضللوهم بأن يظهروا لهم أن طريقتهم هي عين الصلاح والهدى والرشاد، وأن خصمهم يدعوهم إلى الفساد في الأرض وتغيير دينهم، ولا شك أن الناس غيورون على أديانهم ومعتقداتهم ولو كانت خرافية باطلة، هذا هو الأسلوب الذي يسوس به الملوك رعاياهم لأنهم يعلمون أن القهر وحده لا يكفي فقد يؤدي الأمر أخيرا إلى الانفجار لأن الناس لهم عقول وضمائر فهم لا محالة يترقبون فرصة الانفجار لتغيير الوضع الذي يدركون فساده، فليكن التمويه والتضليل إذن من جملة أسلحة القمع التي يستعين الملوك الجورة على قهر رعاياهم وتسييرهم في المسالك التي يبغونها.

﴿قَالَ فِرْعَوْنُ مَآ أُرِيكُمْ إِلاَّ مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلاَّ سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾.

أي ما أدعوكم إلا إلى السبيل الذي أرى وأعتقد أنه الرشاد، فاتبعوني أهدكم سبيل الرشاد، ولقد علم فرعون أن سبيل موسى هو الرشاد ولكنه يجحد بها ظلما وعلوا فهو حريص على ملكه وبقاء شعبه تحت سلطانه المادي والروحي فلا يقر له قرار إن تسرّب إلى ضمائر الناس بصيص من النور الذي جاء به موسى، فليبق الناس خاضعين لسلطان يعتقدون أنه ربهم الأعلى وإمامهم الذي يهديهم إلى سبيل الرشاد، هكذا تُعكس الحقائق عند هؤلاء العتاة الجبارين وتضلَّل الشعوب.

﴿وَقَالَ الذي ءَامَنَ يَاقَوْمِ إِنِّيَ أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ الاَحْزَابِ مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ﴾.

قال الرجل المؤمن يحذّر قومه عواقب الكفر الوخيمة: يا قوم إني أخاف عليكم يوما كأيام الأحزاب التي أهلكها الله بكفرها وذنوبها وهم الأحزاب التي ذكرها الله في أول السورة، وقد كانت أخبارها معروفة عندهم يتناقلها الأواخر عن الأوائل وضرب مثلا ببعضها فقال: مثل دأب قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم مثل قوم لوط، وما قوم لوط منهم ببعيد، قال: وما الله يريد ظلما للعباد، فإذا كان لا يريده فهو عن فعله أبعد بل كانوا هم الظالمين، فهو يحذرهم عواقب الظالمين، ومن ظُلمهم الأمر بقتل موسى وقومه بل هذا من أقبح أنواع الظلم الذي يعرض صاحبه لعقاب الله، ثم يتدرج بهم من التخويف من عذاب الدنيا إلى التخويف من عذاب الآخرة فيقول:

﴿وَيَاقَوْمِ إِنِّيَ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِي يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾.

قال الرجل المؤمن لقومه: يا قوم إني أخاف عليكم يوم التنادي وهو يوم البعث والحشر والحساب والجزاء، سمي يوم التنادي لما يقع فيه من النداءات، ينادي الله الكفار، وينادي أصحاب الجنة أصحاب النار، وينادي أصحاب النار أصحاب الجنة،

وينادي هؤلاء وهؤلاء أصحاب الأعراف، وينادي المنافقون الأبرار، وينادي الزبانية أصحاب النار، وينادي أصحاب اليمين الناس حين يؤتون كتبهم بأيمانهم، وينادي أصحاب الشمال نداء الويل والثبور، فهناك نداءات كثيرة تحصل يومئذ، فمن مغتبط فخور، ومن مستشفع، ومن مهنئ ومن موبخ، ومن صارخ مستصرخ مستغيث لا يجد غوثا، ومن مستعتب لا يُعتب، فذلك اليوم هو يوم التنادي حقا.

واختيار هذه الكلمة له اسما من أسمائه فيه تذكير وإنذار لأولي الألباب، وفيه وعظ للقوم الذين أزعجتهم نداءات الرجل المؤمن، ثم قال:

﴿يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ﴾.

أنذرهم يوم يرون العذاب فيولون مدبرين أو يودون لو أنهم يولون عنه مدبرين ولكن الملائكة التي وكلوا بقهرهم وتعذيبهم يضربون على وجوههم بمقامع من حديد ما لهم من الله من عاصم، أي من مانع يمنعهم من عذاب الله.

﴿وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾.

ومن يضلل الله بكفره وذنوبه ويجعل قلبه بها قاسيا فما له بعد الله من هاد يهديه، ولا شيء يقسي القلوب كارتكاب الذنوب بعد الذنوب، فهو يحذرهم من عواقب كفرهم وفسوقهم.

وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ ﴿34﴾ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴿35﴾

وضرب لهم المثل بنبي الله يوسف بن يعقوب عليه السلام لأنه في موطنهم وليس زمانه بعيدا عن زمانهم، وقد روي أن بعض المعمرين عاشوا العهدين عهد يوسف وأدركوا مبعث موسى ـ عليهما السلام ـ أكد الرجل المؤمن خبر مبعث موسى ومجيئه بالبينات مثل العصا واليد لأنهم كانوا في شك من أمره، ووجه الخطاب لقومه وما كانوا في زمن يوسف لأنهم كانوا على طبيعة أسلافهم في الشك في أمر الوحي وما يواكب الوحي من آيات الله البينات، قال:

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَنْ يَّبْعَثَ اللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِ رَسُولاً﴾.

أي ما زلتم طيلة أيامه في شك من أمره حتى إذا مات قلتم انتهى أمره ولن يبعث الله من بعده رسولا، قالوا ذلك لا تصديقا بنوته وإنما فرحا بانتهاء أمره لأنهم كانوا مرتابين فيه يتمنون زواله لأن قلوبهم منكرة لما يدعو إليه.

﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ﴾.

الإضلال هو عمى القلب والإغلاق عليه، والقلب ينتهي إلى العَمَى والختم بإسرافه في المعاصي وارتيابه في الحق، وكما أضل الله قلوبَ المرتابين في أمر يوسف كذلك يُضل الله كل مسرف على نفسه، ظالم لها، مرتاب في أمر الآخرة.

﴿الذينَ يُجَادِلُونَ فِي ءَايَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ اَتَاهُمْ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ وَعِندَ الذينَ ءَامَنُوا كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾.

يتكرر في هذه السورة المباركة ذكر الذين يجادلون في آيات الله وذمهم، وبيان عواقبهم السيئة، وما ضلل الناس إلا هؤلاء المعاندين الذين يتكبرون عن آيات الله ويتخذونها هزؤا ويحاجون فيها بالباطل، فهم يجادلون فيها بغير سلطان أتاهم من علم، بل هم يحاولون بجدالهم المتكرر صرف الناس عنها، وما يجادل في آيات الله إلا الذين كفروا ابتغاء تأويلها بجدالهم، وما يعلم تأويلها إلا الله، وقد يجادلون في معانيها يحرفونها ليخففوا من وقعها في النفوس، فلا يكون لها تأثيرها المطلوب، فتراهم مثلا

يتعرضون لآيات جاءت بالوعيد في بعض الكبائر من الإثم والوعيد عليها ووصفها أهلها بالكفر أو بالفسق أو بالظلم، فيقولون هذه نزلت في الكفار أي المشركين، وهذه نزلت في أهل الكتاب من قبلنا، اليهود أو النصارى، وهذه معناها كذا ولا يراد به المعنى الظاهر، قال الله تعالى:

﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ وَعِندَ الذِينَ ءَامَنُوا﴾.

أي ما أكبر مقت الله عليهم وعلى جدالهم بالباطل، والمقت هو البغض الشديد وعند الذين آمنوا كذلك، وهنا يرفع الله مقام عباده المؤمنين فيجعل لمقتهم اعتبارا بعد مقت الله، وأن المؤمنين يمقتون الباطل وأهله، وكذلك يجب أن يكونوا، وهذا برهان إيمانهم وحبهم الله، فهم يبغضون أعداء الله أهل الكفر المجادلين في الله بغير سلطان.

﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾.

الطبع هو ضلال يقع في القلب فينغلق ويقسو فلا تنفع فيه الموعظة ولا يؤثر فيه إنذار، كذلك يطبع الله على قلوب هؤلاء المتكبرين الجبارين الذين يحاولون قهر غيرهم على ما يريدون، يختم الله على قلوبهم بسبب كبرهم وعنادهم، ويصرفها عن نور الحق فلا تبصره، وقد توعد الله بالطبع كل قلوب المتكبرين الجبارين، فلا مطمع في صدر فيه كبر أن ينفتح لإبصار الحق أو قبوله، وهذا من الله وعيد شديد على ذوي الكبر، وتحذير بليغ للمؤمنين من الكبر الذي هو التعاظم والتعالي على الحق وأهله، وهو أيضا غمط الخلق واحتقار الضعفاء، ونعوذ بالله من سيء الأخلاق، وما صرف الأشقياء عن قبول الحق بعد وضوحه وظهوره إلا كبر النفوس، وسيلقى المتكبرون مصيرهم المشؤوم في دار الهوان صاغرين داخرين، ونعوذ بالله من كبر النفوس وبئس مثوى المتكبرين.

وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا ۚ وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ۚ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِى تَبَابٍ ﴿٣٧﴾

كان هامان وزير فرعون الأول، فأمره أن يبني له صرحا، والصرح هو البنيان الشامخ وأصله من الصروح وهو الظهور؛ لأنه يظهر من بعيد، قال فرعون لهامان:

﴿يَاهَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَّعَلِّي أَبْلُغُ الأَسْبَابَ أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ فَأَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَهِ مُوسَىٰ﴾.

والسبب كل ما يتوصل به إلى المطلوب من حبل أو سلم أو غيرهما، أجمل أولا ثم فصل ليكون أبلغ في نفس المأمور وليسترعي انتباهه، قال: فأطلع إلى إله موسى، والاطلاع بزيادة الحرفين أمكن في الطلوع، وقد أملى عليه صلفه وكبرياؤه أن يقول إلى إله موسى، وكأنه إله موسى وحده، لأنه كان مستنكفا عن عبادته جاحدا له لذا قال:

﴿وَإِنِّي لأَظُنُّهُ كَاذِبًا﴾.

ذلك ليطمئن الخاصة أنه لا يشك في آلهتهم إنما يفعل ذلك ليظهر كذب موسى بطريق الحس على ما يزعم، وليظهر للعامة أنه حريص على طلب الحقيقة في أمر هذا الرجل المدعي في زعمه، وليربح الوقت في تخديرهم وإبعادهم عن الاستماع لموسى والتأثر بدعوته، لأن بناء مثل هذا الصرح يستدعي زمنا طويلا وسيماطل هامان في بنائه إن وافق على ذلك وقد لا يفعل، ولا ندري نحن إن كان الصرح بني فعلا أو لا، ولا يوجد في آثار مصر القديمة ما يدل عليه، وقيل فيما روي من الأخبار أنه بني فعلا، ولما تم بناؤه أرسل الله عليه صاعقة فشقته نصفين، نصف وقع في البحر ونصف سقط على

جماعة من الناس فدمرهم، والله أعلم بصحة الخبر، وليس المقصود ببناء الصرح طلب الحق، والحق واضح قبل ذلك، ولكن المقصود تضليل العوام، والحيلولة بينهم وبين نور الله.

﴿وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلاَّ فِي تَبَابٍ﴾.

بني الفعل للمجهول لأن الغرض لا يتعلق بالفاعل إنما المهم في الفعل والمفعول به، والمزيَّن طبعا هو إبليس اللعين وهو كيد عظيم من فرعون، وما كيد فرعون إلا في تباب، والتباب هو الهلاك والخسار، وكيد الله أعظم من كيد فرعون حين أملى له حتى إذا جاء أجله أخذه فلم يفلته وكان عاقبته وقومه الغرق فالخلود في عذاب الله جزاء على صدودهم وإعراضهم عن سبيل الله المستقيم، وقد أرسل إليهم من يهديهم السبيل فما زادهم دعاؤه إلا فرارا واستكبارا فكان مآل أمرهم إلى تباب، ولم ينفعهم كيدهم شيئا لما جاء أمر ربك، فهل يعتبر المعتبرون بهذا المصير! كذلك تكون عواقب المتكبرين.

وَقَالَ ٱلَّذِيٓ ءَامَنَ
يَٰقَوۡمِ ٱتَّبِعُونِ أَهۡدِكُمۡ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ (38)
يَٰقَوۡمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا مَتَٰعٞ وَإِنَّ ٱلۡأٓخِرَةَ
هِيَ دَارُ ٱلۡقَرَارِ (39) مَنۡ عَمِلَ سَيِّئَةٗ فَلَا يُجۡزَىٰٓ إِلَّا
مِثۡلَهَاۖ وَمَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ
فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ يُرۡزَقُونَ فِيهَا بِغَيۡرِ حِسَابٖ (40)
۞ وَيَٰقَوۡمِ مَا لِيٓ أَدۡعُوكُمۡ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدۡعُونَنِيٓ إِلَى ٱلنَّارِ (41)
تَدۡعُونَنِي لِأَكۡفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشۡرِكَ بِهِۦ مَا لَيۡسَ لِي بِهِۦ
عِلۡمٞ وَأَنَا۠ أَدۡعُوكُمۡ إِلَى ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡغَفَّٰرِ (42) لَا جَرَمَ
أَنَّمَا تَدۡعُونَنِيٓ إِلَيۡهِ لَيۡسَ لَهُۥ دَعۡوَةٞ فِي ٱلدُّنۡيَا وَلَا فِي
ٱلۡأٓخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ هُمۡ أَصۡحَٰبُ
ٱلنَّارِ (43) فَسَتَذۡكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمۡۚ وَأُفَوِّضُ أَمۡرِيٓ
إِلَى ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرُۢ بِٱلۡعِبَادِ (44) فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ
مَا مَكَرُواْۖ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرۡعَوۡنَ سُوٓءُ ٱلۡعَذَابِ (45)
ٱلنَّارُ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا غُدُوّٗا وَعَشِيّٗاۚ وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ
أَدۡخِلُوٓاْ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ أَشَدَّ ٱلۡعَذَابِ (46)

﴿وَقَالَ الذي ءَامَنَ يَاقَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ يَاقَوْمِ إِنَّمَا هَــذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ﴾.

في مجلس آخر يقول الرجل المؤمن لقومه: يا قوم اتبعون أهدكم سبيل الرشاد، يناديهم بيا قوم حتى يشعرهم أنه منهم فيعطف بذلك قلوبهم عليه، وذلك أدعى إلى استجابتهم لما يدعوهم إليه، يقول: اتبعوني أهدكم، يطلب منهم موافقته واتباعه

ليهديهم سبيل الرشاد الذي هو سبيل موسى لا سبيل فرعون الذي يزعم أنه يهديهم سبيل الرشاد، وفي هذا تعريض ببطلان دعوة فرعون، ويبدو أن الرجل بلغ في هذه المرحلة مبلغ إظهار عقيدته والتصريح بإيمانه، وأنه تجاوز مرحلة الكتمان، ثم قال:

﴿يَاقَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ﴾.

يكرر النداء بيا قوم ليبالغ في التلطف بهم والتحنن إليهم، ويقارن لهم بين الحياة الدنيا والآخرة بما يظهر الفرق الكبير بينهما، فيقصر الحياة الدنيا على المتاع قصر موصوف على صفة، أي ليست إلا متاعا قريبا، والمتاع هو المنفعة واللذة التي تزول قريبا فلا بقاء لها، أما الآخرة فهي دار الاستقرار والبقاء في النعيم الأبدي أو العذاب الأبدي، ثم يقول:

﴿مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلاَ يُجْزَى إِلاَّ مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ اَوُ اُنثَى وَهُوَ مُومِنٌ فَأُوْلَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾.

من عمل العمل السيء فلا يجزى إلا بمثل ما عمل ولا يطمع أن يجزى على السيئة بالحسنة، ومن عمل العمل الصالح من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلابد بالإيمان مع العمل الصالح، إذ لا ينفع مع الشرك عمل، فمن سلم من الشرك بجميع أنواعه وجاء بالعمل الصالح فأولئك يدخلون الجنة التي أعدها الله للمتقين يرزقون فيها رزقا حسنا بغير حساب، وهذا كناية عن الكثرة، قال لهم هذا الكلام ولا شك أنه تعلمه من نبي الله موسى عليه السلام وقد يكون حفظه من تعاليم نبي الله يوسف وآبائه عليهم السلام، لأن معتقدات الإسلام لا تتبدل ولا تتغير من نبي إلى نبي، والدين واحداً، ﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللهِ الاسْلاَمُ﴾ (آل عمران: ١٩)، قال لهم هذا الكلام ليزجرهم عن الشرك والمعاصي، ويرغبهم في الإيمان والطاعة لعلهم يذكرون.

﴿وَيَاقَوْمِ مَا لِيَ أَدْعُوكُمُ إِلَى النَّجَاةِ وَتَدْعُونَنِيَ إِلَى النَّارِ تَدْعُونَنِي لأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمُ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ لاَ جَرَمَ

أَنـــَّمَا تَدْعُونَنِيَ إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلاَ فِي الآخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَـــى اللَّهِ وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُـــمْ وَأُفَـــوِّضُ أَمْرِيَ إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾.

لا يزال الحوار يتجدد بين الرجل المؤمن وقومه، ويبدو أن هذا الحوار يتكرر في مناسبات وفي أزمنة متعددة، وربما يستمر في عدة أيام أو عدة شهور أو أكثر، وهو ينوّع أساليب محاورتهم لعل ذلك يكون أدعى للتأثير فيهم فهو في هذه المرة يختار أسلوب التعجب من حاله وحالهم.

﴿وَيَاقَوْمِ مَا لِيَ أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ وَتَدْعُونَنِيَ إِلَى النَّارِ﴾.

يا قوم عجبا لحالي وحالكم، مالي أدعوكم إلى النجاة بأن تؤمنوا بموسى رسول الله وتعملوا صالحا وأنتم تدعونني إلى النار التي هي مثوى الكافرين.

﴿تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَآ أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ﴾.

هنا يظهر جليا إيمان الرجل بالله وتوحيده لربه، فهو لا يخشى أن يعلن بعقيدته، إنه يؤمن بالله وحده ويكفر بجميع الطواغيت، قال لقومه: تدعونني لأكفر بالله الرب الخالق الرازق المحيي المميت وأشرك به ما ليس به علم، ونفي العلم هنا المراد نفي الوجود، فلا وجود مطلقا لخالق مع الله، ولا معبود بحق إلا الله، أما هذه المعبودات التي يتخذها المشركون أندادا لله فلا حقيقة لها ولا نفع ولا ضر إن هي أسماء اختلقوها لو سألتهم عنها لقالوا: إنا وجدنا آباءنا لها عابدين، يقول الرجل المؤمن: ما لكم! كيف تدعونني إلى الشرك والتعلق بأسماء لا وجود لها إن هي إلا تماثيل تنحتونها وتصنعونها بأيديكم ثم تظلون لها عاكفين وأنا أدعوكم إلى الله العزيز الذي لا يغالب، الغفار الذي لا يغفر الذنوب إلا هو، وفي هذا تعريض بآلهتهم أنها لا تملك شيئا وهي

ذليلة تبول عليها الكلاب والثعالب، وتخزق عليها الطيور وتبليها الأزمنة والدهور، ثم هي لا ترجى لجلب نفع ولا لدفع ضر، ولا لمغفرة الذنوب.

﴿لاَ جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلاَ فِي الآخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى اللَّهِ وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ﴾.

تكلم أهل اللغة كثيرا في معنى لا جرم، وخلاصة كلامهم أنه بمعنى حقا ولا شك ولابد، فقوله: لا جرم، أي حقا لا شك فيه أن الذي تدعونني إليه من عبادة هذه الأصنام والشركاء ليس لها دعوة في الدنيا ولا في الآخرة، أي لا تستجاب لها دعوة، بل هي لا تدعو فكيف أدعو من هذا حاله فلا دعوة لها مطلقا لأمور الدنيا ولا لأمور الآخرة، قال: وأن مردنا جميعا إلى الله الواحد القهار، وأن المسرفين بالشرك والمعاصي، والإسراف هو الظلم وتجاوز الحدود بالآثام، إن المسرفين هم أصحاب النار، وفي ضمير الفصل المتصل بالخبر ما يؤذن بالتوكيد والحصر، وهو حصر الموصوف على الصفة، وفي هذا إنذار وتخويف من الرجل المؤمن لقومه لعلهم ينتهون، ثم زاد فقال لهم:

﴿فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْ وَأُفَوِّضُ أَمْرِيَ إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾.

فستذكرون ما أقول لكم وتجدونه حيث لا ينفعكم التذكر حين ترون العذاب، وهذا فيه إنذار وتخويف لعلهم يرعوون، وليتهم اتعظوا ولكنهم ازدادوا عتوا ونفورا وأرادوا قتله والكيد به، وهذا ما يدل عليه قوله: **﴿وَأُفَوِّضُ أَمْرِيَ إِلَى اللَّهِ﴾** وما يأتي بعده من التصريح بذلك، علم الرجل المؤمن أن كل شيء من الله بقضاء وقدر فوكل أمره الله وفوضه في جميع شؤونه تفويضاً، وذلك شأن المسلم، إن الله بصير بالعباد، بصير بقلوبهم وما فيها وبأعمالهم وسيجازيهم عليها، أما آلهتهم التي يدعونها من دون الله فلا تسمع ولا تبصر ولا تغني شيئاً.

﴿فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا وَحَاقَ بِئَالِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾.

فوض الرجل المؤمن أمره إلى الله وتوكل عليه، فكفاه أمر العباد، فوقاه الله سيئات مكرهم، ولا يحيق المكر السيئ إلا بأهله، والعبارة تؤذن أنهم أرادوا به سيآت متعددة، وفي كل مرة يدفع الله عنه مكرهم ويحفظه من شرهم، ورويت في ذلك أخبار لا يثبت تفصيلها، والمهم أنه نجا من كيد فرعون وقومه ﴿وَحَاقَ بِئَالِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ﴾ أي رجع عليهم مكرهم بالعذاب الشديد في الدنيا وهو الغرق، وبالعذاب الشديد في الآخرة وهو عرضهم على النار غدوا وعشيا، ثم دخولهم وخلودهم فيها.

﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾.

الجملة بدل من سابقتها، وفيها الإخبار بعذاب النار بعد عذاب الغرق، أو هي بيان لنوع العذاب، وكأن عذاب الدنيا لا يعد شيئا في جنب عذاب النار، وهي النار المعهودة نار الآخرة التي هي أشد من نار الدنيا، يعرضون عليها غدوا وعشيا، وذلك كناية عن الدوام والعياذ بالله، ثم يقال لهم بعد قيام الساعة: اُدخلوا يا آل فرعون أشد العذاب، وهذا على قراءة بعض القراء، وعلى قراءة نافع وحمزة والكسائي ومن معهم يقال للزبانية والقول من الله: ﴿أَدْخِلُوا ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾ في جهنم حيث يلقون جزاءهم بمختلف أنواع العذاب منها صلي النار فيدعّهم الزبانية في جهنم دعا وهو مشهد فظيع من مشاهد القيامة، فيه تخويف وموعظة لأولي الألباب، ثم يعرض الله علينا مشهدهم بعد ترديهم في النار، وهم فيها يتخاصمون فيقول:

وَإِذْ يَتَحَآجُّونَ
فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَٰٓؤُاْ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا كُنَّا
لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ النَّارِ ﴿47﴾
قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا كُلٌّ فِيهَآ إِنَّ اللَّهَ قَدْ
حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ ﴿48﴾ وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ
جَهَنَّمَ ادْعُواْ رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ الْعَذَابِ ﴿49﴾
قَالُوٓاْ أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِالْبَيِّنَٰتِ قَالُواْ بَلَىٰ
قَالُواْ فَادْعُواْ وَمَا دُعَٰٓؤُاْ الْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٍ ﴿50﴾
إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا
وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَٰدُ ﴿51﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ الظَّٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ
وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ الدَّارِ ﴿52﴾

يتخاصم أهل النار في النار ويتلاعنون ولن يغنيهم ذلك شيئا ولكن الله تعالى يحكي لنا تخاصمهم في كتابه للادّكار والاعتبار، وما أبلغها من موعظة وأشد وقعها في القلوب ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ﴾ (ص: ٦٤)، يقول الله تعالى:

﴿وَإِذْ يَتَحَآجُّونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَآءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلَ انتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ النَّارِ قَالَ الذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَآ إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ﴾.

واذكر يا محمد ويا كل تالٍ للقرآن المحاجة التي تقع في النار بين الضعفاء والمستكبرين فإن في ذلك عبرة للمعتبرين وذكرى للذاكرين، إنهم كانوا في الدنيا طبقتين: طبقة الكبراء المتبوعين وطبقة الضعفاء التابعين، وإنهم حين يداركون في النار يتوجه الحوار من الضعفاء الأتباع إلى متبوعيهم المستكبرين ذوي النفوذ والغنى والقوة والجاه فيقول

ضعفاؤهم لساداتهم: إنا كنا لكم تبعا في الدنيا، كنا لكم زينة في الرخاء وعدة في البأس والبلاء فهم أنتم اليوم مغنون عنا، أي محتملون عنا نصيبا من النار حيث كنتم سبب إضلالنا وشقائنا، ولولا أنتم لكنا مؤمنين، فيجيب الذين استكبروا:

﴿إِنَّا كُلٌّ فِيهَآ إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ﴾.

يقولون: لا تطمعوا في ذلك فنحن وإياكم في تحمل نصيبنا من العذاب سواء، وهذا أمر مفروغ منه، إن الله قد حكم بين عباده وأعطى كلا نصيبه الذي يستحقه، يقولون هذا في تخاصم وعداوة وتلاعن ثم إنهم حين ييأس بعضهم من بعض وقد يئسوا من رحمة الله الذي قال لهم: ﴿اخْسَئُواْ فِيهَا وَلاَ تُكَلِّمُونِ﴾ (المؤمنون: ١٠٨)، يتوجهون إلى زبانية جهنم وخزنتها يطمعون في شفاعتهم.

﴿وَقَالَ الذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ الْعَذَابِ﴾.

وقال الذين في النار للملائكة الغلاظ الشداد الموكلين بتعذيبهم وأنى يرجون شفاعتهم ولكنهم اضطروا إليها بعدما أوصدت عليهم جميع الأبواب، قالوا لهم: ادعوا ربكم يخفف عنا يوما من العذاب، طلبوا تخفيف يوم واحد لأنهم أيسوا من إيقاف العذاب، وأيسوا من الخروج، وأيسوا من الموت فطمعوا في تخفيفه يوما أو بعض يوم، فيعرض الزبانية عن مطلبهم لأنهم يعلمون أنه لا يقبل بل لا يجوز لهم أن يشفعوا فيهم وقد حقت عليهم لعنة الله فيردون عليهم السؤال ردا يكون فيه قمع لهم وتوبيخ.

﴿قَالُوا أَوَ لَمْ تَكُ تَاتِيكُمْ رُسُلُكُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَىٰ قَالُوا فَادْعُوا وَمَا دُعَآءُ الْكَافِرِينَ إِلاَّ فِي ضَلاَلٍ﴾.

قال الخزنة لأهل النار: أو لم تكن رسل الله يأتونكم وينذرونكم لقاء يومكم، ويبينون لكم صراط الله المستقيم ويدعونكم إليه؟ قالوا: بلى، أي قد جاءتنا رسل الله ونذره وبينوا لنا الطريق وما قصروا في الدعوة والتبليغ ولكنا كذّبنا وعصينا، قال الخزنة

حينئذ: فادعوا أنتم وقد علموا أن دعاءهم لا يسمع ولكن في قولهم هذا تبكيت لهم وتقريع، قال الله تعالى: ﴿وَمَا دُعَآءُ الْكَافِرِينَ إِلاَّ فِي ضَلاَلٍ﴾ هذا قول الله على تفسير الجمهور، ولا يكون دعاء الكافرين في الدنيا ولا في الآخرة إلا في ضلال، أي مردودا عليهم لا يقبل ولا يستجاب، ونعوذ بالله من دعاء لا يستجاب.

هنالك ييأس الذين كفروا من كل تخفيف ولا يبقى لهم مطمع في شفاعة، وفي هذا العرض ما يكفي موعظة لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد، ثم يعقب الله على ما تقدم من أول السورة تعقيبا فيه تقرير حكمه الحق فيقول:

﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الاَشْهَادُ يَوْمَ لاَ يَنفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾.

يؤكد الله الخبر بمؤكدين قويين حتى نطمئن إلى وعد الحق بنصر رسله والمؤمنين في الحياة الدنيا وفي الآخرة يوم يقوم الأشهاد، والنصر من الله للرسل وخلفاء الرسل بتأييدهم وضمان البقاء والنجاح لدعوتهم، وربما تكون الحرب أول الأمر سجالا يوم لهم ويوم عليهم، ولكن النصر أخيرا لا يكون إلا لهم، وقد رأينا نصر الله لعبده موسى ومن معه وإغراقه أعداءه فرعون ومن معه، هذا النصر في الدنيا أما النصر في الآخرة فمعلوم وهو إسعاد رسل الله والمؤمنين، وإذلال أعدائهم وسوْقهم إلى نار جهنم داخرين، وبئس المصير.

أما قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَقُومُ الاَشْهَادُ﴾ قال المفسرون: المراد بالأشهاد رسل الله الذين يشهدون على أممهم، وكذلك الملائكة الحفظة الكاتبون، وقال البعض: المراد بالأشهاد الذين يشهدون هذا النصر يوم القيامة، ينصر الله رسله والمؤمنين بهم علنا على رؤوس الأشهاد، وهذا المعنى الذي أرجحه وأميل إليه وهو أوقع في النفوس، وإن كانت المعاني في مثل هذه المواضيع لا تتزاحم، ثم يقول تعالى:

﴿يَوْمَ لاَ يَنفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾.

الظالمون هم الذين ظلموا أنفسهم بالشرك وما دون الشرك من أنواع الكفر والنفاق والإصرار على الذنوب، وظلموا عباد الله فصدوهم عن سبيل الله لا تنفعهم معذرتهم ولو اعتذروا، ولكن لا يؤذن لهم فيعتذرون ولا يجرؤون يومئذ على الاعتذار؛ لأنهم يعلمون أن أعذارهم واهية بل قصاراهم أن يطلبوا الرجعة ليعملوا صالحا وليستدركوا ما فاتهم ولكن لا يقبل منهم ويعلم الله أنهم لكاذبون، أولئك لهم اللعنة وهي الإبعاد والطرد من رحمة الله، ولهم سوء الدار، وهو الإحضار في عذاب الله في جهنم خالدين فيها جزاء على ظلمهم وتلك عاقبتهم السيئة، تلك سنة الله التي لا تتبدل، النصر لأوليائه وسوء الدار لأعدائه، وفي هذا التعقيب ما يكفي للموعظة والاعتبار وليس أبلغ أثرا في القلوب من التبشير والإنذار.

۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى
ٱلْهُدَىٰ وَأَوْرَثْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ ﴿53﴾ هُدًى
وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿54﴾ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ
حَقٌّ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِٱلْعَشِىِّ
وَٱلْإِبْكَٰرِ ﴿55﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ
بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ ۙ إِن فِى صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ
مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِ ۚ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ
ٱلْبَصِيرُ ﴿56﴾

بعد أن أقسم الله تبارك وتعالى أنه ناصر رسله والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد ضرب لنا مثلا بالنبي موسى بن عمران عليه السلام وكيف كانت العاقبة الحسنة له ولبني إسرائيل فقال:

﴿وَلَقَدَ ـ اتَيْنَا مُوسَى الْهُدَىٰ وَأَوْرَثْنَا بَنِي إِسْـرَآئِيلَ الْكِتَـابَ هُـدًى وَذِكْرَىٰ لِأُولِي الأَلْبَابِ﴾.

يؤكد الله لنا الخبر بلام القسم وقد يأتي الخبر على الإضافة إلى نون العظمة ؛ لأن هذا شأن من شؤون الله يؤتي الحكمة من يشاء ، يخبرنا الله أنه آتى موسى الهدى وأيده بالبينات والمعجزات وأورثه وقومه بني إسرائيل الكتاب ، وهو التوراة ، هدى وذكرى لأولي الألباب ، وهم المنتفعون بالهدى والذكرى ، وهذا الإخبار المقصود به تسلية قلب النبي وأصحابه حتى يصبروا كما صبروا ويهتدوا بهدى الله ولا يشكّوا في وعد الله.

﴿فَاصْبِرِ انَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّـكَ بِالْعَشِيِّ وَالاِبْكَارِ﴾.

يأمر الله نبيه بالصبر ، والأمر له ولكل الدعاة إلى الحق من بعده ؛ لأن الطريق شاق يحتاج إلى صبر طويل وإلى الثقة الكاملة بحقية وعد الله بنصر رسله والذين آمنوا من بعده ، أي فتأس بموسى واصبر واعلم علم اليقين أن وعد الله بنصر دعوتك حق لا ريب فيه ، إن الله مُظهر دينه ولو كره الكافرون ، فثق بوعد الله.

﴿وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ﴾ أمره بالاستغفار من ذنبه ، والأنبياء مبرؤون من الذنوب ، وإنما قد تكون ذنوبهم بالنسبة إليهم أشياء ليست بالنسبة إلينا ذنوبا ، ويقال : حسنات الأبرار سيئات المقربين ، فقد تكون ذنوبهم ارتكاب ما هو خلاف الأولى ، وقد يكون استبطاء النصر أو طلب استعجال ما لم يحن وقته ، ورجاء ما لا يرجى ، أو بتمني أحدهم أن يبدل الله سنته في خلقه فربما يخطر ببالهم خاطر من هذا القبيل ، فأمر الله نبيه بالاستغفار لذنبه وبالتسبيح وتنزيه الله عما لا يليق بجلاله وتقديسه دائما ، فقال تعالى :

﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّـكَ بِالْعَشِيِّ وَالاِبْكَارِ﴾.

وسبح ربك التسبيح الذي يليق بجلاله واحمده الحمد الذي يليق بكماله والذي هو أهله وكرّر تسبيحه وحمده بالعشي والإبكار ، والذي نرجحه في هذا المعنى هو الدوام

وليس المقصود الأوقات أول الليل وأول النهار ؛ لأن ذلك يفهم منه الغفلة وسط الليل ووسط النهار، وذلك مكروه ولا يليق بمقام ذوي الألباب فضلا عمن اصطفاهم الله وأكرمهم بالنبوة، فذكر الله محبب ومرغب فيه في جميع الأوقات، والغفلة عن ذكره مكروهة.

﴿إِنَّ الذِينَ يُجَادِلُونَ فِي ءَايَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ اَتَاهُمْ إِن فِي صُدُورِهِمْ إِلاَّ كِبْرٌ مَّا هُم بِبَالِغِيهِ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾.

يكشف الله لنا في هذه الآية حقيقة من حقائق النفوس وهو أعلم بالنفوس وآفاتها وكيف نتقيها، ولابد بالاستعاذة به من شرها فهو وحده القادر على ذلك، يتكرر في هذه السورة الكريمة ذكر الذين يجادلون في آيات الله أربع مرات لنحذرهم ولنحذر هذا الطبع الخبيث الذي ينم عن كبر النفوس وهو أبغض طبائع النفوس إلى الله، فهو يصفه بقوله تعالى: ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ وَعِندَ الذِينَ ءَامَنُوا﴾ (غافر: ٣٥)، ويصف أهله بالكفر وبالكبر ويأمرنا بالاستعاذة بالله منهم.

﴿إِنَّ الذِينَ يُجَادِلُونَ فِي ءَايَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ اَتَاهُمْ إِن فِي صُدُورِهِمْ إِلاَّ كِبْرٌ مَّا هُم بِبَالِغِيهِ﴾.

إن الذين يجادلون في آيات الله بعد ظهورها فلا لبس فيها، فهم يحاولون دفعها بغير سلطان من علم جاءهم من الله، إن هؤلاء ليس جدالهم لطلب المعرفة بل هم يجادلون لإخفاء الحق، لأن صدورهم المليئة بالكبر لم تعد مستعدة لقبول الحق، وأنى لنفس متكبرة أن تذعن لقبول الحق فهم متكبرون يريدون العلو على الحق ويعتزون بما معهم من الباطل، ويتظاهرون بمظهر العلم، ويتشبثون بفلسفات يظهرون للناس أنها حقائق مسلمة وما هي بحقائق بل هي أضاليل وشبهات يتمسكون بها ويظنون أنهم بها يعلون على من يدعوهم بدعوة الدين الحق، وما هم ببالغين ما في صدورهم من الكبر وطلب العلو، بل إنهم هم المردودون أسفل سافلين.

﴿فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾.

فاستعذ بالله من خلق الكبر ومن شر المتكبرين ومن عواقبهم إنه هو السميع بأقوالهم وسيجازيهم عليها، العليم بما في قلوب خلقه، فاحذر أن يكون في قلبك مثقال حبة خردل من كبر، فإنها لا تخفى على الله، والله لا يحب المستكبرين، والكبر كما جاء تبيينه في الأثر هو: غمط الخلق وتسفيه الحق، فهم يسفهون الحق ليعلوا عليه وما هم ببالغي مرادهم، والله مذلهم ومتم نوره ولو كره الكافرون.

لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾ وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَلَا ٱلْمُسِىٓءُ ۚ قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٩﴾ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾

يقول الله تبارك وتعالى: إن خلق السموات ومجراتها وأبعادها، وما فيها من نجوم وكواكب، وسبحها في الكون على نظام معلوم، وخلق الأرض وما فيها من جبال وبحار وأنهار، وما عليها من دواب، وما أنبت الله على هذه الأرض، وما أودع فيها من كنوز ومعادن، وما أودع في البحار من جواهر ولآلئ، وما خلق من حيتان، وفي الحيتان ما يلتقم الإنسان في فمه ويبلعه، كل هذا أكبر من خلق الناس لو تأمل الناس في ذلك، ولكن أكثر الناس غافلون، فهم لا يعلمون حقيقتهم في هذا الكون العظيم الذي هو من خلق الله، لو كانوا يعلمون حقا ما تمردوا على خالقهم وتكبروا على رسله، وفي تأمل

هذه الآية بعد التي قبلها عبرة للمعتبرين وموعظة للمتقين، وما يخفى هذا إلا عن عمى البصائر الذين لا يعقلون، فتأمل بعدها قوله تبارك وتعالى:

﴿وَمَا يَسْتَوِي الأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ وَالذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلاَ الْمُسِيءُ قَلِيلاً مَّا يَتَذَكَّرُونَ﴾.

يضرب الله المثل في هذه الآية الكريمة للمؤمن والمسيء بالبصير ذي العينين المبصرتين، والأعمى الذي لا يبصر النور، والمثال واضح يدركه كل عاقل، أي كما أنه لا يستوي الأعمى والبصير كذلك لا يستوي الذين آمنوا بالله ورسله واليوم الآخر وعملوا الصالحات والمسيئون، والإساءة تعم الكفر وارتكاب الكبائر والإصرار على الذنوب، وقد جعل الله الطرف المقابل للإيمان والعمل الصالح هو الإساءة ليعم الشرك وكبائر الأعمال حتى يقطع طمع الذين يتمنون على الله الأماني، فهم يزعمون أنهم يصرون على الكبائر ويطمعون في الجنة، ولذا يقول الله بعد ضرب هذا المثل:

﴿قَلِيلاً مَّا يَتَذَكَّرُونَ﴾

أي قليلا ما يرجعون إلى عقولهم فيبصرون بها الحق، وما يتذكر ويبصر الحق إلا قليل من عباد الله، وهذا من الله تحريض لنا أن نكون من القليل الذي ينتفع بالنظر في آيات الله الكونية فيتذكر ويحسن الأدب مع الله كما أنه تحريض لنا على الإيمان والعمل الصالح وتجنب الإساءات كلها، والتوبة من الذنوب وتجنب الإصرار عليها.

﴿إِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ لاَّ رَيْبَ فِيهَا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يُومِنُونَ﴾.

يذكرنا الله تبارك وتعالى بقيام الساعة، وهي فناء الدنيا وإتيان يوم البعث والحساب ليجزي الله كل نفس بما كسبت، ويؤكد الله الخبر بمجيء الساعة لنزداد بها إيمانا فنستعد لمجيئها ونستعد للقاء الله بما يرضى الله من الأخلاق والأفعال والأقوال، ونتجنب حال المتكبرين الذين يجادلون في آيات الله بغير سلطان، ولو آمنوا بالساعة لاستقامت أحوالهم وأذعنوا للحق، ولكن أكثر الناس لا يؤمنون، وهم الكفار، ولو تأملوا في هذه

المخلوقات المتطورة والمتغيرة لأدركوا أنها فانية لا محالة، وقد أخبرنا الله الذي خلقها أن لنا يوما محدودا وساعة نفنى فيها ولا يبقى إلا وجه ربنا ذي الجلال والإكرام، فالويل لمن يكذب بالساعة! إنه يستحل كل شيء ولا يستمع لنذر الله بل يجادل في آيات الله بغير سلطان أتاه.

﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾.

يوجّه الله الأمر إلى عباده بهذه الصيغة: وقال ربكم، وذلك أبلغ أثرا في قلوبهم وأدعى إلى انتباهها وحسن وعيها وإقبالها، وقد ندب الرب الكريم إلى دعائه ووعد على ذلك الاستجابة لنا، والدعاء هو العبادة، وجاء في الحديث: {الدعاء مخ العبادة} لأن العبادة هي التذلل والتضرع وإظهار الحاجة إلى الله، ومن أعرض عن الدعاء فكأنه استغنى عن ربه أو أساء الظن به، وقد توعد الله الذين يستكبرون عن عبادة الله ودعائه بإدخالهم جهنم داخرين، أي أذلاء مهانين، جزاء وفاقا على استكبارهم عن دعاء ربهم في الدنيا، وهناك ناس من الشباب المنتسبين إلى آباء مسلمين يسخرون من الداعين ويهزؤون بالدعاء، وما ذاك إلا لفساد اعتقادهم وخراب ضمائرهم من الإيمان بالله.

وقد شاعت في هذا العصر فلسفات أهل الزندقة والإلحاد الفرحين بما عندهم من العلم المعجبين به وما يعلمون إلا ظاهرا من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون، وهم عن دعاء ربهم معرضون، أولئك المستكبرون عن عبادة الله سيدخلون غدا جهنم داخرين أذلة صاغرين.

وتشتمل هذه الآية الكريمة على وعد ووعيد، وعد للداعين بالاستجابة إن استجابوا لربهم وتضرعوا إليه بالدعاء الخالص، ووعيد للمستكبرين عن الدعاء بدخولهم جهنم أذلة داخرين، وفيها أن الدعاء هو العبادة ونحن الفقراء إلى الله والله هو الغني الحميد، وهو السميع البصير، القريب المجيب.

﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ (61) ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ (62) كَذَلِكَ يُؤْفَكُ الَّذِينَ كَانُوا بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ (63) اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ (64) هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (65)﴾

يلفتنا الله تبارك وتعالى إلى آياته الباهرة المجلوة في هذه الأكوان وفي أنفسنا حتى نزداد له حبا ونفرده بالدعاء مخلصين له الدين، ويلفتنا إلفات تعجب إلى هؤلاء الذين يصرفون عن الله الذين يكذبون بالكتاب وبما أرسل الله به رسله فهم يجادلون في آيات الله بغير سلطان أتاهم، ويتوعدهم في هذه الآيات بأقسى أنواع الوعيد جزاء لهم على تكبرهم على رسل الله، وأخيرا يأمر الله نبيه بالصبر ويُطمئن قلبه بأن وعد الله له ولدعوته بالنصر لابد واقع، ومرجع الأمور كلها إلى الله فلا يأس ولا قنوط، يقول الله تبارك وتعالى:

﴿اللَّهُ الذي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فيه وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا انَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَشْكُرُونَ﴾.

الله ربكم هو الذي جعل الليل مظلما لتسكنوا فيه إلى نوم يريحكم من تعب النهار، ولابد للنوم من ظلام تستريح فيه أعصاب الإنسان، وجعل النهار مبصرا لتتحركوا فيه

وتعملوا لطلب الرزق وغيره، وأسند الإبصار إلى النهار بطريق المجاز الإسنادي؛ لأنه محل الإبصار، وهذا أبلغ في الوصف، ودل الإبصار في النهار على الظلام والستر في الليل، كما دل السكون في الليل على الحركة في النهار، وهذا من بديع البلاغة في كلام الله تعالى.

﴿إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَشْكُرُونَ﴾.

إن الله لذو أفضال وإحسان إلى الناس ولكن قليل من الناس من يشكر فضل الله وأكثرهم يجحدون إنعام الله ولا يشكرونه ويعبدون غيره، وهذا منهم ظلم عظيم.

﴿ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ لاَّ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ فَأَنَّىٰ تُوفَكُونَ كَذَٰلِكَ يُوفَكُ الَّذِينَ كَانُوا بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾.

ذلكم الله، مبتدأ وخبر، وخالق كل شيء، خبر ثانٍ، لا إله إلا هو لا معبود بحق سواه، فأنى تصرفون عن عبادته وأين تذهبون، أليس الخالق الرازق المنعم المتفضل أحق أن يعبد ويوحد بالعبادة! وكلّ عبادة لغيره إفك وزور.

﴿كَذَٰلِكَ يُوفَكُ الَّذِينَ كَانُوا بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾.

كذلك يصرف عن ربه وعبادته كل جاحد بآياته يجادل فيها بغير سلطان، وهذا من الله تسلية لنبيه ولكل داع إلى الله حتى لا يحزن على كفر قومه وإعراضهم عنه؛ لأن الناس منذ القدم فيهم من يجحد بآيات الله ويوفكون عنها، وسوف يعلمون حين يرون العذاب من أضل سبيلا.

﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾.

الله الذي خلق الأرض ومهدها لكم تمهيدا، وجعلها مستقرا لكم، وهذا من أعظم نعم الله علينا، ولو كانت تميد ما استطعنا أن نبني عليها، وما استقر لبشر فيها قرار،

هذه الأرض التي هي كتلة من نار، جعل الله عليها طبقة سميكة فيها البحار واليابسة، وأرساها بالأوتاد التي هي الجبال حتى لا تميد، وجعل عليها طبقة من الغلاف الجوي الأوزون، فيه نسبة مقدرة من "الأكسيجين" الهواء الصالح لتنفس الأحياء، وبهذا صلحت لنا مستقرا لمعيشتنا، فله الحمد وله الشكر، وجعل السماء بناء بناها بقوته وجعلها سقفا محفوظا، وزينها بزينة الكواكب، وأمسك السموات والأرض أن تزولا، وربطها برباط الجاذبية المتين.

﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ﴾.

وصوركم يا بني آدم فأحسن تصويركم، وقد قيل: لم يخلق الله صورة أحسن من صورة الإنسان، خلقهم في أحسن تقويم، ولم يجعلهم منكسي الرؤوس كالبهائم، وجعل صورهم حسنة جميلة لا أجمل منها في الحيوانات، وهذا من جملة تكريم الله للإنسان وتفضيله على كثير من مخلوقات الله، ثم إنه رزقنا من الطيبات أنواعا كثيرة من المأكولات والمشروبات نتمتع بها وننتفع بما أودع الله فيها من الطاقات والفيتامينات.

﴿ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾.

الإشارة بالبعيد لعلو مقام ربنا وعظم شأنه، ذلك الله المتفضل المنعم هو ربكم الذي خلقكم ورباكم وأحسن تربيتكم، فتبارك الله، أي تمجد وتقدس رب العالمين، ليس ربكم وحدكم بل هو رب العالمين من المخلوقات في السموات والأرض، ولا يعلم عدد العالمين إلا خالقها الذي أحاط بكل شيء علما وقدرة، وأحصى كل شيء عددا.

﴿هُوَ الْحَيُّ لَآ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

هو الحي الحياة الدائمة، وكل حي غيره فحياته محدودة نهايتها الفناء، وهي حادثة مستمدة منه، لا إله إلا هو، ولا معبود بحق إلا الله، فاعبدوه وأخلصوا له الدينونة، لا تلبسوا إيمانكم بشرك جلي ولا خفي، بل اعبدوه وحده، وادعوه وحده، واشكروا له،

وقولوا الحمد لله رب العالمين، احمدوه وصفوه بجميع المحامد التي تليق بجلاله، وأثنوا عليه بالذي أثنى هو به على نفسه، فالحمد كله والشكر كله لله رب العالمين لا لغيره ممن جعلهم السفهاء له أندادا واتخذوهم له شركاء، تعالى الله عما يشركون، روي عن ابن عباس أن من قال: لا إله إلا الله، فليقل بعدها: الحمد لله رب العالمين، وهذا القول منه اقتباسا من هذه الآية الكريمة وعملا بالأمر المفهوم من منطوق الأمر الأول.

۞ قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَمَّا جَاءَنِيَ الْبَيِّنَاتُ مِن رَّبِّي وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦٦﴾ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخًا وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ وَلِتَبْلُغُوا أَجَلًا مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ فَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٦٨﴾

﴿قُلِ إِنِّي نُهِيتُ أَنَ اَعْبُدَ الذينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَمَّا جَآءَنِي الْبَيِّنَاتُ مِن رَّبِّي وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

في هذه الآية الكريمة نهي وأمر هما أصل الاعتقاد الصحيح الذي فيه النجاة من عذاب الله إذا طبقه المؤمن المسلم بقلبه ولسانه وجوارحه، قل يا محمد لأمتك: من هو في زمانك ومن يأتي بعدهم، فقوله إعلان بعقيدته وتعليم لأمته، قل: إني نهيت، أي نهاني ربي أن أعبد الأصنام الذين تدعون من دون الله لما جاءني البينات من ربي، الآيات البينات في كتاب الله، والبينات من مخلوقات الله في هذا الكون تشهد بوجود الله وقدرته وعظمته وحكمته وعلمه ووحدانيته، أدرك العقل بالتأمل والنظر وجود الله، وجاء النهي عن عبادة غير الله فعلمنا وقلنا لا إله إلا الله.

﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

الله هـو الآمـر أن نسـلم وجوهنـا لله رب العـالمين، والإسـلام هـو الخضـوع الكامـل بالبـاطن والظـاهر، وتفسـيره في الآيـات الأواخـر مـن سـورة الأنعـام: ﴿قُلْ إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايْ وَمَمَاتِيَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ لاَ شَرِيكَ لَهُ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَاْ أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ (الأنعام: ١٦٢- ١٦٣)، حكم العقل بهذا من قبل أن يعلم كنه العبادة فجاء الأمر من الله الخالق فسمعا وطاعة لله رب العـالمين، ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلاَمِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ (آل عمران: ٨٥)، فأسلم نفسك أيها الإنسان لربك كما أسلمت كل المخلوقات في هذه العوالم لله رب العالمين.

﴿هُوَ الذي خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخًا وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ وَلِتَبْلُغُوا أَجَلاً مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ هُوَ الذي يُحْيِي وَيُمِيتُ فَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾.

يذكرنا ربنا تبارك ببعض آياته في أنفسنا وفي العـالمين لنتأمل فيها فنـدرك عظمـة الله وقدرته وإرادته النافذة في كل شيء، يقول تعالى: هو الذي خلقكم من تراب، أي خلق أصلكم الأول من تراب الأرض من سلالة مـن طين فقـال لـه: كـن فيكـون، ثـم جعـل نشأة كل واحد منكم من نطفة من ماء مهين فتأملوا في أصـل نشـأتكم، ثـم تطـور النطفـة إلى علقة وهي قطعة من دم خثر يعلق بالرحم، ثم بعد أطوار أخرى تعرفونهـا يخرجكـم طفلا، أي أطفالا صغارا لا تعلمون شيئا، ثـم ينمـو تكـونكم حتـى تبلغـوا أشـدكم، أي قوة البدن والعقل، وذلك في سن الأربعين، ثم بعد القوة تأتي أطوار الضـعف فتكونـون شيوخا، ومنكم من يتوفاه الله قبل هذا الطور أي يسقط جنينا قبـل تمـام التكـوين، كـل ذلك بإرادة الله تعالى، ولتبلغوا بعد اكتمال الأطـوار أجـل مسـمى عنـد ربكـم، ولعلكـم بعد التأمل في هذه الأطوار تعقلون عظمة ربكم فتوحدونه بالعبادة وتشـكرون لـه، ومـن

المواعظ التي وعظ بها نبي الله نوح قومه أن قال لهم: ﴿مَا لَكُمْ لاَ تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا وَقَدْ خَلَقَكُمْ، أَطْوَارًا﴾ (نوح: ١٣-١٤) ثم قال تعالى:

﴿هُوَ الذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾.

الله هو الذي يحي كل ذي حياة من الحيوان ثم يميته بعد ذلك في أجل يعلمه، ومن غيره يقدر على ذلك؟ فهو أحق أن يعبد ويخاف ويرجى، وفي هذا تعريف بأصنامهم التي لو اجتمعت وتعاونت لم تخلق ذبابا.

﴿فَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾.

فإذا أراد قضاء أمر من أمور الإحياء والإماتة وغيرها فما هو إلا يقول له كن فإذا هو كائن حسب إرادته ومشيئته، وليس ثمة قول ولا كاف ولا نون؛ لأن الشيء المراد كان معدوما، والكلام لا يوجه للمعدوم، والمعدوم لا يعي ولا يسمع وإنما القول عبارة عن تعلق إرادة الله بإيجاده فإذا أراده وتعلقت قدرته بكونه كان كما يريد في الوقت الذي يريد، فسبحان الحي القيوم الفعال لما يريد، وكل شيء عنده بقضاء وقدر، لا إله إلا هو المحي المميت الخلاق العليم.

أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ
يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ أَنَّىٰ يُصْرَفُونَ ﴿٦٩﴾ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟
بِٱلْكِتَٰبِ وَبِمَآ أَرْسَلْنَا بِهِۦ رُسُلَنَا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٧٠﴾
إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِيٓ أَعْنَٰقِهِمْ وَٱلسَّلَٰسِلُ يُسْحَبُونَ ﴿٧١﴾ فِي
ٱلْحَمِيمِ ثُمَّ فِي ٱلنَّارِ يُسْجَرُونَ ﴿٧٢﴾ ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا
كُنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٧٣﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ قَالُوا۟ ضَلُّوا۟ عَنَّا بَل لَّمْ
نَكُن نَّدْعُوا۟ مِن قَبْلُ شَيْـًٔا كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾
ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ
تَمْرَحُونَ ﴿٧٥﴾ ٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ
مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٦﴾ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ
بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٧٧﴾

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الذينَ يُجَادِلُونَ فِي ءَايَاتِ اللَّهِ أَنَّىٰ يُصْرَفُونَ﴾.

للمرة الرابعة يأتي ذكر الذين يجادلون في آيات الله بغير علم، ويأتي هذه المرة مقرونا بالتعجب ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ أي: ألا تتعجب من هؤلاء السفهاء الذين يجادلون بالباطل في آيات الله أنى يصرفون عن الهدى بعد إذ جاءهم! إنّ أمرهم لعجيب، وما ذاك إلا لتكذيبهم لرسل الله، فقد وصفهم الله تعالى بهذا الوصف الشنيع الذي يكشف عن حقيقتهم فقال:

﴿الذينَ كَذَّبُوا بِالْكِتَابِ وَبِمَآ أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا﴾.

هم الذين كذبوا بكتب الله كلها ليس القرآن فقط، لأن المراد بالكتاب جنس الكتاب النازل من السماء، وكذلك من كذب برسول واحد فقد كذب بجنس الرسالات كلها، وهذا المعنى وارد في كتاب الله، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ

الْمُرْسَلِينَ﴾ (الشعراء: ١٠٥)، في أمثالها من الآيات التي وصفت أقوام الأنبياء والرسل بتكذيب المرسلين مثل عاد وثمود وقوم لوط وأصحاب الأيكة، وفي هذا المعنى يقول الشيخ أبو نصر الملوشائي رحمه الله:

ومن رد حرفا أو رسولا فإنه   برد جميع المرسلين كفرعون

وقد أرسل الله رسله بالهدى ودين الحق وهو دين الإسلام، فالويل لمن كذب بما جاءت به رسل الله.

﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ إِذِ الأَغْلاَلُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلاَسِلُ يُسْحَبُونَ فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ﴾.

في الآية وعيد شديد وتهديد لهؤلاء المكذبين فسوف يعلمون حين يرون جزاءهم المحتوم ومصيرهم المشؤوم حين يذوقون العذاب يعلمون علم اليقين أن ما جاءت به رسل الله أحق وأنهم كانوا في ضلال حين كذبوا برسل الله، يعلمون يوم تكون الأغلال وقد غلت أيديهم إلى أعناقهم فهم مقمحون، وصفدت أرجلهم بالحديد، وسُلكوا في سلاسل يسحبون بها، تسحبهم زبانية النار، يسحبون أي يصلون في حميمها الآني، وفي النار يصلونها وتمتلئ بها أجوافهم، فهي تطلع على أفئدتهم، والسجر هو الاشتعال، وهو الامتلاء أيضا، حينئذ يعلمون بطلان ما كانوا عليه من الجدال والتكذيب، يوم لا ينفعهم هذا العلم، وهذا من الله موعظة بليغة لمن كان له لب فيرجع إلى الحق ما دام ينفع الرجوع والإيمان قبل فوات الأوان.

﴿ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ مِن دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُو مِن قَبْلُ شَيْئًا كَذَٰلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾.

﴿ثم قيل﴾، هكذا على البناء للمفعول، لأن الغرض يتعلق بالمقول والمقول له لا بالقائل من هو، قيل لهؤلاء المشركين بعد أن أحضروا في عذاب النار: أين شركاؤكم الذين كنتم تدعونهم من دون الله هلا نفعوكم اليوم؟ قالوا: ظلوا عنا، أي ما نراهم معنا وما نفعونا، وقد يكونون معهم في العذاب إلا أنهم لا يرون لهم وجودا لكونهم عميا أو يكونون بعيدين عنهم، أو المقصود لا يرون نفعهم فكأنهم لا يرونهم، قالوا:

﴿بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُو مِن قَبْلُ شَيْئًا﴾.

أنكروا ما كانوا عليه من دعائهم إياهم لذهولهم في العذاب، أو المقصود بنفي الشيئية نفي منفعتهم حين خذلوهم فلم ينصروهم، وهذا على غرار قولك: كنت أرجى فلانا فإذا هو ليس بشيء، أي حين كنا ندعوهم لم نكن ندعو شيئا، وبعد اعترافهم هذا يقول الله تعالى:

﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ﴾.

أي كذلك الضلال الذي كانوا فيه والذي آلوا إليه يضل الله الكافرين بسبب كفرهم ومعاصيهم، ثم قيل لهم:

﴿ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ﴾.

ذلكم العذاب والخزي الذي وقعتهم فيه اليوم بما كنتم تفرحون في الدنيا بغير الحق، كنتم تفرحون بالعلم الذي أضلكم عن سبيل الله، وبالمال الذي سخرتموه في الشهوات والظلم، وبالسلطان الذي تطاولتم به على الضعفاء، وبما كنتم تمرحون، والمرح هو الأشر والبطر والطغيان، فكان جزاءهم على ذلك أن قيل لهم:

﴿ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾.

فادخلوا أبواب جهنم، أي بسبب فرحكم بغير الحق ومرحكم، ادخلوا أبواب جهنم المفتحة لكم، لكل باب منكم جزء مقسوم، لا مفر له منه فبئس المدخل وبئس مثوى أهل الكبر والطغيان الذين كانوا يجادلون في آيات الله بغير سلطان، والذين كانوا

يكذبون بالكتاب وبما أرسل الله به رسله، جاء التعبير بذم المثوى عدولا عن المدخل؛ لأن الدوام والخلود أبلغ في الذم والتقريع من الدخول، وياما أبلغها من موعظة وتخويف لمن فيه بقية عقل يعي به الكلام، ومن أراد الله به خيرا فإنه ينتفع بالذكرى.

﴿فَاصْبِرِ انَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾.

﴿فَاصْبِر﴾، الفاء تفريعية، أي فإذا علمت مصير هؤلاء المكذبين الجاحدين، فاصبر على تكذيبهم ومكرهم إن وعد الله بأخذهم وتعذيبهم في جهنم حق، ووعد الله بنصرك ونصر دينك وتعزيز المؤمنين حق لا ريب فيه، فلا تشك في وعد الله، ولا تستبطئ النصر، فللنصر أوانه وله أجل مسمى عند الله، هو لابد آت في وقته المؤقت، يقول الله ذلك لأن رسول الله والمؤمنون يصلون في بعض الأحوال إلى أزمات يضيقون ذرعا وربما يستبطئون النصر ويتعجبون من تأخره كما أخبر الله تعالى عنهم: ﴿وَزُلْزِلُواْ حَتَّىٰ يَقُولُ الرَّسُولُ وَالذِينَ ءَامَنُواْ معَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ اللهِ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ اللهِ قَرِيبٌ﴾ (البقرة: ٢١٤)، فأمر الله نبيه والمؤمنين معه بالصبر وأكد لهم أن وعد الله حق حتى تهدأ خواطرهم ويطمئنوا إلى وعد الله، ثم قال تعالى:

﴿فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾.

إن مرجعهم لا محالة إلينا فلا يفلتون من قبضتنا، فإما نرينك في حياتك بعض تحقق وعدنا فيهم أو نتوفينك إلينا قبل أن تشهد ذلك فالأمر إلينا لا إليك، فإلينا مصيرهم آخر الأمر فما عليك إلا أن تصبر وتسلم الأمر إلينا، وهنا تتجلى عظمة كلام الله وعلوه على سائر الكلام، ولو كان من عند غير الله كما يقول الأفاكون ما كان بهذه الصيغة، ولخلا من هذه الروح التي تنطق بسلطان عظيم، وقد تم نصر الله والفتح في حياة النبي ﷺ وازداد الإسلام انتشارا بعد مماته، ولا يزال والحمد لله في انتشار وتحقق وعد الله في أخذ أعدائه الكفار، وقد رجعوا إلى ربهم ووجدوا ما وعدهم ربهم حقا، فليتعظ أولوا

الألباب، وليحذر المتكبرون سوء المآب، وليطمئن أهل الحق بوعد الله، وليصبروا والله مع الصابرين.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ فَإِذَا جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ قُضِيَ بِٱلْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٧٨﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمَ لِتَرْكَبُوا۟ مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَلِتَبْلُغُوا۟ عَلَيْهَا حَاجَةً فِى صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٨٠﴾ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَأَىَّ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُنكِرُونَ ﴿٨١﴾﴾

يذكر الله نبيه بإرسال الرسل من قبله فما هو بدعا من الرسل بل ما هو إلا أحد منهم، ويؤكد الله الخبر حتى يطمئن إلى صدق رسالته وليؤمن به من كان في قلبه ريب، وليتأس رسول الله ﷺ بهم، أي بالرسل ويصبر كما صبروا، وليطمئن إلى مجيء وعد الله بالحق.

﴿وَلَقَدَ ارْسَلْنَا رُسُلاً مِّن قَبْلكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ انْ يَّاتِيَ بِئَايَةٍ الاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ فَإِذَا جَآءَ امْرُ اللَّهِ قُضِيَ بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ﴾.

يقول الله تبارك وتعالى مخاطبا نبيه: ولقد أرسلنا رسلا من قبلك أوحينا إليهم كما أوحينا إليك وكذبهم أقوامهم كما كذبك قومك، وصبروا فكانت العاقبة للمتقين، فتأس بهم واصبر كما صبروا، منهم من قصصنا عليك أخبارهم ومنهم من لم نقصص عليك، وفيمن قص الله خبرهم كفاية للاعتبار وللاقتداء بهم في التأسي والاصطبار، ولا نعلم مقدار عددهم على التحقيق إلا ما ورد في مسند أحمد بن حنبل عن أبي ذر

ﷺ في الحديث الطويل الذي رواه عن النبي ﷺ أنه أخبره فيه أن عدد الأنبياء مائة وأربعة وعشرون ألفا، وعدد الرسل منهم ثلاثمائة وخمسة عشر رسولا، وهو حديث آحادي لا معول عليه في القطعيات، إذ ربما تكون الحقيقة أكثر من ذلك فنكون نقصنا منهم أو أقل من ذلك فنكون أضفنا إليهم من ليس منهم، لذا فلا نقطع بهذا العدد ما دام الخبر آحاديا لا ندري مبلغ صحته على التحقيق ونؤمن بجملتهم من قص الله منهم ومن لم يقصص، أما قوله تبارك وتعالى:

﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ اَنْ يَّاتِيَ بِئَايَةٍ اِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾.

فمعناه أنهم كانوا يطالبون بالآيات، أي المعجزات ولكن أمر الآيات ليس إليهم بل الله يؤيدهم بها متى شاء لا متى شاءوا إلا أن يدعو أحدهم فيستجاب له، ولقد كان نبينا ﷺ يؤيَّد بالآيات وكانت معجزته القرآن، تلك المعجزة التي تحداهم بها إنسهم وجنّهم، جماعات ووحدانا، فعجزوا ولم يستطيعوا ولن يستطيعوا أن يأتوا بسورة من مثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا، يقول الله للنبي ذلك لأن قومه يضايقونه بطلب الإتيان بما يقترحون عليه من الأمور الخارقة فأخبره الله في القرآن أن ذلك ليس إليه بل هو شأن من شؤون الله تعالى، فما عليه إلا البلاغ، ولا تزال عظمة كلام الله تظهر في آياته المنزلة مما يدل دلالة قطعية أنه من عند الله العزيز الحكيم، ثم قال تعالى:

﴿فَإِذَا جَآءَ اَمْرُ اللَّهِ قُضِيَ بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ﴾.

فإذا جاء أمر الله، أي حين يأتي أمر الله بإهلاك المكذبين ونصر رسله والمؤمنين، والموعد محدد عند الله، له أجل لا يؤخر ولا يقدم، فإذا حان الموعد قضى بالحق وقضاء الله لا محالة حق ولو كره المشركون، وهو لابد واقع، فإذا وقع تحقق عند وقوعه خسار أهل الباطل ولم ينفعهم سلطانهم ولا عزهم ولا غناهم ولا علومهم، ولم تغن عنهم آلهتهم التي يعبدونها من دون الله، وجاء التعبير بصيغة الماضي لأن الأمر مقضي ولا راد

لقضاء الله، فليعتبر المعتبرون وليحذر المكذبون، فإن للذين ظلموا ذنوبا مثل ذنوب أصحابهم الأولين.

﴿اللَّهُ الذي جَعَلَ لَكُمُ الأَنْعَامَ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ وَيُرِيكُمْ ءَايَاتِهِ فَأَيَّ ءَايَاتِ اللَّهِ تُنكِرُونَ﴾.

ويريكم الله آياته، وهي النعم التي تقدم ذكر بعضها من جعل الليل سكنا والنهار للانتشار والحركة، والأرض قرارا والسماء بناء وزينها بالنجوم للهدى والمنافع العديدة العظيمة، تلك آلاء الله وآياته الدالة على وجوده وقدرته ورحمته بخلقه وحكمته، ومن تلك الآيات ما ذكر هنا، وهي جعله الأنعام للركوب والأكل والمنافع الكثيرة، والأنعام هي الأنواع الثمانية المذكورة في سورة الأنعام، وهي الإبل والبقر والضأن والمعز، وليس الإبل وحدها كما يزعم البعض ولا ينبغي أن تقصر الإبل وحدها لذكر الركوب هنا بل المراد العموم، وخص الإبل منها بالركوب فقال: لتركبوا منها، ومن للتبعيض، ثم قال: ومنها تأكلون، أي من لحمها وشحمها وزبدها وجبنها وإقطها وشرب ألبانها، ولكم فيها منافع من حمل الأثقال وجر المحاريث والزجر ودرس الحس، وإدارة الطواحين والمعاصر، والانتفاع بأصوافها وأوبارها وأشعارها وجلودها، وتلك لعمري منافع كثيرة الله وحده خلقها وسخرها لنا، فويل لمن لا يشكر آلاء الله.

﴿وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ﴾.

الله سخر لكم من هذه الأنعام ما يحملكم ويحمل أثقالكم ثم يتجه بكم الوجهة التي تريدون، وعليها في البر وعلى الفلك في البحر تحملون، ألا تشكرون الله الذي حملكم في البر والبحر، وسخر لكم الأنعام لتبلغوا عليها حاجة في صدوركم من طلب غزو أو علم أو رزق أو غير ذلك من الأغراض التي تقصدونها، فتتجه بكم شطره وهي عجماوات لا تعلم قصدكم، وفي هذا لو تأملتم آية من آيات الله ونعمة من نعمه.

﴿وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَأَيَّ آيَاتِ اللَّهِ تُنكِرُونَ﴾.

يريكم الله آياته في هذه الأنعام وغيرها، فأي آيات الله تجحدون! وفي هذا إشارة إلى إنكارهم لآيات الله وعدم شكرهم لهذه النعم، ولو عقلوا وتأملوا آيات الله لأدركوا وجود الله ووحدانيته وقدرته ورحمته في هذه الآيات الظاهرة الناطقة بوجود الخالق الواحد. وفي كل شيء له آية تدل على أنه الواحد

وإذا تأملنا في تسخير الله لنا هذه السفن التي تمخر بنا عباب البحر وهي من أعظم نعم الله علينا وجدنا مراكب الفضاء التي تشق بنا الفضاء بسرعة عجيبة من أعظم آية الله، وقد سخرها لنا في هذا العصر وهي من جنس السفن إلا أن السفن تمخر عباب المياه وهذه تمخر عباب بحر الفضاء، وما يمسكهن إلا الرحمن، فسبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين وإنا إلى ربنا لمنقلبون، فينبغي ألا نغفل النظر في آيات الله ونشكره على آلائه، ولا نكون كالذين يجادلون في آيات الله بغير سلطان.

أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ
مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَآثَارًا فِي
الْأَرْضِ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾
فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِندَهُم مِّنَ
الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٨٣﴾ فَلَمَّا رَأَوْا
بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾
فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهِ
الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ ﴿٨٥﴾

أعمي هؤلاء الذين يجادلون في آيات الله بغير سلطان أتاهم! أعموا وصموا فلم يسيروا في الأرض فيعتبروا بما ترك فيها الأوائل من الآثار وبما تتناقل بعدهم من

الأخبار، هلا ساروا في الأرض فنظروا نظر اعتبار كيف كان عاقبة الذين من قبلهم! هؤلاء الذين تركوا ما لا يحصى من الآثار الدالة على شدة أبدانهم، وقوة سلطانهم، كانوا أكثر منهم عددا وأموالا، وأشد منهم قوة وسلطانا وتمكنا في الأرض، بنوا فيها القصور والقلاع والمصانع والأهرام، قطعوا الصخور العظام ورفعوها عشرات الأمتار فهي تغالب أحداث القرون وتطاول الدهور، فما أغنت عن أصحابها وما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون، وما رد عنهم قدر الله لما نزل، هلكوا وهلك سلطانهم وذهبت أموالهم، وتفرقت جموعهم، وتلاشى عزهم فآل أمرهم إلى خراب ودمار، كل ذلك جزاء بغيهم على رسل الله وكفرهم وجحودهم.

﴿فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَـيِّـنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِندَهُم مِّنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُون﴾.

فلما جاءتهم رسل الله إليهم بالآيات البينات والمعجزات الباهرات أنكروا كل ذلك وفرحوا بما عندهم من العلم، وما كان ذلك علما حقيقيا لأن العلم هو الذي يهديك بعد الضلال، ويقربك إلى ربك ذي الجلال، بل ما هو إلا علم بظاهر الحياة الدنيا فظنوا أنهم قادرون عليها، وطغوا وتجبروا وحاق بهم ما كانوا به يستهزؤون من الوعد والوعيد، ويكذبون به ويكيدون ويمكرون فحاق بهم كيدهم ومكرهم بأنبيائهم وبالمؤمنين، ولا يحيق المكر السيئ إلا بأهله.

﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ﴾.

فلما أتاهم أمر الله ورأوا آيات البأس والعذاب الآتي من ربهم الذي كانوا به يكفرون وصدق الوعد الذي كانوا به يستهزؤون وفيه يجادلون، قالوا آمنا بالله وحده وكفرنا بما كنا به مشركين من الأصنام والطواغيت، آمنوا بالله حين لا ينفعهم الإيمان.

﴿فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا﴾.

قال الله تعالى: فلم يك ينفع هؤلاء المكذبين إيمانهم حين رأوا بأسنا ورأوا آيات العذاب، وقد قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لاَ يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا﴾ (الأنعام: ١٥٨)، قضاء قضاه الله جل جلاله أن إيمان الناس يوم يرون آيات العذاب والهلاك لا ينفعهم وكذلك التوبة من أهل الكبائر لا تنفع يومئذ، ولا راد لقضاء الله ولا دافع لأمر الله.

﴿سُنَّةَ اللَّهِ التِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ﴾.

أجرى الله عليهم حكمه العادل وسن بهم سنته التي لن تجد لها تبديلا أن أجل الله إذا جاء لا يؤخر، وأن الإيمان عند حضور بأس الله لا ينفع، فليتعظ أولوا الألباب، وليتذكر بالقرآن من يخاف وعيد الله، وويل للكافرين من عذاب الله.

﴿وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ﴾.

خسر الكافرون هنالك في ذلك اليوم الرهيب خسروا كل شيء، خسروا أنفسهم وأهليهم خسارة لا تعوض؛ لأنها خسارة الأبد، ونعوذ بالله من مصير أهل الكفر والضلال، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

وفي نهاية السورة عود على بدئها ففي بدايتها كلام على الذين كفروا، الذين يجادلون في آيات الله المغترين بما عندهم من أسباب العلو والتمكن في الأرض، قال الله تعالى: ﴿فَلاَ يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلاَدِ﴾، وهنا في آخر السورة يبينّ عاقبتهم ثم يقول: ﴿وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ﴾، والمعنى الذي نحصله من الآيتين أن لا نغتر بتقلب الذين كفروا في البلاد، فإن مصيرهم إلى دمار وخسار، فالأمر لله من قبل ومن بعد، والعاقبة للمتقين ولا عدوان إلا على الظالمين، والحمد لله رب العالمين.

تفسير سورة فصلت

سورة فصلت مكية وآياتها ٥٤

بسم الله الرحمن الرحيم

حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢﴾ كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ
ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ
أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٤﴾ وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا
تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ
فَٱعْمَلْ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ ﴿٥﴾ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ
أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَٱسْتَقِيمُوٓا إِلَيْهِ وَٱسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ
لِّلْمُشْرِكِينَ ﴿٦﴾ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ
هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٧﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ
أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٨﴾

سميت هذه السورة بهذا الاسم ﴿فصلت﴾ لورود هذا الوصف في أولها، والتفصيل هو البيان والتقسيم والإيضاح، وكذلك فصل الله آيات كتابه تفصيلا ليقيم به الحجة على عباده فلا يعرض عنه إلا شقي مستكبر فاسد الطبع يكره الحق ويأباه.

﴿حَم تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ كِتَابٌ فُصِّلَتَ ـ ايَاتُهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾.

هذه هي السورة الثانية من الحواميم، وآياتها ثلاثة أو أربعة وخمسون آية، والذي نقوله في الحرفين الذي بدئت بها هو الذي قلناه في سورة غافر وفي جميع السور المبدوءة بحروف الهجاء المقطعة، وقد قيل: حم اسم للسورة، وقيل اسم للقرآن، وإن كان كذلك فيكون مبتدأ خبره ما بعده، والله أعلم بحقيقة مراده من هذه الحروف.

﴿تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾.

أي هذا الذي يوحى إليك هو تنزيل من ربك الرحمن الرحيم الذي وسعت رحمته جميع خلقه، وهي تشملهم في الدنيا وتكتب للمتقين وتدوم لهم في الآخرة، فالرحمن قيل فيه معنى الشمول والعموم، والرحيم قيل فيه معنى البقاء والدوام، وقد اختار هذين الوصفين ليكونا في صدر كل قراءة لكتاب الله، فقد قرنا في البسملة التي تقرأ قبل الفاتحة وهي منها، وفي بداية كل سورة إلا سورة التوبة، وتقرأ قبل افتتاح الخطب والكلام، وقد جاء في الحديث : {كل أمر ذي بال لم يبدأ ببسم الله الرحمن الرحيم فهو أبتر}، ثم جاء هذان الوصفان في الآية الثالثة من سورة الفاتحة التي هي أم القرآن، ولا تصح صلاة فرض أو نفل إلا بها، كتب ربنا على نفسه الرحمة، ووصف نفسه بها مرتين إيناسا لعباده وتلطفا بهم، وإرشادا لهم أن يتخلقوا بخلق الرحمة ليرحمهم الرحمن، وما أحوجنا إلى رحمته فهو القوي ونحن الضعفاء، ولا ملجأ من الله إلا إليه.

ومن رحمة الله بعباده تنزيل هذا الكتاب عليهم، وكذلك تنزيل الكتب والصحف المطهرة التي نزلت من الله العلي الحكيم، كان نزولها على العباد رحمة من رب العباد، ففيها الهدى والرشاد، وفيها صلاح المعاش والمعاد، ولو لم تنزل هذه الكتب لكان الناس في حيرة عظيمة لا يهتدون إلى ما يصلحهم ويوصلهم إلى حسن العواقب.

﴿كِتَابٌ فُصِّلَتْ ءَايَاتُهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾.

هذا الذي يوحى إليك كتاب من عند الله فصلت آياته فهي بينة واضحة الدلالة على أنها من عند الله قرآنا عربيا لقوم يعلمون أسرار البلاغة العربية، فهم عرب أقحاح، بشيء من التأمل يدركون أن القرآن في الذروة من البلاغة والإعجاز وأن أحدا لن يقدر أن يأتي بمثله، كلا ولا بسورة من مثله ولا الإنس والجن مجتمعين متظاهرين لا يستطيعون ذلك، وبتأمل أحكامه يعلمون أن أحدا لن يستطيع أن يأتي بمثلها، فهي حقا من عند العليم الحكيم.

﴿بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لاَ يَسْمَعُونَ وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِي ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ﴾.

نعتان للقرآن يدلان دلالة واضحة أن هذا الكتاب يحمل البشارة لمن قراه وتأمله وعمل بما فيه، ويحمل النذارة لمن أعرض عنه وتصامم عن سماع آياته، والبشارة هي الإخبار بخير مقبل للمبشَّر كما أن النذارة هي الإخبار بشر مقبل للمنذَر؛ إن هذا الكتاب المنزل من عند الله يبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات بحسن العواقب، وينذر الكافرين المكذبين المعرضين بسوء العواقب، وكذلك ينذر العصاة الموحدين بالخلود في النار إن ماتوا على الإصرار على الحِنث العظيم.

﴿فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لاَ يَسْمَعُونَ﴾.

فأعرض أكثر الناس عن هذا الحديث الذي فيه هدايتهم ورشادهم عتوا ونفورا فهم لا يلقون السمع لما فيه من الدعوة إلى النجاة من النار والفوز بالجنة في دار القرار، وقالوا قلوبنا في أكنة، أي مغلفة في غلاف سميك لا يصل إليها الكلام الذي تدعونا إليه، وهذا من أعتى أنواع الكفر أن يرفض أحدهم حتى الاستماع ﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا وَهُم مُّعْرِضُونَ﴾ (الأنفال: ٢٣)، ثم إن هؤلاء أوغلوا في العتو والنفور فقالوا:

﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِي ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ﴾.

الوقر هو الصمم وثقل السمع، كأنهم قالوا للنبي ﴿سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ الْوَاعِظِينَ﴾ (الشعراء: ١٣٦)، فإن وعظك لن يصل قلوبنا، لأن آذاننا صماء، وقلوبنا في أكنة، فكلامك لا يصل إليها، ومن بيننا وبينك حجاب، كأن هناك حجابين

حجابا دوننا وحجابا دونك، فأنى يصل إلينا دعاؤك، وهذه العبارات تبين لنا مقدار عتوهم وإعراضهم وبعدهم عن الهدى وفرحهم بباطلهم وكفرهم، ثم قالوا:

﴿فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ﴾.

قالوا هذه الكلمة أولا متاركة بينهم وبين النبي، أي فاعمل على شاكلتك ونحن نعمل على شاكلتنا، وليس بيننا تقارب ولا تفاهم، ثم لما جدّ الأمر قالوها مكايدة، أي فاعمل في دعوتك هذه، ونحن نعمل في كيدنا لك، وحربنا إياك، وإيذائنا لك ولأصحابك، ولن ننفك عن هذه الخطة، ولن نتخلى عن آلهتنا.

﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ﴾.

أمر الله تعالى نبيه أن يقول لقومه المكذبين وهو موجه لجميع المكذبين في كل عصر ومصر، قل لهم يا محمد: إنما أنا بشر مثلكم فلست إلها ولا ملكا، بل أنا بشر أتلقى الوحي من الله بواسطة الملك أو بدون واسطة، وليس بعجيب أن يكون بشرا يوحى إليه كما أوحي إلى النبيين من قبله، فماذا تنكرون من هذا الأمر؟ يوحى إليّ إنما إلهكم إله واحد، وهو الرب الخالق الرازق المالك، فهو المعبود وحده لا شريك له، فلا إله غيره ولا رب سواه، فاستقيموا إليه، أي استقيموا في سيركم وإنابتكم إليه فيما يستقبل من أمركم واستغفروه لما مضى من شرككم وعصيانكم.

ففي هذا دعوة للمشركين أن ينبذوا الشرك ويقبلوا إلى الإسلام منيبين إلى الله، فإن فعلوا هذا يغفر الله لهم ما سلف، فما هو إلا أن يقولوا لا إله إلا الله مقبلين إلى الله بقلوب مخلصة، فيغفر الله لهم كل ما ارتكبوه في الشرك من قتل ونهب وسائر أنواع الفواحش، ولا يؤاخذهم بأي ذنب عملوه قبل الإسلام، فالإسلام جب لما قبله، وهذا من الله فضل عظيم وترغيب لهم على الإقبال إلى الإسلام الذي فيه نجاتهم، ومن أراد الله به خيرا فإنه يمتثل فيفوز بالنعيم المقيم وينجو من العذاب المقيم.

﴿وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ الذينَ لاَ يُوتُونَ الزَّكَاةَ وَهُم بِالاَخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ﴾.

بعد الترغيب في الاستقامة والإنابة إلى الله والوعد بالمغفرة يأتي الوعيد على الاستمرار في الشرك بالويل وهو العذاب الشديد الذي لا يطاق، وهو أيضا علَم على واد من أودية جهنم فيه أنواع من العذاب، ويل للمشركين الذين لا يؤتون الزكاة وهم بالآخرة هم كافرون، توعدهم على الشرك وعلى البخل واللؤم والقسوة وعلى الكفر بالله واليوم الآخرة بما فيه من بعث وجزاء، تلك هي الأشياء التي استحقوا بها الويل، لأن تعليق الحكم بالمشتق يؤذن بعليّة ما منه الاشتقاق، وفي الجملة بيان كون المشركين مخاطبين بفروع الشريعة، وأنهم سيعذبون على الشرك وعلى المعاصي، وعلى الإخلال بالواجبات، وإن كان لا يقبل منهم ذلك لشركهم لأنه لا ينفع مع الشرك عمل، وما أعمال المشركين إلا في ضلال.

وإتيان الزكاة المقصود به هنا إعطاء الصدقات للفقراء والمساكين لأن السورة مكية ولم تكن بعد شرعت الزكاة بنُصبها ومواقيتها ومقاديرها، ومن المفسرين من يقول: المقصود من قوله: يؤتون الزكاة، فعل الأفعال المحمودة التي تزكو بها النفس وتطهر، ويأبى عليه أن الزكاة هنا معمول ﴿يُوتُونَ﴾ وإيتاء الزكاة أيضا فيه تزكية للنفس من الشح وتطهير للمال، وتطهير لقلوب الفقراء الآخذين لها من الغلّ والحسد.

﴿وَهُم بِالاَخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ﴾.

كانت قساوة قلوبهم وشحهم بإنفاق المال في سبيله بسبب كفرهم بالآخرة، إنهم ينفقون بسخاء في المعاصي والفجور والظلم ويفتخرون بذلك ولكنهم لا يؤتون الزكاة التي أمر الله للفقراء والمساكين ولا يبتغون وجه الله والدار الآخرة لأنهم يكفرون بالآخرة، وفي هذا وعيد للموحدين الذين يضعف إيمانهم بالآخرة فلا يؤتون الزكاة، وقد حارب أبو بكر مانعي الزكاة مع المرتدين، ووافقه على ذلك عمر بن الخطاب وسائر الصحابة رضوان الله عليهم، ومانع الزكاة كافر كتارك الصلاة كفر شرك إن أنكر

وجوبها، وكفر نفاق إن منعها شحا وتركها انتهاكا، فليحذر المانعون والتاركون لفروض الدين، ﴿إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا﴾ (النساء: ١٤٠) وكفى بالآية الكريمة موعظة لعصاة الموحدين.

﴿إِنَّ الذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾.

بعد الوعيد يأتي وعد الله بالحسنى للذين آمنوا بالله ورسله وكتبه واليوم الآخر، وعملوا الصالحات من الإتيان بالفرائض والقربات، وفعل الخير والابتعاد عن الظلم والموبقات، والتورع عن المحرمات، والصبر على ذلك إلى الممات، أولئك لهم من الله أجر غير مقطوع، بل هو ثواب موفور متصل مستمر، وذلك جزاء المحسنين، وفي هذا ترغيب لذوي العقول من الناس في الإيمان وترغيب للمؤمنين في الإكثار من العمل الصالح، وقلما ذكر الإيمان في القرآن إلا مقرونا بالعمل الصالح، وفي ذلك دلالة على أن النطق بكلمة الشهادتين وحده مع تضييع العمل لا ينفع، وأن الإيمان الحق لا يتم إلا بالاستقامة والإتيان بالصالحات من الأعمال، واجتناب الإجرام والموبقات من الأفعال.

* قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿١٢﴾

يوجه الله تبارك وتعالى الخطاب مرة ثانية إلى هؤلاء الكفار المستكبرين في الأرض بغير الحق، المعرضين عن رسول الله بما يقرعهم ويعرفهم بحقارتهم وهوانهم على الله حين كفروا به وجحدوا بآياته ولم يريدوا لها سماعا ظلما وعلوا.

﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾.

قل يا محمد لهؤلاء المتمردين المجادلين بالباطل: أإنكم لتكفرون بالذي خلق الأرض في يومين وتجعلون له أندادا ذلك رب العالمين، والخطاب خطاب تبكيت وتوبيخ، والاستفهام للتعجب الإنكاري، أي ما قيمتكم أيها المتكبرون على رسول الله المعجبون بقوتهم وأموالهم ونفوذهم، ألا تعلمون أنكم حين تطاولتم على رسول الله إليكم قد تطاولتم على الله ربكم ورب العالمين، أتكفرون بالله الذي خلق هذه الأرض الأريضة في يومين وتجعلون له أندادا شركاء تعبدونهم من دون الله وما أنتم في هذه الأرض الواسعة، ذات الجبال الراسيات، والبحار الزاخرات، وما هذه الأرض في السموات السبع إلا ذرة في فضاء الله، ألا تتفكرون في خلق الأرض والسموات، أإنكم لتكفرون بالذي خلق الأرض في يومين؟.

وفي هذا الاستفهام التوبيخي توكيد أن زيادة توقيع الإنكار عليهم لأنهم أنكروا توحيد الخالق وحده بالعبادات وخرقوا له شركاء، فاستدعى المقام هذا التوكيد لأنهم حين أشركوا غيره معه بالعبادة كأنهم أنكروا وجوده وعظمته وقدرته لا سيما وقد أعرضوا عن رسله وتماروا بالنذر فعرفهم الله وإيانا بابتداء خلق هذا الكون العظيم، وأنه ما كان إلا في أيام معدودات اقتضتها حكمته، ولو شاء لخلقها في ساعة واحدة، وهو على كل شيء قدير.

بدأ الله بذكر خلقه لهذه الأرض في يومين لأنها أدنى المخلوقات الكونية إلينا، وقد خلقنا منها ونعيش عليها وفي بطنها نعود ومنها نبعث مرة أخرى، فأحرى أن نتفكر فيها

أولا ، يخبرنا ربما تبارك وتعالى أنه خلقها في يومين لا أكثر ، ولا ندري مقدار هذين اليومين لأن أيامنا تحددت بدورة هذه الكرة الأرضية حول نفسها في أربع وعشرين ساعة ولم تكن يومئذ موجودة فلا قياس عليها ، فالله أعلم بمقدار هذين اليومين ، وقد يكون اليوم من أيام الله التي جاء ذكرها في القرآن : ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ (الحج : ٤٧)، أو كاليوم الذي وصفه الله في قوله : ﴿تَعْرُجُ الْمَلَآئِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ (المعارج : ٤)، وقد يكون أكثر أو أقل في علم الله.

﴿ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾.

الإشارة بالبعيد لعلو شأن المشار إليه وهو ربنا ورب جميع العالمين في هذا الكون الواسع العريض علويّه وسفليّه ، فكيف تكفرون به وتعرضون عن رسله.

﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ﴾.

وجعل الله في الأرض الجبال الرواسي من فوقها ، أرسى بها الأرض ، وبارك في هذه الجبال فجعلها خزانات للمياه ، فمنها تنبع العيون الجارية ، وجعلها مراعي للبهائم والأنعام والوحوش ، وخلق فيها معادن وأسرارا ، وجعلها علامات يهتدي بها السائرون ، وجعلها قلاعا وحصونا للمجاهدين ، وتلك بركات ، وبارك أيضا في الأرض بما قدر فيها من أقوات في برها وبحرها وأودع فيها الكنوز والمعادن الجامدة والسائلة والغازية ، كما جعل في بحرها اللآلئ والجواهر واليواقيت ، كل ذلك تكوّن بقدرة الله في يومين فتم بها عدد أربعة أيام ، وقال :

﴿سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ﴾.

أي مضبوطة لا أقل ولا أكثر ، وجعل هذه الأقوات والبركات للسائلين ، أي للمحتاجين ، أعطاهم إياها قبل أن يسألوها كما قال تعالى : ﴿وَءَاتَاكُم مِّن كُلِّ مَا

سَأَلْتُمُوهُ﴾ (إبراهيم: ٣٤)، ومن المفسرين من قال: ﴿لِلسَّآئِلِينَ﴾ أي للذين يسألون يطلبون المعرفة، والوجوه لا تتزاحم، فقد يراد المعنيان جميعا، وفي تأمل هذه الكنوز والمعادن والأقوات في الأرض آيات للسائلين تدلهم على عظمة الخالق وقدرته وأفضاله وإنعامه، فله الحمد وحده، وله الشكر وحده على نعمه الكثيرة التي لا تحصى، ولا يزال الناس يفلحونها، ويحفرون فيها، ويغوصون في بحارها، ويأخذون من بركاتها وأقواتها متاعا لهم ولأنعامهم، ولله خزائن السموات والأرض.

﴿ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَآءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَآءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾.

يتحول الأسلوب إلى صيغة المتكلم في هذه الآيات وبنون العظمة بعد أن كان أسلوب الغائب والفاعل دائما واحد وهو الله، وهذا هو الالتفات، وذلك من بديع نسج القرآن، يصرّف القول حتى يضمن انتباه المستمع فلا يمل ولا يسأم، يقول الله تبارك وتعالى:

﴿ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَآءِ وَهِيَ دُخَانٌ﴾.

أي ثم عمد إلى السماء لا يشغله شاغل، وهي دخان، أي أثيرٌ فيه ذرات فهو كالدخان وهو ما عبر عنه علماء الطبيعة بالسديم خلقه الله بعد العدم، ثم خلق السموات، قال للسماء وللأرض إيتيا طوعا أوكرها، وليس ثمة خطاب وإنما هو تمثيل لقدرته وأمره، أي فكانتا طوع أمره ووُجدتا بقدرته الصالحة لكل شيء ولا يعجزه شيء من أمر الخلق دقيق أو جليل وهو الخلاق العليم الذي إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون.

﴿فَقَضَاهُنَّ﴾ ، أي خلقهن كما أراد ومن غير مثال سابق ، وأوجدهن بقضائه وقدره ﴿بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ قضاهن سبع سماوات طباقا في يومين ، فتم العدد ستة أيام ، وأوحى في كل سماء أمرها ؛ لأن السموات السبع عامرات بالملائكة يعبدون الله ويسبحونه الليل والنهار لا يفترون ، فأوحى الله في كل سماء ما أوحى إليهم من الأمور التي كلفهم بها ، وهم بأمره يعملون ، لا يعصون الله ما أمرهم ، بل الإنسان الشقي هو الذي يعصي ربه ، ﴿قُتِلَ الإنسَانُ مَآ أَكْفَرَهُ﴾ (عبس: ١٧)، ثم قال تعالى:

﴿وَزَيَّنَّا السَّمَآءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا﴾.

جاءت هذه العبارة بنون العظمة إلفاتا لنا إلى عظمة النجوم والكواكب وخلقها وتسييرها في الفلك ، تسبح بنظام دقيق بديع ، وأمسكها بقدرته ، ولولا ذلك لتناثرت واصطدم بعضها ببعض ، وسيأتي اليوم المقدر الذي تنتشر فيه ويفنى كل شيء ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام ، فاعبدوا الله ووحدوه أيها الضعفاء اللاهون ، وانظروا في أرضه وسمائه نظر اعتبار لعلكم ترشدون.

أما قوله : ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَآءِ﴾ فليس معناها الفترة الزمنية بل هو الفرق الرُّتبي بين السموات والأرض ، وفيه الدلالة بأن ما بعدها أهم وأعظم فليُتأمل ، ولعل خلق السموات كان قبل خلق الأرض كما يُفهم ذلك من قوله تعالى في سورة النازعات بعد ذكر بنيان السماء ورفع سمكها قال : ﴿وَالأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَاهَا...﴾ (النازعات: ٣٠)، وقد زيّن الله السماء الدنيا بالشمس والقمر وسائر النجوم والكواكب وجعلها حفظا وحرسا وهي الشهب التي ترمي الشياطين المسترقين السمع ، وقد يراد بالحفظ أيضا غير هذا المعنى والله أعلم.

﴿ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾.

الإشارة بالبعيد ليلفتنا إلى عظمة هذا التقدير الذي تكَلُّ عقول العلماء دون إدراك كنهه ومداه ، فسبحان الله ولا إله إلا الله العزيز الغالب الذي تدانى في عزته ، العليم

الذي وسع كل شيء علما، وما علم العلماء في علمه إلا قطرة من بحره، وهذه الأجرام السماوية العظيمة، والأرض والبحار والجبار والأشجار والناس والدواب والأنعام والوحوش والطيور والأسماك في البحار خلقها بقدرته وتقديره، فهي آيات ناطقة أنه الله الواحد القادر العزيز العليم.

فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ
عَادٍ وَثَمُودَ ﴿١٣﴾ إِذْ جَاءَتْهُمُ الرُّسُلُ مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ
خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَائِكَةً
فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ
بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي
خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿١٥﴾
فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ
عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَىٰ وَهُمْ
لَا يُنصَرُونَ ﴿١٦﴾ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ
فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٧﴾
وَنَجَّيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿١٨﴾

يقول الله تعالى لنبيه: فإن أعرض قومك وكذبوك بعد هذا التذكير بآيات الله البينة في السموات والأرض وما بينهما فإن إعراضهم هذا عتو واستكبار، فقل لهم حينئذ: أنذرتكم، أي أخوّفكم، وجاء التعبير بصيغة الماضي إشعار بقرب الوقوع وتحققه، احذروا صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود، والصاعقة هي الآفة العظيمة المفاجئة المهلكة، والتي إن نزلت لا مفر منها ولا وزر، وضرب لهم مثلا بصاعقة عاد وثمود لأنهما بالقرب من ديارهم، وفي طريق أسفارهم، فعاد قوم هود في جهة الجنوب في طريقهم

إلى اليمن في رحلة الشتاء، وثمود قوم صالح في جهة الشمال في طريقهم إلى الشام في رحلة الصيف، فأخبارهم وآثارهم ليست عنهم بغائبة، قال تعالى:

﴿إِذْ جَآءَتْهُمُ الرُّسُلُ مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾ .

اذكروا أخبارهم حين جاءتهم رسل الله إليهم من بين أيديهم ومن خلفهم، أي من كل جهة ومكان، مجتهدين في تبليغ رسالات الله لا ينأون عن دعوتهم في كل وقت وعلى كل حال، في حال إقبالهم عليهم وفي حال إدبارهم وعتوهم ونفورهم، وهذه شهادة من الله تعالى لرسله أنهم لم يألوا جهدا ولم يضيعوا في الإنذار والتبليغ، ونحن نشهد لرسل الله بما شهد الله صلى الله على رسولنا وعليهم أجمعين وسلم تسليما كثيرا.

﴿أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ اللَّهَ﴾.

"أنْ" المفسرة أدغمت في "لا" الناهية، أي كان قول الرسل لأقوامهم ألا تعبدوا أحدا إلا الله الذي خلقكم وهو رب العالمين، وكذلك كانت دعوات كل رسل الله إلى توحيد الرب الخالق بالعبادة، وهي الخضوع والطاعة والدعاء مع المحبة والهيبة والخوف والرجاء، وتلك دعوة رسول الله لقريش قومه ومن معهم، وللناس كافة.

﴿قَالُوا لَوْ شَآءَ رَبُّنَا لأَنزَلَ مَلآَئِكَةً فَإِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ﴾.

كان جواب الكفار لرسلهم أن قالوا لهم: لو شاء ربنا لأنزل ملائكة من السماء لا بشرا مثلنا، وتلك فتنتهم في كل زمان ومكان، وأي شيء يستنكر في أن يبعث الله للناس بشرا مثلهم مبشرين ومنذرين ومعلمين، إنه الكبر والطغيان وحب العلو والفساد في الأرض، وينبئ عن ذلك قولهم لرسلهم: وإنا بما أرسلتم، أي برسالتكم كافرون، وفي الجملة الحصر بتقديم ما حقه التأخير وذلك مبالغة منهم في الكفر برسالات الله، وما كان في قولهم **﴿بِمَآ أُرْسِلْتُم بِـهِ﴾** اعتراف بالرسالة بل قالوها على وجه التهكم والسخرية، والله أعلم بمكرهم وسيلقون جزاءهم.

﴿فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنَ اَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً اَوَلَمْ يَرَوَا اَنَّ اللَّهَ الذي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِئَايَاتِنَا يَجْحَدُونَ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَّحْسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَخْزَىٰ وَهُمْ لاَ يُنصَرُونَ﴾.

فأما عاد فاستكبروا في الأرض بغير الحق، وكل استكبار في المخلوقات فهو بغير الحق، وليس هناك استكبار بالحق، وكيف يجمل بالمخلوق الضعيف أن يستكبر وإنما ذكر الله هذه الكلمة ليشنع على المستكبرين ويذكرنا أن استكبارهم بغير الحق، طغى قوم هود وتجبروا واستكبروا عليه ذلك لأن الله زادهم في الخلق بسطة وأغناهم بأموال، ووفر لهم البنين، فأعجبوا بقواهم وغناهم وقالوا: من أشد منا قوة، قالوا ذلك لما أنذرهم رسولهم بعذاب الله وذكرهم بأيام الله، فلم يزدهم ذلك إلا طغيانا وعموا ولم يذكروا أن الله الذي خلقهم وقواهم هو أشد منهم قوة، ذلك لأنهم كانوا يجحدون بآيات الله ويكذبون رسل الله، فلما جاء أجلهم المحدود أرسل الله عليهم ريحا صرصرا قوية شديدة البرودة في أيام نحسات، أي مشؤومات فأهلكهم الله بها وقطع دابرهم، فلا تزال بلادهم خاوية بما ظلموا، قال الله تعالى:

﴿لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَخْزَىٰ وَهُمْ لاَ يُنصَرُونَ﴾.

والخزي أفظع الهوان والذل وأقصاه، ذلك جزاء على عتوهم واستكبارهم، ولعذاب الآخرة الذي ينتظرهم أشد وأخزى وهم لا ينصرون، أي ليس لهم من دون الله ولي ولا نصير، تلك كانت عاقبة عاد قوم هود.

﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾.

وأما ثمود قوم صالح فهديناهم، أي بينا لهم طريق الهدى فتعاموا عنه واستحبوا العمى على الهدى، أي آثروا الضلال على الرشد، والكفر على الإيمان، وعتواْ هم الآخرين فجعل الله لهم أجلا لا ريب فيه، فلما جاء أجلهم انتقم الله منهم فأهلكهم بالصيحة العاتية، فأخذتهم صاعقة العذاب الهون، أي مصحوبا بالخزي والهوان لهم، جزاء على عتوهم واستكبارهم، قال تعالى: بما كانوا يكسبون، أي جزاء بما كانوا يكسبون من ظلم الشرك ومنكرات الأفعال والأقوال، ولا يكون كسب المشرك إلا سيئا، وما كان ظاهره حسنا فلن يقبل منه، وبعد عذاب الدنيا عذاب الآخرة، ونعوذ بالله من مصير الظالمين.

وقد قرأ الرسول ﷺ هذه الآيات على عتبة بن أبي ربيعة وَفْدِ قومه إليه، وكان ابتدأ من أول السورة، فلما بلغ هذه الآيات وضع يده على فمه إشفاقا وقال: نناشدك الله والرّحم، وقد أثرت فيه تأثيرا فظيعا ورجع إلى قومه بغير الوجه الذي جاء به، ولكن لم تنفعه ولم يهتد بها، ونعوذ بالله من سوابق الشقاء، ثم قال تعالى:

﴿وَنَجَّيْنَا الذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾.

بعد ذكر هلاك أهل الكفر والجحود يذكر الله تعالى أنه نجى الذين آمنوا بالله ورسله واليوم الآخر، وكانت سنتهم وطريقتهم التقوى، فهم يتقون الله في أفعالهم وأقوالهم وحركاتهم وسكناتهم، فتقوى قلوبهم متجددة دائما، وهو ما يدل عليه صيغة المضارع، وكذلك يجب أن يكون أهل الإيمان في كل حال، فإن تقوى المتقين سبب في نجاتهم من مهلكات الدنيا وعذاب الآخرة، وهو ما تدل عليه الآية.

وَيَوْمَ نَحْشُرُ أَعْدَآءَ
اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ (19) حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ
عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (20)
وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوٓا أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِىٓ
أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (21) وَمَا
كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ
وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ (22) وَذَٰلِكُمْ
ظَنُّكُمُ الَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ الْخَٰسِرِينَ (23)
فَإِن يَصْبِرُوا فَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ وَإِن يَسْتَعْتِبُوا فَمَا هُم مِّنَ
الْمُعْتَبِينَ (24) ۞ وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَآءَ فَزَيَّنُوا لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا
خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْجِنِّ
وَالْإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَٰسِرِينَ (25)

يعرض الله علينا في هذه الآيات الكريمة مشهدا فظيعا لموقف الكفار والمنافقين يوم القيامة، ويذكر مآبهم ومصيرهم في النار وبئس المصير، ذلك لأنهم كانوا في الدنيا يجحدون بآيات الله ويستهزئون برسله، ويعرضون عن النذر، كأن قلوبهم في أكنة مما يدعونهم إليه، وفي آذانهم وقر، فهم عُمي بكم صم، يقول الله تعالى:

﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُ أَعْدَآءَ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾.

واذكر يوم الحشر يوم نحشر أعداء الله الكفار والمنافقين لتسوقهم الزبانية إلى النار حيث يلاقون جزاءهم في جهنم، فهم يدفعون ويوقف أولئك على آخرهم ولا يفلت منهم أحد، ووصفوا هنا بأنهم أعداء الله، وهي عبارة توحي بشناعة مصيرهم وموقفهم المخزي، وقلما تأتي هذه العبارة الفظيعة في القرآن، وتوحي أيضا بوجوب معاداة من

عادى الله وحادّه من أهل الكفر والنفاق، فهي تنبيه من الله لعباده المؤمنين بوجوب القيام بحق الولاية والعداوة في الله، وهي أوثق عرى الإسلام.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

فهم يساقون إليها بعنف حتى إذا ما جاءوها وقفوا للحساب أو سألتهم الزبانية خزنتها عن سبب وصولهم إلى هذا المصير المشؤوم فأنكروا معاصيهم خرست ألسنتهم وشهدت عليهم جوارحهم، سمعهم وأبصارهم وجلودهم باشتغالها بمعاصي الله وتصامها وتعاميها عن الحق الذي يدعون إليه، وشهدت عليهم جلودهم، قيل الجلود مطلق الجلود كلها وما تباشره من ذنوب، وقيل: المقصود بالجلود الفروج، ولعل هذا المعنى يكون أرجح لأن الله تبارك وتعالى يكني في مثل هذه الموضع ولا يصرح، فقد كنى عن الجماع بالملامسة والمباشرة، ومعصية الفروج ما هي إلا استمتاع بالجلود، وما اللذات التي يصيبونها في الزنى واللواط إلا ملامسة الجلود، فما أبلغ التعبير عنها بالجلود.

﴿وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا﴾.

لما شهدت عليهم جوارحُهم بالإجرام قالوا لجلودهم: لم شهدتم علينا وعنكم كنا نناضل، واختص الخطاب بذكر الجلود لأن شهادتها فضيحة وخِزي لأصحابها، وهي المعاصي التي كانوا يبالغون في إخفائها فافتضحوا بشهادة جلودهم عليهم فلاموها على شهادتها فكان جوابها.

﴿قَالُوا أَنطَقَنَا اللَّهُ الذي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾.

قالت الجلود: أنطقنا الله الذي أنطق كل شيء من الحيوانات والجمادات ولكنا لا نفقه نطقها، وقدرة الله صالحة لكل شيء، وقد نطقت الأشجار والأحجار

والعجماوات لرسل الله، وعلم الله نبيه سليمان منطق الطير وسمع كلام النملة وفهمه، فالذي جعل النطق في اللسان قادر أن يجعله فيما يشاء من مخلوقاته.

﴿وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾.

قد يكون هذا كلام الجلود تابع لما سبق، وقد يكون في الأسلوب إلتفات فيكون قول من الله في الدنيا للمكذبين من قريش ومن معهم، أي إلى الله الذي خلقكم أول مرة يكون رجوعكم للحساب بعد الحشر، فكيف تستبعدون رجوعكم إلى الله يوم النشور وهو خلقكم من العدم أول مرة؟ أفلا تعتبرون!.

﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَنْ يَّشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلاَ أَبْصَارُكُمْ وَلاَ جُلُودُكُمْ وَلَكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ اللَّهَ لاَ يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ الذِي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ الْخَاسِرِينَ﴾.

يقول الله تبارك وتعالى لهؤلاء الكفرة حين يوفيهم دينهم الحق: وما كنتم تستترون أن يشهد عليكم هؤلاء الشهود المعدلون من أنفسكم، لقد كنتم تَسْتَخْفُونَ من الناس وتَتَسَتَّرُونَ منهم أما أن تتستَّروا من سمعكم وأبصاركم وجلودكم وهي منكم وأنتم تعصون ربكم بها فهذا ما لم يكن بإمكانهم، وما كنتم تعلمون أنها تشهد عليكم، وأن الله ينطقها بالحقائق الخفية، وكنتم تظنون أن أفعالكم تخفى على الله، وذلكم ظنكم الذي ظننتم بربكم خالقكم وخالق أفعالكم أرداكم أو كانت السبب في وقوعكم في الهلاك اليوم فأصبحتم من الخاسرين، خسرتم أنفسكم وأهليكم خسارة لا تعوّض، بل عوضها الخلود في الجحيم والعذاب المقيم، قال الله تعالى:

﴿فَإِنْ يَّصْبِرُوا فَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ وَإِنْ يَّسْتَعْتِبُوا فَمَا هُم مِّنَ الْمُعْتَبِينَ﴾.

فإن يصبروا في العذاب فصبرهم لا ينفعهم فلا يخفف عنهم العذاب ولو صبروا في الدنيا على طاعة الله لكان خيرا لهم، وإن يستعتبوا فما هم من المعتبين، الاستعتاب طلب إزالة العتاب، والإعتاب رفع اللوم والعتاب، أي وإن يعتذروا ويطلبوا العفو

والرضا لا تقبل أعذارهم ولا يعفى عنهم يومئذ، ففي الآية موعظة وعبرة، وفيها دعوة إلى المبادرة إلى التوبة اليوم، والباب مفتوح للتوبة والاستعتاب، ومن أراد الله به خيرا فإنه يفر إلى الله ويتوب إليه قبل أن لا ينفع صبر ولا يقبل استعتاب.

﴿وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَآءَ فَزَيَّنُوا لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾.

يقول الله تبارك وتعالى: وقيضنا لهم قرناء، أي: هيَّأنا لهم وسلَّطْنَا عليهم قرناء شياطين الإنس والجن من أجناسهم منجذبين إليهم بما ركب في طبعهم من اللؤم وحب الفساد، والعلو في الأرض، فتهيَّأت نفوسهم الخبيثة، وقلوبهم النغلة للاتصال بهؤلاء الشياطين والتأثر بهم، فزيَّنوا لهم ما بين أيديهم من أعمالهم السيئة فرأوها حسنة، وما خلفهم، أي ما وراءهم من الغيب الذي ينتظرهم يوم القيامة، ومنّوهم الأماني الباطلة، ووعدوهم أن لهم الحسنى عند الله، وما يعدهم الشيطان إلا غرورا، وفتحوا لهم بابا من الأطماع الفارغة كما يقول المرجئة أن الموحدين يدخلون الجنة بغير عمل، والله تبارك وتعالى يردُّ على هؤلاء وهؤلاء بقوله: ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلاَ أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَّعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلاَ يَجِدْ لَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلاَ نَصِيرًا وَمَنْ يَّعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِن ذَكَرٍ اَوُ انثَىٰ وَهُوَ مُومِنٌ فَأُوْلَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلاَ يُظْلَمُونَ نَقِيرًا﴾ (النساء: ١٢٢ـ ١٢٣)، ويقول: ﴿وَمَنْ يَّعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ (الجن: ٢٣)، وفي الحديث المروي عن النبي ﷺ: {ليس الإيمان بالتمني ولكن ما وقر في الصدر وصدقه العمل...}، ثم قال تعالى:

﴿وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْجِنِّ وَالانسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ﴾.

وحق عليهم، أي وقع عليهم قول الله في أمم سبقتهم وهم على شاكلتهم من الجن والإنس ممن أضل الله وأوجب عليهم الخسران بكفرهم فهم خاسرون، خسروا آخرتهم بكفرهم ومعاصيهم، وتلك هي الخسارة الكبرى التي لا تعوض، ونعوذ بالله

من الخسران، وقول الله هو قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ (السجدة: ١٣)، فهو حكم صادر من القوي القاهر لا مرد له ولا مبدل ﴿مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ (ق: ٢٩)، ثم قال تعالى:

وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسْمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْاْ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴿٢٦﴾ فَلَنُذِيقَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِي كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ ذَٰلِكَ جَزَآءُ أَعْدَآءِ ٱللَّهِ ٱلنَّارُ لَهُمْ فِيهَا دَارُ ٱلْخُلْدِ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿٢٨﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ رَبَّنَآ أَرِنَا ٱلَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴿٢٩﴾

﴿وَقَالَ الذينَ كَفَرُوا لاَ تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْءَانِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾

قيل إن الآية نزلت في أبي جهل حين قال لقومه هذه المقالة، والعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، وكذلك يصنع ذووا التمرد والعناد والجبارون إذا أعوزتهم الحجة، فإنهم يلجئون إلى أساليب العنف والمكر، فهم لا يزالون يعارضون دعاة الإصلاح بأساليب المكر حتى يخفوا دعواتهم فلا تبلغ أسماع الناس، وليس ذلك بمجديهم شيئا، فإن الله متم نوره ولو كره الكافرون.

﴿وَقَالَ الذينَ كَفَرُوا لاَ تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْءَانِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾

وقال الذين كفروا بالله ورسله لا تسمعوا لهذا القرآن، وعلى سبيل التهكم جاءوا بلفظ القرآن وهم يكفرون به وبالرسالة، قالوا: وألغوا فيه، أي أكثروا من اللغو وهو التصفيق والصفير والغناء وارتفاع الأصوات لعلهم بهذا يغلبون فلا يُسمع كلام الله في

لغوهم وأصواتهم، هذا زعمهم ولكن الله غالب على أمره وناصر دينه ومظهره ولو كره الكافرون، قال تعالى:

﴿فَلَنُذِيقَنَّ الذِينَ كَفَرُوا عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ الـذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ذَٰلِكَ جَزَآءُ اَعْدَآءِ اللَّهِ النَّارُ لَهُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ جَزَآءً بِمَا كَانُوا بِئَايَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾.

يأتي الوعيد في هذه الآية مؤكدا بمؤكدين، فكأنه قسم مؤكد من قبل الله أن هؤلاء الجاحدين أعداء الله والرسول سينالون جزاءهم شر جزاء، وجاء الفعل بعد توكيده مسندا إلى نون العظمة، فأين يفلتون بعد هذا القسم، وبعد الوعيد من جبار السموات والأرض، وجاء الإظهار في موضع الإضمار ليذكرنا بفضاعة كفرهم وأنه هو السبب في إذاقتهم العذاب الشديد، وهو جزاؤهم الذين يستحقونه بكفرهم وعنادهم وجحودهم، ذلك ما تقدم من ذكر عذاب النار جزاء أعداء الله، فالجملة مبتدأ وخبر، وذكر النار بعدها عطف بيان، وما أروع ذكر الأعداء والنار هنا، لأنه عود على بدء، وقد ذكر من قبل: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُ أَعْدَآءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾.

وبهذا ترتبط هذه الجملة بما سبقها من الجمل فترسم بذلك صورة متكاملة لمصير الكفار أعداء الله، وسماها الله دار الخلد؛ لأن أعداء الله يخلدون فيها أبدا وما لهم من زوال، وما ظلمهم الله ولكن ظلموا أنفسهم بالكفر والجحود فنالوا جزاءهم المحتوم بما كانوا يعملون، ولا تكون أعمال الكفار إلا سيئة، ولذا جازاهم الله بأسوأ الذي كانوا يعلمون، واستحقوا كل ذلك بما كانوا يجحدون بآيات الله كلما دعوا إلى استماعها وتدبرها فجحودهم كان متكررا وكانوا مصرين عليه كل الإصرار، وهو ما يدل عليه سياق الجملة.

وفي السياق المتقدم روائع البيان، وذلك كالإظهار في موضع الإضمار مرتين، وكالتصريح بالنار بعد ذكر الجزاء ووصفها بدار الخلد، فهو من أبر صفاتها، وتقديم ما

حقه التأخير في تقديم المعمول على العامل في قوله: بآياته يجحدون، فالآيات المتقدمة والتي تليها ترسم صورة مشؤومة للكفار تكفي موعظة وزجرا لمن قرأها بتدبر وإمعان، ومن أراد الله خيرا فإنه يتعظ ويرعوي عن غيه ويتوب إلى الله، والله هو التواب الرحيم.

﴿وَقَالَ الذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَآ أَرِنَا اللَّذَيْنِ أَضَلاَّنَا مِنَ الْجِنِّ وَالاِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الاَسْفَلِينَ﴾.

وتكشف هذه الآية عن حالة الكفار حين يداركون في النار جميعا أنهم يتلاعنون، كلما دخلت أمة لعنت أختها، وهنا يعرض حالة الكفار حين يصيرون إلى العذاب وتمتلئ صدورهم غيظا وحنقا على الذين أضلوهم في الدنيا، وزينوا لهم الكفر والمعاصي، وأوقعوهم في كبائر الإثم والفواحش وأنواع الظلم، إنهم يلعنونهم اليوم ويجأرون إلى الله أن يريهم إياهم حتى يجعلوهم تحت أقدامهم ليكونوا من الأسفلين، وهؤلاء قرناؤهم الذين ذكرهم الله من قبل في قوله: ﴿وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَآءَ فَزَيَّنُوا لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ...﴾ الآية.

هؤلاء القرناء من الجن والإنس يضل بعضهم بعضا، ويغري بعضهم بعضا، يتلاعنون اليوم ولا يغنيهم هذا التلاعن شيئا، فقد حكم الله عليهم في كتابه أن لكل ضعفاً، أولئك بإضلالهم الناس وجرهم إلى المعاصي، لهم أوزارهم وأوزار الذين يضلونهم بغير علم، والتابعون لهم أيضا لهم ضعف لأنهم اتبعوهم في ضلالهم بغير علم، وأهملوا عقولهم التي أتاحها الله ليميزوا بها بين الحق والباطل، فأهملوها ولم يعملوها.

وهنا في هذه الآية لم يذكر الله جوابهم لهوانهم على الله، وقد ذكر في سورة الأعراف حيث قال تعالى: ﴿قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَكِن لاَّ تَعْلَمُونَ﴾ (الأعراف: ٣٨)، أما هنا فيعرض عن إجابتهم ويذكر حال الأخيار الذين آمنوا بربهم واستقاموا على ذلك حتى الممات، وهي حال حسنة يُغبطون عليها، يقول الله تبارك وتعالى:

إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ
ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِٱلْجَنَّةِ
ٱلَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ
ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِيٓ أَنفُسُكُمْ
وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴿٣٢﴾
وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِي
مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا تَسْتَوِي ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ٱدْفَعْ
بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُ
وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّىٰهَآ
إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ
فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٦﴾

يأتي الكلام على أهل الاستقامة وولاية ملائكة الله لهم بعد ذكر حال أولياء الشيطان وإضلال بعضهم بعضا، وتلاعنهم يوم القيامة، ليتم التقابل بين الفريقين، وهذا أبلغ في الموعظة والاعتبار، فاعتبروا يا أولي الأبصار.

﴿إِنَّ الذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَآئِكَةُ أَلاَّ تَخَافُوا وَلاَ تَحْزَنُوا﴾.

الاستقامة هي السير على خط مستقيم غير معوج، وهو السير على الصراط المستقيم الذي شرعه الله، وقد وردت في تفسير الاستقامة ألفاظ كثيرة عن الصحابة والعلماء، وكلها تدور على معنى واحد وهو الاستقامة على تقوى الله في السر والعلانية، والثبات على طاعته بأداء فرائضه، واجتناب نواهيه، وفي رأيي أن أجود ما ورد في الموضوع تفسير سيدنا عمر بن الخطاب لمعنى الاستقامة بقوله ﷺ عندما قرأ الآية

قال: "استقاموا لله بطاعته لم يروغوا روغان الثعلب" والثعلب يروغ في مشيه يمينا وشمالا، وكذلك يصلح أهل النفاق يروغون كما تروغ الثعالب، يتصرفون حسب شهواتهم وأهوائهم، يدورون حسبما تدور أغراضهم، فهم إذا اكتالوا على الناس يستوفون، وإذا كالوهم أوزنوهم يخسرون، وهم ينكرون اليوم ما اعترفوا به بالأمس، ويحلفون على الكذب، ويشهدون الزور، ويميلون كما تميل أهواؤهم وشهواتهم.

أما المؤمنون فإنهم يقولون ربنا الله ثم يستقيمون على طاعته وامتثال أوامره، واجتناب مناهيه، يقولون ربنا الله اعتزازا بهذه المقالة وتمسكا بدينهم، أي ربنا الذي خلقنا وربانا ورزقنا وأطعمنا وسقانا وكفانا وآوانا هو الذي نعبده وحده، هو الله ربنا به آمنا وعليه توكلنا وإليه أنبنا وإليه المصير، يستقيمون على هذه المقالة ويتبعونه بالعمل الصالح، وقد ورد في الحديث الصحيح أن سفيان بن عبد الله الثقفي ﷺ قال: {يا رسول الله: قل لي في الإسلام قولا لا أسأل عنه أحدا بعدك، فقال رسول الله ﷺ: قل آمنت بالله ثم استقم}، وقد أجمل له الإسلام كله في هذه الكلمة الوجيزة، فهي تشمل العقيدة والقول والعمل، وتشمل السر والعلن، من التزمها فقد حقق الإسلام إذا أخلص العمل لله وحده ولم يشرك بعبادة ربه أحدا.

هؤلاء الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم ملائكة الله يقولون لهم: لا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون، قيل: تتنزل عليهم عند النزع حال الاحتضار، وفي قبورهم، وفي المحشر تبشرهم أن لا تخافوا من الأهوال التي تستقبلكم، ولا تحزنوا على ما خلفتم وما صرتم إليه، فعاقبة أمركم يسر.

﴿وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ التِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾.

يبشرونهم بمصيرهم في الجنة طالما وعدوا بها في الدنيا إن استقاموا على الطريقة، ووعد الله صادق لابد مفعول، وهذا التبشير يهوّن عليهم سكرات الموت حتى إن كثيرا

منهم رؤيت عليهم ابتسامة عند الموت، نسأل الله حسن الخاتمة، وكذلك تهوّن عليهم أهوال يوم القيامة.

﴿نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ﴾.

يقول ملائكة الله لأهل الجنة: نحن أولياؤكم، أي قرناؤكم ونصراؤكم في الحياة الدنيا وفي الآخرة، وهذا في جانب السعداء أولياء الله مقابل ما تقدم في الأشقياء أعداء الله الذين قيض الله لهم قرناء من الشياطين زينوا لهم ما بين أيديهم وما خلفهم، وهكذا تتم هذه المقابلة في أروع مشاهدها، وفيها موعظة للمتقين وذكرى للذاكرين، الشياطين أولياء الكفار والمنافقين يمدونهم في الغي ثم لا ينصرونهم، والملائكة أولياء المؤمنين يلهمونهم في الدنيا ويثبتونهم في الدنيا على أمرهم، ويبشرونهم بالجنة عند الموت وفي الآخرة، وينفون عنهم الخوف والحزن، وشتان ما بين الفريقين.

﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ﴾.

هذه الجملة تابعة لجملة التبشير بالجنة، والتي بينهما جملة معترضة تفيد ولاية الملائكة للمؤمنين في الدنيا والآخرة، وهم يقولون لهم: ولكم فيها، أي في الجنة ما تشتهي أنفسكم من أنواع المتع واللذات، ولكم فيها ما تدعون، أي ما تتمنون ﴿دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ...﴾ (يونس: ١٠)، فما هو إلا أن ينطق بهذه الكلمة فإذا ما يدعيه حاضر بين يديه.

﴿نُزُلاً مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ﴾.

النزل الطعام الذي يقدّم للضيف، وهو منصوب على الحال، أي يُهيأ لكم فيها ما تشتهي أنفسكم حال كونه نزلا من رب غفور رحيم، واختير هذان الوصفان هنا لمناسبتهما للمقام، فهم وصلوا هذا النعيم بمغفرة الله لذنوبهم التي تابوا منها، واستغفروا ربهم، وبرحمة الله التي تغمدهم بها، فهو الغفار الرحمن الرحيم بعباده المؤمنين ﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ (الأحزاب: ٤٣).

﴿وَمَنَ اَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَآ إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا﴾.

يقول الله تبارك وتعالى: لا أحد أحسن قولا ممن دعا إلى الله عباد الله، ولما كان قول الداعية لا ينفع إذا خالف فعله أردف قوله: وعمل صالحا، فإن العمل الصالح هو الذي يصدق قول الداعي ويجعله مقبولا في نفوس المدعويين، أما لو خالف فعل الداعي قوله فإن الناس يرتابون في قوله ويقولون: لو كان قوله حقا لبدأ بنفسه، وقد وبخ الله تعالى قوما من بين إسرائيل فقال: ﴿أَتَأمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ﴾ (البقرة: ٤٤).

ثم يأتي الركن الثالث من أركان الدعوة وهو قوله تعالى:

﴿وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾.

وهذا القول له معنيان: الأول هو الاعتزاز بالإسلام، فالواجب على الداعية أن يكون قويا في دعوته معتزا بالإسلام، يقول بملء فيه: ﴿إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ ولا يخجل بإسلامه أمام المتكبرين المستهزئين الساخرين، فكيف يضعف أو يخجل وأهل الكفر والكبائر لا يخجلون بكفرهم ومعاصيهم بل يجاهرون بها في تمرد ووقاحة، فكيف يضعف أهل الحق الداعين إليه، والله مؤيدهم وناصرهم والله ولي المتقين، المعنى الثاني لهذه المقالة أن يشعر قائلها بما تحمله من معنى الاستسلام لأمر الله، والالتزام بأفعال الإسلام وأخلاق الإسلام.

ومن هذا المعنى ينشأ اختلافهم: هل يجوز للمسلم أن يقول: أنا مسلم؟ فلعله أن يكون مقصرا في معنى الإسلام غير ملتزم به فيكون كاذبا في ادعائه الإسلام، ولذا قال هذا الفريق إن سئل هل أن أنت مسلم؟ يقول: أنا مسلم إن شاء الله، وقال الفريق الآخر - وهو الذي أميل إليه وأراه صوابا- يقول: أنا مسلم وكفى، ويدع مشيئة الله لله، وليس عليه أن يقول إن شاء الله إلا في الأمور التي ينوي فعلها في المستقبل تقيدا بالآية التي فيها: ﴿وَلاَ تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا إِلاَّ أَنْ يَّشَآءَ اللَّهُ﴾

(الكهف: ٢٢-٢٣)، أما في وصف نفسه بالإسلام فليقل أنا مسلم، أو إنني من المسلمين كما نجد في هذه الآية المجردة من كل قيد.

وتأتي هذه الآية الموجزة المعجزة جامعة لمعاني الدعوة وأركانها، فهي جامعة مانعة، وكل من كتب في الدعوة يرجع إلى هذه الأصول الثلاث، وقد جاء في آية أخرى بيان نوعية هذه الدعوة في قوله تعالى: ﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ (النحل: ١٢٥)، وفي قوله تعالى: ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾ (طه: ٤٤).

ثم إن قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ...﴾ جاء ردا على الكفار المعارضين عن أحسن الأقوال بقولهم: ﴿قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِن بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ﴾، ورد على قولهم: ﴿لَا تَسْمَعُوا لِهَٰذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ فما أشد وقع هذه الآية وأعظم مناسبتها لما سبق بعد بيان البون الشاسع بين قرناء السوء وولاية الملائكة للمؤمنين الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا، فالحق أنه لا أحد أحسن قولا ممن دعا إلى الله، ويليه في الفضل الذين استجابوا لدعوته واستقاموا عليها، وويل لمن أعرض عنها وتصامم عن دعاة الحق وصد عن سبيل الله يبغيها عوجا، بهذه المقابلة بين الفريقين يتبين الصبح لذي عينين، ثم قال تعالى:

﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ﴾.

ولا تستوي الحسنة من الخصال ولا السيئة منها، فليست الكلمة الطيبة اللينة مثل الكلمة الخشنة الجارحة، ليستا سواء في الحقيقة ولا في النتيجة التي تنتج عنهما، فالكلمة الجارحة تحدث العداوة، والكلمة اللينة تزيلها، لذا يقول الله تعالى:

﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾.

يأمرنا ربنا الحليم أن ندفع السيئة، أي نرد عليها بالتي هي أحسن، لا بالسيئة فحسب بل بالتي هي أحسن.

﴿فَإِذَا الذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾.

هكذا بالفاء المعقبة وإذا المفاجئة تحدث الثمرة الطيّبة للكلمة الحسنة، فأما أن تعامل الذي بينك وبينه عداوة بالتي هي أحسن حتى ينقلب كالصديق الحميم، وهذه الوصية من مكارم الأخلاق التي جاء نبي الإسلام ليتممها، وهو أول المتخلقين بها ﷺ، ثم قال تعالى:

﴿وَمَا يُلَقَّاهَآ إِلاَّ الذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَآ إِلاَّ ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾.

وما يلقى هذه الخصلة الحميدة وهي المدافعة بالتي هي أحسن ما يلقاها إلا الذين صبروا، أي كان الصبر لهم سجية وتصبروا أيضا، وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم، أي نصيب عظيم من خيري الدنيا والآخرة، وأول الملقين لها هو سيدنا رسول الله ﷺ والذي كان خلقه القرآن، وقوله تعالى: ﴿يُلقَّاهَا﴾ مشعر أنها قسمة العزيز الوهاب، يهبها لمن يشاء من عباده، وهي أغلى ما يوهب وأعز ما يلقّى، وأصحابها قليلون.

﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ﴾.

الموقف صعب دقيق يحتاج إلى الاستعانة بالله والاستعاذة به، ذلك لأن شياطين الجن والإنس تنزغ الناس في مثل هذه المواضع، توسوسهم وتغريهم بالانتقام، ولو بالسباب حتى لا ينسب إليهم الضعف والذلة، والنزغ هو المس الشديد والوخز باليد أو بالقضيب أو بشيء حاد، ويراد هنا النزغ المعنوي الذي يكون من شياطين الجن والإنس، تأمرك بمقابلة السيئة بأسوأ منها أو بمثلها على الأقل حتى تشفي صدرك وتزيل عنه الغم والقلق، ولكن الله تبارك وتعالى يوصي أهل العزائم بالحلم ومقابلة السيئة بالحسنة، ولا يتأتى ذلك إلا بالالتجاء إلى الله والاستعاذة به من وسوسة الشياطين ونزغهم ونفخهم ونفثهم، وهو الدواء الناجع، وقد روي أن رجلا سبه سفيه فاغتم بذلك فقال النبي ﷺ: {إني لأعلم كلمة لو قالها لزال ما به من الغم والأسف ﴿أَعُوذُ بالله منَ الشَّيطَانِ الرَّجِيمِ﴾}، فقالها الرجل فسري عنه وزال ما به من الغم والأسف،

وهو تأديب من الله عز وجل للدعاة إلى الله، وهو كلام مناسب جاء بعد بيان فضل الدعوة إلى الله، ومقام الداعين عنده وفضل الحلم والصبر، وأخيرا ذيلت الوصية باسمين من أسماء الله الحسنى.

﴿إِنَّـهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾.

وفيها مع مدح الرب الجليل بما هو أهله، فيها تسلية لأوليائه الداعين إلى سبيله، العاملين بطاعته بأنه سميع لما يقوله السفهاء والجاهلين من قول الزور والبهتان والسباب، عليم بما في قلوبهم، سينالون جزاءهم الذي يستحقونه ولن يفلتوا من قبضته، وسميع للرد الحسن من الصابرين أولي النهى والحلم، عليم بما في قلوبهم من الضيق، سيجازيهم على كظمهم وصبرهم ودفعهم السيئة بالحسنة، فليثقوا بعدالة الله وليفوضوا أمرهم إليه، وليتخلقوا بأخلاق أنبيائه ورسله، فإن الله لا يضيع أجر المحسنين.

وَمِنْ ءَايَٰتِهِ
ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ
وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ
إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿٣٧﴾ فَإِنِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فَٱلَّذِينَ عِندَ
رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْـَٔمُونَ ۩ ﴿٣٨﴾
وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ
ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ
شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾

ثم يرجع بنا الأسلوب القرآني إلى الالتفات إلى آيات الله المجلوة في الأكوان، التي جعلها الله علامات على وجوده، وانفراده بالخلق والربوبية، والإحياء والإماتة، فجعل منها الكفار من عباده آلهة يعبدونها من دون الله، وهذا منهم ظلم عظيم، قال تعالى:

﴿وَمِنَ ـ ايَاتِه اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ﴾.

من آيات الله الدالة على قدرته الشمس والقمر، هذان الجرمان العظيمان السائحان في الفلك، وبدوران الأرض على الشمس وحول نفسها يتكون الليل والنهار، وبدوران القمر حول الأرض تتكون الشهور، وفي الليل والنهار والشمس والقمر منافع للعباد لا تحصى، وآيات كبرى للمتوسمين، آيات يشاهدها الناس جميعا في مشارق الأرض ومغاربها، وفي كل الأزمان لا تخفى على ذكيهم ولا على غبيهم، فهي آيات ظاهرة يدركها حتى البله من الناس، إذ كل الناس يشملهم ظلام الليل ونور النهار يتعاقبان عليهم دواما، وكل الناس تطلع عليهم الشمس فتضيء نهارهم، ويبدو لهم الهلال ثم يكتمل شيئا فشيئا حتى يضيء ليلهم وينضج ثمارهم، وقد قيل في ذلك:

الشمس تلوّن والقمر يُنضج، والكل من نعم الله وآياته، ولا ينقضي العجب من التأمل في ظلام الليل إذا يغشى، وضوء النهار إذا تجلى، والتأمل في الشمس وضيائها ومشارقها ومغاربها وتوابعها، وفي القمر ومنازله وفي سائر النجوم والكواكب وكثرتها، ونظام سيرها الدقيق المستمر ملايين السنين وتأثيرها النافع في حياة الإنسان والحيوان والأشجار والنبات، وحتى في الحيتان في البحار، وفي المعادن في بطن الأرض، وللقمر أثره المعلوم في المد والجزر في مياه البحار، وللشمس أثرها في تبخير مياه البحار لتكوّن السحاب الثقال.

فسبحان الله جاعل الليل سكنا، والشمس والقمر حسبانا بتقدير معلوم، وسبحان الله جاعل الظلمات ليسكن الناس فيها ليسترجعوا طاقتهم المفقودة في عناء النهار وكدّه، وجاعل النور لينتشر الناس فيه في طلب معايشهم، والتماس أرزاقهم، يبتغون من فضل خالقهم، وسبحان الله من خلق أنواعا من الطيور والزواحف والحيوانات والحشرات لا تخرج إلا في الليل، ولا تنتشر إلا في الظلام في ابتغاء أرزاقها، وفي بعض الفصول في

الأقاليم الحارة تخرج الإبل والأغنام ترعى بالليل فرارا من حر النهار، يقول الله تبارك وتعالى:

﴿لاَ تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلاَ لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الذِي خَلَقَهُنَّ إن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ .

إن قوما من الصابئة يوجدون في العراق وفي اليمن يعبدون الشمس، وكذلك قوم من بني تميم وعكل وأد وكان لقريش صنم يرمزون به للشمس، ولذلك نسبوا إليه فقالوا عبد شمس، فنهاهم الله جميعا قريشا وغيرهم أن يسجدوا للشمس وللقمر وأمر أن يسجدوا لله الذي خلق الشمس والقمر والنجوم، وفي إحداث الأمر بالسجود لله بعد النهي عن السجود لغيره قصر، فكأنه قال: لا تسجدوا إلا لله، ثم قال: إن كنتم إياه تعبدون؛ لأنهم ضلوا فظنوا أن عبادتهم وسجودهم للشمس والقمر والنجوم إنما هي عبادة لله، وهو قياس فاسد وضلال مبين، فكيف يسوغ في العقول السليمة أن تعدل عن السجود للخالق إلى السجود لبعض مخلوقاته، والحال أن الشمس والقمر والنجوم من آياته الدالة على وجوده، وكمال قدرته ورحمته بخلقه، فهو وحده المستحق للسجود والعبادة، لا معبود بحق إلا هو.

﴿وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الذِي خَلَقَهُنَّ إن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ فَإِنِ اسْتَكْبَرُوا فَالذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لاَ يَسْأَمُونَ﴾.

اختلف الناس منذ عهد الصحابة في موضع السجدة، فقال مالك وأصحابه وهو قول علي بن أبي طالب: يكون السجود على رأس هذه الآية ﴿تَعْبُدُونَ﴾ وقلنا: معشر الإباضية وقال أبو حنيفة والشافعي في المشهور عنه وابن وهب من المالكية أن السجود عند قوله تعالى: ﴿وَهُمْ لاَ يَسْأَمُونَ﴾ وأنا أرجح هذا القول للخروج من الخلاف، فلأن نؤخر السجود بعد آية قصيرة خير من أن نقدمه قبل موضعه، ثم إن تمام المعنى يكون عند قوله: ﴿وَهُمْ لاَ يَسْأَمُونَ﴾.

﴿فَإِنِ اسْتَكْبَرُوا فَالذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لاَ يَسْأَمُونَ﴾.

فإن استكبر قومك عن الحق لما جاءهم وتمادوا على السجود لأصنامهم التي يرمزون بها للشمس والقمر، فالملائكة المقربون الذين عند ربك يسبحون له بالليل والنهار وهم لا يسأمون، وفي هذا تحقيق لأمر الكفار المعاندين لربهم، ثم يرجع الحديث إلى تعداد الآيات، يقول الله تبارك وتعالى:

﴿وَمِنَ ـ ايَاته أَنَّكَ تَرَى الأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَآءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتِ اِنَّ الذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

يضرب الله المثل لأحياء الموتى بعد البلى وتشتت أجزائهم الفانية بإحياء الأرض بعد موتها، ومن آيات الله الدالة على كمال قدرته أنك ترى الأرض خاشعة، أي هامدة، والخشوع فيه معنى الهمود والذلة والخضوع للخالق الذي سجد له الليل والنهار والشمس والقمر، وأتته السموات والأرض طائعتين فانظر أيها العاقل نظر اعتبار إلى الأرض الخاشعة الهامدة إذا أنزل الله عليها الماء ماذا يحدث لها، أنها تهتز وتربو، أي تنتفخ وتنشق عن النبات وتربو، أي ترتفع بما ينبت عليها من أزواج النبات من النجم والشجر وسائر أنواع الزروع، إن الذي أحياها بعد الموات لمحي الموتى.

فاعتبروا أيها العقلاء، أليس الذي يحي الأرض بعد موتها بقادر على أن يحيي الموتى! إن الله على كل شيء قدير، كما قدر على الخلق الأول هو قادر على إعادته، والإعادة أهون من الإيجاد، وقدرة الله صالحة لكل شيء، وما أروع هذا المثل الذي يحتوي تشبيه صورة بصورة، وفيه قياس صحيح، قياس قدرة الله على إحياء الموتى بقدرته على إحياء الأرض الموات وإنبات البذور الضالة في أجزاء الأرض، ولا يضل على قدرة الله وعلمه شيء في الأرض ولا في السماء، وقد أحاط الله بكل شيء علما.

إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلۡحِدُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا لَا يَخۡفَوۡنَ عَلَيۡنَآۗ
أَفَمَن يُلۡقَىٰ فِي ٱلنَّارِ خَيۡرٌ أَم مَّن يَأۡتِيٓ ءَامِنٗا يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ
ٱعۡمَلُواْ مَا شِئۡتُمۡ إِنَّهُۥ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿40﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ
كَفَرُواْ بِٱلذِّكۡرِ لَمَّا جَآءَهُمۡۖ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٞ ﴿41﴾ لَّا يَأۡتِيهِ
ٱلۡبَٰطِلُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَلَا مِنۡ خَلۡفِهِۦۖ تَنزِيلٞ مِّنۡ حَكِيمٍ حَمِيدٖ ﴿42﴾
مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدۡ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبۡلِكَۚ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغۡفِرَةٖ
وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٖ ﴿43﴾ وَلَوۡ جَعَلۡنَٰهُ قُرۡءَانًا أَعۡجَمِيّٗا لَّقَالُواْ لَوۡلَا
فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥٓۖ ءَا۬عۡجَمِيّٞ وَعَرَبِيّٞۗ قُلۡ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ هُدٗى
وَشِفَآءٞۚ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ فِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَقۡرٞ وَهُوَ عَلَيۡهِمۡ
عَمًىۚ أُوْلَٰٓئِكَ يُنَادَوۡنَ مِن مَّكَانِۭ بَعِيدٖ ﴿44﴾

في الآيات تهديد ووعيد للملحدين في آيات الله الذين يحرفونها ويبغونها عوجا، والإلحاد هو الانحراف عن خط الاستقامة يمنة ويسرة، ينحرفون بالافتراء والتقول على الله ورسوله بغير علم، ويجادلون بالباطل ليدحضوا به الحق أو بتآويل باطلة يختلقونها ليحرفوا بها معانيها، يريدون بذلك أن يتحللوا من قيودها ويركبوا أهواءهم، ﴿بَلْ يُرِيدُ الانسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ﴾ (القيامة : ٥).

﴿انَّ الذينَ يُلْحِدُونَ فِي ءَايَاتِنَا لاَ يَخْفَوْنَ عَلَيْنَآ﴾.

يقول الله تبارك وتعالى في هؤلاء الملحدين أنهم لا يخفون علينا، أي لا تخفى علينا نياتهم السيئة، ولا يخفون علينا سنحشرهم يوم القيامة، وسيلقون جزاءهم، ثم ضرب الله مثلا بيّن فيه الفرق الكبير بين مصير أهل النار ومصير أهل الجنة، وفي هذا المثل إشارة إلى سوء مصير هؤلاء الذين يلحدون في آيات الله.

﴿أَفَمَنْ يُلْقَىٰ فِي النَّارِ خَيْرٌ اَم مَّنْ يَّاتِي ءَامِنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾.

أفمن يلقى موثقا بالسلاسل في نار جهنم خير أم يأتي يسعى إلى الجنة آمنا راغبا في حسن الثواب! أي لا يستوون، فالذي يذهب إلى النار لا يذهب طائعا بل يحضر إليها مسلوكا بالسلاسل، ويدع فيها دعا، أما الذي يذهب إلى الجنة فيأتي إليها يسعى نوره بين يديه وعن يمينه، وقلبه مطمئن آمن من أن يناله ما يسوءه، فقد أتته البشارات من رب العالمين.

﴿اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾.

ليس الأمر هنا للإباحة أو التخيير المطلق بل هو لبيان ارتباط كل نفس بما علمت من خير أو شر ستلقى جزاءه ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾ (المدّثّر: ٣٨)، وهو ما يدل عليه قوله: ﴿إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ أي لا تخفى عنه خافية من أعمالكم ونياتكم، وهذا الاختيار الكسبي الذي يترتب عليه الجزاء العادل فلا جبر ولا ظلم، وفي قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ تحذير شديد من اطلاع الله على أعمالنا وعلمه بذوات صدورنا، فليس المقصود مجرد إبصار الله بأعمالنا بل المراد الجزاء عليها، يعني سيحصي أعمالكم ثم يجازيكم عليها، وبملاحظة هذا المعنى تنمو التقوى في القلوب، وتزكو النفوس فتصلح أعمالها.

﴿إِنَّ الذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَآءَهُمْ﴾.

يقول الله تبارك وتعالى: إن الذين كفروا بالذكر لما جاءهم، والذكر هو القرآن، لأن فيه الموعظة والذكرى، ولأنه ذكر للنبي وقومه، فلولاه ما كان لهم ذكر في الناس، إن هؤلاء لما جاءهم الذكر بادروا بالكفر قبل أن يتأملوه ويتدبروه، وهذا منهم رعونة وطغيان أن يكذبوا بما لم يحيطوا به علما ولما يأتهم تأويله، ومن كان هذا طبعه يصعب عليه الرجوع إلى الحق وتعمى بصيرته عن إدراكه وحتى لو أدركه يمنعه كِبْر النفس أن يعترف بالحق فيمضي مصرا على غيه.

وفي هذه الجملة يرد المبتدأ ولا يرد خبره ويدل عليه السياق، وقيل هو بدل اشتمال من قوله: ﴿إنَّ الذينَ يُلْحِدُونَ فِي ءَايَاتِنَا﴾ وخبرهما واحد، ولكن الروعة والبلاغة أن يبقى مبهما حتى تذهب النفوس فيه مذاهب، وقد يرد هذا في لغة العرب في أسماء الحروف الخمسة "إنَّ وأخواتها" وأنا أرى أن الخبر يفهم من الجملة التالية وهي قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ...﴾ الآية، أي إن الذين كفروا بالذكر لما جاءهم لا ينقص كفرهم من قدره حتى ولو كفر الناس به جميعا، وإنه لكتاب عزيز، والعزيز هو الممتنع الذي لا ينال ويَغلِب ولا يُغلب فلا يضره كفر الناس به، وهو الكتاب العزيز المنزل من عند الله العزيز الحكيم.

﴿وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ لاَّ يَاتِيهِ الْبَاطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلاَ مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ .

أي لا يأتيه الباطل من أي جهة من جهاته، وأنى للباطل أن يرد على الحق، وهو زاهق عند ورود الحق عليه، ولا يزال كتاب الله خالدا عزيزا ظاهرا رغم تواطؤ جميع أحزاب الكفر ضده، وهو المعجزة الخالدة، وقد مضت أربعة عشر قرنا من نزوله ولا يزداد إلا علوا وانتشارا وهو يتلى من جميع مراكز إذاعات دول الكفر العاتية، والناس مقبلون على سماعه والرجوع إلى حقائقه، وتلك لعمري من الدلائل القاطعة على أنه كتاب عزيز تنزيل من حكيم حميد، أقواله حكيمة، وأفعاله تجل عن العبث، وهو محمود يحمده جميع خلقه في السموات والأرض، وفي الدنيا والآخرة، له المحامد كلها، ومن حكمته تنزل القرآن هدى للناس يخرجهم من الظلمات إلى النور.

﴿مَّا يُقَالُ لَكَ إلاَّ مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ من قَبْلكَ﴾.

بني القول للمفعول، وللعلماء قولان في تقدير القائل من هو، فقال فريق منهم: القائل هو الله تبارك وتعالى، أي ما يوحي الله إلا ما أوحى للرسل من قبلك من أصول الديانات، ومكارم الأخلاق والمواعظ والذكرى، قال تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا

وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالذِي أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنَ اَقِيمُوا الدِّينَ وَلاَ تَتَفَرَّقُوا فِيهِ...﴾ (الشورى: ١٣)، وقال الفريق الآخر: القائل هم قوم النبي الكفار، أي ما يقولون للنبي من الأوصاف كقولهم ساحر وكاهن ومجنون، ووصفهم إياه بالافتراء والاكتتاب من أساطير الأولين، أي ما يقولون إلا ما قيل للرسل من قبلك، فاصبر على ما يقولون، وقد يراد المعنيان، وإن كنت أميل إلى المعنى الأول، أي لَسْتَ بدعا من الرسل، إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى الرسل من قبلك، فما لهؤلاء القوم ينكرون رسالتك وقد خلت من قبلكم رسل وأمم، أفلا يعتبرون، ﴿إِنَّ هَـٰذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَىٰ صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ﴾ (الأعلى: ١٨-١٩)، وقد بشرت بك الرسل أممهم ويجدونك مكتوبا عندهم في التوراة والإنجيل وفي الصحف الأولى، ثم قال تعالى:

﴿إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ اَلِيمٍ﴾.

إن ربك الذي ابتلاك بهم لذو مغفرة لك وللمؤمنين الصابرين على أذى المكذبين، وإن ربك لذو عقاب أليم لهؤلاء الكفار المكذبين جزاء وفاقا على إيلامهم دعاة الله بالتكذيب والإيذاء والقتل، وإن ينتهوا ويرجعوا إلى الحق يغفر لهم ما قد سلف، وفي مقابلة هذين الوصفين ترغيب وترهيب، فليصبر المؤمنون، وليحذر الكافرون الظالمون، إن بطش ربك لشديد، ثم قال تعالى:

﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْءَانًا اَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا لَوْلاَ فُصِّلَتَ ءَايَاتُهُۥ ءَآعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا هُدًى وَشِفَآءٌ وَالذِينَ لاَ يُومِنُونَ فِي ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى اُوْلَئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾.

هذه الآية قاطعة لشبهات هؤلاء المكذبين الذين ما فتئوا يختلقون خيوطا من الأوهام يضللون بها أفكار الناس خاصة الضعفاء من أقوامهم، وقد ذكروا في أول السورة أن هذا القرآن كتاب فصلت آياته قرآنا عربيا لقوم يعلمون، ذلك لأنه نزل على نبي عربي

في قوم عرب، وأن اللغة العربية أوفى اللغات بالمعاني البليغة وأدقها تعبيراً عن المقصود وأفصحها بيانا، ثم يقول الله تبارك وتعالى هنا:

﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْءَانًا اَعْجَمِيـًّا لَّقَالُوا لَوْلاَ فُصِّلَتَ ايَاتُـهُ، ءَآعْجَمِـيٌّ وَعَرَبِيٌّ﴾.

أي ولو جعلنا هذا القرآن أعجميا لقال قومك: هلا فصلت آياته باللغة التي نفهمها ولأعرضوا عنه وقالوا: آعجمي وعربي، أي أقرآن أعجمي ينزل على رجل عربي، يعني يقولون هذا تعجبا واستنكارا ويتعللون بهذا لإنكارهم إياه وإعراضهم عنه، ولكن كيف وقد نزل بلسانهم العربي، وهو كتاب فيه ذكرهم وفخرهم، فلا عذر لهم مطلقا في إنكاره والتصامم عن سماعه، ومن يضلل الله فلا هادي له.

﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا هُدًى وَشِفَآءٌ وَالذِينَ لاَ يُومِنُونَ فِي ءَاذَانِهِمْ وَقْـرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى﴾ .

قل يا محمد: هو، أي القرآن للذين شرح الله صدورهم للإيمان هدى يهديهم، وشفاء يزيل عنهم الشكوك والريب، وينفي عنهم الشبهات فلا تجد متعلقا في قلوبهم النقية المستبصرة فهو كلما تليت عليهم آياته زادتهم إيمانا وهم يستبشرون، أما الذين حجبتهم ظلمات الشرك والأهواء وحب الاستعلاء ففي آذانهم وقر وهو عليهم عمى فهم لا يسمعون الحق ولا يبصرون النور، وهو كما جاء وصفهم في صدر هذه السورة: ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِي ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِن بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ﴾ وإذا تلي عليهم القرآن فهم يلغون فيه لئلا يسمعوه فهم كلما تليت عليهم آياته زادتهم رجسا إلى رجسهم، أولئك علم الله أنهم لا يؤمنون ولا مطمع في إيمانهم ﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْراً لأَسْمَعَهُمْ﴾ (الأنفال: ٢٣)، ثم وصفهم الله بوصف آخر ينطبق عليهم فقال:

﴿أُوْلَئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾

أي أولئك كالذي ينادي من مكان بعيد، فهو ربما يسمع الصوت ولكن لا يفقه المعنى، أو كالبهائم التي لا تعقل فهي لا تسمع إلا دعاء ونداء، فلا مطمع في انتفاعهم بهذا القول فلا يزيدهم إلا إعراضا ونفورا، وفي هذا تسلية لقلب النبي ﷺ وللمؤمنين حتى لا تضيق صدروهم كثيرا بإعراض هؤلاء الكفار وتكذيبهم واستهزاءاتهم، ونعوذ بالله من سوابق الشقاء وغلبة الأهواء، وإنه لعجب أن يكون القرآن عليهم عمى والحال أنه نور وكتاب مبين، أنزله الله ليخرج الناس من الظلمات إلى النور، وفي هذا المعنى يقول البوصيري:

عجبا للكفار زادوا ضلالا ... بالذي فيه للعقول اهتداء

وقال أيضا:

قد تنكر العين ضوء الشمس من رمد ... وينكر الفم طعم الماء من سقم

وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى
ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ
بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿45﴾ مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ
وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿46﴾
۞ إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَٰتٍ مِّنْ أَكْمَامِهَا
وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ
أَيْنَ شُرَكَآءِى قَالُوٓا۟ ءَاذَنَّٰكَ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ ﴿47﴾ وَضَلَّ
عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَدْعُونَ مِن قَبْلُ وَظَنُّوا۟ مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ﴿48﴾

يسلي الله قلب نبيه والمؤمنين بهذه الآيات حتى يصبروا كما صبر الأنبياء من قبل على تكذيب أقوامهم وإذائهم، وضرب الله في هذه الآية مثلا بموسى عليه السلام فقال تعالى:

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ وَلَوْلاَ كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾.

ولقد آتينا موسى الكتاب، أي التوراة والصحف التي قبل التوراة، ويؤكد الله الخبر بلام القسم حتى لا يرتاب أحد في ذلك، قال: فاختلف فيه، أي فاختلف عليه قومه ما بين مصدق ومكذب ومرتاب، وهذه جملة معترضة جيء بها للتسلية ثم يرجع الكلام على قريش ومن معهم ممن اختلف على نبينا محمد ﷺ، وكأن قائلا يقول ويتساءل: فلِم إذن لم يهلك الله المكذبين برجز من السماء، فيأتي الجواب وهو قوله تعالى: ولولا كلمة سبقت من ربك لقضي بينهم، أي لولا قضاء من الله سبق حكمه أن الله مؤخر عذاب هذه الأمة إلى قيام الساعة لأنها آخر الأمم فاقتضت حكمته أن تبقى إلى آخر الدنيا وموعدهم الساعة ﴿بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ﴾ (القمر: ٤٦)، لولا هذا القضاء السابق من الله لقضي إليهم أجلهم فينصر الله المؤمنين ويهلك المكذبين بعذاب يستأصل شأفتهم ولكن الله أخر حسابهم إلى يوم القيامة، فهنالك العذاب ينتظر المكذبين والمرتابين.

﴿وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ﴾.

وإن هؤلاء القوم لفي شك مريب من عذاب يوم القيامة وهو لابد آتيهم لا ريب فيه، فذرهم في خوضهم يلعبون، سيأتيهم ما كانوا به يستهزئون، وكفى بجهنم سعيرا.

﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾.

قوانين ربانية في جمل قصيرة متتابعة لا تقبل النقض، يقول الله تعالى: يوم يأتي ذلك اليوم تنصب الموازين وتجزى كل نفس ما كسبت، لا ظلم اليوم، من عمل صالحا فلنفسه جزاء عمله وزيادة، ومن أساء فإساءته على نفسه بالعدل لا يزاد فيها، وما ربك بظلام للعبيد، فلا يظلم عبد بزيادة سيئة ولا بنقص حسنة، ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ فهذا الحكم في هذه الجملة القصيرة بنفي نسبة قليل الظلم وكثيره إلى الله يُطمئن

عباد الله بنفي الظلم في قانون الله، فلا تظلم نفس شيئا، فاعملوا ما شئتم من خير أو شر فإنكم لا محالة مجزيون به، وهذا الحكم يكفي لتسلية المؤمنين وتخويف المكذبين.

﴿إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾.

إلى الله وحده عالم الغيب والشهادة يرد علم الساعة، فلا يعلم متى يكون مرساها إلا هو، لا مطمع في علم منتهاها لا ملك مقرب ولا نبي مرسل بل استأثر الله بعلمها، ولا تأتي إلا بغتة، فالسعيد من آمن بها واستعد لما بعد الموت، والشقي من استخف بها وكذب بإتيانها، إن هؤلاء الكفار يستعجلون بيوم الفصل ويتساءلون عن النبإ العظيم ويقولون: متى هو؟ فرد الله عليهم بهذه الآية الكريمة ﴿إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ ثم مثلا بأشياء هي بين أيديهم ولا يعلمون غوامضها ولا مواعيد خروجها فكيف يطمعون في علم ما هو أدخل في غيب الله من تلك الأشياء التي تحدث بين أيديهم! قال تعالى:

﴿وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَاتٍ مِّنَ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنُ انثَىٰ وَلاَ تَضَعُ إِلاَّ بِعِلْمِهِ﴾.

جعلوا عدم علمهم بالساعة تعلة لتكذيبهم بها وبين أيديهم آلاف وآلاف من ثمرات تخرج من أكمامها، ولا يعلمون متى تخرج، ولا التي تسقط منها، والتي تحمل الثمرة وتبقى، وما علم ذلك إلا لخالقها، وما تحمل من أنثى بني آدم أو أنثى البهائم والوحوش والطيور والهوام والحيتان في البحر، ولا تضع إلا بعلم الله خالقها، لا يعلم ذلك إلا هو، وهم يرون ذلك ويشاهدونه ولا يعتبرون، ولكن المؤمنين يزدادون إيمانا بمشاهدة هذه الآيات الكثيرة الدالة على وحدانية الله وعظيم قدرته، وإحاطة علمه بكل شيء، فهذه ثلاثة أشياء يتكرر حدوثها آلاف وآلاف المرات في كل مكان: خروج الثمرات من أكمامها، والكم وعاء الطلع من النخل، وغلاف كل زهرة يسمى كُمًّا، والشيء الثاني حمل كل أنثى لا يعلم سره وحقيقة نموه وتطوره إلا خالقه، والثالث وضع الإناث لما تحمل من أجنة لا يعلم موعد وضعها وحقيقة ما تضع إلا الله خالقها،

وأنى لمخلوق أن يدرك هذه الأسرار ويحيط بهذه الأشياء علما، فسبحان الخلاق العليم الخبير.

﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَائِي قَالُوا ءَاذَنَّاكَ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَدْعُونَ مِن قَبْلُ وَظَنُّوا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ﴾.

واذكر يوم يناديهم ربك، والجملة ضميرها عائد إلى قوله تعالى: وما ربك بظلام للعبيد، ولو ترى يوم يناديهم ربك يقول لهم: أين شركائي الذين كنتم تعبدونهم من دوني؟ فكان جوابهم جواب الآيس المعترف بذنبه، قالوا آذاناك، أي أخبرناك يا رب وأعلمناك ما منا من أحد يشهد بشريك لك، فاعترفوا بضلالهم وكذبوا أنفسهم في زعمهم أنهم شركاء لله، ولا ينفعهم اليوم اعترافهم ولا إيمانهم، وضل عنهم ما كانوا يدعونه من قبل من هؤلاء الشركاء، لم يجدوهم ولم ينصروهم، وظنوا، أي أيقنوا بعد هذا التوبيخ المر أنهم صائرون إلى النار ما لهم من مفر وما لهم منها من مهرب، وتلك حالة كل من اتخذ من دون الله شركاء، فما أفظعه من مشهد وما أسوأه من مصير، وفي هذا العرض لمشهدهم موعظة تشق القلوب وتلج إلى الأعماق، ونعوذ بالله من مصير الظالمين.

لَّا يَسْـَٔمُ ٱلْإِنسَٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلْخَيْرِ وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ فَيَـُٔوسٌ
قَنُوطٌ (49) وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ
لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِى وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ
إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟
وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ (50) وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ
أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ (51)
قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِۦ مَنْ
أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ (52) سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا
فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ
أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ (53) أَلَآ إِنَّهُمْ
فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمْ أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطٌۢ (54)

يكشف الله في هذه الآيات عن طبع في النفس الإنسانية، وهو خالق النفس وغرائزها، ويعلم ما يصلحها، ولا يصلحها إلا الدين الحنيف، ويتوعد الله أصحاب هذا الطبع المنحرف بالعذاب الغليظ تخويفا لهم ليرتدع من كانت فيه بقية من خير فينجو من عذاب الله، يقول الله تبارك وتعالى:

﴿لاَ يَسْأَمُ الانسَانُ مِن دُعَآءِ الْخَيْرِ وَإِن مَّسَّهُ الشَّرُّ فَيَئُوسٌ قَنُوطٌ﴾.

أما الشطر الأول من الآية فهو طبع الإنسان من حيث هو إنسان، وأما الشطر الثاني فهو طبع الكفرة ﴿إِنَّـهُ لاَ يَـايْئَسُ مِـن رَّوْحِ اللَّـهِ إِلاَّ الْقَـوْمُ الْكَـافِرُونَ﴾ (يوسف: ٨٧)، إن من طبع الإنسان أنه دؤوب في طلب الخير، والخير هنا هو المال والجاه والعز والسلطان والصحة والعافية، فالإنسان الذي هو جنس الإنسان يسعى دؤوبا في الاستزادة من الخير بكل وسيلة، ولا يسأم، أي لا يمل ولا يقلق من ذلك وإن

مسه الشر أحيانا قليلة فإنه ييأس ويقنط، بل هو كثير اليأس والقنوط، واليأس معنى يكون في القلب وهو اعتقاد عدم حصول الميؤوس منه، والقنوط وصف لحالة اليأس، وهو أثر اليأس المتمكن فيه فيظهر عليه بالانكسار والانحراف في تصرفاته، يعرف من يراها أنه يائس جازع، وهي حالة الكفار وضعفاء الإيمان إن لم يتداركوها بالإنابة إلى ربهم وانتظار الفرج منه وحسن الظن فيه، وانتظار الفرج عبادة.

﴿وَلَئِنَ اَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي وَمَآ أَظُنُّ السَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِنْ رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّيَ إِنَّ لِي عِندَهُ لَلْحُسْنَىٰ﴾.

يقول الله تبارك وتعالى: ولئن أذقنا الإنسان الكنود رحمة منا، أي فرجا ونعمة بعد ضيق ومحنة مسته ليقولن هذا لي، أي بفضل تدبيري واكتسابي، وهذا شيء أستحقه، وينكر الله عليهم هذه المقالة، وأي فضل وأي استحقاق بل الكل من فضل الله، فمن أعطاك عقلا وقوة بدن، وحصافة رأي، ولو أنك عبدت الله دهرا طويلا ما أديت شكر نعمة من نعم الله عليك، ويبلغ به الجحود والكفر أن يقول: وما أظن الساعة قائمة، فيشكّون في قيام الساعة كلما أنذرهم بقيامها المنذرون ويفرضون أن لو قامت أنهم يلقون عند الله الحسنى كما أن لهم الحسنى فيغترون بنعم الله عليهم وهم لا يشكرونها ويطمعون إن رجعوا إلى الله أن يجدوا خيرا منها، وهو اغترار يفتن به الكفار، فرد الله عليهم بقوله:

﴿فَلَنُنَبِّئَنَّ الذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾.

أكد الله الخبر أنه ينبئهم بما عملوا من كفر وطغيان وظلم وفسوق، وليس المقصود مجرد التنبئة بل المقصود ما بعد ذلك من الجزاء بالسوءى، وقد بينه الله أنه إذاقتهم من عذاب غليظ، واختار له هنا الوصف بالغلظة جزاء وفاقا لهم على غلظتهم وقساوتهم على أنبيائه ونذره وكفرهم بآيات الله، وقد جاء الإظهار في موضع الإضمار بالتصريح بالموصول وصلته للإيذان بعلية معنى الصلة وهي الكفر في استحقاقهم العذاب الغليظ.

﴿وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى الاِنسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ﴾.

يكشف الله بهذه الآية الكريمة عن طبع آخر من طباع هذه النفس الإنسانية، وهو أعلم بها، هو طبع عام في الإنسان من حيث هو إنسان، ولا يستثنى منه إلا الإنسان الذي هذب طبعه الإيمان وشرائع الإيمان كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الاِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا إِلاَّ الْمُصَلِّينَ الَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلاَتِهِمْ دَآئِمُونَ...﴾ (المعارج: ١٩ وما بعدها)، يقول الله تعالى:

﴿وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى الاِنسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ﴾.

إذا أنعمنا على الإنسان بنعمة من نعم الدنيا، المال أو السلطة أو صحة البدن أو نبوغ الفكر والحصول على بعض الشهادات فإنه يطغى بذلك ويتكبر وينسى المنعم ولا يشكره، بل يعرض عن الحق الذي يأتيه به أنبياء الله ورسله أو خلفاؤهم، فلا يقترب منهم ولا يستمع إليهم بل يعرض وينأى بجانبه ويبتعد ويثني عطفه أنفة واستكبارا، وفي التعبير بالجانب تصوير لحالة تولي المتكبرين وإعراضهم بجنوبهم عن دعاة الله حين يدعونهم إلى الحق، هذا في حال العافية أما إذا مسهم البلاء فهم كما قال تعالى:

﴿وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ﴾.

وإذا مسه الشر، مرض أو فقر أو زوال سلطة ونفوذ أو غير ذلك من أنواع البلاء فإنه يكون حينئذ ذا دعاء واسع عريض يتشبث بكل ما حوله فيلتجئ إلى الأوثان والأضرحة والقباب يستغيث بأصحابها وينذر لهم، وقد يلتجئ إلى الكهنة والعرافين والسحرة فيذله الله ويرغمه لمن لا يرضاهم خدماً، ومكر الله شديد، تلك حالة أهل الكبر والطغيان، أما أهل الإيمان فإنهم يتشبثون بإيمانهم ويفوضون أمرهم إلى الله ويحسنون الظن به ويخلصون له الدعاء وحده، ولا يشركون به شيئا، ولا تظهر على تصرفاتهم آثار الجزع والهلع، وشتان بين الفريقين.

﴿قُلَ اَرَآيْتُمُ إن كَانَ مِنْ عِندِ اللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِ مَنَ اَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقِم بَعِيدٍ﴾.

في هذه الآية الكريمة إنصاف واستدراج للبحث والاعتراف ودعوة إلى نبذ التعصب والخلاف، وكذلك آيات القرآن في مجادلة المنكرين كلها دعوة إلى إعمال الفكر والنظر، وإيقاظ العقل، وإطلاق الوجدان من قيود التقليد والجمود، إن الله تبارك وتعالى يخاطب نبيه وكل داعية إلى الله بعده ﴿قُلَ اَرَآيْتُمُ إن كَانَ مِنْ عِندِ اللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِ مَنَ اَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقِم بَعِيدٍ﴾.

قل أرأيتم أيها الشاكون في هذا الكلام أنه من عند الله والمكذبون به من غير علم، أرأيتم إن كان من عند الله حقا ثم أنكرتموه فأنتم في شقاق بعيد، ولا أظل منكم وقد جاءتكم البينات من ربكم فأنكرتموها وجادلتم في الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير، من أضل ممن هو في شقاق بعيد، وهذا الاستفهام يراد به النفي، أي لا أظل منكم أيها المشاقون المكذبون للحق، المجادلون فيه بغير سلطان مبين، وهذا نوع عجيب من الخطاب يأتي في القرآن الكريم فيه استدراج للخصم إلى النظر المجرد والإنصاف لا يعرض عنه إلا كل مكابر أعمى البصيرة لا خير فيه، ولا شك أنهم يملكون حجة في رد هذا الكلام فرأس مالهم الشك والعمى، أليس خيراً لهم أن ينصتوا إلى هذا الخطاب ويرجعوا إلى إعمال الفكر! ومن أراد الله به خيرا فإنه يهتدي بهذا الكلام ويرجع إلى الصواب.

﴿سَنُرِيهِمُ ءَايَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمُ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾.

الضمير هنا ينصرف إلى قريش ومن معهم ممن كذب رسول الله وكذب بالكتاب أولا ثم ينصرف إلى كل المكذبين إلى يوم القيامة؛ لأن القرآن نزل للناس كافة أبيضهم وأسودهم وأحمرهم، دانيهم وقاصيهم، أما قريش فقد أراهم الله صدق آياته في انتشار الإسلام وظهوره على الكفر ودخول الناس في دين الله أفواجا، وأراهم آياته في أنفسهم

بقتل سبعين من كبارهم يوم بدر ووقوع مثلهم في الأسر، ونصر الأذلة القلة عليهم وانهزامهم يوم فتح مكة، ووقوعهم تحت سلطان محمد رسول الله ﷺ، وما ذاك إلا أن سلطانه من سلطان الله، ولو كان كذابا ما نصره الله هذا النصر العظيم، وأما سائر المكذبين من الأجيال المتعاقبة حتى قيام الساعة فإن الله تعالى وعد ووعده الحق أنه سيريهم آياته في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق، أي الكتاب حق من عند الله.

والسين جاءت في اللغة العربية للتنفيس، والإراءة هذه مستمرة لا تتوقف حتى تظهر الآيات الكبرى قبيل قيام الساعة، ولا تزال آيات الله تظهر في آفاق السماء وأطراف الأرض وأعماقها، وقد توجه الإنسان إلى غزو الفضاء، واخترعت المرايا المكبرة آلاف المرات، واخترعت الأجهزة المصورة والمرسلة عبر الفضاء فظهرت الآيات التي تؤيد ما جاء به القرآن منذ أربعة عشر قرنا ولا تزال تظهر، وتقدمت علوم الإنسان والحيوان وظهرت آيات الله في أنفسنا ولا تزال تظهر، وبظهور عظمة الله وقدرته وصنعه الدقيق المتقن في تكوين الأجسام وأجهزتها الدقيقة.

لقد اطلع علماء هيئة الفلك على آيات كثيرة ولا يزالون من بحار علومه في الوشل، وكذلك علماء الطب يذكرون أشياء عجيبة في جسم الإنسان وتركيبه وأجهزته هي من آيات الخلاق العليم، وهذه العلوم تدعو إلى الإيمان وتزيد المؤمنين إيمانا بربهم وآياته، وما ذلك إلا لأنها يتبين بها أن كلام الله هو الحق، وأن الله نور السموات والأرض، وأن الله هو الحق المبين، ثم قال الله تعالى بعد هذا:

﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾.

استفهام تعجبي إنكاري من حالة هؤلاء المكذبين الذين يكذبون بكتاب الله ويشكون في صدق رسوله، والحال أنه يكفي ربك شهيدا على كل شيء، وهو خالق

كل شيء، وبيده ملكوت كل شيء، وإليه مرجع كل شيء، فكيف لا تكون شهادته فوق كل شهادة ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ﴾ (الأنعام: ١٩).

﴿أَلَآ إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمْ أَلَآ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌ﴾.

ألا حرف تنبيه واستفتاح، يقول الله تعالى: ألا إن المكذبين بعد كل هذه الآيات البينات في شك من لقاء الله الذي خلقهم بعد أن لم يكونوا شيئا فهم يشكّون في الكرّة الثانية وينكرون لقاء ربهم، وهذا الإنكار هو الذي جرأهم على كل المخالفات، ويظنون أنهم يعجزون الله وما هو بمعجزين، ألا إن الله بكل شيء محيط، قد أحاط بكل شيء قدرة وعلما، وفي هذا التذييل تسلية لقلب النبي ومن معه من المؤمنين، كما أن فيه إنذار للكافرين وموعظة للمتقين، وهكذا تنتهي السورة بمثل ما بدئت به من تحقيق الحق من صدق كتاب الله ورسوله، والرد على هؤلاء المكذبين الضالين، والتحذير من فتنتهم وبيان إحاطة الله بهم وبكل شيء، فتبا للمكذبين وويل للمشركين والكافرين من مشهد يوم عظيم، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، وإلى الله تصير الأمور، والحمد لله رب العالمين.

تفسير سورة الشورى

سورة الشورى مكية وآياتها ٥٣

بسم الله الرحمن الرحيم

حمٓ ﴿١﴾ عٓسٓقٓ ﴿٢﴾ كَذَٰلِكَ يُوحِيٓ إِلَيۡكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ
ٱللَّهُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٣﴾ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ
ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ ﴿٤﴾ يَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرۡنَ مِن فَوۡقِهِنَّۚ
وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِمَن فِي
ٱلۡأَرۡضِۗ أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥﴾ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن
دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيۡهِمۡ وَمَآ أَنتَ عَلَيۡهِم بِوَكِيلٖ ﴿٦﴾
وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ قُرۡءَانًا عَرَبِيّٗا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلۡقُرَىٰ وَمَنۡ
حَوۡلَهَا وَتُنذِرَ يَوۡمَ ٱلۡجَمۡعِ لَا رَيۡبَ فِيهِۚ فَرِيقٞ فِي ٱلۡجَنَّةِ وَفَرِيقٞ
فِي ٱلسَّعِيرِ ﴿٧﴾ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَهُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَلَٰكِن يُدۡخِلُ
مَن يَشَآءُ فِي رَحۡمَتِهِۦۚ وَٱلظَّٰلِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٨﴾
أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَۖ فَٱللَّهُ هُوَ ٱلۡوَلِيُّ وَهُوَ يُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَهُوَ
عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴿٩﴾

سميت هذه السورة المباركة سورة الشورى لذكر الشورى في آياتها، وتسمى أيضا باسم الحروف المفتتحة بها ﴿حم عسق﴾، وهي مكية النزول، تعالج قضية الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر كأخواتها المكيات، ومناسبتها بالتي قبلها والتي بعدها قوية كمناسبة فواتحها بخواتمها.

﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ حم عَسِقَ﴾.

أما الحروف المقطعة التي في أول هذه السورة وأمثالها فهي تنبيه من الله عز وجل إلى أن هذا الكلام مؤلف من الحروف التي ينطقون ولكنه أعجزهم أن يأتوا بسورة

مثله، والله أعلم بمراده منها، وفيها وجه آخر من الإعجاز ذكره الزمخشري وهي طريقة النطق بها أَلْهَمَ الله نبيه أن ينطق بها نطقا صحيحا هكذا: ألف لام ميم، وهكذا: حاميم عين سين قاف، ولم يكن تعلمها في كتابٍ ولا في مدرسة، ولم يكن ليعرف ذلك لولا الوحي، وهو الرجل الأمي، قال البوصيري: "كفاك بالعلم في الأمي معجزة".

وقوله تعالى:

﴿كَذَٰلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ وَإِلَى الذينَ مِن قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾.

كذلك، أي كمثل ذلك الوحي الذي يوحى إليك يوحى إلى الأنبياء والرسل من قبلك، فما أنت بدعا من الرسل، والموحي هو الله العزيز الحكيم، العزيز الذي ذلت لعزته جميع خلقه، الحكيم الذي يضع الأشياء في مواضعها المناسبة، وليس ربك بهذا يعتز بكم من ذلة، ولا يستكثر بكم من قلة، بل يريد الله عز وجل هدايتكم، ويريد أن يتوب عليكم ويبيّن لكم الحكمة من خلقكم حتى تعبدوه، وتسعدوا برضاه وثوابه، وتنجو من سخطه وعقابه، فهذا الوحي نعمة الله عليكم، فما لكم عن التذكرة معرضين.

﴿لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾.

لله ما في السموات وما في الأرض، خالقهن ومالكهن وما فيهن، فلا تنفعه طاعتكم ولا تضره معصيتكم وإعراضكم، وهو العلي القاهر فوق عباده العظيم، ينبغي لكم أيها المخلوقون الضعفاء أن تتواضعوا لعظمته وإن لم تفعلوا أيها الكفار من الإنس والجن فقد ذلت لعظمته السموات والأرض ومن فيهن، وسبح له ما في السموات وما في الأرض، وسجد له من في السموات ومن في الأرض.

﴿يَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّ وَالْمَلاَئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِي الأَرْضِ﴾.

التفطر هو الانشقاق، وقد اختلف المفسرون في علة تفطر السموات من فوقهن، فقال بعضهم: لكثرة الملائكة المسبحين من فوقهن، فهن يكدن يتفطرن، وقال آخرون:

إن علة قرب تفطر السموات هو تأثر السموات باتخاذ الناس أندادا لرب العالمين، فهن منكرات لشركهم، غاضبات من ذلك، يكدن يتفطرن، أي يتشققن ويسقطن كسفا، وهذا هو المعنى الذي أميل إليه، وهو الوارد في سورة مريم في قوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ اتَّخَذَ الرَّحْمَنِ وَلَدًا لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا يَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا وَمَا يَنبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا (مريم: ٨٨ـ٩٢)، وما فسر القرآن مثل القرآن.

أي يكاد السموات يتفطرن سخطا لما ينسبه الكفار لربهم من الشريك والولد، ويكدن يسقطن كسفا عليهم لولا لطف الله ولولا استغفار الملائكة لأهل الأرض، واستغفارهم هو الرغبة إلى الله أن يتجاوز عنهم صفحا ولا يعجل لهم العقوبة لعلهم يتوبون، أو لعل الله يخرج من أصلابهم من يعبد الله، وليس هو طلب مغفرة الآخرة والنجاة من النار، وقد ورد عن النبي ﷺ أنه قال: {اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون}، إنه طلب من الله أن يستأني بهم ولا يؤاخذهم بذنوبهم لعلهم ينتهون، أو يخرج من أصلابهم ذرية صالحة.

أما تفطر السموات من فوقهن فقد يكون ضميره عائد إلى السموات، والمعنى صحيح، وقد يكون عائدا إلى الأرضين التي يقع فيها الشرك والمعاصي، وذكر تسبيح الملائكة في السموات فيه مناظرة يتبين بها حقارة هؤلاء المشركين في الأرض، فما قيمتهم وما نسبتهم الضئيلة إلى عظمة وكثرة الملائكة المتعبدين لرب العالمين في السموات، واستغفارهم لأهل الأرض من لطف الله بعباده.

﴿أَلاَ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾.

"ألا" حرف استفتاح وتنبيه، جاءت هنا لتقرر في نفوس الخلق مغفرة خالقهم ورحمته بهم، ولولا ذلك لعجل لهم العقوبة، ولخسف بهم الأرض أو أسقط عليهم كسفا من السماء أو عاقبهم بذنوبهم بأي نوع من أنواع العقوبات.

﴿وَالذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَولِيَآءَ اللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾.

والذين أشركوا بالله واتخذوا من دونه أولياء، الله حفيظ عليهم، أي رقيب عليهم بشركهم ومعاصيهم، فهم لا يعجزون الله ولا يؤخرهم إلا إلى أجل مسمى، ولست عليكم بوكيل، إنما أنت منذر وهاد ومبلغ، إن عليك إلا البلاغ وأمرهم إلى الله، وفي هذه الآية تسلية لقلب النبي ﷺ والمؤمنين معه من بعده، وفيه إنذار للكفار المكذبين المعاندين للنذر.

﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾.

وكذلك، والإشارة إلى الآية التي في أول السورة ﴿كَذَٰلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ وَإِلَى الذِينَ مِن قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ أي أوحينا إليك قرآنا عربيا، أي بلغتك العربية، وكذلك تتشرف اللغة بنزول القرآن على لسانها، ويتشرف قومك العرب بنزول القرآن على لغتهم، وتقوم عليهم الحجة فهم يفهمون معانيه، ويدركون حلاوته وبلاغته، ثم لا يستطيعون أن يأتوا بسورة من مثله، والغرض من إيحاء القرآن إلى محمد ﷺ بلغته ولغة قومه هو التبليغ والإنذار.

﴿لِّتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لاَ رَيْبَ فِيهِ﴾.

الإنذار هو التخويف والتحذير من شر مقبل ليتقى، أم القرى هي مكة المكرمة، سماها الله تبارك وتعالى أم القرى؛ لأن فيها المسجد الحرام ومشاعر الحج، والأماكن المقدسة، والإنذار يتعدى لمفعولين، أي لتنذر أم القرى ومن حولها يوم الجمع، وهو اليوم الذي يجمع الله فيه الأولين والآخرين، وقال بعض المفسرين: يوم يجمع الله الأرواح بأجسادها، والمعنى الأول أظهر، والمراد بمن حولها كل البلاد التي تحيط بمكة من قريب أو بعيد، أو لتنذر أهل مكة ومن حولهم قرب قيام الساعة حتى يستعدوا لها

بالإيمان والأعمال الصالحة، ولا ريب في إتيان يوم الجمع وهو وعد من الله، وكان وعد الله مفعولا، والناس فيه على فريقين لا ثالث لهما:

﴿فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ﴾.

فريق من الناس يومئذ مآلهم الجنة خالدين فيها، وفريق من الناس مآلهم النار خالدين فيها، وما ظلمهم الله ولكن ظلموا أنفسهم، وهذا حكم الله وجزاؤه العادل، وشتان ما بين الفريقين، ويكفي العاقل أن يقرأ هذه الآية البينة الواضحة ويتأملها، ويحاسب نفسه ويتساءل في أي الفريقين يكون ذلك اليوم؟ ولا يعلم أحد منا جواب هذا السؤال لكن المقصود منه الاعتبار والخشية والادّكار.

﴿وَلَوْ شَآءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِن يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِي رَحْمَتِهِ﴾.

ولو شاء الله لجعل الناس أمة واحدة، أي لجمعهم على الهدى كما جاء في سورة الأنعام، وما فسر القرآن مثل القرآن، وذلك بأن يكرههم على الإيمان إكراها أو ينزع من قلوبهم نوازع الميل إلى الكفر والعصيان ويجعلهم كالملائكة عقولا بلا شهوات، ولكن حكمة الله اقتضت أن يجعل الإنس والجن ذوي عقول وشهوات ويبتليهم حتى يعلم منهم من كان شاكرا أو كفورا، ويدخل من يشاء في رحمته بالتوفيق وهداية الإيصال، والله يؤتي فضله من يشاء من عباده، فلا جبر كما يدّعي الجبرية، ولا كما تقول القدرية أن الإنسان يخلق أفعاله بل يقدّرها الله تعالى ويخلقها ويثيب الله العباد على اختيارهم الطاعة كما يعاقبهم على اختيارهم المعصية، ولا نتكلم في قدر الله فذلك سر من أسراره، وقد جعل الله من عباده السعداء والأشقياء، ويأمر الملك بكتابة ذلك على العبد يوم ينفخ فيه الروح وهو في بطن أمه، وكلٌّ ميسّر لما خلق له من خير أو شر ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلاَّ أَن يَشَآءَ اللَّهُ﴾، فما علينا إلا أن نعمل ونحسن الظن بالله ونتوكل على الله ونفوض أمرنا إلى الله، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

﴿وَالظَّالِمُونَ مَا لَهُم مِّنْ وَّلِيٍّ وَلاَ نَصِيرٍ﴾.

والظالمون لأنفسهم بالشرك والمعاصي، والظالمون للناس بالبغي ما لهم من دون الله من أولياء ولا نصراء، فلا مولى لهم يلي أمورهم، ولا نصير ينصرهم أو يشفع لهم، وهم في عذاب الله عَلِمنا ذلك لأنهم ليسوا من الذين يدخلهم الله في رحمته، ولم يذكر الله مصيرهم هنا لهوانهم على الله، ووصفهم بالظلم حتى نعلم أن الله لم يظلمهم بالعذاب بل كانوا هم الظالمين لأنفسهم، فما لهم من ولي ولا شفيع يطاع، ولا تغني عنهم آلهتهم الذين اتخذوهم من دون الله أولياء من الأوثان والأضرحة والقباب والنصب، لقد كانوا يعكفون عنها وينذرون لها ويتقربون لها بالذبائح والقرابين، يرجون نصرتها، فما أغنتهم شيئا فما لهم يوم القيامة من ولي ولا نصير.

﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَآءَ﴾.

جاء هذا التعبير بعد نفي الولي والنصير عن الظالمين، وهو يجري مجرى التعيير والتهكم والسخرية بهؤلاء الظالمين الذين اتخذوا من دون الله أولياء يرجون ولايتهم وشفاعتهم، وجاءت "أمْ" هنا للإضراب بمعنى "بل" ولكن لا يفارقها معنى الاستفهام المراد به الإنكار والسخرية على هؤلاء الذين اتخذوا من الأوثان والقبور والقباب أولياء يرجون شفاعتهم ويدعونهم وهم عن دعائهم فاغلون، قال الله تعالى:

﴿فَاللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ وَهُوَ يُحْيِ الْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

ينفي الله كل ولاية غير ولاية الله، ويقرر مؤكدا أن الولاية لله وحده، فالله هو الولي وهو يحي الموتى، وليس من أوليائهم من يحي ذبابة، وهو على كل شيء قدير، وأولياؤهم لا يقدرون على شيء، فشتان ما بين ولي وولي، من يحي ويميت، ويملك النفع والضر، ومن لا يملك لنفسه ضرا ولا نفعا بل ضره أقرب من نفعه، أي ضر عبادته من دون الله أقرب من نفعه المرتجى، فما لكم كيف تحكمون، وفي قول تعالى: ﴿وَهُوَ يُحْيِ الْمَوْتَىٰ﴾ إشارة إلى إحياء الله عباده المؤمنين بحياة الإيمان وتنوير قلوبهم

بنور العلم، وتلك من أعظم نعم الله عليهم، ومن أبرز آثار ولاية الله لهم ولطفه بهم، وكفى بالله وليا وكفى بالله نصيرا.

وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُ
إِلَى اللَّهِ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ (10)
فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ
الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ
الْبَصِيرُ (11) لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَبْسُطُ الرِّزْقَ
لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (12)

يقول الله تبارك وتعالى:

﴿وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ﴾.

أما الاختلاف فمعروف يكون باختلاف المدارك والفهوم والأغراض، والشيء عام وهو أدل شيء على العموم، ويطلق حتى على المعدوم، تقول هذا شيء موجود وذاك شيء لا وجود له، ودلت "من" التي قبلها على الاستغراق، أي كل ما اختلفتم فيه من جليل أو دقيق فمرده إلى الله، أي مردود إلى كتاب الله وسنة رسوله وأولي الأمر منكم أو علمائكم ليعلمه الذين يستنبطونه منهم، وهذا بإرشاد الله تعالى أسلم الطرق في فض الخلافات وإنهاء النزاعات، فلا تقع بسببها العداوات، والخلاف عام في جميع الأمور لا كما يقول البعض أنه مقصور على الخلاف بين النبي وقومه، لأن العبارة ولو نزلت في هذا ولكنها عامة الدلالة، والعبرة كما يقول الأصوليون بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

﴿ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾.

الإشارة جاءت بصيغة البعد للدلالة على علوّ شأن الله عز وجل، ونُعت بربّي وهو رب النبي ورب كل مؤمن، ورب الناس جميعا، ورب العالمين، ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ عليه توكلي وثقتي واعتمادي في جميع أموري، وعليه يتوكل كل مؤمن ﴿وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ إليه رجوعي، والإنابة هي الرجوع، وجاء التوكل بصيغة الماضي لأن التوكل معنى ينعقد عليه قلب المؤمن ويمضي به ولا يتحول ولا يخلو منه أبدا، أما الإنابة فهي معنى يتجدد ولذلك جاء التعبير عنه بصيغة المضارع، فهو كلما غفل واجتذبته نوازع العوائق تذكر فأبصر فأناب إلى ربه، فهو دائما ينيب إلى ربه بعد الغفلات، وقد كتب الله جنته لكل عبد منيب ولكل أواب حفيظ، والإنابة والإياب صفتا عباد الله المتوكلين عليه المؤمنين به.

﴿فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾.

الفطر هو الخلق، وفيه معنى الشق وهو شق حجاب العدم عن وجود الشيء المخلوق، وقرأ نافع وعاصم ﴿فَاطِرُ﴾ بالرفع، وهو خبر لمبتدأ محذوف تقديره هو، وقرأه بعض القراء بالجر نعت للضميرين السابقين، والله تبارك وتعالى فاطر السموات والأرض، أي خالقهن ومبدعهن على غير مثال سابق، فتأملوا يا أولي الألباب في خلق السموات وفي نظام سير الشمس والقمر والنجوم والكواكب في أفلاكها، وتأملوا في الأرض وجبالها المرساة، وأنهارها المجراة، وأشجارها ودوابها، وما بين السموات والأرض من السحب المسخرة، والرياح المرسلة، والطيور في أجوائها ما يمسكهن إلا الله، تأملوا في آيات الله في السموات والأرض وما بينهما ليقوى إيمانكم بربكم فتزدادوا له حبا وهيبة، وتتوكلوا عليه وحده، وتنيبوا إليه.

﴿جَعَلَ لَكُم مِّنَ اَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الاَنْعَامِ أَزْوَاجًا يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ﴾.

من آيات الله ومن آلائه أن جعل لنا من أنفسنا، أي من جنسنا أزواجا، ومن أنعامنا أزواجا، والزوج الذكر والأنثى، ومن كل شيء خلق الله زوجين، وفي تأمل هذا الخلق عبرة للمعتبرين وآيات للمتأملين، وهذا التزاوج بين الأنواع جعله الله سببا في تكثير النسل، قال تعالى: ﴿يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ﴾ أي يبثكم وينشركم في الأرض بسبب هذا الجعل فيكثر نسلكم ونسل أنعامكم.

﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾.

هذه الآية الكريمة تنفي المثلية عن الله، وقد تخبط بعض المفسرين في إسناد الكاف إلى المثل، كأن لله مثلا، تعالى الله عن ذلك، ولا فائدة في عرض فلسفتهم لأنها تضليل وخروج عن منهج الصواب، والمعنى مفهوم تستعمله العرب في كلامها، يقول أحدهم: مثلي لا يفعل كذا، أو مثلي يفعل كذا وكذا، والمقصود هو المتكلم لا مثله، وكذلك نفهم من هذه الآية: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ أي ليس كالله شيء، أو ليس مثل الله شيء، وإسناد الكاف إلى المثل للمبالغة في نفي المثلية، وهو من قبيل الكنايات الدالة على المقصود، فلا حاجة إلى عرض فلسفاتهم، والمعنى واضح مفهوم.

﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾.

وصف الله تعالى بالسمع والبصر بتعبير فيه الحصر، وذلك بتعريف الخبر بالألف واللام، فكأنه لا سميع ولا بصير غيره، والحق أن السمع الحقيقي والبصر الحقيقي لله وحده، فهو المدرك للمسموعات ما ظهر منها وما بطن، والمدرك للمبصرات في ظلام الليل وضوء النهار من غير آلة، فهو السميع بذاته من غير أصمخة ولا آذان، والبصير بذاته من غير حدقة ولا أجفان، وكل من سواه لا يسمع ولا يُبصر إلا بمدد منه ولا يسمع إلا بآلة السمع، ولا يبصر إلا بآلة البصر، ولا يدرك ذلك إلا بشروط في آلتي السمع وشروط في المسموعات والمبصَرات لو اختل منها شرط واحد فلا سمع ولا

بصر، فشتان بين سمع الله وبصره وبين سمع المخلوقات وبصرها، ليس كمثله سامع ولا مبصر، فهو الذي نتوكل عليه وإليه ننيب وحده.

﴿لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾.

لله تبارك وتعالى مقاليد السموات والأرض، أي مفاتيح كنوز وأسرار السموات والأرض يملكها وحده ويعلمها وحده، لا مطمع لأحد أن ينال من ذلك شيئا إلا بإذنه وتيسيره، قال تعالى في سورة الأنعام: ﴿وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لاَ يَعْلَمُهَآ إِلاَّ هُوَ﴾ (الأنعام: ٥٩)، والمفاتح هنا هي الخزائن.

﴿يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَّشَآءُ وَيَقْدِرُ﴾.

بيده وحده أمر أرزاق المخلوقات فهو يبسطها كيف يشاء لمن يشاء ويقدرها، أي يضيّقها متى اقتضت حكمته كيف يشاء لمن يشاء، يعطي هؤلاء ويمنع هؤلاء، لا مانع ولا معطي لما منع.

﴿إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾.

فهو يبسط الرزق ويقدره لمن يشاء بمقتضى علمه وحكمته، ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ (هود: ٦) الله يعلم مصادر الأرزاق ومواضعها ومقاديرها، ويعلم المخلوقات ومستقرها ومستودعها، وهو الذي خلقها ويحييها ويميتها، بيده أمرها وعنده آجالها، وليس ذلك لأحد غير الله.

﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَالَّذِيٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا۟ الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِيٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِيٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾ وَمَا تَفَرَّقُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا۟ الْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿١٤﴾ فَلِذَٰلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ اللَّهُ مِن كِتَٰبٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴿١٥﴾ وَالَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِي اللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُۥ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿١٦﴾

الله الذي له مقاليد السموات والأرض، والذي يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر، لم يخلقكم عبثا، ولم يترككم سدى بل هداكم وشرع لكم، أي أنهج وبيّن لكم نهجا مستقيما من الدين مثل ما شرع للرسل من قبل محمد ﷺ نوحا والذين من بعده، وأوحينا إليهم كما أوحينا لك فلست بدعا من الرسل، وفي الالتفات والإتيان بنون العظمة والتصريح بالوحي نكت بلاغية مقصودة لها أثرها في النفوس، فهذا الذي يدعوكم إليه رسولكم وحي لا مرية فيه، ثم قال تعالى:

﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالذِي أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنَ اَقِيمُوا الدِّينَ وَلاَ تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾.

أي وصيناكم بما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين، أي التزموا بعقائده وأركانه وسننه كما أمرتم، واتقوا الله حق تقاته، واتبعوا الصراط السوي والسبيل الأقوم ولا تبغوها عوجا ولا تتفرقوا في دينكم شيعا، أي لا تختلفوا في أصول دينكم وعقائده وإقامته كما أمر الله، أما اختلاف العلماء في بعض النظريات الكلامية وفي فروع الشريعة فمن التفقه في الدين الذي لا يضيق فيه الاختلاف، فقد اختلف كبار الصحابة - رضي الله عنهم - في مثل هذا.

وذكر الله تعالى نوحا لأنه أول المرسلين ورسولنا خاتم الرسل، فهو ربط بين طرفي الرسالة وذلك يؤذن بوحدة الدين، وذكر الله ثلاثة رسل من الوسط وهم إبراهيم وهو الجد الثالث بعد آدم ونوح، تعظمه كل الأمم التي تؤمن بالرسالات والوحي، وذكر موسى لأن شريعته أوسع الشرائع، فهي أشبه شيء بشريعة محمد ﷺ، وذكر عيسى لأنه أقرب الرسل إلى رسولنا وشريعته أدنى الشرائع زمنا إلينا، وهؤلاء الرسل هم أولوا العزم الذي جاء أمر الله إلى نبيه محمد بالتشبه بهم في الصبر، قال تعالى: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾ (الأحقاف: ٣٥)، وجاء في عقيدة العزابة التي كنا نحفظها ونحن طلبة صغار:

أولوا العزم نوح والخليل كلاهما ... وموسى وعيسى والنبي محمد

وجاء لفظ "الذي" وهو أصل الموصولات في الموحى إلى النبي محمد ﷺ لتأكيد الأمر في حقيقة ما جاء في الوحي إلى محمد ﷺ ووجوب اتباعه كله لأن شريعته ناسخة الشرائع، وهي المهيمنة الخالدة المحكمة، فلا ناسخ لها حتى تقوم الساعة.

﴿كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ﴾.

كبر على المشركين، أي شق على أهل الشرك وصعب عليهم ما تدعوهم إليه من توحيد الله بالعبادة كما توحّد بالخلق، ونبذ الأصنام والطواغيت ذلك لأنهم ألفوا الشرك وركوب الشهوات والأهواء، وران على قلوبهم ما كانوا يكسبون، وغاظهم أن يأتي هذا الأمر على يد رجل فقير نشأ يتيما وقالوا: هلا جاء به رجل عظيم من عِليّة القوم، وما علمُوا أن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء، قال تعالى:

﴿اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَآءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ﴾.

الله وحده هو الذي يصطفي من عباده ويدني إليه من يشاء، يتخذ منهم رسلا وأولياء ويهدي إلى صراطه من ينيب إليه، وليس الأمر إليكم، ﴿اللهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالاَتِهِ﴾ (الأنعام: ١٢٤)، وقد يكون الاجتباء والهداية كلاهما هنا للمؤمنين عموما أما الرسل فقد جاء في حقهم الاصطفاء، قال تعالى: ﴿اللهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلآئِكَةِ رُسُلاً وَمِنَ النَّاسِ﴾ (الحج: ٧٥)، وكذلك يجعل الله من المؤمنين درجات، فهو يجتبي إليه ويؤوي أهل الخصوصية الأخيار، ويهدي الأبرار الصالحين إلى صراطه المستقيم، أما المشركون الذين شق عليهم ما تدعوهم إليه فدع أمرهم إلى الله ربهم، ولا تذهب نفسك عليكم حسرات، إن عليك إلا البلاغ، ﴿مَنْ يَّهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي وَمَنْ يُّضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُّرْشِدًا﴾ (الكهف: ١٧).

﴿وَمَا تَفَرَّقُوا إِلاَّ مِنْ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ﴾.

اختلف العلماء في مرجع الضمير في قوله تعالى: ﴿تَفَرَّقُوا﴾ فبعض منهم يرى أنهم بنوا إسرائيل لأنهم بنوا إبراهيم وقوم عيسى وموسى، وبعضهم يرى ـ وهو الراجح في نظري ـ أن الضمير أعم من ذلك فهم جميع الأقوام والأمم الذين اختلفوا على رسلهم وتفرقوا بعدهم في دينهم شيعا، ولم يتبعوا وصاياهم في أمرهم بالاجتماع على كلمة الحق ونهيهم عن التفرق، يقول الله تعالى:

﴿وَمَا تَفَرَّقُوا إِلاَّ مِن بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ﴾.

وما تفرق أهل الكتاب في دينهم شيعا إلا من بعد ما جاءهم العلم، وهو معرفة ما جاءتهم بهم رسل الله، والحال أن هذا العلم يهدي إلى الوحدة والوئام، ولكن هؤلاء تفرقوا وما تفرقهم إلا من أجل البغي وهو الميل إلى الجور، وما ذاك إلا الحب الدنيا ومتاعها، حملهم حب الرئاسة والعلو وحب المال والشهوات وميل أهوائهم إلى عقائد الآباء والأجداد والكبراء فتفرقوا شيعا وضلوا عن السبيل، وسبيل الله واضحة بينة ولكن البغي بينهم صدهم عن السبيل.

﴿وَلَوْلاَ كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾.

يقول الله تبارك وتعالى: ولولا كلمة سبقت من ربك إلى أجل مسمى، وهذه الكلمة هي أن ربك يقضي بين عباده يوم الفصل وهو يوم القيامة، ذلك موعدهم وذلك هو الأجل المسمى، قال تعالى: ﴿ وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلاَّ لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ﴾ (هود: ١٠٤)، لولا ذلك الأجل لقضى الله بينهم قضاء فصلا يمتاز به أهل الحق عن أهل الباطل، ويهلك الله المبطلين وينتهي النزاع، وقد تقتضي حكمة الله من حين لآخر أن يقضي بينهم في هذه الدنيا فيهلك الظالمين وينصر رسله والمؤمنين، لكن القضاء النهائي الفصل هو يوم القيامة، وقد سبقت كلمة الله أنه يؤخره إلى أجل مسمى عنده، وهو آت لا ريب فيه، فليصبر المؤمنون، وليحذر البغاة الظالمون ولا يستعجلوه فإنه لابد واقع في أجله المسمى، وفي هذا الكلام وعيد لأهل البغي وتسلية لقلب النبي ﷺ وللمؤمنين من بعده حتى يثبتوا على ما هم عليه من الحق، ولا يستخفهم الذين لا يوقنون، ثم قال تعالى:

﴿وَإِنَّ الذينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِن بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ﴾.

الذين أورثوا الكتاب، أي أنزله الله عليهم منة مسلمة من غير عوض منهم، وهذا الكتاب هو القرآن الكريم الذي يهدي للتي هي أقوم ويبشر المؤمنين الذين يعلمون

الصالحات أن لهم أجرا حسنا ماكثين فيه أبدا، أما الذين أشركوا واليهود والنصارى الذين كذبوا بالكتاب فهم في شك منه مريب، فهم في قلق واضطراب كبير، ذلك لأن كتبهم بشرت بمبعث نبي آخر الزمان ويجدون أوصافه في التوراة والإنجيل، بشر به موسى وعيسى فهم يعرفونه كما يعرفون أبناءهم ولكن الحسد هو الذي حال بينهم وبين الإيمان به إلا قليلا منهم، ولكن كثيرا منهم فاسقون، هم في اضطراب وقلق منه لأنهم إذا كذبوا به فماذا يصنعون بالأخبار التي في كتبهم، يلزم من ردها تكذيب ما جاء في كتبهم والتعرض لسخط الله، وإذا صدقوا بها لزمهم الإيمان به واتباعُه، ويمنعهم الحسد والكبر من ذلك، كيف يتبعونه وهو عربي وهم ينكرون مبعثه في العرب فهم في شك منه مريب، وليس هناك ما يدعو إلى الشك بل هو آيات بينات تزيل الشكوك من القلوب وتملؤها يقينا وهدى، قال تعالى:

﴿فَلِذَٰلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَلاَ تَتَّبِعَ اَهْوَآءَهُمْ وَقُلَ ــ امَنتُ بِمَآ أَنزَلَ اللَّهُ مِن كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَآ أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لاَ حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾.

هذه جمل عشر متتابعات محكمات تحمل إرشادات وتوجيهات عظيمة، وأخبار صادقة قاطعة هي من الله تعالى قوانين فاصلة، جاءت بالحق المبين، والقول الفصل من منزل القرآن، من قرأها وآمن بها وعمل بها ودعا بها إلى الله لقي فوزا ونجا وصار من أولياء الله المفلحين، يقول الله تبارك وتعالى:

﴿فَلِذَٰلِكَ فَادْعُ﴾.

اختار كثير من أهل التفسير أن تكون اللام في هذه الجملة للتعليل بعد الفاء التفريعية - وأنا أميل إلى هذا القول - أي من أجل اختلاف الناس بعد ما جاءهم العلم ووقوعهم في الشك المريب فادع إلى ربك على بصيرة منه، واثبت على ما أنت عليه من الحق ولا تكونن من المشركين ولا من المرتابين، وقال آخرون: إن اللام ليست

للتعليل بل هي للتقوية فتكون هي ومجرورها معمول للفعل بعدها، أي فادع لدين ربك وحده لا لغيره.

﴿وَاسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ﴾ الاستقامة هي الاعتدال والسير على الصراط السوي، ﴿كَمَآ أُمِرْتَ﴾ أي كما أمرك الله؛ لأن الدعوة إلى الله تكون بالقول والفعل، وكل مؤمن مكلف بمثل هذا الأمر، وسيد الدعاة رسول الله ﷺ هو أسوتنا جميعا وإمامنا في الدعوة والاستقامة، فلا نحيد عن طريقه.

﴿وَلاَ تَتَّبِعَ اَهْوَآءَهُمْ﴾ ولا توافقهم ولا تنجر إليهم في اتباع أهواء النفوس، فإن كانت أهواؤهم تملي عليهم بأن يكفروا ببعض رسل الله وبعض كتبه حسدا من عند أنفسهم من بعدما تبين لهم أنه الحق فلا يحملنك ذلك أن تقابلهم بالمثل، بل استقم ولا تمل إليهم، وادع إلى الإيمان بجميع أنبياء الله ورسله وكتبه.

وَقُلَ ـ امَنتُ بِمَآ أَنزَلَ اللَّهُ مِن كِتَابٍ﴾.

الأمر كما علمنا موجه إلى النبي وإلى كل مؤمن إلى يوم القيامة، أمرنا أن نؤمن ونعلن إيماننا بجميع كتب الله ورسله من دون تفريق بين أحدهم، وهذا دفع في صدور أهل الكتاب الذين يأبون إلا أن يكفروا بمحمد ﷺ وبالقرآن الذي أنزل عليه.

﴿وَأُمِرْتُ لأَعْدِلَ بَيْنَكُم﴾.

والآمر طبعا هو الله تبارك وتعالى، أمرني أن أعدل بينكم في الدعوة، سواء إلى كلمة سواء بيننا وبينكم وفي المعاملة، فلا تحملني عداوتكم على الاعتداء وعدم العدل، وأمرت أن أعدل بينكم متى تخاصمتم إليّ وأحكم بينكم بما أنزل الله ولا أجور في الحكومة.

﴿اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ﴾.

تقرر هذه الكلمة الحقيقة العظمى التي قامت بها السموات والأرض، وهي وحدة الألوهية ووحدة الربوبية، ولكن أهل الكتاب والمشركين يريدون إلا اتخاذ الأنداد

والشفعاء، وقالت اليهود عزير ابن الله، وقالت النصاري المسيح ابن الله، وقلنا كما أمرنا ربنا تعالى أن نقول: ﴿الله ربُّنَا وَربُّكُمْ﴾ ردا على الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين.

﴿لَنَآ أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ﴾.

لنا جزاء أعمالنا ولكم جزاء أعمالكم من خير أو شر، فلسنا مسؤولين عن أعمالكم، ولا أنتم مسؤولون عن أعمالنا، ولا نتضرر بسيئاتكم ولا تستفيدون من حسناتكم، ونحن بريئون مما تعملون، فالله ربنا يعلم ما نعلم وما تعملون، وسيجازي كلا منا ومنكم بما يستحق.

﴿لاَ حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُم﴾.

إعلان من الله لهؤلاء بالمتاركة وقطع المقاولة والمحاجحة، لأن حجتهم داحضة بعدما تبين لهم الحق، فلم يبق بيننا وبينهم كلام.

﴿اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا﴾.

الله يجمع بيننا يوم القيامة للفصل فيحكم بيننا بالحق وهو خير الحاكمين.

﴿وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾

وأخيرا يأتي القرار النهائي وهو الإعلان أن مصير الخلائق كلها إلى الله، فهي كلها ترجع إلى الله يوم القيامة لا يفلت منه أحد ﴿أَلاَ إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الأُمُورُ﴾(الشورى: ٥٣).

﴿وَالذِينَ يُحَآجُّونَ فِي اللَّهِ مِن بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ﴾.

والذين يحاجون في الله، أي يجادلون في الله بغير علم ويشككون الناس في وجود الله وفي صدق رسله وكتبه، وفي البعث بعد الموت، وفي صدق محمد ﷺ، وفي رسالته من بعدما استجاب الذين أراد بهم خيرا لله ولرسوله، الذين يحاجون هؤلاء ويجادلونهم محاولين تشكيكهم في دينهم الحق، حجتهم داحضة عند ربهم، باطلة لا بقاء لها ولا

ثبوت، والدحض هو الزلق، وعبر بهذا عن فساد شبههم وعدم ثباتها، وما سميت حجة إلا من باب المشاكلة وإلا فهي شبه باطلة زاهقة، وقد بين الله بطلانها في غير موضع من القرآن الكريم وقرر ما هو الحق لا مرية فيه.

﴿وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾.

وعلى هؤلاء المجادلين بالباطل غضب من ربهم، ولهم في الآخرة عذاب شديد إن لم يتوبوا ويثوبوا إلى الرشد، وقد يعجل الله لهم في الدنيا كفلا من العذاب الشديد بالسيف كما فعل بهم يوم بدر وأحد، وبغير السيف من أنواع المصائب، ولعذاب الآخرة أشد وأبقى والعياذ بالله.

ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ وَٱلْمِيزَانَ ۗ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ
ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ ﴿١٧﴾ يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا ۖ
وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا ٱلْحَقُّ ۗ
أَلَآ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ فِى ٱلسَّاعَةِ لَفِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴿١٨﴾
ٱللَّهُ لَطِيفٌۢ بِعِبَادِهِۦ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ ﴿١٩﴾
مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْءَاخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ۖ وَمَن
كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ
مِن نَّصِيبٍ ﴿٢٠﴾

جاءت هذه الآيات لتقرر العقيدة الصحيحة وهي الإيمان بالله وكتبه ورسله واليوم الآخر، وإنذار بقيام الساعة وما بعدها من البعث والجزاء، وهي أصول العقيدة التي وصى الله بها نوحا وإبراهيم وموسى وعيسى وغيرهم من الأنبياء والرسل، وهو ما يجري عليه سياق السورة، يدعو الله الناس فيها إلى التدبر في آيات الله ليؤمنوا بالله ورسله ويوحدوه بالعبادة، ويستجيبوا له قبل أن يأتي يوم لا مرد له من الله.

﴿اللَّهُ الذِي أَنزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ﴾.

هكذا تأتي هذه الحقيقة المقررة بصيغة الحصر ليعلم الناس أن الله وحده هو الذي أنزل الكتاب بالحق، والمراد بالكتاب جنس الكتب والصحف التي نزلت من عند الله على رسله، ومنها هذا القرآن وهو آخرها نزولا وهو المهيمن عليها، أنزله الله متلبسا بالحق، وكذلك كل كتب الله غير أن الله ميّز هذا القرآن بضمان حفظه حتى يرفع، ﴿لاَّ يَاتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلاَ مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ (فصلت: ٤٢)، ثم عطف عليه الميزان وهو التقدير بالعدل ليقوم الناس بالقسط في جميع أمورهم، وليزنوا أقوالهم وأفعالهم في هذه الدنيا قبل أن توزن عليهم يوم القيامة، ففي كتاب الله موازين الأقوال والأفعال والأخلاق، وكل شيء في هذا الكون ينزله الله بميزان، وقدر معلوم، ووزن دقيق.

﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ﴾.

الخطاب للنبي ﷺ ولكل من يصلح للخطاب، أي: وما يعلمك أيها العاقل لعل قيام الساعة وإتيان يوم البعث والجزاء قريب، وهو قريب حقا دل على قربه آيات متعددة من القرآن الكريم، كقوله تعالى: ﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ﴾ (الأنبياء: ١)، وجاء عن ابن عباس أن كل موضع في القرآن جاء فيه الاستفهام عن الدراية بصيغة المضارع يترك مبهما ولا يأتي فيه الجواب لتذهب النفس في التفكر والاعتبار مذاهب، وكل موضع يأتي فيه بصيغة الماضي يعقبه الجواب ليحصل التذكر والخشية والاعتبار، والساعة العامة هي فناء هذه الدنيا وقيام الناس يوم البعث لرب العالمين، والخاصة فناء أمة من الأمم ونهايتها، وأخص منها فناء الأفراد وكل من وصل أجله، فقد حانت ساعته وقامت قيامته، والساعة العامة قريبة، وكل آت قريب، وأقرب منها حضور آجالنا، ولا أحد يدري متى يأتي أجله وينتقل من دار الفناء إلى دار القرار.

﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا الذِينَ لاَ يُومِنُونَ بِهَا وَالذِينَ ءَامَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ﴾.

يستعجل أمر الساعة المكذبون بالساعة يقولون متى هي ﴿مَتَىٰ هَـٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ أما الذين آمنوا بالله وباليوم الآخر فهم مشفقون منها، أي هم شديدوا الخوف، شديدوا الاعتناء بها، يحملهم الإشفاق على الاستعداد لها قبل إتيانها، ويعلمون بما علمهم الله أنها الحق.

﴿أَلاَ إِنَّ الذِينَ يُمَارُونَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلاَلٍ بَعِيدٍ﴾.

ألا حرف تنبيه واستفتاح، جاءت هنا لتؤكد حقيقة هامة ألا وهي ضلال الذين لا يؤمنون بالآخرة ضلالا بعيدا، ومن ضل عن الصراط ضلالا بعيدا لا يرجى رجوعه إلى السبيل، أما الذي يؤمن بالآخرة فربما يضل بارتكاب بعض المعاصي أو ترك بعض الفرائض ولكن سرعان ما يتذكر ويرجع إلى الصراط السوي، ومعنى المراء هو الجدال، فإن هؤلاء المكذبين الضالين يجادلون في أمر الآخرة وقيام ساعتها بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير.

﴿اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ يَرْزُقُ مَنْ يَّشَآءُ﴾.

الله بار بعباده يعاملهم بلطفه وبره في هذه الدنيا جميعا، البر والفاجر، ومن لطفه حلمه بأهل الكفر والفجور لا يعاجلهم بالعقوبة؛ لأن لهم أجلا ينتهون إليه فينالهم حظهم من العقاب، ولطيف بعباده المؤمنين، كتب على نفسه الرحمة أنه من عمل منهم سوء بجهالة ثم تاب من بعد ظلمه وأصلح فإنه غفور رحيم، فالمراد بعباده هنا جميع العباد، المؤمن والكافر، والبر والفاجر، يرزقهم جميعا ولا يحرم من رزقه أحدا، والرزق أنواع، والله تبارك وتعالى يرزق من يشاء أنواعا منها، ويرزق من يشاء أنواعا أخرى، وهو يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر لحكمة ليتخذ بعضهم بعضا سخريا.

﴿وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ﴾.

جاء التعقيب هنا بهذين الاسمين لنعلم أن القوة والعزة لله جميعا، فهو القوي المقتدر يفعل ما يشاء في ملكه، لا راد لقضائه ولا معقب لحكمه، ولا معطي لما منع، ولا مانع لما أعطى، وهو العزيز الغالب الذي لا يغالب، لا يطمع أحد أن ينال شيئا مما عنده إلا بإذنه وقدره، فإن أصاب أعداءه بشيء من أرزاقه فذلك بمحض إرادته وقدرته، وإنما يملي لهم ليزدادوا إثما ولهم عذاب أليم في موعد لا يفلتون منه، وهو ما تدل عليه الآية التالية، قال تعالى:

﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ﴾.

ضرب الله مثلا للعمل في هذه الدنيا بالحرث؛ لأن الحرث ينتظر بعد حرثه الحصاد، وكذلك العامل ينتظر جزاء عمله، وشتان في هذه الدنيا بين عامل وعامل، فمن كان يريد بعمله جزاء الآخرة قال تعالى: ﴿نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ﴾ أي نضاعف له في حسناته ونبارك له في عمله، ومن كان يريد بعمله زينة الحياة الدنيا ومتاعها فإن الله تعالى يقول: ﴿نُؤتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ﴾ أي من كان يطلب بعمله الحياة الدنيا وزينتها وينسى نصيبه من الآخرة فما له من الدنيا إلا ما كتب الله له منها، أما الآخرة فما له منها من نصيب.

فمن كان عاقلا فليعمل للآخرة وليبتغ بجميع أعماله ما عند الله حتى طلب الرزق الحلال، فليرد بذلك كفاية حاجته وحاجة من تلزمه نفقتهم من أهله وولده وسائر وجوه البر لا التكاثر والتنافس على الدنيا، فإن من أراد الآخرة وسعى لها سعيها فإن الله يجازيه بالحسنى ويضاعف له ويشكر له سعيه، وسوف يرضى ولا يفوته نصيبه من الدنيا، بل يناله لا محالة، ولم يذكر هذا في هذه الآية لحقارة نصيب الدنيا في نصيب الآخرة فلا ذكر له معه، وقد ذكر في موضع آخر من القرآن، وذلك في سورة الإسراء

حيث يقول تعالى: ﴿كُلًّا نُّمِدُّ هَٰؤُلَآءِ وَهَٰؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾ (الإسراء: ٢٠)، فعطاء الله في الدنيا مبذول لمن أراد الدنيا ولمن أراد الآخرة، كل يناله ما كتب الله له منها، أما عطاؤه في الآخرة فهو خاص لمن طلب الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن، ففي الآية موعظة من ربنا بليغة وتحريض لنا أن نبتغي بأعمالنا الدار الآخرة ونتوكل على الله ونثق بوعده.

أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ
مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُۚ وَلَوْلَا كَلِمَةُ ٱلْفَصْلِ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْۗ
وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿21﴾ تَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ
مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُواْ وَهُوَ وَاقِعُۢ بِهِمْۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ
وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِي رَوْضَاتِ ٱلْجَنَّاتِۖ لَهُم مَّا
يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿22﴾
ذَٰلِكَ ٱلَّذِي يُبَشِّرُ ٱللَّهُ عِبَادَهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِۗ
قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِي ٱلْقُرْبَىٰۗ وَمَن يَقْتَرِفْ
حَسَنَةٗ نَّزِدْ لَهُۥ فِيهَا حُسْنًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ شَكُورٌ ﴿23﴾ أَمْ يَقُولُونَ
ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبٗاۖ فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَۗ وَيَمْحُ
ٱللَّهُ ٱلْبَٰطِلَ وَيُحِقُّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿24﴾
وَهُوَ ٱلَّذِي يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُواْ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ
وَيَعْلَمُ مَا يَفْعَلُونَ ﴿25﴾ وَيَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ
وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦۚ وَٱلْكَٰفِرُونَ لَهُمْ عَذَابٞ شَدِيدٞ ﴿26﴾

تقرر هذه الآيات الكريمة أصول الشريعة التي قررتها السورة من أولها، وهي الإيمان بالوحي والرسالات السماوية وباليوم الآخر وما فيه من ثواب وعقاب، كل

ذلك بوحي وشريعة من الله خالق السموات والأرض، مالك أمر الدنيا والآخرة، فهو وحده المشرع وليس لأحد من خلقه حق التشريع، إن الله اختص بالتشريع ولم يأذن بذلك لملك مقرب ولا نبي مرسل، وما الرسل إلا مبلغون عن الله ومبشرون ومنذرون.

﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَآءُ شَرَعُوا لَهُم مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأذَنْ بِهِ اللَّهُ﴾.

صُدّرت الآية بأم التي هي هنا للتقرير والتقريع والتوبيخ، أي ألهم شركاء شرعوا لهم من الدين ما لم يأذن به الله، وهؤلاء الشركاء هم شياطينهم التي زينت لهم ما هم عليه من الشرك وما يتبع الشرك من سوء الكسب وكبائر الإثم والإجرام، والمراد بهؤلاء مشركوا قريش ومن معهم، وشركاؤهم شياطينهم وأوثانهم التي يحبونها كحب الله، وقد ضلوا بسببها عن سبيل الله، وهذا على غرار قوله تعالى في سورة الأنعام: ﴿وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَآؤُهُمْ...﴾ (الأنعام: ١٣٧)، ثم قال تعالى:

﴿وَلَوْلَا كَلِمَةُ الْفَصْلِ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾.

كلمة الفصل هي حكم الله أن القضاء بينهم مؤجل إلى يوم الفصل، والفصل هو الحكم بالحق، أي لولا هذه الكلمة لقضى الله قضاءه الحق بين عباده فيهلك الظالمين وينصر أولياءه نصرا مؤزرا، يسلي الله ربنا تبارك وتعالى قلب نبيه ومن معه من المؤمنين ويثبتهم ليصبروا وينتظروا يوم الفصل الذي جعله الله ميقاتا، وليعلم الذين كفروا أنهم محضرون لذلك اليوم العظيم، وأن الله من ورائهم محيط.

﴿وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

والظالمون لأنفسهم بالشرك وبأنواع المعاصي والإجرام لا محالة لهم من الله عذاب أليم يخلدون فيه إن لم يتوبوا إلى الله ويرجعوا عن غيهم وضلالهم، وأعظم أنواع الظلم الشرك بالله واتخاذ الشركاء وتكذيب رسل الله وإنكار الوحي المنزل عليهم من الله.

﴿تَرَى الظَّالِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا وَهُوَ وَاقِعٌ بِهِمْ﴾.

ما أروعه مشهدا من مشاهد يوم القيامة، يعرضه ربنا تبارك وتعالى معرض المرأى بالعيان فكأنك تراه أيها المخاطب بكلام الله، المؤمن بوعده ووعيده، مشهد فيه موعظة وذكرى حين ترى الظالمين موقوفين عند ربهم موقف الخزي والهوان مشفقين مما كسبوا من الشرك وسيئات الأعمال، والإشفاق شدة الخوف مع الاهتمام وشدة الاعتناء بالمخوف منه حرصا على أن يجد الخائف منه مخلصا ومحيصا، ولا خلاص ولا محيص، ﴿وَهُوَ وَاقِعٌ بِهِمْ﴾ أي وعقوبتهم على كسبهم السيئ نازلة بهم فلا دافع لها.

﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ﴾.

بينما الظالمون مشفقون من عذاب الله واقع بهم، ترى الذين آمنوا وعملوا الصالحات في روضات الجنات منعمين لهم ما يدّعون عند ربهم، وما أروعها من مناظرة بين الفريقين، فيها موعظة واعتبار، فريق الظالمين الذين وقفوا على العذاب مشفقين منه ولا ينفعهم الإشفاق والعذاب واقع بهم، وفريق المؤمنين منعمين في روضات الجنات، وقد نجوا من عذاب الله لأنهم كانوا مشفقين منه في الدنيا سالكين سبيل النجاة، عاملين الصالحات التي صاروا بسببها في روضات الجنات، والروضة هي الجنة التي جمعت بين الأشجار والمياه الجارية، وفي الآية دليل على أنه لابد بالجمع بين الإيمان بالقلب والعمل بالجوارح حتى يفوز المؤمن بالزحزحة عن النار ودخول الجنة والتمتع بنعيمها الدائم وليس مجرد النطق بالشهادتين يكفي ثم قال تعالى:

﴿ذَٰلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾

ذلك لأن الله تبارك وتعالى تفضل على عباده المؤمنين العاملين بتكفير سيئاتهم ومضاعفة حسناتهم وإعلاء درجاتهم، وهذا من الله تعالى فضل كبير.

﴿ذَٰلِكَ الذِي يُبَشِّرُ اللَّهُ عِبَادَهُ الذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾.

الإضافة هنا إضافة تشريف وخصوصية، إن الله يبشر عباده الذين عرفوه وعبدوه ولم يشركوا بعبادته أحدا، يبشرهم بالفوز بروضات الجنات في الحياة الدنيا وفي الآخرة، فما أروع المقابلة بين مصير ومصير، مصير المؤمنين المشفقين في دنياهم من عذاب الله الفائزين في أخراهم برضوان الله وروضات الجنات، ومصير المكذبين الضالين الآمنين في دنياهم من عذاب الله الذي كذبوا به، الواقعين في الآخرة في عواقب ما كسبوا من الشرك والإثم والبغي وبئس المصير، فليعتبر المعتبرون.

﴿قُل لاَّ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ .

قل لهؤلاء يا محمد كما قال الرسل من قبلك لأقوامهم ﴿لاَ أَسْأَلُكُمْ عَلَيهِ أَجْراً﴾ إن أجري إلا على الله، أي لا أبتغي بهذا الأمر الذي جئتكم به عوضا دنيا من مال أو جاه أو سلطان، وما عند الله خير وأبقى، فهو لا يطلب منهم عوضا على هدايتهم إلى طريق الرشاد، ولا يقبل منهم عوضا على ترك هذا الأمر أو تبديل هذا الكلام حتى ولو وضعوا الشمس في يمينه والقمر في يساره إنما هو مبلغ أمين لما أوحي إليه، أما قوله تعالى:

﴿إِلاَّ الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ﴾.

فإن المفسرين اختلفوا فيه، فريق منهم قال: لا أسألكم عليه أجرا إلا المودة في ذوي قرباي لا تظلموهم ولا تشتموهم ولا تؤذوهم، وفريق قال: معناه لا أسألكم عليه أجرا إلا المودة التي تجب في حق القرابة التي بينكم وبيني، وقد روي أنه ما من عشيرة من عشائرهم إلا كان للنبي ﷺ فيها نسب أو صهر أو عمومة أو خؤولة، وهذا المعنى أرجح وإن كنا نعلم أن من أفضل العبادات التقرب إلى الله بحب النبي وآله وآل بيته وذوي قرابته كما أن بغضهم من أقبح أنواع المعاصي، ولكن هذا المعنى استفدناه من آثار أخرى غير هذه الآية، أما هذه الآية فدلالتها أقوى في المعنى الذي رجحناه، وقد جاء ذكر هذه الآية وأمر النبي بالإعلان بها في الناس حتى لا يظن أحد أنه إنما جاء بهذا

الأمر يبتغي سيادة أو مالا أو عرضا من أعراض الدنيا الحقيرة، ذلك ليعلموا أنه مكلف لا متكلف فيطمئنوا إلى صدق رسالته فيؤمنوا به ويدركوا أنه إنما هو نذير لهم بين يدي عذاب شديد.

وتفيد الآية أيضا معنى آخر وهو عظم جرم من يبتغي الدنيا بعمل الآخرة وأن ما عند الله خير وأبقى، وفي هذا المعنى يقول العالم النفوسي الشيخ أبو نصر الملوشائي في منظومته الحائية التي سماها تحريض الطلبة:

والأكل بالدين حرام ولو ... كشربة الماء النمير القراح
وشرح ذاك الأكل عن سبب ... وما أتى عفوا فذاك مباح

ولهذا حرمنا الأجر على الأئمة والمؤذنين والمفتين والوعاظ، وعن هذا نهيت منذ نحو ثلاثين أو أربعين عاما في منبر المسجد لكن إذا جاء الشيء عفوا فعلينا أن نكرم من يستحق الإكرام لا سيما من يقوم بشؤون المسلمين نعطيهم لوجه الله ما يستعينون به على حوائجهم ليتفرغوا لشؤون الدين من تعلّم وتعليم وغير ذلك مما ينفع الإسلام والمسلمين، والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لاَ يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾(الطلاق: ٢ـ٣)، إن تبارك وتعالى يغني أنبياءه ورسله وورثتهم من بعدهم عن مسألة الناس، والله وليهم ومولاهم، والله هو الغني الحميد، ثم إن الله تبارك وتعالى يرغّب الناس في فضله وإحسانه فيقول:

﴿وَمَنْ يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا﴾.

جاءت هذه الآية تذييلا مناسبا لما قبلها من الآيات المبشرة بثواب الذين آمنوا وعملوا الصالحات بأن الله ذو الفضل الكبير يورثهم روضات الجنات يخلدون في نعيمها، فجاء في هذه الآية الكريمة بيان هذا الفضل الكبير أنه مضاعفة الحسنات والزيادة في ثوابها، **﴿وَمَنْ يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا﴾** ومن يكتسب حسنة،

والاقتراف هو الاكتساب، وغالبا ما يأتي في اكتساب السيئات، وقد يأتي في فعل الحسنات كما هو هنا، والحسن هو العمل الصالح؛ لأنه لو صور بصورة لكانت في غاية الحسن والجمال، وعد الله المحسنين بالزيادة لهم حسنا على حسن أفعالهم، أي يضاعف لهم الثواب، وهذا من فضله الكبير.

﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾.

جاء التوكيد في هذا الخبر على سعة مغفرة الله وشكره لعباده فهو كثير المغفرة لهم على كثرة ذنوبهم وعظيم الشكر لهم على قلة إحسانهم، وفي هذا التذييل ترغيب للمذنبين في المسارعة إلى التوبة من ذنوبهم ولا يقنطوا من رحمة الله، وترغيب لعباده الصالحين أن يستكثروا من الحسنات ويتقربوا بها إلى من لا تضيع عنده، بل يشكر البر ويضاعف الحسن ويجزي عليه إحسانا، وهو القائل: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ (يونس: ٢٦)، فتوبوا أيها المذنبون، وأخلصوا العمل أيها العاملون، وأحسنوا إن الله يحب المحسنين.

﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾.

يراد بهذا الاستفهام توبيخ هؤلاء الكفار المكذبين وتقريعهم وتفنيد مقالاتهم، وتقع "أمْ" هذه للإضراب الانتقالي بعد قوله تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُم مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَن بِهِ اللَّهُ﴾ أي بل ألهم شركاء، ثم بل أيقولون افترى على الله كذبا، أيتهمونه بافتراء الكذب على الله بعد وصفهم إياه بالصدق والأمانة وتسميته بالأمين، وهذا منهم أمر غريب.

﴿فَإِن يَشَإِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾.

أي لو كان الأمر كما يدعون، فإن الله قادر على أن يختم على قلبك فيسلب منك العقل ويذهب الكلام من ذاكرتك فتنساه، ويختم على فمك فلا تقدر على النطق، والله جل وعلا غيور على وحيه وكلامه، وهذا نظير قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا

بَعْضَ الاَقَاوِيلِ لأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ثُـمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ(الحاقة: ٤٤ـ٤٦)، كيف وهو يؤيدك بنصره وبالمعجزات والبراهين القاطعة، وقوله تبارك وتعالى:

﴿وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ﴾.

جملتان مستأنفتان وليستا معطوفتين على جزاء الشرط، لأن من شأن الله أنه يمحو الباطل ويحق الحق، والفعلان مرفوعان وإنما حذفت الواو من الفعل الأول في الكتابة تبعا لحذفها في النطق لا للجزم، وقد جاء نظير هذا في القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿وَيَدْعُ الانسَانُ بِالشَّرِّ دُعَآءَهُ بِالْخَيْرِ...﴾ (الإسراء: ١١)، وقوله تعالى: ﴿سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ﴾ (العلق: ١٨)، وجاء التعبير بصيغة المضارع لإفادة التكرار، ولا يزال ربنا تبارك وتعالى ينصر أولياءه وأنبياءه ويمحو الباطل ويحق الحق، أي يظهره بدلائل آياته البينات ومعجزاته الباهرات، والحق ثابت لا زوال له، والباطل ذاهب زاهق لا ثبات له، فما هو إلا كشجرة خبيثة أجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار.

﴿إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾.

جاء التذييل بهذه الآية لشدة مناسبته لما قبله وما بعده، إن الله تبارك وتعالى يخبرنا بسعة علمه بكل ما بطن وما ظهر، فعلمه ببواطن الأمور وخفياتها كعلمه بظواهرها وجلياتها، فلو علم من قلب نبيه ميلا إلى الباطل ـ وحاشاه عن ذلك ـ لأذاقه عقابه، فكيف تتهمونه بالافتراء على الله، بل أنتم المكذبون وسيجازيكم الله على ما في قلوبكم من الكبر الذي صدكم عن سبيل الله بعد إذ تبين الحق بكلمات الله، والمراد بذات الصدور هي القلوب التي هي مراكز العقول والخواطر، والمراد من تقرير الله علم الله بما فيها التحذير والإنذار لأن العلم يترتب عليه الجزاء العادل، ﴿وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ﴾ (البقرة: ٢٣٥).

﴿وَهُوَ الذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ﴾.

بعد إنذار الله الظالمين بالعذاب الأليم، وأن كسبهم واقع بهم لا محالة، فتح لهم باب التوبة في هذه الآية وهو أنهم متى تابوا من كفرهم وأقلعوا عن كسبهم السيء نادمين تائبين إلى الله فإن الله يقبل عنهم توبتهم ولا يؤاخذهم بذنوبهم لأنهم عباده، والله لطيف بعباده، فليستغفروه وليتوبوا إليه ما دام باب التوبة مفتوحا، وما دامت يد الله مبسوطة لعباده المسيئين ليتوبوا إليه ويستغفروه، وفي الآية بشارة للمؤمنين الذين كانوا مشركين فدخلوا الإسلام فإن الإسلام جب لما قبله، وأيضا بشارة للتائبين من كبائر الإثم والفواحش أن الله يقبل توبتهم ويتجاوز عن سيئاتهم، ومعنى التجاوز مأخوذ من استعمال "عن" بدل "من" لأن حرف عن يأتي لمعنى التجاوز، فإن الله يقبل منهم توبتهم ويتجاوز عن ذنوبهم ولا يعاقبهم عليها، أما قوله تعالى:

﴿وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ﴾.

فأرجح أن يكون معنى جديدا غير المعنى الأول، والتأسيس خير من التأكيد كما يقول أهل الفقه في اللغة، ومعنى الآية أن الله تبارك وتعالى يقبل التوبة من الشرك وكبائر الذنوب عن التائبين، ويعفو عن السيئات التي هي صغائر الذنوب ولو بدون توبة لمن اجتنب الكبائر وهي اللمم الذي يلم بالإنسان من وقت لآخر من غير إصرار، وهذا المعنى نفهمه من قوله تعالى في سورة النساء: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلاً كَرِيمًا﴾ (النساء: ٣١)، وما فسر القرآن مثل القرآن، والله كريم جواد بر رحيم.

﴿وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾.

الله تبارك وتعالى يعلم ما يفعل عباده من خير أو شر لا تخفى عنه خافية، فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره، ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره، أي ير جزاءه، فليجتهد العاملون، وليحذر العصاة الغافلون فإن الناقد بصير، ثم قال تعالى:

﴿وَيَسْتَجِيبُ الذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِ وَالْكَافِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾.

الجملة معطوفة على جملة الصلة، أي وهو الذي يقبل التوبة ويعفو عن السيئات ويعلم ما يفعلون، ويستجيب الذين آمنوا وعملوا الصالحات ويزيدهم من فضله، أي ويستجيب لهم دعواتهم وتضرعاتهم، وقد يحذف حرف الجر إذا فهم المعنى كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ﴾ (المطففين: ٣)، وهذه الكرامة كرامة الاستجابة للذين استجابوا لربهم بالإيمان والعمل الصالح، وقلما ذكر الإيمان في القرآن إلا مقرونا بالعمل الصالح أو ببعض الخصال المترجمة له، ثم إن الله يزيدهم من فضله، أي يجازيهم على إيمانهم وأعمالهم الصالحة أفضل الجزاء وأحسنه، ويزيدهم من فضله أضعافا وأضعاف أضعاف، والله يضاعف لمن يشاء، أما الكافرون فإن الله أعدّ لهم عذابا شديدا، وهكذا أسلوب القرآن صاغه الله مثاني تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله، فمنه بشير ونذير، ووعد ووعيد، وأخبار الصالحين السعداء، وأخبار العصاة الأشقياء، والعواقب التي آل إليها هؤلاء وهؤلاء، وفي ذلك عبرة لأولي الألباب.

۞ وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ
بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴿27﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ
ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُوا۟ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ ۚ وَهُوَ ٱلْوَلِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿28﴾
وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍ ۚ
وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ ﴿29﴾ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ
فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ ﴿30﴾ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ
فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿31﴾
وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلْجَوَارِ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ ﴿32﴾ إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ
فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿33﴾
أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا۟ وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ ﴿34﴾ وَيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ
فِىٓ ءَايَٰتِنَا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ﴿35﴾

جاءت هذه الآيات تتمة لتعداد نعم الله جل جلاله على عباده في الدنيا وفي الآخرة ومنها آيات بينات تدل على وجود الله وقدرته ورحمته بخلقه، أما الآية الأولى منها ففيها الإجابة عن سؤال ربما ينشأ في النفوس بعد قوله تعالى: ﴿وَيَسْتَجِيبُ الذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِ﴾ إذ ربما يقول قائل: إذا كان الله يستجيب للذين آمنوا فما بالهم يصيبهم القحط فيدعونه فلا يعجل لهم بالمطر والغيث، فجاء بيان حكمة ذلك في قوله تعالى:

﴿وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الأَرْضِ وَلَكِنْ يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ﴾.

يخبرنا ربنا تبارك وتعالى عن حكمة تنزيله الغيث بقدر أنه لو بسط رزقه لعباده لبغوا في الأرض، أي لطغوا وظلموا وأفسدوا في الأرض وعدا بعضهم على بعض لطبع

يعلمه في الإنسان وهو أنه يطغى ويبغي على بني جنسه إذا بسط له في الرزق، والرزق كل ما يمتع الله به العبد من الصحة والغنى والجاه والقوة والأولاد والأنصار، وقد بسط الله ذلك لبعض الناس فتنة منه لهم فطغوا وتجبروا فانتقم الله منهم فجعلهم عبرة للمعتبرين، ومن هؤلاء قارون الذي قال الله فيه: ﴿إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ﴾ (القصص: ٧٦)، وقال تعالى: ﴿كَلاَّ إِنَّ الانسَانَ لَيَطْغَىٰ أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ﴾ (العلق: ٦ـ٧)، فاقتضت حكمة الله أن يبسط لهم ما يريدونه من الأرزاق في هذه الدنيا حتى لا يطغوا فيها، وما زواه عن عباده المؤمنين منها فلأن الله يعلم أن صلاحهم في ذلك وليعوض لهم في الآخرة ما زواه عنهم الدنيا، فهو ينزّل من الأرزاق بتقديره وحكمته ما يشاء.

﴿إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ﴾.

إنهم عباده خلقهم ويعلم ما في نفوسهم، فهو العليم بما يصلحها وبما يليق بهم، الخبير بدعوات المؤمنين ونزوات الظالمين، البصير بنواياهم وأفعالهم وأقوالهم، لا يخفى عليه شيء من أمرهم.

﴿وَهُوَ الذي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُ﴾.

هذه الجملة معطوفة على قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ...﴾ ، وهي منن الله تبارك وتعالى على عباده فيما يصلح آخرتهم وفيما يصلح دنياهم أما نعم الآخرة فخاصة للتائبين، وأما نعم الدنيا فتعم الخلق أجمعين برهم وفاجرهم، إنسهم وجنهم وحيوانهم، وكل ما دب في الأرض أو طار في الهواء أو سبح في البحار، وهي نعم يختص بها الله جل جلاله لا يشركه فيها غيره فهو الذي ينزل المطر بعد الجدب يغاث الناس من بعد ما قنطوا وينشر رحمته، والرحمة هنا قيل معناها المطر يعمه الله في البلاد الواسعة، وقيل معناه ظهور الشمس بعد أيام السحب والأنواء، ولا مانع أن يراد بها الكل، ووجوه التفسير لا تتزاحم.

﴿وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ﴾.

وهو الولي الذي يتولى شؤون عباده بما يصلحهم، الحميد الذي يستحق الحمد على أفعاله، له الحمد في الأولى والآخرة، إليه تسند أوصاف الكمالات، بيده الخير كله، وله الفضل والمنة، وله الأسماء الحسنى، وقد ذيّلت الآيات بهذين الاسمين لشدة مناسبتهما لما سبق ذكره من تعداد النعم، فتبارك الله رب العالمين.

﴿وَمِنَ ـ ايَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالاَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍ﴾.

يلفتنا الله تبارك وتعالى إلى آياته العظمى في هذا الكون علويه وسفليه لننظر فيها فندرك عظمة خالقها فنعبده وحده ونقدره حق قدره، يقول تعالى: ﴿ومِنَ آيَاتِهِ﴾ أي ومن العلامات الدالة على وجوده ووحدانيته وقدرته وسعة علمه ﴿خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالاَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍ﴾ هذه السموات السبع الطباق التي يرتد البصر خاسئا وهو حسير عن إدراك سعتها وعظمة أجرامها السابحات في فلكها فيتساءل العقل: من هو خالقها وممسكها ومقدّر سير نجومها وكواكبها ومالك أمرها؟ فتجيب الفطرة قبل أن يجيب العقل: لابد لها من خالق مدبّر حكيم قادر قوي، واحد قهار لا شريك له، إذ لو كان له شريك لتنازعا وفسد نظامها كما قال تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلاَّ اللهُ لَفَسَدَتَا﴾ (الأنبياء: ٢٢).

وينظر الإنسان إلى هذه الأرض العريضة وسعتها وعظمة جبالها فيقول من خلقها ودحاها، وهذه الجبال من أرساها، وهذه الأنهار من أجراها، وهذه الأشجار من أنبتها ونماها، ومن أخرج زرع الأرض ومرعاها، فتجيب الفطرة قبل أن يجيب العقل: الله وحده لا شريك له، ويلفتنا الله إلى ما خلق في السموات والأرض من دابة، وهذه الدواب غير الملائكة ووجود الدواب في الأرض معلوم، ولا مانع أن يكون في بعض الكواكب دواب وهو ما تدل عليه الآية، وأثبت العلم ذلك ولا يزال العلماء يبحثون

عن هذه الكواكب وسكانها وهي من الآيات الدالة على عظمة الخالق القوي الواحد، ثم ألفتنا ربنا إلى يوم القيامة الذي هو يوم الجمع.

﴿وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ﴾.

فأثبت أن الحشر آت لا ريب فيه لأن "إذا" تدل على الأمر المحقق فيما يستقبل من الزمن، أي وهو على جمعهم وحشرهم حين يشاء قدير، ولا أحد يقدر على ذلك إلا الذي خلقهم أول مرة وإليه المرجع والمصير.

﴿وَمَآ أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ بِمَا كَسَبَتَ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ﴾.

المصيبة هي البلاء الذي يصيب الإنسان في بدنه أو عرضه أو ماله، أو عزيز لديه، ومن كان في الدنيا لا يأمن بلية ولكن أمر المؤمن كله خير له وليس ذلك إلا للمؤمن، كما جاء في الحديث الشريف، ذلك لأن المؤمن يصبر للمصيبة ويرضى بقضاء الله وقدره فتكون المصائب تكفيرا لذنوبه فيلقى الله ولا ذنب له، يقول الله تعالى: وما أصابكم من مصيبة في دنياكم جليلة أو حقيرة إلا وسببها ما كسبت أيديكم من مخالفات، ويعفو الله عن كثير إذ لو يؤاخذكم بكل ذنوبكم لهلكتم ولكن الله عفو يعفو عن كثير، وروي عن الإمام علي ـ كرم الله وجهه ـ أنه قال: هذه أرجى آية في كتاب الله، فلا يبقى على المؤمن بين الجزاء والعفو ذنب.

وكذلك نقول في تكفير السيئات بالمصائب تصيب الإنسان المؤمن إلا الكبائر فلابد بالتوبة ولا بد برد المظالم، أما الصغائر فتغفر بالاستغفار واجتناب الكبائر من الذنوب، وقد تكون المصيبة كفارة للكبيرة بعد التوبة، والمؤمن حين تصيبه المصيبة ولو شوكة يشاك بها فإنه يسترجع ويصبر ويستغفر لذنوبه فيكفر الله بها خطاياه ويرفع درجاته، ويرحمه بالصبر، وتكون له تلك المصيبة موعظة حتى يطهر نفسه ويجتنب العصيان، ونسبت الذنوب إلى اكتساب الأيدي وليس المقصود فقد ما كسبت الأيدي بل كل ما

اجترحه الإنسان بلسانه أو أحد جوارحه، وربما حتى قلبه في بعض الأحيان، وإنما جاء التعبير بالأيدي جريا على الغالب.

﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِي الأَرْضِ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلاَ نَصِيرٍ﴾.

ولستم بها بفائتين قضاء ربكم وقدره بل قد أحاطت بكم قدرته وعلمه وما لكم من دون الله من ولي يلي أمركم ولا نصير ينصركم من دونه، ففروا إلى الله والتجئوا إليه وادخلوا في سرادق ولايته ولن تستطيعوا أن تنفذوا من أقطار السموات والأرض، إنكم لن تعجزوا ربكم هربا في الأرض أو رقيا في السماء، فاطلبوا ولايته ونصرته بحسن عبادته وطاعة أنبيائه ورسله فهو مولى الذين آمنوا، فنعم المولى ونعم النصير.

﴿وَمِنَ ـ ايَاتِهِ الْجَوَارِي فِي الْبَحْرِ كَالأَعْلاَمِ إِنْ يَّشَا يُسْكِنِ الرِّيَاحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِ﴾.

الجواري هي السفن، يقول الله تعالى: ومن آيات الله البينات الدالة على وجوده وقدرته وإتقان صنعه ورحمته بخلقه السفن الجاريات على ظهر الماء في البحار، العظيمة الهياكل كأنها الجبال، تطفو على الماء وهي ثقيلة تحمل الأطنان من الأثقال، وفي تأمل ذلك ما يدعو إلى الإيمان بالله، فهي آيات للمتوسمين المعتبرين، وهي تجري في البحار تدفعها الرياح المسخرة، إن يشأ الله يسكن الرياح فيظللن أوقاتا طويلة وهي رواكد على ظهر البحر حوابس، أو يشأ الله إغراقها بأصحابها وما فيها فيوبقهن، أي يهلكهن ومن فيهن بما كسبوا من ذنوب عقوبة لهم، ويعفو الله عن كثير، ولولا عفو الله ما نجت منهن واحدة، ولكن الناجي أكثر من الهالك، وما ذاك إلا بعفو الله ورحمته ولطفه بخلقه.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ﴾.

يؤكد الله الحكم لنعلم أن في ذلك آيات لكل صبار يصبر على البلاء، شكور يشكر النعماء، والصابرون الشاكرون هم المنتفعون بآيات الله وهم أولوا الألباب والأبصار، وهم أهل الذكرى والاعتبار، ونعلم من الآية أن الذنوب شؤم على أهلها في البر والبحر، ونعلم أن عفو الله واسع فنزداد له حبا وبه تعلقا وله إنابة وعليه توكلا.

﴿وَيَعْلَمَ الذِينَ يُجَادِلُونَ فِي ءَايَاتِنَا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ﴾.

وكذلك يعلم الذين يجادلون في آيات الله بغير علم ويتخذونها هزؤا ما لهم من ملجأ وما لهم من نكير، وما لهم من دونه من ولي ولا نصير حين يريدهم بضر في بر أو بحر أو جو حين يكونوا في سفن الفضاء فإن هؤلاء حين يحيط بهم الخطر تضل عنهم طواغيتهم فلا يبقى هنالك إلا التضرع وإخلاص الدعاء إلى الله، وقد كانوا من قبل يشركون بالله وينكرون البعث بعد الموت والحشر للجزاء، وفي هذه الأمور يجادلون أنبياء الله ورسله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير.

﴿فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَٰعُ
ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ
يَتَوَكَّلُونَ (36) وَٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ وَإِذَا مَا
غَضِبُوا۟ هُمْ يَغْفِرُونَ (37) وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ
وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ (38) وَٱلَّذِينَ إِذَآ
أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْىُ هُمْ يَنتَصِرُونَ (39) وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ
عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ (40) وَلَمَنِ
ٱنتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ (41) إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ
عَلَى ٱلَّذِينَ يَظْلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ أُو۟لَٰٓئِكَ
لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (42) وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ
ٱلْأُمُورِ (43)﴾

آيات بينات يبين الله تبارك وتعالى فيها أوصاف المؤمنين التي يسعد بها الفرد والمجتمع ، وهي من أجمع الكلام في كتاب الله ، الصفات التي يجب أن تتوفر في الأفراد والمجتمعات حتى يسعدوا ويكوّنوا مجتمعا سعيدا فاضلا ولا تصلح المجتمعات والأمم إلا بصلاح أفرادها ، فإذا صلحوا واتبعوا هدى الله في تسيير مجتمعهم مكنهم الله في الأرض تمكينا ، ومكن لهم دينهم الذي ارتضى لهم وأبدلهم من بعد خوفهم أمنا وبنوا حضارة طالما هتف بها الفلاسفة الأقدمون الذين يهتفون بالمدينة الفاضلة ، وفي هذه الآيات الكريمة اثنا عشر وصفا بمجموعها تتكون الشخصية المثالية للأمة المسلمة التي هي خير أمة أخرجت للناس ، الأمة القوية المتمكنة في الأرض ، السليمة البنيان التي يتعاون أفرادها على البر والتقوى ، ولا يتعاونون على الإثم والعدوان والتي تقيم كيانها على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، قال تعالى:

﴿فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾.

هذه الآية الكريمة ميزان عادل طريس يضعه الله للناس يبين لهم نسبة الدنيا الفانية إلى الآخرة الباقية ليعتبروا ولا يغتروا بالحياة الدنيا وزينتها، وليعلموا أن ما عند الله هو خير وأبقى، وتأتي الآية شديدة المناسبة بعد ذكر بسط الرزق وتنزيل الغيث ونشر رحمة الله على الناس، وتيسير السفن في البحار تجري بأرزاق العباد.

يذكرنا الله تبارك وتعالى أنه ما أوتيتم من شيء من ذلك ونحوه فما هو إلا متاع زائل لا بقاء له في هذه الحياة القريبة الوشيكة الزوال، وما عند الله خير وأبقى للذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون، هو خالص لهم لا يشركهم فيه الكفار والمنافقون كما شاركوهم في متاع الحياة الدنيا، وما ذاك إلا لحقارتها على الله، وجاء في الأثر الوارد: لو وزنت الدنيا عند الله جناح بعوضة ما نال الكافر منها شربة ماء، وربما يفضل الكافر المؤمن في هذا المتاع فيكون أكثر مالا وأعز نفرا ليفتنه الله فيه وليمتحن عباده المؤمنين، ليؤجر الصابرين على صبرهم ويعوضهم عنده في الآخرة ما فقدوه من دنياهم بما هو خير وأبقى، فالآخرة تمتاز بالخصلتين الحسنيين الجودة والدوام، بينما الدنيا تبوء بالخستين الهوان والفناء.

ثم إن الله تبارك وتعالى يبين أوصاف الذين يفوزون بالآخرة ونعيمها حتى يجتهد عباده المؤمنون في اكتسابها والابتعاد عن أضدادها:

أول هذه الأوصاف الإيمان، وهو الوصف الذي تثبت به الأوصاف الباقية وتقبل ولا تنفع الأوصاف الأخرى مع انعدامه، فالإيمان بالله واليوم الآخر وبأنبياء الله ورسله وملائكته وكتبه والإيمان بقضاء الله وقدره وتوحيد الله في ربوبيته وألوهيته هو الأساس الأول الذي تبنى عليه الخصال المحمودة، وما هي إلا تفسير لحقيقته.

الخصلة الثانية صدق التوكل على الله وهو شرط أساسي لصحة الإيمان وبقائه إذ المؤمن الحق هو الذي يتوكل على ربه ويعتمد عليه في جميع أموره فهو يقدم في جميع الميادين متشجعا ولا يبالي بما يعترضه في سبيل الله ولا يخاف في الله لومة لائم، ويقول: ﴿قُل لَّنْ يُّصِيبَنَآ إِلاَّ مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلاَنَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُومِنُونَ﴾ (التوبة: ٥١)، وقد امتحن الله تبارك وتعالى رسوله محمدا وأصحابه يوم حمراء الأسد بعد غزوة أحد فصدقوا في الامتحان، قال تعالى فيهم: ﴿الذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُواْ حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ فَانقَلَبُواْ بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُواْ رِضْوَانَ اللهِ وَاللهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾ (آل عمران: ١٧٣ـ ١٧٤)، وكذلك المتوكلون على الله في كل زمان ومكان يثقون بربهم ويعلمون أنه لن يصيبهم إلا ما كتب اللهم لهم ويثقون بوعد الله في الإخلاف فينفقون أموالهم في سبيل الله إنفاق من لا يخشى الفاقة ولا يبخلون خوفا من الفقر، لأن الله تبارك وتعالى يقول: ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ (سبأ ٣٩).

وكذب الذين يطعنون في الإسلام الذي هو دين التوكل، وفي المسلمين المتوكلين على ربهم فيقولون: إن سبب بقاء المسلمين في تأخرهم وتخلفهم هو التوكل الذي يدينون به، والحقيقة العكس مما يقولون، بل عدم التوكل هو الذي صيرهم إلى ما هم عليه من جمود وتخلف، وليس التوكل هو التواكل بل التوكل لا ينافي الأخذ بالأسباب ثم الاعتماد بعدها على مسبب الأسباب، والله يحب المتوكلين.

﴿وَالذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَآئِرَ الاثْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ﴾.

الوصف الثالث والرابع لهؤلاء الصالحين الذين أعد الله لهم ما هو خير وأبقى أنهم يجتنبون كبائر الإثم، وهي التي أعد الله لأصحابها اللعنة وتوعدهم بالعذاب الشديد، والفواحش وهي الذنوب التي يشع ضررها ويتعدى إثمها وخطرُها مرتكبَها فيصيب المجتمع، وذلك مثل الزنى والربا والسرقة والحرابة وشرب الخمر، فهم يتقونها

ويجتنبونها ولا يرتكبونها وإذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم، وإذا ما غضبوا وقدروا على الانتقام فهم يغفرون ولا ينتقمون بل يصفحون، والعفو إنما يكون عند المقدرة، وعلق الغضب بإذا لأنه لابد واقع لكل البشر لكن العاقل يملك أعصابه ويكظم غيظه ويصفح ويغفر، وهذا من أفضل خصال الكرام من الناس.

﴿وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾.

وهذه أربعة أوصاف أخرى بعد الأربعة الأولى يصف الله تبارك وتعالى بها عباده المؤمنين الذين أعد الله لهم ما هو خير وأبقى جعلنا الله منهم.

الوصف الأول (أو الخامس): **﴿وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ﴾** الاستجابة لله بطاعته فيما أمر ونهى، والذين يبلغون دعوة الله للناس هم أنبياء الله ورسله وخلفاؤهم من بعدهم، فمن استجاب لهم فقد استجاب لله، ومن عصاهم فقد عصى الله.

ثم الوصف الثاني (أو السادس) من هذه الأربعة هو قوله تعالى: **﴿وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾** وإقام الصلاة من الاستجابة لله ولكنها أفردت بالذكر لشرفها وعلو شأنها عند الله، وقلما تذكر الصلاة إلا مقرونة بالإقامة، وهي الإتيان بها على الوجه الصحيح المطلوب شرعا، ولا تنفع الصلاة بدون إقامة، فقد قال تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾ (الماعون: ٤ـ٥) والمصلون كثيرون لكن المقيمين قليلون وهم الذين مدحهم الله في هذه الآية وغيرها وأعد لهم ما هو خير وأبقى، وهم الذين عرفوا حق ربهم وأقاموا له الصلاة في وقتها بطهارتها وأركانها وسننها وآدابها.

﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ الخصلة السابعة من خصال عباد الله الصالحين هي صفة مجتمعهم الرشيد وذلك أنهم يتشاورون بينهم في أمورهم فلا يقطعون أمرا دون التشاور، والمطلوب التشاور في كل الأمور ذات الأهمية وهي خصلة العقلاء ذوي الأحلام الراجحة، فهم لا يستغنون بآرائهم ولو كانت حصيفة، وقد تخفى على ذوي

الحجى بعض مقاطع الأمور فلا تتضح إلا باستعراض آراء من يثقون في عقله ونصحه، قال الشاعر الحكيم:

شاور سواك إذا نابتك نائبة ... يوما وإن كنت من أهل المشورات

وقال آخر:

وأكثر من الشورى فإنك إن تصب ... تجد مادحا أو تخطئ الرأي تعذر

وقال آخر:

إذا بلغ الرأي المشورة فاستعن ... برأي نصوح أو نصيحة حازم
وإذن إلى القربى المقرب نفسه ... ولا تشهد الشورى امرأ غير كاتم
ولا تجعل الشورى عليك غضاضة ... فإن الخوافي قوة للقوادم
فما خير كف أمسك الغل أختها ... وما خير سيف لم يؤيد بقادم

وقد وصف الله تبارك وتعالى أمرهم بالمصدر وهو أبلغ في الوصف فقال: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ فإنهم لمواظبتهم على التشاور في أمورهم كلها صارت أمورهم هي الشورى بعينها، وكان رسول الله ﷺ يشاور أصحابه في الأمور وينزل عند رأيهم متى رآه صوابا، وهو من تواضعه وحلمه وحكمته ﷺ وهو بذلك يرشد أمته ويعلمهم ويتبع أمر ربه حيث يقول له: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ﴾ (آل عمران: ١٥٩)، وكان يستعيذ بالله من الرأي الفطير وهو الرأي الارتجالي الذي لم يختمر ولم يقع فيه التشاور واستعراض آراء ذوي الرأي والحجى.

﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾.

الوصف الثامن من أوصاف أهل السعادة هو الإنفاق في المواضع التي أمر الله تعالى بالإنفاق فيها ولم تُبين هنا وقد بينت في مواضع أخرى من كتاب الله مثل قوله تعالى في سورة البقرة حيث يقول: ﴿لَّيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلآئِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ

ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّآئِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلاَةَ وَءَاتَى الزَّكَاةَ...﴾ (البقرة: ١٧٧)، فتبين لنا من هذه الآية وأمثالها مواضع الإنفاق المحمودة وأن في المال حقوقا غير الزكاة المشروعة، وأن الكرم والسخاء من طبع المؤمن الذي يعلم أن الرزق من عند الله والمال مال الله، فإذا كان الخلف من الله حقا فالبخل لماذا، وإذا كان ما عند الله خير وأبقى فالإنفاق خير والبخل شر، وليس للمرء من ماله إلا ما أكل فأفنى أو لبس فأبلى أو تصدق فأبقى.

والمجتمع الذي يشيع فيه السخاء والإنفاق مجتمع سليم نظيف، يسوده التعاون والتكافل والوئام، ولا ينتعش فيه الحسد والبغضاء، وبالتالي تختنق فيه أنفاق المذاهب الهدامة مثل الشيوعية التي هي وليدة الطغيان الرأسمالي البغيض، والله تعالى يأمرنا بالخير ويرشدنا إلى ما هو خير وأحسن تأويلا.

﴿وَالذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنتَصِرُونَ﴾.

الصفة التاسعة من أوصاف عباد الله الصالحين الانتصار من البغاة، والبغي هو الظلم والعدوان من الباغي الماكر المعتز بالظلم، المعتد بقوة بدنه أو سلطانه أو ماله مثل ما كان من أمر قارون مع قوم موسى، فهذا النوع من الناس لا يجوز الاستخذاء لهم لأن ذلك يزيدهم طغيانا وبغيا ويمعنون في الظلم والعدوان، فالانتصار منهم يوقفهم عند حدهم فلا يزدادون ظلما وعدوانا، وقد أمر الله تعالى بقتال البغاة في سورة الحجرات حيث قال تعالى: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ الْمُومِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتِ إِحْدَاهُمَا عَلَى الأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا التِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ (الحجرات: ٩)، وقد أصاب النبي وأصحابه المسلمين الأوائل بغي من كفار قريش ومن معهم وبعد الهجرة إلى المدينة ونشوء دولة الإسلام هنالك أمر الله النبي والمسلمين بقتال الكفار ووعده النصر عليهم

وأنزل ملائكته من السماء يقاتلون أعداء الله ويلقون الرعب في قلوبهم فمدح الله أولياءه المنتصرين المنتصفين من أعدائه بهذه الآية الكريمة، ثم قال تعالى:

﴿وَجَزَآءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾.

السيئة هنا هي الفعلة التي تسوء الخصم، حكم الله وحكمه العدل أن جزاء السيئة سيئة مثلها فلا تعدي ولا تجاوز ولا تعسف في استعمال حق الانتصار، فمن عفا وأصلح فأجره على الله، ذلك لأن العفو في بعض الظروف يكون أصلح لحال الجاني لأن أحوال الجنة غير متساوية، فقد يكون الجاني ليس من طبعه الإجرام والبغي وإنما جر إليه جرا أو دفعته نزوة عابرة لم يكن خطط للجريمة من قبل، فهذا وأمثاله قد يصلحهم العفو بعد قدرة المبغيّ عليه على الانتقام، والعفو إنما يحسن عند المقدرة، وقد قرن الله العفو والإصلاح هنا ليبين لنا أن العفو المحمود والذي يرجى من ورائه الإصلاح، أما الذين يفسدهم العفو ويجرئهم على التعدي والبغي فليس العفو في حق هؤلاء إصلاحا بل هو إفساد وإغراء بالإجرام وليس ردعا، وهذا على حد قول الشعراء:

إذا أنت أكرمت الكريم ملكته ... وإن أنت أكرمت اللئيم تمردا

ووضع الندى في موضع السيف بالعلا ... مضر كوضع السيف في موضع الندى

وقال النابغة الجعدي في قصيدته التي أنشدها بين يدي رسول الله ﷺ:

ولا خير في حلم إذا لم تكن له ... بوادر تحمي صفوه أن يكدرا

ولا خير في جهل إذا لم يكن له ... حليم إذا ما أورد الأمر أصدرا

فأعجب النبي ﷺ بالبيتين وقال له: {لا يفضض الله فاك}، وروي أنه عاش مائة وعشرين سنة ولم تسقط له سن ولا ضرس، وذلك ببركة دعاء النبي ﷺ، فمن كانت خصلته العفو عند المقدرة إذا رأى في العفو صلاحا فإن الله يؤجره أجرا عظيما والله لا يضيع أجر المحسنين، ثم قال تعالى:

﴿إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾.

أي لا يحب البغاة المجرمين ولا يحب المعتدين في الانتصار المتعسفين في ابتغاء حقوقهم، ويحب العافين من الناس، وهو العفو الغفور.

﴿وَلَمَنِ انتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُوْلَئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ﴾.

يفتتح الآية باللام الموطئة للقسم لتوكيد المعنى وتقويته، وللمرة الثالثة يتأكد معنى انتصار المظلوم وانتصافه ممن ظلمه دون عدوان أو تجاوز للحد، لأن ذلك يصبح ظلما جديدا ﴿وَجَزَآءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾ والظلم مصدر مضاف هنا إلى مفعوله، أي: ولمن انتصر بعد أن ظُلم ودافع ظالمه بمثل ظلمه فأولئك ـ أي المنتصرون ـ ما عليه من سبيل، لا ملامة في الدنيا ولا مؤاخذة ولا عقوبة في الآخرة، هذا حكم الله العادل وقانونه المحكم، فلا اعتبار بعده لكلام السفهاء الذين يلومون المنتصرين بعد أن ظلموا أو يصفونهم بالعنف والتطرف، وربما بالعدوان في بعض الأحيان، فكلامهم باطل لا عبرة به، فلا سبيل على الذين يدفعون البغي ويقاتلون البغاة الظالمين.

﴿إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الاَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ اَلِيمٌ﴾.

هكذا تفتتح هذه الآية التي هي قانون من قوانين الله العزيز الحكيم، لا يقبل النقض ولا التغيير، تفتتح بإنّما التي هي للقصر الإضافي، فليس السبيل الذي هو الملامة والدعاء بالسوء والعقوبة في الدنيا وعذاب جهنم في الآخرة إلا على الذين يظلمون الناس ويبغون في الأرض بالتسلط على الناس بغير الحق، أولئك لهم من ربهم عذاب أليم جزاء على بغيهم وظلمهم للناس.

﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ﴾.

ثم الصفة الثانية عشرة من صفات أولياء الله الصالحين في صيغة قانون إلهي محكم وهو الصبر على الغفر للظالم عندما يكون الغفر أصلح بحاله ولا يكون ذلك إلا عند

المقدرة، وغالبا ما يكون هذا الغفر بين المؤمنين فيصبر المظلوم القادر على الانتصاف ولكنه لا ينتقم ولا ينتصف بل يغفر رغبة في الأجر وإيثار لإصلاح ذات البين ولا يطيق هذا إلا ذووا العزيمة والصبر، قال الله تعالى:

﴿إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الأُمُورِ﴾.

إن الصبر والمغفرة لمن الأمور العازمة القوية، أي من أخذ الأمور بالعزم ﴿وَمَا يُلَقَّاهَآ إِلاَّ الذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَآ إِلاَّ ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ (فصلت: ٣٥)، وهذا من الله مدح وثناء على أصحاب هذه الخصال وحث للمؤمنين على الأخذ بها، وهذه الخصال الاثنتا عشرة من تحلى بها من عباد الله المؤمنين استحق أن يستقر في دار الكرامة والخلد في جنة عدن، والمجتمع الذي يكثر فيه هذا النوع من الناس مجتمع فاضل وسعيد.

وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن وَلِيٍّ مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ وَتَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ ﴿٤٤﴾ وَتَرَىٰهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ ۗ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ فِى عَذَابٍ مُّقِيمٍ ﴿٤٥﴾ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنْ أَوْلِيَآءَ يَنصُرُونَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن سَبِيلٍ ﴿٤٦﴾

يقول الله تبارك وتعالى: ومن يضلل الله، أي يصرفه عن الهدى بما جعل من الكبرياء وقساوة القلب وعمى البصيرة فهو لا يبصر النور فلا هادي له ولا ولي له من بعد الله، أو من دون الله يلي أمره بالعون والتوفيق، ثم يلفتنا الله تعالى إلى مشهد من مشاهد القيامة لنعتبر فيقول: وترى الظالمين أنفسهم بالشرك وأنواع المعاصي والظالمين لغيرهم بأنواع الظلم والبغي تراهم لما رأوا العذاب المحقق وهو واقع بهم يقولون: هل

إلى مردّ من سبيل! فهم يتمنوا الرجعة إلى الدنيا حتى يتوبوا ويتلافوا الفوات ولكن هيهات قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ وإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾(الأنعام: ٢٨).

﴿وَتَرَاهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَاشِعِينَ مِنَ الذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ﴾.

تلك حالة يبلغها أهل الذل المحكوم عليهم بالإعدام الآيسون من النجاة يصورها الله تصويرا دقيقا تمثيلا لأهل الشقاء المحكوم عليهم بالعذاب الأليم المؤبد وهم يرون العذاب، وليس بينهم وبين الوقوع في النار إلا أن يأمر الله الزبانية أن يأخذوهم أخذا وبيلا ويسحبوهم مقرنين في الأصفاد، فهم خاشعون من الذل لا مستعتب لهم ولا محيص، وأفئدتهم هواء، وأبصارهم زائغة لا يبصرون إلا أن يطرفوا طرفا خفيا شأن اليائس المبلس الذليل، وقد يئس من كل شفاعة وانغلقت دونه أبواب الرجاء في النجاة، وقد تحققت خسارته.

﴿وَقَالَ الذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ الْخَاسِرِينَ الذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾.

ويظهر أزاء موقف أهل الذل الأشقياء المبلسين موقف أهل الإيمان الناجين وهم ينطقون بالحق، وطالما فاهوا به في الدنيا، وما كانت تسمع أقوالهم يومئذ، فاليوم يؤذن لهم فينطقون بالصواب وقد أخرست ألسنة الظالمين وكمت أفواههم ولا يؤذن لهم فيعتذرون، يومئذ يقول الذين آمنوا: ﴿إِنَّ الْخَاسِرِينَ الذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ﴾ خسروا أنفسهم فلم يسعدوا بها بل صاروا إلى الشقاء، وخسروا أهليهم وصاروا إلى عذاب الله في يوم التغابن.

﴿أَلآَ إِنَّ الظَّالِمِينَ فِي عَذَابٍ مُّقِيمٍ﴾.

ألا حرف تنبيه واستفتاح وقد صدر الله تعالى بها الحكم ليعلم الناس صدق وعد الله ووعيده، وأن الظالمين الذين ظلموا أنفسهم بالشرك وكبائر الذنوب وظلموا أنفسهم

بالبغي والعدوان لهم من الله عذاب دائم هم مقيمون فيه لا مفر لهم ولا مناص، وما لهم من حميم ولا شفيع يطاع، ونعوذ الله من مصير الظالمين.

﴿وَمَا كَانَ لَهُم مِّنْ أَوْلِيَآءَ يَنصُرُونَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن سَبِيلٍ﴾.

زعم الظالمون أن الأصنام الذين اتخذوهم من دون الله شفعاء يشفعون لهم عند الله فخاب ظنهم وضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا، ومن يضلل الله بظلمه وبغيه فما له من سبيل إلى الهدى وما له بعد الله من هاد، وكذلك يضل الله الظالمين ويفعل الله ما يشاء.

ٱسْتَجِيبُوا۟ لِرَبِّكُم مِّن
قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَكُم مِّن مَّلْجَإٍ
يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ (47) فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ
عَلَيْهِمْ حَفِيظًا إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ وَإِنَّآ إِذَآ أَذَقْنَا
ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا
قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ كَفُورٌ (48) لِّلَّهِ مُلْكُ
ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا
وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ (49) أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا
وَإِنَٰثًا وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ (50)

جاء الخطاب للمكلفين أمة الدعوة في الآيات الأولى وقد تهيأت النفوس للاستجابة بما تلي عليها من آيات التبشير والإنذار، وقد كانت الآيات فصلت الكلام على أهل الاستجابة ببيان أوصافهم الحسنة ومكانتهم السامية عند ربهم، وبيان ثناء الله عليهم كما فصلت الكلام على أهل الإعراض والظلم والبغي والضلال، وبيان ذمهم

وتوبيخهم وإنذارهم بالمصير المشؤوم الذي يخسرون فيه أنفسهم وأهليهم يوم القيامة، قال الله تعالى:

﴿اسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُم مِّن قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لاَّ مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ مَا لَكُم مِّن مَّلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ﴾.

الاستجابة هي الإجابة، وزيادة الهمزة والسين والتاء للتأكيد، والإجابة معناها امتثال ما كلفنا به من أمور العبادة وهي التوجه إلى الله وحده بالإيمان والعمل الصالح الذي هو امتثال الأوامر واجتناب المناهي وأداء الحقوق والواجبات، وجاء الإسناد هنا إلى لفظ "ربكم" ليفيد أن الاستجابة شكر للمنعم الذي خلقنا وربانا وأسبغ علينا من نعمه مالا يحصى فكيف لا نستجيب بالتلبية والامتثال لهذا الرب المحسن المتفضل، المرجو لعواقب الأمور في الدنيا والآخرة، بادروا بالاستجابة لربكم.

﴿مِّن قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لاَّ مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ مَا لَكُم مِّن مَّلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ﴾.

بادروا يا عباد الله بالاستجابة لربكم من قبل أن يأتي يوم لا راد له من الله، وهو آت لا ريب فيه، وحين يأتي لا ملجأ لكم تفرون إليه ولا ناصر لكم وما لكم من نكير، أي لا تستطيعون إنكار ما اقترفتم ولا يسعكم إلا الاعتراف، ولو سكتم شهد عليكم سمعكم وأبصاركم وجلودكم بما كنتم تعملون، وتكلمت أيديكم وأرجلكم بما كانت تصنع وأقرت ألسنتكم بما كانت تكلمت به في الدنيا، فلا تملكون الإنكار ولا ردّ هذه الشهادات المعدلة، جاء هذا الإنذار من الله حتى لا يطمع أحد أن ينكر كإنكاره في الدنيا أو يلجأ إلى الطرق الملتوية التي تعودها أهل الجرائم في الدنيا فقطع الله تعالى كل أمر في هذه الأساليب التي كثيرا ما اعتمد عليها المبطلون في الحياة الدنيا، أما قضاء الله فهو القضاء الحق المبرم الذي لا معقب له ولا مرد له، فبادروا يا أولي الأبصار.

﴿فَإِنَ اَعْرَضُوا فَمَآ أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا اِنْ عَلَيْكَ إِلاَّ الْبَلاَغُ﴾.

توجه الخطاب من الله تعالى إلى رسوله ﷺ بطريق الالتفات لأنه المعني بالكلام، يقول الله تبارك وتعالى: فإن أعرضوا عن كلام الله وتولوا عنه فلا تحزن ولا تبتئس فما أرسلناك عليهم حفيظا ولا مسيطرا فما عليك إلا البلاغ وقد فَعَلْتَ، وفي هذا الكلام تسلية لقلب النبي ﷺ ولكل داعية إلى الله من بعده، وبيان لمهمة الدعاة إلى الله أنها الوعظ والتذكير والتبليغ لا غير، وربما يستشكل أحد من الناس صحة هذا المعنى ومعنى وجوب جهاد الكفار فيظن أن الجهاد مشروع لحمل الناس على الإيمان بالسيف، لا صحة لهذا الظن إنما شرع الله الجهاد لحماية الدعوة لا لحمل الناس بالإكراه على الإيمان، فإن الله تعالى يقول: ﴿لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾ (البقرة: ٢٥٦)، ويقول في معنى شرعية الجهاد بالسيف: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُواْ وَإِنَّ اللهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ (الحج: ٣٩)، ويقول تعالى: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ للهِ﴾ (البقرة: ١٩٣).

فالقتال إذن إنما شرع لحماية الدعوة حتى لا يُفتن الضعفاء عن اختيار الدين الذي عرفوا صوابه وأرادوا أن يدخلوا فيه ويعتنقوه ولم يشرع القتال لإكراه الناس على اعتناقه، أما عمل الدعاة إليه فليست إلا البيان والتبليغ والتذكير، فمن أراد الله به خيرا شرح صدره للإسلام، ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقا حرجا كأنما يصعد في السماء ﴿إِنَّكَ لاَ تَهْدِي مَنَ اَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَّشَآءُ﴾ (القصص: ٥٦)، ثم يعقب الله تعالى على ما سبق بقوله جل من قائل:

﴿وَإِنَّآ إِذَآ أَذَقْنَا الانسَانَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةُۢ بِمَا قَدَّمَتَ اَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الانسَانَ كَفُورٌ﴾.

والآية شديدة المناسبة لما قبلها، فكأن الله يقول: فإن أعرض هؤلاء القوم عن رسالتك بعد وضوح الحجة فلا عجب ولا يغيظنك إعراضهم وعتوهم فإنا جعلنا في

طبع الإنسان خصلتين لا يسلم منهما إلا القليل من الناس، وهاتان الخصلتان هما الفرح والطغيان عند توالي النعم والرحمات، والجزع والكفر عند إصابتهم ببعض السيئات، يقول الله تعالى: إنا إذا أذقنا الإنسان منا رحمة فرح بها، الفرح الذي قال الله فيه في قصة قارون: ﴿إِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ الْفَرِحِينَ﴾ (القصص: ٧٦)، وهو فرح الأشر والبطر والغفلة عن المنعم، وإن تصبهم سيئة أي نقمة فإن الإنسان كفور، يجزع وينسى النعم الكثيرة التي هو مغمور بها ويكفر المنعم، ومن بلاغة القرآن أن جاء التعبير في النعم بإذا لأنها محققة وكثيرة، وجاء التعبير في السيئة بإن لندرة وقوعها وقلتها في كثير النعم، وجاء ذكر الإنسان في موضع الإضمار مكرر لنعلم أن جبلة الإنسان مركب فيها هاتان الخصلتان، فلا يهذب نفس الإنسان إلا الإيمان بالله واليوم الآخر كما جاء هذا المعنى في سورة المعارج، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الانسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا إِلاَّ الْمُصَلِّينَ الذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلاَتِهِمْ دَآئِمُونَ...﴾ (المعارج: ١٩ وما بعدها)، فانظروا إلى روعة التعبير القرآني وإعجازه، وتأملوا معانيه وأسراره، وفي هذا تربية لنا معشر المؤمنين وتأديب من الله، وتقويم لأخلاقنا، ثم إن الله تبارك وتعالى يخبرنا أن إصابة السيئات إنما هو بما قدمت أيدينا من المعاصي والمخالفات، ويعفو الله عن كثير، والله لا يظلم الناس شيئا ولكن الناس أنفسهم يظلمون، وفي ابتلائنا ببعض السيئات تهذيب لنفوسنا وكفكفة من غرب غفلتها وطغيانها وتكفير لسيئاتنا، ورفع لدرجاتنا، فما أجدرنا أن نتلقاها ببشر ورضى.

﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالاَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾.

لله وحده ملك السماوات والأرض لا شركة لأحد في الخلق ولا في الملك والتصرف، يخلق ما يشاء من أصناف الخلق وهو الخلاق العليم.

﴿يَهَبُ لِمَنْ يَشَآءُ اِنَاثًا﴾.

وقد بدأ الله في هذا التقسيم المستوفي البديع بالإناث التي يكرههن العرب ليجبر من حالهن ويشعرنا أنهن نِعم وحسنات، لأن الشيء الموهوب لا يكون إلا لخير الموهوب له لا سيما إذا كان الواهب الله، والوهاب يهب ما يريد لا يسأله أحد عما يهب أو يمنع، فهو يهب ما يشاء لمن يشاء، وله الفضل والمنة، وهو المستحق للشكر على الوهب.

﴿وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَآءُ الذُّكُورَ﴾.

ثم إن الله يهب لمن يشاء الذكور، أي البنين، وقد نكّر الإناث وعرّف الذكور لأن رغبة الناس تتعلق بالذكور أكثر فهو دائما على ذكر فناسب تعريفهم، ثم قال:

﴿أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا﴾.

القسم الثالث هو أن يزوجهم ذكرانا وإناثا، أي بنين وبنات بمشيئة وبمقتضى حكمته البالغة في هذا التنويع وحتى تتوفر الكفاية في تزاوج الذكور بالإناث ولا يختل الميزان، ولو جعل الاختيار إلى العباد لاختلت الموازين واستحكمت الأزمة في أحد الجنسين، فسبحان الذي خلق كل شيء فقدره تقديرا، كل شيء عنده بمقدار ولا يشذ عن هذا الحكم والحكمة حتى القسم الرابع وهو العقم.

﴿وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَآءُ عَقِيمًا اِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾.

ويجعل الله من يشاء من عباده عقيما، وليس ذلك لجهل بالخلق ولا لعجز ﴿اِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾ ما أنسب هذا التعقيب بعد هذا التقسيم، ومن يطيق هذا غير العليم بإسرار الخلق، القدير على إيجاد أنواع المخلوقات وهو الخلاق العليم، وهو على كل شيء قدير.

﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآئِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِىَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ إِنَّهُۥ عَلِىٌّ حَكِيمٌ ﴿51﴾ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿52﴾ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ ﴿53﴾﴾

﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ اَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ، إِلاَّ وَحْيًا اَوْ مِنْ وَّرَآءِ حِجَابٍ اَوْ يُرْسِلُ رَسُولاً فَيُوحِي بِإِذْنِهِ مَا يَشَآءُ﴾.

يبين الله تبارك وتعالى كيفية تلقي الأنبياء والرسل للوحي الإلهي وينفي غيرها نفي الشأن، ما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحيا أي إلهاما في اليقظة أو في الرؤيا كما أوحى إلى عبده ونبيه إبراهيم عليه السلام في المنام أن يتقرب إليه بابنه إسماعيل عليه السلام أو يكلم الله من يريد من أنبيائه من وراء حجاب العظمة كما كلم الله موسى وكلم الله محمدا ﷺ ليلة الإسراء والمعراج، ولا نتكلم في كيفية التكليم فذلك أمر نكله إلى الله تبارك وتعالى، أو يرسل ملكا رسولا إلى أحد أنبيائه فيلقي إليه ما يشاء من الوحي كما كان جبريل عليه السلام يأتي رسول الله ﷺ فيحدثه فيعي ما يقول أو ينفث في روعه، وأحيانا يسمع مثل صلصلة الجرس فينفصم عنه وقد وعى ما ألقي إليه، كل ذلك بإذن الله وتيسيره.

﴿انَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾.

إن الله عليٌّ الشأن لا تناله أوهام خلقه، حكيم في أفعاله، متقن لصنعه، كل أفعاله تجري على مقتضى الحكمة، وقد نظر برحمته إلى خلقه فاقتضت حكمته أن يرسل إليهم رسلا مبشرين ومنذرين يهدونهم إلى صراطه المستقيم.

﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنَ اَمْرِنَا﴾.

بعد أن ذكر الله تعالى كيفيات الوحي الثلاث التي يلقي بها أمره إلى أنبيائه ورسله قال: وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا، أي وكما نوحي إلى الأنبياء والرسل من قبلك أوحينا إليك روحا من أمرنا، أي أوحينا إليك وحيا به حياة القلوب هو من شأننا العظيم، فكأنما أن الروح تحيا به الأجساد فكذلك الروح التي أوحينا إليك هي حياة للنفوس، وفي الآية عود على بدء ورد العجز على الصدر باختتام السورة بمثل ما افتتحت به من تقرير أمر الوحي، والسورة كلها تحمل هذه الروح وهي تثبيت الإيمان في قلوب المؤمنين برسالات الله وكتبه واليوم الآخر، فالمناسبة قوية بين الآيات التي اختتمت بها والتي افتتحت بها ففي بدايتها: ﴿كَذَٰلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ وَإِلَى الذِينَ مِن قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾، وفي ختامها يقول: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنَ اَمْرِنَا﴾، ثم قال تعالى:

﴿مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلاَ الايمَانُ﴾.

ما كنت يا محمد تدري ما الكتاب، أي ما تعرف الكتاب ولا تقرأ الكتب، وما كنت تدري ما الإيمان، وليس معنى ذلك أنه ما كان يسمع بالكتب والصحف التي نزلت على إبراهيم وموسى بل كان يسمع بالتوراة والإنجيل والزبور ولكنه ما كان يقرأ هذه الكتب ولا يدري حقيقة ما فيها، بل كان أميا لا يقرأ ولا يكتب، وما كان يدري ما الإيمان، ولكن هل كان كافرا؟ كلا بل كان يكره الكفر والكافرين ويعلم أن الذي عليه قومه من الشرك أمر باطل، وأن الذي يأتونه من الكبائر والظلم انحراف عن الصراط السوي، وكان يتمنى أن يرشد قومه إلى أمر هو الحق، ولكنه لا يدري ما هو، لقد كان متحيرا في أمر هدايتهم ولا يدري كيف يهديهم، وذلك معنى قوله تعالى: ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلاًّ فَهَدَىٰ﴾ (الضحى: ٧).

قال تعالى:

﴿وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ صِرَاطِ اللَّهِ الذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ﴾.

ولكن جعلنا هذا الكتاب الذي هو روح الحياة نورا، وصفه الله بالروح الذي به الحياة أولا ثم وصفه بالنور الذي به الإبصار، وهذا نظير قوله تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا...﴾ (الأنعام: ١٢٢)، فالقرآن نور البصائر وحياة القلوب يهدي به الله من يشاء من عباده هداية إيصال وتوفيق، ورسول الله ﷺ يهدي به الناس هداية دلالة وإرشاد، ويؤكد الله له الخبر حتى لا يرتاب الناس أنه يهدي إلى صراط الله المستقيم، ويأتي التعريف بعد التنكير، والبيان بعد الإجمال من أمر هذا الصراط لمزيد العناية والاهتمام، أنه صراط الله العلي الحكيم الذي له ما في السموات وما في الأرض، فهو أدرى بالسبل هاديها ومعوجها، وهو أدرى بعواقب السبل ومصائر الأمور.

﴿أَلاَ إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الأُمُورُ﴾.

ألا فلتعلموا أيها الناس أن جميع الأمور إلى الله لا إلى غيره تنتهي وتصير الأمور، فثقوا به، وعليه توكلوا، وبه آمنوا، وإياه فاعبدوا، وإياه فاستعينوا، وإليه ترجعون، والحمد لله رب العالمين.

انتهى ما تيسر من تفسير سورة الشورى

تفسير سورة الزخرف

سورة الزخرف مكية وآياتها ٨٩

بسم الله الرحمن الرحيم

حمٓ ﴿١﴾ وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴿٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ
تَعْقِلُونَ ﴿٣﴾ وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ ﴿٤﴾
أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ الذِّكْرَ صَفْحًا أَن كُنتُمْ
قَوْمًا مُّسْرِفِينَ ﴿٥﴾ وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِيٍّ فِي الْأَوَّلِينَ ﴿٦﴾
وَمَا يَأْتِيهِم مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٧﴾
فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُم بَطْشًا وَمَضَىٰ مَثَلُ الْأَوَّلِينَ ﴿٨﴾

السورة مكية وآياتها ثمان أو تسع وثمانون، وهي من آل حم السبعة، والذي نقول في الحرفين المفتتحة بهما هو الذي قلناه في سوابقها، فمن العلماء من يقول هي قسم من نوع خاص، ومنهم من يقول: إنها أسماء للسور المفتتحة بها، ومنهم من يقول: إنها رموز لأسماء الله الحسنى، والذي عليه الجمهور أن الله تبارك وتعالى يقيم الحجة بها على الناس الذين أنزل عليهم الكتاب ولم يؤمنوا به يتحداهم أن يأتوا بمثلها ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا، فهم عاجزون أن يأتوا ولو بأقصر سورة منه، والحال أنه مؤلف من نفس الحروف التي يركبون منه كلامهم، وبهذا تتحقق المعجزة الربانية الكبرى، فما بقي إلا أن يؤمنوا به ويسلموا تسليما أنه من عند الله العلي الحكيم، ولا يكفر به بعد هذا إلا معاند مكابر كفور.

﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ حم وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾.

السورة تسمى حم الزخرف لذكر الزخرف فيها دون غيرها من السور، ويقسم الله تبارك وتعالى بالكتاب المبين، على أن الكتاب من جعل الله، وأنه جعله قرآنا عربيا

مجموعا في الصدور، محفوظا فيها، مقروء باللسان العربي المبين، وهو نوع بديع من القسم أن يكون المقسم به والمقسم عليه شيء واحد وذلك لشرف المقسم عليه وعلو شأنه، فناسب أن يقسم به أنه كتاب حق منزل من عند الله، جعله الله قرآنا عربيا على لغة القوم الذين أنزل فيهم ليؤمنوا به ويكونوا دعاة به إلى الله هداة به صراطه المستقيم.

وفي هذا التعبير دليل على أن ألفاظ القرآن المنزل المجعول عربيا، دليل على أنها مخلوقة مجعولة منزلة، أما صفة الكلام فهي قديمة، لا يزال متكلما ليس بأخرس، واللغة العربية أفصح اللغات وأوسعها تعبيرا عن المقصود في الأغراض التي من أجلها نزل القرآن، وهو ما يدل عليه وصف الكتاب بالمبين، ويدل عليه التعليل في قوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾، والعقل درجة أعلى وأعم من الفهم، وهو فهم الأسرار والمقاصد والغايات من نزول القرآن وفهم الحكم والأحكام التي تنطوي عليها آيات الكتاب البينات.

﴿وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾.

يؤكد الله الحكم بإنَّ واللام أن هذا القرآن الذي نزل على محمد ﷺ هو في أم الكتاب عند الله علي حكيم، وأم الكتاب علم الله الأزلي، وقيل: هو اللوح المحفوظ الذي هو مكتوب بقلم القدرة، كتب الله فيه ما شاء من علمه وكتب فيه هذا القرآن العلي الحكيم، لأنه تنزيل من علي حكيم، وهذا الوصف العظيم للقرآن فيه رد على هؤلاء الكفار الجاحدين الذين يقولون فيه سحر يؤثر، ويقولون أساطير الأولين، فرد الله عليهم: لئن أنكرتم صدق هذا الكلام فلا يضيره إنكاركم وجحودكم، إنه في أم الكتاب لدينا لعلي حكيم، عليّ الشأن، رفيع المقام، محكم الآيات، حاكم مهيمن على الكتاب مشتمل على الحِكم والأحكام، معجز المعاني والألفاظ، تنزيل من حكيم خبير، فأنى تؤفكون أيها المكذبون.

﴿أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ الذِّكْرَ صَفْحًا اِن كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ﴾.

أفإن كنتم مكذبين تتضايقون بهذا الكلام نضرب عنكم صفحا ولا نذكركم به ولا ندعوكم إليه ! كلا بل لا نزال نخاطبكم به وندعوكم بدعوته حتى ترعووا عن غيكم، فمن أراد الله به منكم فسيرجع إليه ويسعد بدعوته، ومن أعرض عنه فقد هلك عن بينة، وسيلقى جزاء إسرافه في الكفر والعصيان والإعراض عن القرآن، وفي هذا الكلام توبيخ لهم ولأمثالهم من المكذبين المسرفين في كل زمان ومكان.

﴿وَكَمَ اَرْسَلْنَا مِن نَّبِيءٍ فِي الاَوَّلِينَ وَمَا يَاتِيهِم مِّن نَّبِيءٍ اِلاَّ كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُون فَأَهْلَكْنَآ أَشَدَّ مِنْهُم بَطْشًا وَمَضَىٰ مَثَلُ الاَوَّلِينَ﴾.

وكم أرسلنا من نبي في الأولين، أي وأعداد كثيرة من الأنبياء أرسلناهم في الأمم السابقة، وما يأتيهم من نبي إلا كانوا به كافرين مستهزئين بما جاءهم به من رسالة الله، يسخرون به وبما جاءهم به فأهلكنا أشد منهم بطشا من قومك هؤلاء المكذبين، ويجوز أن يكون المعنى : فأهلكنا منهم الأشد بطشا أي قوة وفتكا، وهذا الذي أرجحه وأراه، ومضى مثل الأولين، أي ومضت سنة الله في إهلاك الأولين، ألا يعتبر الآخرين بإهلاك الأولين أن الذي أهلك الأولين وأبادهم قادر على إهلاك الآخرين ما دام السبب واحدا، وفي هذا الكلام من الإيجاز والبلاغة ما فيه، وفيه أيضا تسلية لقلب النبي ﷺ والمؤمنين معه، يقول الله له : لئن استهزأ بك قومك لقد استهزؤوا بالنبيئين من قبلك فأهلكنا المستهزئين فنحن قادرون على نصرك كما نصرنا الرسل من قبلك وقادرون على إهلاك قومك المستهزئين بك كما أهلكنا أشد بطشا ممن مضى إهلاكهم وأصبحوا عبرة للمعتبرين، وقد انتقم الله منهم وانتصف لرسوله منهم وأتبعهم الأولين، وكذلك يفعل الله بالمجرمين.

وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ
خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ (9) الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ
مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (10)
۞ وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا
كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ (11) وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ
لَكُم مِّنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ (12) لِتَسْتَوُوا عَلَىٰ ظُهُورِهِ
ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ
الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ (13) وَإِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا
لَمُنقَلِبُونَ (14)

الخطاب في قوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم﴾ موجه إلى الرسول ﷺ ثم إلى كل من يصلح للخطاب، والخبر مؤكد لتحقق جواب الشرط، أي إنك إن سألت هؤلاء القوم عمن خلق السموات أنهم يجيبونك خلقهن الله، الله الذي من صفاته العزيز العليم الذي تعالت عزته وأحاط علمه بجميع مخلوقاته لا الأصنام الهامدة التي تبول عليها الكلاب والثعالب وهم يعلمون ويقرون ويعترفون بهذا غير أنهم لسفههم يتخذونها لله أندادا وهم يحبونها كحب الله، فهم لا ينكرون عظمة الله وعزته وأنه خالق كل شيء ولكنهم يشركون بعبادته غيره، ويعبدون من دونه الطواغيت ويزعمون أنها تقربهم إلى الله زلفى، ويعد جوابهم هذا يصف الله نفسه بما يليق بعظمته وجلاله ويثني على نفسه بما هو له أهل فيقول:

﴿الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ الذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ مِهَادًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلاً لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ وَالذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَآءِ مَآءً بِقَدَرٍ﴾.

الله العزيز القوي الغالب العليم بأسرار الخلق الذي خلق السموات والأرض والذي جعل لكم الأرض فراشا ممهدا تستقرون عليها وتمشون في مناكبها وتحرثونها وتغوصون في أعماقها، تستخرجون من كنوزها ومعادنها، ولو لم يمهدها الله لكم ما استطعتم ذلك، ثم إن الله تعالى جعل لكم فيها سبلا تهديكم في السير في مناكبها، وأنزل لكم من السماء ماء بقدر مقدور.

﴿فَأَنشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ﴾.

هكذا يتحول الأسلوب بضمير المتكلم وبنون العظمة ليلفتنا ربنا تبارك وتعالى إلى آياته الكبرى في إحياء الأرض بعد موتها وتجدد هذه الحياة في الآلاف والآلاف من بذور النباتات التي اختلطت بأجزاء الأرض فأنشرها الخلاق العليم بعد موتها، ومن يقدر على ذلك إلا الله الواحد القهار.

ثم إن الله تعالى يضرب لنا من نشورها بعد موتها مثلا لإعادة الخلق وإرجاع الحياة إلى الأموات يوم البعث والنشور وهو مثل مطابق تمام المطابقة ﴿قُلِ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ (يونس: ٣٤)، كذلك تخرجون يوم البعث من قبوركم ويُنشر الله أجسادكم ويرجع إليها الحياة كما أعادها في البذور المختلطة بتراب الأرض الميتة حين أحياها الله خالقها بتنزيل الماء عليها.

﴿وَالذِي خَلَقَ الأَزْوَاجَ كُلَّهَا﴾.

والزوج هو أحد النوعين يكون بينهما اختلاف النوعية، وهما الذكر والأنثى من جنس واحد، قال تعالى: ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ (الذاريات: ٤٩)، وقد خلق الله من كل نوع من الحيوان والنبات وغيرهما أنواعا هي أزواج يكمل كل زوج زوجه، فمن الكهرباء السالب والموجب، ومن الذرة النواة

والإلكترون، وهما القوتان العجيبتان اللتان انتهى إليهما علم الناس اليوم، واستغلالهم من طاقتهما الهائلة، وهما وغيرهما من تسخير الخلاق العليم.

﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفُلْكِ وَالأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ لِتَسْتَوُوا عَلَىٰ ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَـٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ﴾.

يذكّرنا ربنا تبارك وتعالى في هذه الآيات بعظيم نعمته علينا إذ سخر لنا من الفلك التي تمخر عباب البحر، ومن الأنعام التي تقطع بنا مسافات البر، جعلها لنا مسخرة ذلولا نركب ظهورها مطمئنين، وتتوجّه بنا حيث نريد لنبلغ بها حاجات في نفوسنا، فما أعظمها نعمة الله ينبغي أن نسبحه ونذكره ونشكره له نعمه التي غمرنا بها، ولولا تسخيره إياها لنا لم نطقها أبدا، فينبغي لنا عندما نستوي على ظهورها أن نقول: بسم الله والحمد لله والله أكبر، سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين، أي مطيقين، نسبح الله الذي سخر لنا هذا المركوب الذي هو دابة أو سفينة في البحر أو طائرة في الجو، وما كنا مطيقين لها لولا تسخير الله إياها لنا.

وفي هذا التسخير آيات عجيبة للراكبين ينبغي للعاقلين أن يتدبروها ويسبحوا ربهم ويقدسوه وينزهوه عن الأنداد والشركاء، ويزدادوا إيمانا بعظمته وقوته ورحمته بعباده ولطفه بهم، ثم يتذكروا مصيرهم إلى الله ويقولوا: وإنا إلى ربنا لمنقلبون، فتذكر أيها العاقل اللبيب سفرك الأخير إلى الله ولعلك بهذا السفر العاجل منقلب إلى الله، كنت متوجها إلى وجهة تريدها، ولكن الله تعالى قلبك عنها إلى قبرك حيث تلقى جزاء عملك، أليست هذه الرحلات تذكرنا برحلتنا إلى الآخرة وانقلابنا إلى ربنا! بلى إنها لعبرة للمعتبرين وذكرى للذاكرين، والمؤمن في جميع تقلباتها في هذه الدنيا يذكر مصيره إلى الله ويستعد له ولا ينسى يوم المعاد، وفي هذه الآيات إرشاد وتعليم للمؤمنين ليشكروا نعم الله ويتذكروا يوم لقاه، وفيها توبيخ للكافرين الذين يتمتعون بنعم الله ويغفلون عن شكره، وينسون الآخرة ويجعلون له أندادا يحبونهم كحب الله، فليعتبر المعتبرون.

وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا إِنَّ الْإِنسَانَ لَكَفُورٌ
مُّبِينٌ ﴿15﴾ أَمِ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَاكُم بِالْبَنِينَ ﴿16﴾
وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ
مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿17﴾ أَوَمَن يُنَشَّأُ فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ
فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ﴿18﴾ وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ
هُمْ عِندَ الرَّحْمَٰنِ إِنَاثًا أَشْهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ
شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ ﴿19﴾ وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَاهُم
مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿20﴾ أَمْ آتَيْنَاهُمْ
كِتَابًا مِّن قَبْلِهِ فَهُم بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ ﴿21﴾ بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا
آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ ﴿22﴾
وَكَذَٰلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا
إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿23﴾
۞ قُلْ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا
أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ ﴿24﴾ فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ
عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿25﴾

في هذه الآيات الكريمة توبيخ وتقريع للكافرين الذين مضى ذكرهم عند قوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ﴾ فيها بيان فساد معتقداتهم المتناقضة، وفيها تهكم بهم على هذا التناقض المفضوح، وهذا شأن السذج البسطاء الذين يقلدون غيرهم من غير علم ولا هدى، فهم إنما يقلدون آباءهم لا غير، وآباؤهم كانوا قلدوا الروم واليونان في اعتقاد تعدد الآلهة، والغريب أنهم يؤمنون إيمانا راسخا بربوبية الله وأنه وحده الخالق الرازق المالك المتصرف، رب

السموات والأرض، رب العرش العظيم، ثم هم ينسبون إليه جزء من عباده يجعلونهم له شركاء في الألوهية، تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا.

﴿وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا إِنَّ الإِنسَانَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ﴾.

وجعل هؤلاء الكفار لله جزء من عباده وهم الملائكة إذ قالوا: هم بنات الله من سروات الجن وتعالى الله عن ذلك، والجن أنفسهم يقولون: ﴿وَإِنَّهُ تَعَالَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلاَ وَلَدًا﴾ (الجن: ٣)، والملائكة عباد لله مكرمون يسبحون الله ويقسون له، إن الإنسان الذي يعتقد هذا لكفور بيّن كفره لا لبس فيه، ثم إنهم نسبوا لله الجزء الأضعف من الأولاد وهو البنات، ويا ليتهم إذ أشركوا نسبوا الصنف المختار عندهم من الأولاد.

﴿أَمِ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَاكُم بِالْبَنِينَ﴾.

أم هنا للإضراب الاستفهامي، وفي الآية التفات وتقريع لهؤلاء، أي هل اتخذ الله مما يخلق بنات وآثركم بالبنين، ولو اتخذ الله ولدا وحاشاه عن ذلك فلم لا يصطفي النوع المختار وهم البنون، أم أصفاكم بهم واصطفى البنات، فما لكم كيف تحكمون!.

﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَانِ مَثَلاً ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ﴾.

والحال أنه إذا بشر أحدهم بالجنس الذي ضربه للرحمن مثلا، أي جعله له شبيها وولدا، والولد جزء من أبيه، فهو مماثل له، إنهم حين يخبرون بولادة الأنثى تسود وجوههم من الحزن والحيرة، ويأكل الغيظ والأسى قلوبهم، فهم حينئذ ينطوون على مثل الجمر، يتوارون عن الصديق والعدو من سوء ما يبشرون به، أتجعلون لله ما تكرهون! ساء ما تحكمون.

﴿أَوَمَنْ يُنَشَّأُ فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ﴾.

أي: أتتخذون لله من ينشأ في الحلية وهي البنات اللاتي ينشأن في أنواع الحلي والزينة منذ صباهن ويجنبن مقارعة الخصوم والأعداء لأن ذلك للرجال، فهم وحدهم المعدون للقراع بالسيوف والرماح وبالخطب والقصائد، فهم وحدهم عدة المكالمات والملاكمات والمنازعات، أما النساء فلا يحسن ذلك لطغيان العاطفة على أكثرهن، فهن يتكلمن ويبكين ولا يحسن بيان حججهن، وكثيرا ما يتكلمن بها ولكن في صيغة تكون عليهن لا لهن فيفوتن بذلك مصالحهن، وصدق الله العظيم العليم بطبائعهن ونفوسهن.

﴿وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَٰنِ إِنَاثًا﴾.

تأتي هذه الآية الكريمة تبكيتا لهؤلاء الكفار الذين نسبوا الولد إلى الله وجعلوه أنثى واتخذوه من الملائكة بغير علم، فرد الله عليهم في هذه الآية فقال: ﴿وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الذِينَ هُمْ عِندَ الرَّحْمَانِ إِنَاثًا﴾ والجعل هنا ليس تكوينيا بل اعتباريا، أي واتخذوا الملائكة واعتقدوهم إناثا وقالوا بنات الله، وهذا جهل وظلم، وإن سألتهم يقولون هكذا قال آباؤنا وهم لا يكذبون، وقد كذبوا وكذب آباؤهم، وكانوا هم وآباؤهم في ضلال مبين، ووصف الله ملائكته أنهم عند الرحمن، والعندية هنا عندية تشريف، وفي قراءة أخرى ﴿عِبَادُ الرَّحمَنِ﴾ فهم عباد له مكرمون يسبحون بحمده ويقدسون له لا يرتفعون عن مقام العبودية ولا يستنكفون أن يكونوا عبيدا للرحمن، والكل من الملائكة والإنس والجن عباد الله رب العالمين، قال الله تعالى:

﴿أَ.شْهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ﴾.

استفهام إنكاري، أي أشهد هؤلاء خلق الملائكة حتى يعلموا أنهم إناث! كلا بل هم أحقر وأذل من ذلك، قال الله: ستكتب شهادتهم، وهذا من الله تهديد لهم ووعيد، وليست هي شهادة إنما هي قول بغير علم سيكتب عليهم ويسألون عليه يوم القيامة، يوم يلقون جزاءهم، وسماها الله شهادة من باب المشاكلة اللفظية فقط.

﴿وَقَالُوا لَوْ شَآءَ الرَّحْمَانُ مَا عَبَدْنَاهُم﴾.

يرد الله تعالى في الآية على شبهة من شبه الكفار الذين يشركون بالله ويعبدون من دونه آلهة ويستندون إلى القدر ويقولون: لو شاء الله ما عبدناهم يقول الله تعالى:

﴿مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ انْ هُمُ إِلاَّ يَخْرُصُونَ﴾.

وهي شبهة كثيرا ما تعلق بها الملايين من الناس، وهي مقالة الجبرية، وإسوتهم في ذلك اليهود، والاعتماد على هذه الشبهة الواهية خرص، والخرص هو الظن والقول بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير، أما القضاء والقدر فالإيمان بهما واجب، والخوض فيهما خطر، والأمر سر من أسرار الله تعالى، والله دعا عباده إلى الصراط المستقيم، وبيّن لها طريق النجاة وأعطاهم حرية الاختيار الكسبي، فهو يحاسبهم على اختيارهم، وليس هنا إجبار مطلقا، فإن عاقبهم فبعدله، وإن هداهم وأثابهم على أعمالهم فبفضله، والله يؤتي فضله من يشاء، والله ذو الفضل العظيم، ولا يقع في ملكه إلا ما يشاء ويريد، والله لا يرضى الكفر ولا يحب الفساد، وينهى عنهما، ويعاقب عليها، ولا يظلم الناس شيئا ولكن الناس أنفسهم يظلمون.

﴿أَمَ ـ اتَيْنَاهُمْ كِتَابًا مِّن قَبْلِه فَهُم بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ﴾.

في الآية إضراب انتقالي تؤذن به "أم" وتؤذن أيضا بالاستفهام الإنكاري، أي هل آتيناهم كتابا من قبل هذا الكتاب فهم به مستمسكون، أي لو كان لهم كتاب من عند الله لكان استمساكهم به معقولا، وهذا انتقال من المحاججة بالمعقول إلى المحاججة بالمنقول، وقد أفلسوا في كلتا المحاججتين، فلا عقل يؤيد ما ذهبوا إليه ولا نقل من كتاب منير، فهم وقد أعوزتهم الحجج يقولون:

﴿بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِم مُّهْتَدُونَ﴾.

في الآية إبداء لمبلغ حماقتهم وسخافة عقولهم، فهم لا يوازنون بين الحق والباطل، بل هم مغترون بما وجدوا عليه آباءهم، فهم يعبرون عنه بالاهتداء وعن

طريقة آبائهم بالأمة وهو الملة والدين وتباً لهم ولأمتهم هذه، لقد خسروا وخسر آباءهم، ولو رجعوا إلى أبيهم إبراهيم واهتدوا بملته لكان أقوم، ولكن الشيطان أضلهم وأعمى أبصارهم، وتلك شبهة المقلدين لآبائهم بغير سلطان مبين، قال تعالى:

﴿وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ﴾.

الآية الكريمة تكشف عن طبيعة أهل الضلال المترفين الطاغين وهم المنعمون الذين أنساهم الطغيان ذكر المنعم فهم المعارضون لدعاة الحق في كل زمان لفرط طغيانهم وكبريائهم، فجاءت الآية تبكيتا بحالهم وتسلية لقلب النبي ﷺ والمؤمنين، يقول الله تعالى: كذلك ما أرسلنا في قرية من نذير يدعوهم إلى الحق وينذرهم عاقبة الضلال والطغيان إلا بادر كبراؤها المترفون بالإنكار والكفر، وقالوا: إنا وجدنا آباءنا على ملة وإنا على آثارهم مقتدون بطريقتهم، وتصامموا عن النذر، وكذبوا بها، ولا يؤمن بهم إلا الأحداث والفقراء الذين هم على الفطرة وليس لهم جاه يخافون على ذهابه، ثم جاء الجواب لهؤلاء المكذبين المعاندين للحق:

﴿قَٰلَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْ﴾.

قل يا محمد أتستمسكون بملة آبائكم ولو جئتكم بأهدى مما وجدتموهم عليه، وهو خطاب يستلفت عقولهم ويقطع عليهم عذر التمسك بباطلهم ولكنهم يلجون في طغيانهم وعنادهم ولا يسمعون، بل أجابوا في إصرار وجحود:

﴿قَالُوٓا إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾.

قالوا: إنا بالذين تزعمون أنكم أرسلتم به كافرون، وليس تصريحهم بالرسالة هنا اعترافا بها بل هو تهكم وسخرية، ثم إنهم للمبالغة في الكفر بكلام الله قدم المعمول على العامل، ولما انتهوا إلى هذا الحد من الجحود والطغيان حقت عليهم كلمة الله، فأهلك الله أمثالهم، وفي هذا تهديد لكفار قريش ومن معهم بالهلاك، قال تعالى:

﴿فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾.

يقول الله تعالى: فانتقمنا من الذين كذبوا النذر من قبلهم فحلت عليهم نقمة الله فأبادتهم واستأصلت شأفتهم، فانظر أيها المعتبر نظرة تفكر واعتبار، انظر كيف كان عاقبة المكذبين من الأمم، فليعتبر اللاحق بالسابق وللكافرين أمثالها، ولكل أجل كتاب.

وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى
بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿26﴾ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ﴿27﴾
وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿28﴾ بَلْ مَتَّعْتُ
هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿29﴾ وَلَمَّا
جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿30﴾ وَقَالُوا۟ لَوْلَا
نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿31﴾ أَهُمْ
يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ
ٱلدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم
بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿32﴾ وَلَوْلَآ أَن
يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ
لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿33﴾
وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَٰبًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِـُٔونَ ﴿34﴾ وَزُخْرُفًا وَإِن كُلُّ
ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ
لِلْمُتَّقِينَ ﴿35﴾

يضرب الله المثل في مخاطبة الرسل لأقوامهم بقول إبراهيم جد العرب وبني إسرائيل، فالعرب واليهود والنصارى جميعا يعترفون بالانتساب إلى أبيهم إبراهيم، وتأتي الآية هنا شديدة المناسبة لأنها تتضمن ردا على قريش وتبكيتا لهم حين ادعوا

الاقتداء بآبائهم ونسوا أن يقتدوا بأبيهم الأعلى إبراهيم الذي نبذ عبادة قومه وأبيه للأصنام، فليتهم اقتدوا بأبيهم إبراهيم حين أنكر على أبيه وقومه ضلالهم باتخاذهم الأصنام آلهة من دون الله، وقال:

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ﴾.

والوصف بالمصدر أبلغ من الصفة، فهو برئ من جميع ما يعبدون إلا الله، والاستثناء قد يكون متصلا لأنهم لا ينكرون عبادة الله وإنما يتخذون له أندادا، وقد يكون منقطعا، أي لكن أعبد الله الذي فطرني، أي خلقني، ومن أولى بالعبادة من الخالق الرازق، المحيي المميت، وهم ينابذون من يدعوهم لعبادة الله بالعداوات والكيد.

﴿إِلاَّ الذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ﴾.

قال إبراهيم عليه السلام إلا الله الذي فطرني فإنه سيمدني بإمداد الهداية كما هداني من قبل إلى صراطه المستقيم، إنه ربي لا إله لي غيره.

﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾.

وجعل إبراهيم هذه الكلمة الطيبة باقية في أعقابه يتوارثونها خلفا عن سلف ويتواصون بها لعلهم يرجعون إليها عند اختلاف الناس، وقد أخبر الله عن تواصيهم بها في قوله تعالى: ﴿وَأَوْصَىٰ بِهَآ إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَابَنِيَّ إِنَّ اللهَ اصْطَفَىٰ لَكُمُ الدِّينَ فَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ (البقرة: ١٣٢)، وهذا من الله تعالى إرشاد لنا وتعليم لنا أن نقتدي بأبينا إبراهيم ونتمسك بهذه الكلمة ونوصي بها أبناءنا.

﴿بَلْ مَتَّعْتُ هَؤُلآَءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ الْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ وَلَمَّا جَآءَهُمُ الْحَقُّ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ﴾.

يقول الله تبارك وتعالى: بل متعت هؤلاء بالعافية ونعّمتهم وما أهلكتهم كما أهلكت الضالين المترفين من قبلهم وأمليت لهم وهم يكفرون بي، ويخالفون ملة أبيهم إبراهيم، وأمددت بقاءهم حتى جاءهم الحق وهو القرآن الكريم كلام رب العالمين،

وجاءهم رسول مبين وهو محمد ﷺ يبين لهم طريق الهدى، ولذلك أبقيتهم حتى تتحقق فيهم دعوة إبراهيم، ولما جاءهم الحق قالوا هذا سحر وإنا به كافرون، وجحدوا الحق ولم يؤمن به إلا القليل، كفروا بالحق لما جاءهم وقالوا: إنا بما أرسلتم به كافرون، وما كان منهم هذا اعترافا بالرسالة إنما كان تهكما وسخرية بالرسول والرسالة، وكان أولى لهم أن يؤمنوا به وقد علموا صدقه وأمانته ونسبه فيهم، ولا ينكرون شيئا من أمره ولكنه الحسد والكبرياء.

﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾.

أنكروا نزول القرآن على محمد الفقير الذي نشأ يتيما يرعى غنما لقريش على قراريط، وقالوا: لو كان منزلا كتابا هلاّ أنزله على عظيم إحدى القريتين مكة والطائف، وقيل يعنون بعظيم مكة الوليد بن المغيرة، ويعنون بعظيم الطائف عروة بن مسعود الثقفي، وقيل: حبيب بن عمرو الثقفي، وقيل غيرهما، ولا يتعلق الغرض بمعرفة أي الشخصين يعنون إنما يفند الله زعمهم ويرد عليهم قولهم بما يردعهم، فقد رد على تساؤلهم وتعجبهم باستفهام إنكاري زاجر، ثم بإخبار عن حقيقة ثابتة لا تُدفع، قال تعالى:

﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا﴾.

يقول الله تبارك وتعالى: نحن الذين قسمنا بينهم حظوظهم في معايش هذه الحياة الدنيا ولا يستطيعون فيها زيادة ولا نقصا ولا تحويلا، فكيف يطمعون أن يتصرفوا في رحمة الله التي هي الوحي والكتب المنزلة من عند الله! هذا بعيد عنهم، ثم بيّن الله تعالى حكمة تفاوتهم درجات في معيشتهم في هذه الحياة، إن الله رفع بعضهم فوق بعض درجات ليسخّر بعضهم بعضا لا ليسْخر بعضهم من بعض، لأن اللام لام التعليل، ولولا ذلك لما ظهرت كنوز هذه الأرض برها وبحرها، ولما استخرجت ثمراتها وأقواتها.

وليس التسخير هو استغلال الإنسان للإنسان، بل هو انتفاع الإنسان بالإنسان، الغني ينتفع بقوة العامل وفكر الموظف ومعرفته، والفقير ينتفع بمال الغني، والإسلام يأمر العامل بالنصح في عمله وتوفية مدته إلى أجله، ويأمر رب العمل بتوفية الأجير أجره قبل أن يجف عرقه، ويأمر بالإحسان حتى إلى العبيد أن نطعمهم ونلبسهم مما نلبس ولا نكلفهم ما لا يطيقون، فهم خولنا وإخواننا في الدين، ولا يعرف العالم نظاما أرفق بالإنسان وأليق لترابط المجتمع وتعاونه وتكافله، وأضمن للعدالة الاجتماعية من نظام الإسلام.

ثم إن الإسلام يفرض في أموال الأغنياء حقوقا لأخوتهم الفقراء، وهي فريضة الزكاة، وفي الأموال حقوق غير الزكاة، ويحرّض الإسلام على تحرير العبيد ويفرضه في كثير من الحالات فرضا، ويشرع نظام المكاتبة للعبيد الذين يبتغون الكتاب، ويأمرنا أن نؤتيهم من مال الله، ونحسن إليهم حتى يخلصوا ما عليهم من ديون المكاتبات، كل هذا حرصا على محو فروق الطبقات، وللدارس في نظام الإسلام وشريعة القرآن ما يدعو إلى العجب العجاب، والإعجاب بسداد شريعة الله وعدالتها.

﴿وَرَحْمَةُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾.

يعني فإذا كانت أرزاقهم في الحياة الدنيا لا دخل لهم في تقسيمها فكيف يطمعون في تقسيم رحمة ربك التي اصطفاك بها من بينهم، وهي الرسالة والوحي، ويذيّل الله بهذه الآية ليبين لهم خطأ تقديرهم وتقييمهم، فهم يقدّرون الأمر ويقيّمون الرجال بالمال والجاه والحسب، وهي أعراض زائلة ويجعل الله القيم الحقيقية هي اختيار الله العباد الذين يجعل فيهم وحيه ورسالاته، والذين يهديهم بوحيه وكتابه إلى صراطه المستقيم، تلك هي رحمة الله التي هي خير مما يجمعون، ثم يضرب الله مثلا لتفاهة أعراض هذه الحياة الدنيا الزائلة الفانية فيقول:

﴿وَلَوْلاَ أَنْ يَّكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَّكْفُرُ بِالرَّحْمَانِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فَضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِئُونَ وَزُخْرُفًا﴾.

قال تعالى: لولا لطفنا بعبادنا أن لا يكونوا أمة واحدة على الكفر لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سقفا من فضة، أي لزدناهم مالا ولمتعناهم بأنواع الرفاهية والنعيم، فنجعل أبواب بيوتهم وسقفها من فضة وذهب، وجعلنا لهم معارج، أي سلالم من ذهب وفضة، أو معارج تعرج بهم فيظهرون بها إلى أعلى طبقات بناياتهم كما هو مستحدث الآن من أنواع هذه المعارج الكهربائية، ولجعل الله لهم سررا من ذهب وفضة يجلسون عليها منعمين متكئين وزخرفا، والزخرف هو الذهب، ويطلق أيضا على أنواع الزينة كلها، وإذا كان هذا في سقف البيوت والأبواب والمعارج والسرر، فكيف بالأكواب والأباريق وسائر الأواني والمرافق والمصابيح وأنواع الزينة المزخرفة، وقد بلغ الناس من ذلك العجب العجاب، ولولا لطف الله بهم لمتع الكفار وحدهم بهذه الزخارف، وإذن لظن الناس أن الكفر مجلبة للسعادة وأن سعادة الآخرة تبع لسعادة الدنيا، ولسلكوا جميعا طريق الكفر، قال الله تعالى:

﴿وَإِن كُلُّ ذَالِكَ لَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالاَخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ﴾.

أي كل ذلك ما هو إلا متاع الحياة الدنيا الفانية ولا بقاء له ولا قيمة له عند الله، والآخرة خير وأبقى، وهي عند ربك للمتقين نعيمها خالص لأهل التقوى الذين يأتون الفرائض ويتقون المحارم ويتقربون إلى ربهم بأنواع القربات، يبتغون بها وجه ربهم الأعلى، ويؤثرون الآخرة، والآخرة خير وأبقى، وتدل هذه الآيات على حقارة الحياة الدنيا عند الله وأن متاعها قليل، وإن الدنيا لو وزنت عند الله جناح بعوضة ما نال الكافر منها شربة ماء، فما نيل الكفار من غناها ومتاعها إلا لحقارتها وهوانها عند الله، والله عنده حسن المثاب.

وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ
شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ
وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٧﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا قَالَ يَٰلَيْتَ
بَيْنِى وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ ﴿٣٨﴾ وَلَن يَنفَعَكُمُ
ٱلْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٩﴾ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ
ٱلصُّمَّ أَوْ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَمَن كَانَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٤٠﴾ فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ
بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ ﴿٤١﴾ أَوْ نُرِيَنَّكَ ٱلَّذِى وَعَدْنَٰهُمْ فَإِنَّا
عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ ﴿٤٢﴾ فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ إِنَّكَ
عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٣﴾ وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ
وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ ﴿٤٤﴾ وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ
أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ ﴿٤٥﴾

بعد التنويه بأمر القرآن وبيان أنه الكتاب المنزل من عند الله بالحق، وبيان بطلان شبهات المشركين الجاحدين للحق بعدما تبيّن وفضح شبهاتهم الواهنة وأقاويلهم المتناقضة وما هي إلا تقليد لأقاويل آبائهم الضالين وتقرير الحق الذي نطق به أبوهم إبراهيم عليه السلام لعلهم إليه يرجعون جاءت هذه الآيات تكشف عن علة إعراضهم عن الحق المبين وتعاميهم عنه.

﴿وَمَنْ يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَانِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾.

العشا ضعف في البصر لا سيما في إقبال ظلام الليل، وأريد به هنا العمى والإعراض عن نور الحق المشرق، لقد أعرض هؤلاء الكفار عن ذكر الرحمن الذي جاءهم الرسول وهو القرآن فلم ينظروا إليه إلا بعيون عشواء طغى عليها غلبة الأهواء

بتقليد الآباء، فلا عجب إذن أن ينكروا الحق البيّن ويتمادوا في الضلال، وهو في الحقيقة أمر يدعو إلى العجب، قال البوصيري:

عجبا للكفار زادوا ضلالا   بالذي فيه للعقول اهتداء

قيض الله قرناء من الشياطين، أي ألزم بهم شياطين تصدهم عن سبيل الهدى وتزين لهم سوء أعمالهم فيرونها حسنة ويحسبون أنهم مهتدون وهم ضالون عن الصراط ناكبون، قيض الله لكل واحد منهم شيطانا يلازمه ويصده عن السبيل بسبب كفره وجحوده الحق وتعاميه عنه، وكذلك يجازي الله مرتكب الذنب الكبير المصر عليه بالوقوع في ذنب أعظم منه مكرا به وإمدادا له في غيه وعقوبة له على كفره وإصراره وكبريائه، ونعوذ بالله من عقاب الله، ونعوذ بالله من شر الشياطين من همزهم ونفخهم ونفثهم، ثم قال تعالى:

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَانَا قَالَ يَالَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِيسَ الْقَرِينُ﴾.

أي حتى إذا جاء الضالون يوم الحساب ومعهم قرناؤهم من الشياطين ورأوا العذاب تبرأ بعضهم من بعض، وقال القرين من الإنس لقرينه من الجن: يا ليت بيني وبينك من البعد ما بين المشرق والمغرب، يتمنى أن لو كان هذا البعد بينهما في الدنيا حتى لا يضله ولا يهديه إلى سواء السعير، ولكن لا ينفع التمني وقد حق عليهما العذاب، وإنما هي موعظة من الله للأحياء اليوم حتى يعتبروا ويتقوا قرناء السوء من شياطين الإنس والجن.

وجاءت هنا كلمة "القرين" للتغليب كما تقول في الوالدين الأبوين، وتقول: صليت العشائين المغرب والعشاء، قال تعالى: ﴿فَبِئْسَ الْقَرِينُ﴾ أي ما أقبحه وأشأمه من قرين تتبرأ منه يوم القيامة وتلعنه ويلعنك ولا ينفعك ذلك شيئا، ويضاعف العذاب يومئذ للتابع والمتبوع، قال تعالى: ﴿لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَكِن لاَّ تَعْلَمُونَ﴾ (الأعراف: ٣٨)، أي للمتبوع ضعف جزاء كفره وإضلاله الناس، وللتابع ضعف جزاء كفره بالله وكفره

نعمة العقل الذي مكنه الله إياه للاستبصار والاعتبار فتعامى عن ذلك وقلد الكبراء والآباء بغير علم وأضله قرينه من الشياطين فبئس القرين.

﴿وَلَنْ يَنفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذْ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾.

يقول الله تبارك وتعالى مخاطبا خطاب توبيخ وتبكيت لهؤلاء النوع من قرناء السوء الظالمين المتلاومين المتلاعنين يوم القيامة: ولن ينفعكم اليوم وقد تبين ظلمكم وعاقبته الوخيمة لن ينفعكم اليوم اشتراككم في العذاب، فإن أحدكم لا يخفف عن الآخر ذلك لأن الناس في الدنيا يزعمون أن المبتلى في الدنيا إذا رأى من ابتلي بما ابتلي به يخف عذابه كما قالت الخنساء في رثائها لأخيها صخر:

ولولا كثرة الباكين حولي	على إخوانهم لقتلت نفسي
وما يبكون مثل أخي ولكن	أعزي النفس عنه بالتأسي

قد يكون هذا في الدنيا، وهي دار الأوهام، أما الآخرة وهي دار الحقائق فلا تنفع فيها الأوهام ولا يخفف بعض المعذبين عن بعض، إنهم مشتركون في العذاب، فليعتبر المعتبرون، وليتعظ أولوا الألباب، ونعوذ بالله من شر المآب.

﴿أَفَأَنتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ أَوْ تَهْدِي الْعُمْيَ وَمَن كَانَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾.

في الآية تسلية لقلب النبي ﷺ وتهوين حال إعراض الكفار عليه وشدة إمعانهم في الضلال، ذلك لأن النبي ﷺ كان شديد الحرص على هدايتهم، شديد الهم والأسى على إعراضهم وكفرهم، فخاطبه الله بهذا الخطاب الاستفهامي الإنكاري، وفيه إشارة إلى أن أكثرهم لا يهتدون، فهم في ضلالهم يعمهون، يقول الله تعالى لنبيه: أفأنت تحاول أن تسمعهم الحق وهم صم لا يسمعون، أو تريهم سبيل الهدى وهم عمي لا يهتدون، إنك لا تهدي من أضل الله، وقد ضلوا ضلالا مبينا لا لبس فيه، فهم عن الحق ناكبون، فما عليك إلا البلاغ، وما أنت عليهم بمسيطر، ولا تضق بهم ذرعا، فلا

تذهب نفسك عليهم حسرات، وقد بلغت إليهم ما أنزل إليك من ربك وحسابهم بعد ذلك على الله، وهو مالك أمرك وأمرهم وإليه ترجعون.

﴿فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ أَوْ نُرِيَنَّكَ الَّذِي وَعَدْنَاهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ﴾.

المتأمل في هذه الآيات الكريمة يرى فيها عظمة الخالق الواحد القهار، ويعلم حقا أن الكلام كلام العزيز الجبار، يخاطب عبده ورسوله وأنه ليس له من الأمر شيء، فما عليه إلا أن يمتثل ما أمر به ويسلم الأمر لله رب العالمين، فليست مهمة الرسول إلا التبليغ ولا مطمع له أن يتعداها إلى شيء من التصرف فيما هو من شؤون الله، ورسول الله ﷺ يعلم ذلك ويقف عند حده ولا يتعداه، ولكن الله يريد أن يعلمنا.

﴿فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ﴾.

يقول الله تبارك وتعالى مخاطبا لنبيه يقول: الأمر أمرنا والمشيئة مشيئتنا، فإما نذهبن بك أي نتوفاك، لأن الوفاة ذهاب من الدنيا إلى الآخرة، فإن اقتضت حكمتنا أن نؤجل عقوبتهم في الدنيا إلى ما بعد وفاتك فإنهم لا يفلتون، وقد كانوا يتربصون به ريب المنون، ويظنون أنهم بموته يتخلصون من أمره وينتهي كل شيء وينسون أنه وإن مات محمد فإن الله حي دائم لا يموت سينزل عليهم ولو بعد موته سوط عذاب.

﴿أَوْ نُرِيَنَّكَ الَّذِي وَعَدْنَاهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ﴾.

أو تكون الأخرى فنريك الذي وعدناهم من العقوبة في حياتك، وقد أراه مصارع رؤوس الكفر يوم بدر كما أراه مصارع المستهزئين الخمسة الذين طهر الله منهم الأرض، ومن أبي لهب عدو الله، وقد أقر الله عين نبيه بإهلاكهم، قال تعالى: ﴿فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ﴾ أي مهما يكن من الأمر فإن قدرتنا محيطة بهم ولن يفلتوا من قبضتنا، وكان الله على كل شيء مقتدرا.

﴿فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾.

فإذا كان الأمر كذلك فاستمسك بالذي أوحي إليك، والاستمساك هو شدة التمسك، وزيادة الحروف تؤذن بزيادة المعنى وقوته، ويراد به هنا دوام التمسك والثبات عليه؛ لأن رسول الله متمسك من أول يوم غير شاك في أمره وإنما أمر هنا بالاستمساك لتثبيت قلبه حتى لا يخالجه شك في صواب ما هو عليه وأن المعرضين عنه وإن أملى الله لهم وأطال عافيتهم أن ذلك مكر من الله بهم وإملاء لهم فهم في ضلال مبين، يقول الله لنبيه: ﴿إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ أي إنك على الحق الذي هو الصراط المستقيم فاثبت عليه ولا تحد عنه، ولا يهولنك قلة الأتباع فليست الكثرة دليلا على الحق ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللهِ﴾ (الأنعام: ١١٦)، ودين الله الذي دل عليه كتاب الله هو الصراط السوي المستقيم.

﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ﴾.

وإنه أي هذا القرآن ذكر لك ولقومك، أي شرف لك ولقومك، وما كان للعرب ذكر قبل الإسلام، فقد دخلوا التاريخ من باب الإسلام وارتفع ذكرهم بالقرآن الذي أنزله الله بلسان عربي مبين، لقد كان العرب في الجزيرة يعيشون متوزعين قبائل متفرقة لكل قبيلة زعيم، وربما يسمونه ملكا، وكان العرب في أطراف الجزيرة موالين للملوك الروم أو الفرس أو الحبشة، تابعين لهم ولم يكن لهم كيان يجمعهم حتى جاء الإسلام فحملوا راية القرآن وانضووا تحت لوائه فطافوا به العالم ففتحوا البلاد وسادوا الناس، وأخرجوا العباد من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد.

وقد كانوا يتمتعون بأخلاق عالية كالصدق وعزة النفس والشجاعة والكرم والغيرة والنجدة والصبر والحلم، وكانوا يتمدحون بهذه الأخلاق، ولا تسلم هذه الأخلاق من الغلو في بعض الأحيان، والظلم في بعضها الآخر فجاء الإسلام ليتمم مكارم الأخلاق ويضع موازينها العادلة، وحارب التعدي والظلم، ودعا إلى الإنصاف والعدالة فكان

أتباعه خير أمة أخرجت للناس، وحصل لهم به شرف وذكر طيب، ففي الآية امتنان على النبي وقومه بهذا الذكر الحسن الجميل الخالد، وفيها وعيد وتهديد للكافرين والجاحدين، إنهم سيسألون يوم القيامة عن إعراضهم عن الذكر، وينتقم الله منهم على كفرهم وإعراضهم عنه، وفي الآية دعوة للعرب إلى الإقبال على هذا الأمر الذي فيه ذكرهم وشرف خالد.

﴿وَاسْأَلْ مَنَ اَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ الرَّحْمَانِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ﴾.

الأمر بالسؤال ليس المراد منه حقيقته، إنما المراد به اشتهار الأمر بحيث لو سأل سائل لأجيب بما يزيل الشك ويثلج الفؤاد، ورويت أنه لما نزلت هذه الآية قال رسول الله ﷺ: {لا أشك ولا أسأل} ولعل الأمر موجه إلى أمته إن تسألوا أهل الكتاب من قبلنا **﴿أَجَعَلْنَا مِن دُونِ الرَّحْمَانِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ﴾** الاستفهام هنا إنكاري، يعني أن الله أرسل أنبياءه ورسله تدعو إلى التوحيد ولم يجعل آلهة تُعبد من دون الله، وهذا رد على الكفار الذين يقولون إن محمد ابتدع حين جعل الآلهة إلها واحدا وتعجبوا من أمره وقالوا: إن هذا إلا اختلاق، وفعلهم هو الاختلاق والابتداع إذ لا يوجد في شريعة من الشرائع من قبلنا آلهة تعبد من دون الله، بل ما جاء رسول من رسل الله إلا وهو يدعو قومه إلى توحيد الله ويقول لهم: يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره، فالآية تدعو إلى سؤال أهل الشرائع من قبلنا وتنكر أن يكون أحد من الرسل جعل للناس آلهة يعبدون من دون الله.

وجاءت صيغة الإنكار في أسلوب استنكاري مؤثر بليغ، والجواب على هذا الاستفهام طبعا: كلا لم تدع شريعة إلى تعدد الآلهة بل إن الدين عند الله الإسلام، وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين، ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة وذلك دين القيمة، فالإيمان بالله وحده والكفر بالطواغيت هو دعوة جميع أنبياء الله ورسله من لدن

آدم ونوح شيخ المرسلين إلى محمد خاتم الأنبياء والمرسلين، ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون.

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا
مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ
الْعَالَمِينَ (46) فَلَمَّا جَاءَهُم بِآيَاتِنَا إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ (47)
وَمَا نُرِيهِم مِّنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا وَأَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ
لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (48) وَقَالُوا يَا أَيُّهَ السَّاحِرُ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا
عَهِدَ عِندَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ (49) فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ
إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ (50) وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ
أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي
أَفَلَا تُبْصِرُونَ (51) أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ
وَلَا يَكَادُ يُبِينُ (52) فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ
أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ (53) فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ
فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ (54) فَلَمَّا آسَفُونَا
انتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ (55) فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا
وَمَثَلًا لِّلْآخِرِينَ (56)

بعد ورود ذكر الرسل من قبل رسولنا وبعد ورود ذكر نبي الله إبراهيم ومنابذته لقومه وجعله كلمة التوحيد هي الوصية الباقية في عقبه يضرب الله مثلا برسولين من بعده وأمتهما الباقيتان المجاورتان لقريش قوم النبي ﷺ في شمال الجزيرة وجنوبها، وفي جوارها في مصر بلاد النيل، ولقد كابد هذان الرسولان من معارضة قومهما ما كابده الرسول محمد ﷺ من معارضة قريش وعنادها، فكان في ذكر خبرهما تسلية وتثبيت

لقلب النبي ومن معه من المؤمنين، وتخويف لقومه المكذبين وإنذار لهم أن يصيبهم مثل ما أصابهم من العذاب.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ فَلَمَّا جَاءَهُم بِآيَاتِنَا إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ﴾.

يؤكد الله الخبر وبنون العظمة يذكر إرسال موسى لأن هذا من شؤون الله وحده، والله أعلم حيث يجعل رسالاته، اختار الله عبده موسى بن عمران وآزره بأخيه هارون ولم يذكر في هذه الآية، وقد ذكر في آيات أخرى من كتاب الله، أرسل الله موسى عليه السلام إلى فرعون صاحب مصر وملائه، أي رجال الدعوة وأعيانها وهم وزراء فرعون وأعوانه، جاءهم نبي الله موسى فقال إني رسول رب العالمين، فلما جاءهم بالحق مؤيدا بآيات الله إذا هم منها يضحكون أي يسخرون ويستهزئون.

واختير في التعبير إذا الفجائية لأن تكذيبهم بآيات الله كان أمرا مفاجئا فما أن جاءهم بالرسالة حتى فاجؤوه بالتكذيب والجحود، وما تأملوها ولا تفكروا ولا نظروا في أمره نظر تعقل وتمييز بين الحق والباطل، ولو فعلوا لأدركوا أنها الحق من عند الله ولكنها الكبرياء وحب العلو والفساد في الأرض، صدهم عن الحق لما جاءهم ما صد قريشا كبرياؤهم حين قالوا: لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم، قال الله تعالى:

﴿وَمَا نُرِيهِم مِّنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا وَأَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾.

وأخذهم الله بالعذاب، أي بالسنين ونقص من الثمرات لعلهم يرجعون، أخذهم الله بسنوات متوالية من القحط والجفاف ونقص من الزروع والغلال كما أرسل الله عليهم الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم، وكانوا كلما مسهم العذاب يهرعون إلى موسى ويقولون له:

﴿وَقَالُوا يَآ أَيــُّهَا السَّاحِرُ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَــدُونَ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ﴾.

يا أيها الساحر ادع لنا ربك بما عهد عندك من الائتمان والولاية إجابة الدعاء، وكانوا يعظمون السحرة فهم عندهم بمنزلة العلماء عندنا، فقولهم: يا أيها الساحر من باب التعظيم والإجلال، وكانوا يقولون لئن كشفت عنا العذاب إننا لمهتدون ومتبعوا أمرك، ثم لما يكشف الله عنهم الرجز ينقضون عهدهم ويرجعون إلى غيهم وعنادهم فهم يبرمون العهود ثم ينكثونها ويؤذون موسى وبني إسرائيل.

﴿وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَاقَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِيَ أَفَلاَ تُبْصِرُونَ﴾.

حين شعر فرعون الطاغية بزعزعة عرشه تحت تأثير آيات الله البينات التي جاء بها موسى، وأن القوم بدأوا ينظرون في أمر موسى نظرا فيه شيء من التثبت والجدية نادى في قومه الأقباط، أي أمر المنادين وبثهم في الناس يبلغون عن فرعون قوله:

﴿أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِيَ أَفَلاَ تُبْصِرُونَ﴾.

استفهام تقريري يدعو القوم إلى الرجوع إلى الاعتراف بملك فرعون العريض على أرض مصر الغنية من أصوان إلى البحر المالك، ويلفتهم إلى أنهار النيل وترعه الكثيرة تجري تحت أمر فرعون على زعمه، وهي لا تجري إلا بأمر الله رب فرعون ورب العالمين، ولكن فرعون في لهجة المتعالي المدلي بقوته ينادي في القوم ليحول بينهم وبين النظر في آيات الله، فاستخفهم بهذا النداء إلى طاعته والالتفات حوله بعد أن كانوا يترددون في الأمر ويتثبتون في أمر موسى فخفوا بعد هذا النداء الحار إلى فرعون ونكسوا على رؤوسهم، وكذا يفعل الأقوام الذين يعبدون السلطان والعظمة والغنى، ويقدح فرعون في موسى بقوله:

﴿أَمَ اَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَذَا الذِي هُوَ مَهِينٌ وَلاَ يَكَادُ يُبِينُ﴾.

أم هنا للإضراب الانتقالي، أي بل أنا خير من هذا الذي هو ذليل مستضعف وليس هو من بيوت الشرف ولا يكاد يبين إذا تكلم أو خطب، ذلك لأنه كانت لثغة في لسان موسى عليه السلام وهي العقدة التي دعا الله من أجلها وقد استجاب الله له، ولكن فرعون يخبر على ما كان عليه موسى ويجهل أو يتجاهل أن العقدة قد انحلت، وهذه كلها عجرفة من فرعون، فالأمر بيّن والبراهين ساطعة ولا دخل للغنى ولا للملك ولا حتى لفصاحة اللسان بعد أن وضحت آيات الله البينات، ويستمر فرعون في عجرفته وطغيانه فيقول:

﴿فَلَوْلاَ أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسَاوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ اَوْ جَآءَ مَعَهُ الْمَلآَئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ﴾.

كان الملوك في مصر وفارس يتحلون بأساورة من ذهب في معاصمهم وربما حتى في أعضادهم ولذا قال عدو الله فرعون مموها على قومه كأن أمر الرسالة يتعلق بزخارف الدنيا، والأمر ليس كذلك، فالله يصطفي رسله ذوي عقول وأحلام وآداب عالية وأخلاق حسنة، ولا دخل للزينة في تقييم الرسول وإنما يموه فرعون على قومه المفتونين بزينة الملك فيقول: لولا ألقي على الرسول أساورة من ذهب تنزل عليه من السماء أو تأتي معه الملائكة مقترنين، وقد اقترنت الملائكة برسل الله ولكنهم لا يرونهم ولو رأوهم لافتتنوا بهم ولا يصدقونهم وهم يكذبون بآيات الله البينات.

﴿فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾.

وقد استخف فرعون قومه بهذا الكلام فأطاعوه في ضلاله بعدما تبين لهم الحق، ذلك لأنهم كانوا قوما فاسقين من قبل، ضالين عن أمر الله ضلالا بعيدا، فتمكن الشيطان من إضلالهم بكلام فرعون، وكذلك يضل الله الظالمين ولا يهدي القوم الفاسقين، بل يمدهم في طغيانهم يعمهون، قال تعالى:

﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا انتَقَمْنَا مِنهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلاً لِّلآخِرِينَ﴾.

أي فلما عصوا رسل ربهم أغضبونا، فلما أغضبونا انتقمنا على الكافرين فأغرقنا فرعون ومن معه أجمعين لم ينج منهم أحد فجعلناهم سلفا ومثلا للآخرين أمثالهم من الكفار، سبق الأولون إلى عذاب الله ونقمته وسيلحق بهم الآخرون، ومضى خبر الأولين عبرة للآخرين ليعتبروا بهم، وفي هذا إنذار لقريش قوم النبي ﷺ أن يصيبهم مثل ما أصاب آل فرعون من نقمة الله وسخطه وأليم عقابه، ومن أراد الله به خيرا فإنه يعتبر ويرجع إلى الله، ونعوذ بالله البر الرحيم من مصير الظالمين.

وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا
قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ (57) وَقَالُوٓاْ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا
ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلَۢا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ (58) إِنْ هُوَ إِلَّا
عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَٰهُ مَثَلًا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ (59)
وَلَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلَٰٓئِكَةً فِى ٱلْأَرْضِ يَخْلُفُونَ (60)
وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَٱتَّبِعُونِ هَٰذَا صِرَٰطٌ
مُّسْتَقِيمٌ (61) وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ (62)
۞ وَلَمَّا جَآءَ عِيسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِٱلْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ
لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ (63)
إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ (64)
فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْ
عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ (65) هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن
تَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (66) ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ
بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ (67)

بعد الكلام على خبر موسى وما لاقاه من فرعون وملإه من المعارضة والصدود والأذى فأغرقهم الله وأدخلهم ناره وجعلهم سلفا ومثلا للآخرين، وكان الكلام على فرعون وقومه تسلية للنبي ﷺ لما لاقاه من قريش من الصدود والإعراض والأذى، بعد كل هذا يردف بخصومة أخرى منهم تتعلق بعيسى ابن مريم، وفي ذكرها حسن تخلص للانتقال إلى الكلام على نبي آخر من أنبياء بني إسرائيل وتقرير الحق في خبر رسالته ودعوته واختلاف الأحزاب بعد ظهور الحق وإنذار المنكرين لرسالته بقيام الساعة وما أعد الله لهم بعدها من عذاب أليم، وفي هذا إنذار لكفار قريش ومن معهم ممن كفروا بالله وبرسالة محمد ﷺ وكذبوا بالساعة، قال تعالى:

﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلاً اِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصُدُّونَ﴾.

اختلف العلماء في تفسير هذه الآية ما هو المقصود بضرب المثل بابن مريم، والذي عليه أكثر المفسرين ـ وهو الحق إن شاء الله ـ أن معناها يرجع إلى الآية التي نزلت في سورة الأنبياء وهي قوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ لَوْ كَانَ هَؤُلآءِ .اِلِهَةً مَّا وَرَدُوهَا وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ(الأنبياء: ٩٨ ـ ٩٩)، ومعنى حصب جهنم أي يُحصبون، ومعناه يُرمون فيها هم وآلهتهم التي يعبدونها من دون الله، وهي من الأحجار والمعادن أو من الإنس والجن الذين رضوا أن يُعبدوا من دون الله، وإذا كانت آلهتهم تحصب معهم في جهنم فذلك غاية الذلة والهوان، وهو ما يزيدهم عذابا فهم لم تنفعهم ولم تشفع لهم كما كانوا يزعمون، بل حصبت معهم، ولو كانت آلهة حقا ما وردت معهم جهنم، وكل من العابد والمعبود خالد فيها وبئس المصير.

لما نزلت هذه الآية جاء عبد الله بن الزبعرى ومعه جماعة من كفار قريش يجادلون النبي ﷺ قال ابن الزبعرى ـ وذلك قبل إسلامه ـ قال للنبي ﷺ: {أخاصة لنا ولآلهتنا أم لجميع الأمم؟ فقال النبي ﷺ: هو لكم ولآلهتكم ولجميع الأمم، قال ابن الزبعرى:

خصمتك ورب الكعبة، ألست تزعم أن عيسى بن مريم نبي وقد عبدته النصارى، فإن كان عيسى بن مريم في النار فقد رضينا أن نكون نحن وآلهتنا معه} ، ففرح بكلامه من حضر من المشركين وأحدثوا صخبا وضجيجا وفتنوا بذلك أتباعهم ممن معهم من كفار مكة، فأنزل الله تبارك وتعالى قوله: ﴿إِنَّ الذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَىٰ أُوْلَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾ (الأنبياء: ١٠١)، وكان نزولها ردا على لجاجهم، وإسكاتا لصدهم وفتنتهم، والصد هنا هو الضجيج واللغو والصخب، ومن القراء من قرأها بالكسر ﴿يَصِدُّونَ﴾ فهم منه أي بسببه يرفعون أصواتهم بالصخب والضجيج.

﴿وَقَالُوا ءَاالِهَتُنَا خَيْرٌ امْ هُوَ﴾.

وهو استفهام تقريري، أي آلهتنا التي هي الملائكة خير أم المسيح ابن مريم، فإذا كانت الملائكة ترد النار فنحن راضون، فرد الله عليهم بالآية المذكورة آنفا، ثم قال تعالى:

﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلاَّ جَدَلاً بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾.

وما ضربوا لك هذا المثل إلا جدلا لأنهم لا يؤمنون بالمسيح بل هم لدٌّ في الخصومة يحبون الجدل ليدحضوا به الحق بما طبعوا عليه من الميل إلى الخصام ويعرضون عنه في كل زمان ومكان، وما أضل الله قوما قط إلا أوتوا الجدل، ثم قال تبارك وتعالى:

﴿انْ هُوَ إِلاَّ عَبْدٌ انْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلاً لِّبَنِي إِسْرَآءِيلَ﴾.

إن هو إلا عبد، أي ما هو إلا عبد من عبادنا، والقصر هنا إضافي، أي ما هو بإله، أنعمنا عليه بنعمة النبوة والرسالة وجعلناه مثلا، أي عبرة لبني إسرائيل ليعلموا أن الله على كل شيء قدير، خلق عيسى من غير أب كما خلق آدم من تراب من غير أم ولا أب، ثم قال تعالى:

﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلآَئِكَةً فِي الأَرْضِ يَخْلُفُونَ﴾.

ولو نشاء لجعلنا بدلا منكم ملائكة يخلفونكم على هذه الأرض، فليست رفعة الملائكة في السموات بموجبة لهم شرفا، وليسوا بذلك بمستحقين أن يُعبدوا من دون الله، ولو شاء الله لعكس القضية فجعل الملائكة في الأرض وجعل البشر في موضع آخر من السماوات، وفي هذا الكلام رد على مزاعم الكفار في عبادتهم الملائكة، وما ذلك إلا لاعتقاد هم أن لهم شرفا ذاتيا وأنهم بنات الله، فرد الله عليهم ودحض الشبهة التي تعلقوا بها وقرر أنهم عباد الله عمر بهم السموات، ولو يشاء لجعلهم في الأرض، ﴿وَهُوَ الذِي فِي السَّمَآءِ إِلَهٌ وَفِي الأَرْضِ إِلَهٌ﴾ (الزخرف: ٨٤)، ﴿وَإِنَّهُ تَعَالَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلاَ وَلَدًا﴾ (الجن: ٣).

﴿وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلاَ تَمْتَرُنَّ بِهَا وَاتَّبِعُونِ﴾.

اختلف أهل العلم في مرجع الضمير من ﴿إِنَّهُ﴾ فقال بعضهم: هو القرآن، وهو الوصف الثامن للقرآن في هذه السورة الكريمة، وهو معطوف على قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ﴾ أي وإن القرآن لعلم لقرب الساعة لأنه آخر الكتب نزولا، وقد روي عن النبي ﷺ أنه قال: {بعثت أنا والساعة كهاتين} وقرن بين سبابته والوسطى، وقد ورد في القرآن في غير موضع ذكر اقتراب الساعة، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ﴾ (القمر: ١)، وقوله تعالى: ﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ﴾ (الأنبياء: ١)، وقوله: ﴿أَزِفَتِ الآزِفَةُ﴾ (النجم: ٥٧).

فالقرآن فيه علم على قرب قيام الساعة، وهذا المعنى هو الذي أميل إليه وأرجحه، وهو أن يكون الضمير راجعا للقرآن الكريم، وقال بعضهم - وروي عن ابن عباس - أن مرجع الضمير هو المسيح عليه السلام أي نزوله آخر الزمان دليل على قرب قيام الساعة، وقد رويت في نزوله أحاديث، ومنهم من قال إحياؤه للموتى بإذن الله دليل على قيام الساعة، أي كذلك يحي الله الموتى يوم القيامة، يوم ينفخ في الصور، ثم قال تعالى:

﴿فَلاَ تَمْتَرُنَّ بِهَا﴾ فلا تشكوا فيها، وضمن الامتراء معنى التكذيب ولذا جيء هنا بالباء لأن التكذيب هو الذي يعدى بالباء، أي فلا تشكوا وتكذبوا بها.

﴿هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾.

أي واتبعوا صراطي وآمنوا برسولي واتبعوه، فهو يدعوكم إلى صراط الله المستقيم الذي لا اعوجاج فيه، ومنهم من قال: هذا قول الرسول ﷺ أمر أن يقول لقومه وللناس كافة، واتبعوا هذا الذي أنا عليه وأدعوكم إليه صراط مستقيم، وهذا على غرار ما جاء في سورة الأنعام: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلاَ تَتَّبِعُواْ السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ﴾ (الأنعام: ١٥٣)، وهي موعظة موجهة إلى الناس جميعا، فإذا قيام الساعة قد اقترب حقا، وهو يوم آت لا ريب فيه، فلا نجاة لنا يومئذ إلا باتباع صراط الله المستقيم، وهو القرآن الكريم المنزل من عند الله رب العالمين، أو هو الدين الإسلامي القويم.

﴿وَلاَ يَصُدَّنَّكُمُ الشَّيْطَانُ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾.

يحذّرنا الله تبارك وتعالى في هذه الصيغة البليغة من النهي أن يصدنا الشيطان بإضلاله إيانا عن الصراط المستقيم، إنه عدونا الذي أسفر عن عداوته لنا وصرح بها منذ امتناعه عن السجود لأبينا آدم، ولعنة الله إياه لامتناعه عن السجود، فهو منذ ذلك اليوم إلى قيام الساعة يحاول إضلالنا، وقد نبهنا الله حتى نأخذ حذرنا منه ونتقي شره، ونستعيذ بالله من همزه ونفخه ونفثه، فلا مطمع مطلقا في زوال هذه العداوة، ولا ينبغي الغفلة عنها أو تناسيها.

﴿وَلَمَّا جَاءَ عِيسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِالْحِكْمَةِ وَلأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ الذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ﴾.

يقول الله تبارك وتعالى: ولما جاء عيسى بني إسرائيل بالبينات، أي بالإنجيل وبالمعجزات مثل إحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص، ومثل ولادته من غير أب وتنبئته

إياهم بما يأكلون وما يدخرون في بيوتهم، ومن هذه البينات قوله لهم: قد جئتكم بالحكمة، أي بالإرشاد إلى ما يدلكم على الخير والهدى، ويردكم عن الشر والردى، ولأبين لكم بعض الذي تختلفون فيه، وهذا البغض المبين هو أمر دينهم مما يتعلق بالعقيدة والعبادة لا ما يتعلق بأمور دنياهم.

﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾.

أي وحدوا الله ربكم واعبدوه ولا تشركوا به شيئا، واتبعوا ما جئتكم به من الهدى، هذا الذي أدعو إليه هو طريق الوصول إلى الجنة، وهو طريق مستقيم لا اعوجاج فيه، هذا الذي جاءهم به المسيح عليه السلام أمر مقبول واضح لا نكر فيه، ولا يناقض ما جاءهم به موسى والأنبياء من بعده، فقد جاءت جميع أنبياء الله ورسله بتقرير وحدانية الله رب العالمين، وفي قوله: إن الله هو ربي وربكم رد على فرق اليهود القائلة عزير ابن الله، وفرق النصارى القائلة المسيح ابن الله، فما المسيح ابن مريم إلا عبد الله ورسوله وليس بينه وبين الله نسب مطلقا، تعالى الله لم يتخذ صاحبة ولا ولدا.

﴿فَاخْتَلَفَ الأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ﴾.

ما إن جاءهم عيسى بالبينات والحكمة حتى اختلفوا عليه، فمنهم من آمن به ومنهم من كفر، ثم تحزبوا من بعده إلى أحزاب وفرق شتى، فمنهم اليعاقبة وهم الذين قالوا عيسى هو الله، والنسطورية وهم الذين قالوا المسيح ابن الله، ومنهم الملكانية وهم الكاثوليك، وهم الذين قالوا عيسى ثالث ثلاثة مجموعها هو الإله، وهي الأقانيم الثلاثة: الأب والابن وروح القدس، ثم اختلفت هذه الأحزاب الكبرى إلى اثنتين وسبعين فرقة كما جاء في الحديث، فالآية شاملة للاختلافين: الذي في زمان المسيح، والذي ابتدع من بعده.

﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾.

هذا إنذار من الله للمشركين من قريش وغيرهم، والظلم هنا هو الشرك ومشاقة أنبياء الله ورسله، ويل لهم من عذاب يوم أليم، وهو يوم القيامة الذي يساقون فيه إلى العذاب الأليم، وهو وعيد شديد وتهديد من الله لأهل الشرك والضلال، ثم أردفه الله بقوله تعالى:

﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ السَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ﴾.

الاستفهام هنا إنكاري وأريد به النفي، وذلك أن هؤلاء المشركين بعد مجيء الآيات البينات ماذا ينتظرون؟ أليس الواجب عليهم أن يسارعوا إلى الإيمان بالله ورسوله قبل الموت وقبل قيام الساعة! العجب أنهم بعد كل هذا قست قلوبهم وزادوا عتوا ونفورا، واستبعدوا وعيد الله، فهم يستعجلون العذاب ويقولون: متى هذا الوعد إن كنتم صادقين، هل ينظرون إلا قيام الساعة ليحل بهم العذاب الموعود! وهذه الساعة لا تأتيهم إلا بغتة أو فجأة وفي أسرع من لمح البصر وهم لا يشعرون بها قبل مجيئها، فقد روي أن الساعة تقوم والرجل يليط حوضه ليسقي غنمه، وتقوم والمتبايعان باسطان ثوبهما قبل أن يطوياه، والساعة تقوم والرجل رافع لقمته إلى فمه فتقوم قبل أن تبلغ فاه، وما سميت الساعة بهذا الاسم إلا لسرعة ما يحدث فيها من أمور لم تعهد ولم تكن بالحسبان، ولم يشعر بها الناس فويل للغافلين عنها والمرتابين في أمرها.

﴿الأَخِلاَّءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلاَّ الْمُتَّقِينَ﴾.

الأخلاء هم الأحباب الذين كانت المودة تخالل قلوبهم، يخبرنا الله تبارك وتعالى أن كل محبة بين اثنين أو جماعة في هذه الدنيا إلا وتنقلب إلى عداوة يوم القيامة إلا المحبة التي بنيت على تقوى الله، فإنها تزداد يوم القيامة، وفي هذا إنذار للمتحابين على الإثم والعدوان وتبشير لأهل التقوى والإيمان، وقد ناسب نزول هذه الآية ما قبلها من الآيات التي جاء فيها ذكر تظاهر أهل الشرك على عداوة أنبياء الله وانعقاد مودتهم على الكفر

بهم وأذاهم وأذى المؤمنين بهم، وربما ينقدح شرارة الإيمان في قلب أحدهم فيمنعه من الإيمان مراعاة مودة أشكاله من أهل الشرك والضلال، فهم يأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف ويتظاهرون على الإثم والعدوان بخلاف المتقين، فهم يتحابون في الله ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويؤمنون بالله، ويعقدون أواصرهم على التعاون على البر والتقوى، وشتان بين الفريقين، فريق في الجنة إخوانا على سرر متقابلين، وفريق في السعير يلعن بعضهم بعضا، ويدعو بعضهم على بعض بمضاعفة العذاب بما أضل بعضهم بعضا في الدنيا، فلينظر العاقل من يخالل، فإن المرء على دين خليله، ولينابذ العداوة أهل الفسق والضلال، وليتقرب إلى الله بمحبة أهل الاستقامة وبغض أهل الكفر والمعاصي، فإن ذلك خير عون للمؤمن على الاستقامة، وبالله التوفيق.

يَٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ
عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٦٨﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا
وَكَانُوا۟ مُسْلِمِينَ ﴿٦٩﴾ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ
تُحْبَرُونَ ﴿٧٠﴾ يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ
وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ وَأَنتُمْ فِيهَا
خَٰلِدُونَ ﴿٧١﴾ وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ
تَعْمَلُونَ ﴿٧٢﴾ لَكُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِّنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٣﴾
إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى عَذَابِ جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ
فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٥﴾ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧٦﴾
وَنَادَوْا۟ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ ﴿٧٧﴾ لَقَدْ
جِئْنَٰكُم بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ ﴿٧٨﴾

يعرض الله تعالى علينا مشهدين من مشاهد يوم القيامة في هذه الآيات البينات، مشهد لأهل الجنة وما أعد الله لهم من النعيم والحبور والبشارات، ومشهد لأهل النار

وما أعد الله لهم فيها من العذاب والخزي والهوان، وهما مشهدان مؤثران غاية التأثير، فيهما موعظة للمتقين وذكرى لأولي الألباب.

﴿يَاعِبَادِي لاَ خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلاَ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ الذِينَ ءَامَنُوا بِئَايَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ﴾.

نداء من قبل رب العالمين يوجه يوم القيامة إلى عباد الله **﴿يَا عِبَادِي﴾** فتشرئب أعناق الناس كلهم لأنهم عباد الله ويطمعون لأن الله يقول: **﴿لاَ خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلاَ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ﴾** ينفي الله عنهم الخوف والحزن، وهي بشارة عظيمة يبشر بها عباد الله فيطمع الناس مؤمنهم وكافرهم ومنافقهم، غير أن الله يردفه بوصفين يقطعان طمع غير المؤمنين المسلمين.

﴿الذِينَ ءَامَنُوا بِئَايَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ﴾

يبين الحق جل جلاله من هم عباد الله الذين يستحقون بشارة الله، هم الذين آمنوا بآيات الله وكانوا مسلمين، أي موفين بأعمال الإسلام من صلاة وصوم وزكاة وحج، وأمر بمعروف ونهي عن المنكر وحفظ لحدود الله، وليس المقصود من ذكر الإسلام مجرد الانتساب إلى جماعة المسلمين لا بل حتى يوفي بأعمال الإسلام عملا بوصية الله وأمره ﴿يَآ أَيُّهَا الذِينَ ءَامَنُواْ اتَّقُواْ اللهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ (آل عمران: ١٠٢)، فهم الذين يستحقون بشارة الله، وهم الذين يوجه إليهم الكلام تشريفا لهم وتكريما، والإضافة هنا إضافة خصوصية وتشريف، فهم لا يخافون يوم يخاف الناس، ولا يحزنون بل ينادون بقول ربهم:

﴿ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ﴾.

ادخلوا الجنة التي أعدت لكم أنتم وأزواجكم، يجمع الله بين الصالحين الأبرار وبين أزواجهم الصالحات في الجنة ليكمل نعيمهم باجتماعهم حيث يحبرون، أي يسُرون ويظهر عليهم أثر الحبور.

﴿يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الأَنفُسُ وَتَلَذُّ الأَعْيُنُ﴾.

يطاف عليهم بصحاف من ذهب، والصحفة إناء دون القصعة يوضع فيه الطعام، وأكواب أي من ذهب، والكوب هو إناء يصب فيه الشراب، وهو كأس لا عروة فيه، وفيها أي في الصحاب والأكواب ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين من الأطعمة والأشربة؛ لأن للعين حظها من الطعام الفاخر والشراب الطيب اللذيذ.

﴿وَأَنتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾.

يقال لهم ليتم نعيمهم وحبورهم: وأنتم في الجنة ونعيمها خالدون، لا تخافون موتا ولا نفادا لنعيمها بل أنتم خالدون فيها أبدا لا تخرجون منها ولا تبغون عنها حولا.

﴿وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

جاءت الإشارة بتلك لتدل على علو الجنة وعظم شرفها، وجاء التعبير بالإرث لأنه نعيم مقيم لا يزول تفضل الله عليهم به إرثا خالصا وقال: بما كنتم تعملون، أي استحققتموه بأعمالكم الصالحة، وهذا من الله تبارك وتعالى تفضل أما أعمالنا فليست هي التي تدخلنا الجنة إنما ندخلها برحمة الله، وإنما قال تعالى ﴿بِمَا كُنتُمْ﴾ لنجتهد في الأعمال الصالحات ولنسارع في الخيرات، وليقطع طمع أهل الأماني الفارغة الذين يطمعون في دخول الجنة بدون عمل، فالآية تفيد أن أهل الجنة كانوا يجتهدون في أعمال البر ويحفظون حدود الله ويسارعون في الخيرات وهم لها سابقون.

﴿لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِّنْهَا تَأْكُلُونَ﴾.

يقال لأهل الجنة جعلنا الله منهم: لكم فيها، أي في الجنة فاكهة، أي فواكه كثيرة متنوعة منها تأكلون، فهي متوفرة يأكلون منها لا تنقص ولا تنقطع في وقت من الأوقات كما تنقطع فواكه الدنيا، قال الله تعالى في سورة الواقعة: ﴿وَفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ لَّا

مَقْطُوعَةٍ وَلاَ مَمْنُوعَةٍ(الواقعة: ٣٢-٣٣)، وهذا كله تشويق للمؤمنين وترغيب لهم في الأعمال الصالحة التي تهديهم إلى طريق الجنة.

﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ﴾.

بعد الكلام على مصير أهل الجنة وما أعد الله لهم فيها من نعيم، وقد بدئ بهم للاهتمام بشأنهم، يأتي الكلام على مصير أهل النار، وكأن سائلا يسأل: هذا مصير المؤمنين الذين يعملون الصالحات فما هو مصير الكافرين ذوي الإجرام؟ فيأتي التفصيل للإجمال السابق حيث تقدم قوله تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾ والمقصود بالمجرمين كل من ارتكب الإجرام من المشركين والموحدين المصرين على الإجرام كالقتل والبغي والظلم وشهادة الزور والزنى وأكل الربا وأكل أموال اليتامى ظلما، وغير ذلك من أنواع الإجرام لا كما يدعي بعضهم أن المقصود بالإجرام هم الشرك فقط، وهذا قصر للكلمة على بعض ما تدل عليه.

يقول المفسر المشهور الألوسي لينصر مذهبه: "إن عصاة الموحدين لا يخلدون في النار، قال: إن المجرمين أي الراسخين في الإجرام وهم الكفار، حتى لا تكون حجة للمعتزلة والخوارج في قولهم: إن عصاة الموحدين يخلدون في النار"، وأقول: وهذا باطل من القول لم يجدوا حيلة في نفي الخلود المكرر في آيات كثيرة من القرآن ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾ (الجن: ٢٣)، وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُومِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ (النساء: ٩٣)، ويقولون: المراد بالخلود طول المكث، ولكن الله تعالى يرد على الذين قالوا: لن تمسنا النار إلا أياما معدودة بقوله: ﴿بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَاتُهُ فَأُوْلَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (البقرة: ٨١)، ولا يمكن الرد بالخلد على ادعاء الخروج إلا أن يكون معنى الخلود هو الدوام.

ويقول المنصفون منهم: حجة الخوارج والإباضية والمعتزلة في خلود أهل الكبائر قوية جدا، وعقيدتنا أن العصاة الموحدين الذين ماتوا مصرين على معاصيهم مخلدون، والذين ماتوا وهم كفار هم جميعا مخلدون في عذاب النار، وفي هذه العقيدة ردع عن ارتكاب الكبائر ثم الإصرار عليها، وحمل للعصاة على المسارعة إلى التوبة النصوح والرجوع إلى الله، ثم قال الله في وصف العذاب:

﴿لاَ يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ﴾.

أي لا يخفف عنهم العذاب يوما ولا يجدون لهم وليا ونصيرا ولا يسمع لهم قول وإن يستعتبوا فما هم بمعتبين، فلا يقبل منهم اعتذار ولا يؤخذ فدية فهم في أشد العذاب أذلاء مهانون ساكتون آيسون من رحمة الله بعد أن قال الله لهم: ﴿اخْسَئُواْ فِيهَا وَلاَ تُكَلِّمُونِ﴾ (المؤمنون: ١٠٨).

﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِن كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ﴾.

ينفي ربنا تبارك وتعالى الظلم عن نفسه، ومعناه أن يعاقب أحدا من خلقه من غير استحقاق، ولا أحد أحب إليه العذر من الله، وهنا يقول: وما ظلمنا بالعذاب ولكن كانوا هم الظالمين بالكفر الذي هو الشرك والإصرار على كبائر الذنوب فاستحقوا بذلك العذاب.

﴿وَنَادَوْا يَامَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّاكِثُونَ﴾.

مالك هو علَم الملك الموكل بالنار، فهو كبير خزنة جهنم، نادى أصحاب النار مالكا بعد أن يئسوا من جواب الله لهم فنادوا مالكا ليشفع لهم إلى الله فيميتهم فيكون الموت راحة لهم من العذاب، وقد كانوا يفرون من الموت في الدنيا فأصبحوا يتمنونه لينجوا من عذاب جهنم ولا يسعفون إلى ذلك، يجيبهم مالك بكلمة واحدة قيل بعد ألف عام، وقيل: بعد مائة عام يقول لهم: إنكم ماكثون، أي خالدون فيها لا تموتون ولا تخرجون من النار ولا يخفف عنكم العذاب.

﴿لَقَدْ جِئْنَاكُم بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ﴾.

من المفسرين من يقول: إن هذا قول مالك تابع لما قبله، والحق أن هذا قول الله تبارك وتعالى يخاطب به المشركين والمتمردين من العصاة في الدنيا لعلهم يرعوون عن غيهم ويتوبوا إلى ربهم، يقول الله لهم: لقد جئناكم بالحق، أي بالآيات البينات والمواعظ الزاجرات وبالرسل والدعاة يبينون لكم طريق الحق والهدى، وينذرونكم لقاء يومكم هذا ولكن أكثرهم للحق كارهون، فهم حين يكفرون ويعصون النذر إنما يكرهون الحق الذي قد استبان لهم فيجحدونه ويجادلون بالباطل عتوا واستكبارا لأن أهواءهم غلبت على نفوسهم وران على قلوبهم ما كانوا يكسبون، وأكثر الأشقياء يدركون الحق ولكنهم للحق كارهون، أما من يعترف بالحق ويذعن له ويفهم عن الدعاة والمنذرين فهؤلاء يرجى لهم الخير وهم في الناس قليلون، ثم يقول تعالى:

﴿أَمْ أَبْرَمُوا أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ ﴿٧٩﴾ أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُم
بَلَى وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴿٨٠﴾ قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا
أَوَّلُ الْعَابِدِينَ ﴿٨١﴾ سُبْحَانَ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ
عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٨٢﴾ فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّىٰ يُلَاقُوا
يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ ﴿٨٣﴾ وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَٰهٌ وَفِي
الْأَرْضِ إِلَٰهٌ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ ﴿٨٤﴾ وَتَبَارَكَ الَّذِي لَهُ مُلْكُ
السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَإِلَيْهِ
تُرْجَعُونَ ﴿٨٥﴾ وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الشَّفَاعَةَ
إِلَّا مَن شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ
لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٨٧﴾ وَقِيلِهِ يَا رَبِّ إِنَّ هَٰؤُلَاءِ قَوْمٌ
لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَامٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾﴾

تختم هذه السورة الكريمة بمثل ما افتتحت به وهو مخاطبة هؤلاء المنكرين للحق الذي جاء به أنبياء الله ورسله بالإنكار عليهم وتبكيتهم، والتهوين من أمرهم، والرد على مقولاتهم السخيفة، وتهديدهم بإهلاك أمثالهم ومن هو أشد منهم بطشا، والتعجب من كفرهم بالله بعد اعترافهم أنه خالق السماوات والأرض فأنى يؤفكون، وفيها تسلية لقلب النبي ﷺ بتضعيف كيدهم الذي أبرموه فإن الله مبرم أمره والله أشد بأسا وأشد تنكيلا، فسوف يعلمون حين يرون العذاب من أضل سبيلا، وسيعلمون من هو شر مكانا وأضعف جندا.

﴿أَمْ أَبْرَمُوا أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ﴾.

أم هنا للإضراب الانتقالي وهي بمعنى بل، وفيها معنى الاستفهام الإنكاري، أي هل أبرموا أمرا فإنا مبرمون، والإبرام هو إحكام خطة لتبييت أمر فيه خطر وأهمية، ومن ذلك التبييت على القتل والمكر، والضمير يرجع إلى الكفار من قريش، فهم يكيدون كيدا عظيما للحيلولة بين الناس وبين صاحب الرسالة، ويقولون للقبائل الوافدة عليهم: إياكم أن تسمعوا لهذا المجنون، ويعذبون أبناءهم وعبيدهم الذين آمنوا به، ويقاطعون النبي ﷺ وعشيرته بني هاشم، يكتبون في ذلك صحيفة يعلقونها في الكعبة، ثم يبرمون أمرهم على قتله ولكن الله تعالى يجعل كيدهم في تضليل، فهو المبرم الحقيقي الذي ينقض إبرامهم ويجعل لهلاكهم أجلا لا ريب فيه، وهو قريب منهم ولكن لا يشعرون.

﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُم بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾.

أي هل يحسبون أنا لا نسمع سرهم، أي ما يسرون به من مكر ويتناجون به من الإثم والعدوان ومعصية الرسول، بلى إنا نعلم السر وما يخفى من هواجس صدورهم،

ورسلنا الملائكة لديهم يكتبون كل أفعالهم وأقوالهم، وفي ذكر الكتابة إشعار بالمحاسبة عليها وبمجازاتهم يوم القيامة بعد عرض أعمالهم المقيدة في كتبهم المحصاة عليهم.

﴿قُلِ ان كَانَ لِلرَّحْمَانِ وَلَدٌ فَأَنَآ أَوَّلُ الْعَابِدِينَ﴾.

قل لهؤلاء الكفار يا محمد إن كان للرحمن ولد كما زعمتم فأنا أول العالمين، ذلك لأن الرسول أعرف بربه منهم، وأولى الناس به وبعبادته، وقد أمر أن يخاطبهم بهذا الخطاب ليبطل دعواهم أن الملائكة بنات الله.

﴿سُبْحَانَ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالاَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾.

تنزه ربنا رب السماوات ومن فيهن ورب الأرض ومن عليها ومن فيها رب العرش العظيم، تنزه وتعالى عما يصفه به الجاهلون لم يتخذ ربنا صاحبة ولا ولدا، وما ينبغي للرحمن أن يتخذ ولدا وإنما يتخذ الناس الأزواج ليلدوا الأولاد الذين يعينونهم وينفعونهم إذا عجزوا وضعفوا وأدركم الهرم وليتخذوا منهم أنصارا على الأعداء وليخلفوهم إذا هلكوا، والله ربنا تبارك وتعالى منزه عن الضعف والحاجة والعجز والهرم والفنا، فهو القوي القاهر الحي القيوم العزيز الجبار المتكبر، سبحانه وتعالى عما يشركون، ومن أراد أن يدرك عظمة الخالق فلينظر إلى السموات والأرض نظرة تفكر وتدبر، فإن الفكر يرجع خاسئا وهو حسير عن إدراك مدى هذا الكون العريض والأبعاد التي بين النجوم العظيمة والكواكب الكثيرة، وليتأمل العاقل في مساراتها ومشارقها ومغاربها وأبراجها، وفي الأرض وجبالها وأنهارها وأشجارها وبحورها وما تحويه من الأسماك والجواهر واللآلئ، أما العرش العظيم فهو خلق عظيم أعظم من السموات والأرض، ونؤمن بعظمته لأن الله حدثنا بشأنه فهو من الغيب الذي نؤمن به، والكفار يعترفون أن الله خالق السموات والأرض ومن فيهن، وأنه رب العرش العظيم ولكنهم يجهلون وبربهم يعدلون، سبحان الله رب العرش عما يصفون.

﴿فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّىٰ يُلاَقُوا يَوْمَهُمُ الذي يُوعَدُونَ﴾.

إنهم في دنياهم في خوض ولعب، فذرهم يخوضوا ويلعبوا، وهذا أمر يراد به التهديد لمن يعي ويعقل فيرجع عن غيه، والخوض يراد به كثرة الأحاديث بغير علم، واللعب هو الاستهزاء بأمر الرسالة والحياة الدنيا إذا خلت عن ذكر الله، فهي لهو ولعب، أي فاتركهم في لهوهم ولعبهم حتى يلاقوا يومهم وهو يوم القيامة الذي يوعدون وهم يكذّبون بمجيئه ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين، وهو آت لا ريب فيه ويومئذ يلاقون جزاءهم المحتوم ويدخلون جهنم داخرين.

﴿وَهُوَ الذي فِي السَّمَآءِ اِلَهٌ وَفِي الاَرْضِ إِلَهٌ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ﴾.

هكذا بطريقة القصر يخبر الله تعالى عن نفسه أنه هو الذي في السماء إله وفي الأرض إله، فهو المعبود بحق في السموات وفي الأرض لا شريك له في ربوبيته ولا ند له في ألوهيته فهو الله الواحد القهار، الحكيم الذي يضع الأشياء في مواضعها، وينزل الحكمة على من يشاء من عباده، العليم ببواطن خلقه وظواهرهم وبما يؤول إليه أمرهم، فهو عالم الغيب والشهادة فاعبدوه وحده ولا تشركوا به غيره.

﴿وَتَبَارَكَ الذي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالاَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِنـدَهُ عِلْـمُ السَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾.

بعد ألفاظ التنزيه والتقديس تأتي ألفاظ التعظيم والتمجيد لربنا تبارك وتعالى فقوله: ﴿تَبَارَكَ﴾ أي تعاظم ربنا الذي له ملك السموات والأرض وما بينهما فهو الملك المطلق وما سواه مملوك وهو الرب العظيم، وما سواه مربوب له ملك الدنيا وعنده علم الساعة لا يجليها لوقتها إلا هو، ثم هو ملك يوم الدين، وإليه ترجعون يوم تبعثون ليوم الحساب فيفصل بينكم ويجازي كل بما يستحق.

﴿وَلاَ يَمْلِكُ الذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الشَّفَاعَةَ إِلاَّ مَن شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾.

إن هؤلاء الكفار يدعون من دون الله أولياء يتخذونهم شفعاء عند الله ولكن الله تعالى يقول: ولا يملك هؤلاء الذين يدعون من دونه الشفاعة لا يشفعون لهم في الدنيا ولا في الآخرة أما قوله تعالى: ﴿إِلاَّ مَن شَهِدَ بِالْحَقِّ﴾ فهو استثناء منقطع معناه لكن الذين يشهدون بالحق يشفعون من بعد إذن الله، وهم الأنبياء والرسل والأشهاد من غيرهم يشفعون لمن يستحق الشفاعة من المؤمنين المتبعين للحق، وهؤلاء الذين يأذن الله لهم بالشفاعة يشهدون وهم يعلمون حال المشفوع لهم، وهم الذين آمنوا بالله واتبعوا الرسل، فالشفاعة للذين يشهدون بالحق لا بالزور، ولا تكون إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى، فهم لا يشفعون إلا لمن ارتضى وهم يعلمون، وهذه الآية تقطع مطامع هؤلاء الذين يرجون شفاعة الذين يدعونهم من دون الله، وتبين أن شفاعة الشفعاء لا تكون إلا بالحق وعن علم بمن يستحقها ولا تكون للظالمين، ﴿مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلاَ شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾ (غافر: ١٨).

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّىٰ يُوفَكُونَ﴾.

ثم يعود الكلام إلى التعجب من شأن هؤلاء الكفار، والسؤال هنا سؤال تقريع، فهم يقرون بالحقيقة حين يسألهم سائل من خلقهم يقولون الله، ثم يعبدون غيره فأمرهم عجيب، كيف يعبدون من دون الله من لا يخلق ولا يشفع ولا يضر ولا يملك من الأمر شيئا، فأنى يؤفكون، أنى يصرفون عن الحق.

﴿وَقِيلِهِ يَارَبِّ إِنَّ هَؤُلاَءِ قَوْمٌ لاَّ يُومِنُونَ﴾.

القيل هو القول، وقرأه الجمهور بالنصب، واختلفوا في عامل النصب فقال بعضهم: أي وقال الرسول قيلَه، وقال بعضهم ـ وهو الذي أرجحه ـ أن عامل النصب هو علم الله في قوله تعالى: ﴿أَمْ يَحْسِبُونَ أَنَّا لاَ نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُم﴾ أي نحن نعلم

ونسمع ذلك ونعلم ونسمع شكوى رسولنا من لجاجهم في كفرهم فهم لا يؤمنون، والرسول يعلم مما علمه الله أنهم لا يؤمنون، ومن ذلك قوله تعالى في سورة يس: ﴿لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَىٰ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لاَ يُومِنُونَ﴾ (يس: ٧)، فسمع الله قول نبيه فربط على قلبه بقوله:

﴿فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلاَمٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾.

أي فأعرض عنهم ولا تشتغل بهم وقل سلام، وهو قول لا يراد به السلام الذي هو التحية والدعاء بالسلامة، فهم ليسوا بأهله إنما يراد به نهاية الجدل والوعيد لهم بانتظار العذاب القريب الذي يدل عليه قوله: ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ أي فسوف يأتيكم العذاب فتعلمونه علم اليقين وحينئذ لا مناص، وهذه العبارة تشعر بنهاية السورة، وفيها براعة الاختتام وهي وما قبلها من الكلمات تحوي أصول العقائد وقواعد الإيمان بالله وباليوم الآخر، وهي عبارات قامعة لأهل الجدل من الكافرين، وفيها تسلية وتثبيت للنبي ومن معه، ومن يأتي بعده من الدعاة والمرشدين، والحمد لله رب العالمين.

تفسير سورة الدخان

سورة الدخان مكية وآياتها ٥٩

بسم الله الرحمن الرحيم

حم ﴿١﴾ والكتاب المبين ﴿٢﴾ إنا أنزلناه في ليلة مباركة
إنا كنا منذرين ﴿٣﴾ فيها يفرق كل أمر حكيم ﴿٤﴾ أمرا
من عندنا إنا كنا مرسلين ﴿٥﴾ رحمة من ربك إنه هو
السميع العليم ﴿٦﴾ رب السماوات والأرض وما بينهما إن
كنتم موقنين ﴿٧﴾ لا إله إلا هو يحيي ويميت ربكم ورب
آبائكم الأولين ﴿٨﴾ بل هم في شك يلعبون ﴿٩﴾ فارتقب يوم
تأتي السماء بدخان مبين ﴿١٠﴾ يغشى الناس هذا عذاب أليم ﴿١١﴾
ربنا اكشف عنا العذاب إنا مؤمنون ﴿١٢﴾ أنى لهم الذكرى وقد
جاءهم رسول مبين ﴿١٣﴾ ثم تولوا عنه وقالوا معلم
مجنون ﴿١٤﴾ إنا كاشفو العذاب قليلا إنكم
عائدون ﴿١٥﴾ يوم نبطش البطشة الكبرى إنا منتقمون ﴿١٦﴾

السورة مكية تقرر أصول العقيدة وتنذر الكافرين بسوء العواقب، وقد أمر النبي ﷺ في أواخر السورة السابقة بالصفح عنهم ووداعهم بقوله سلام، وفيه إشعار بالتهديد والوعيد، وهنا في أوائل هذه السورة يؤمر بارتقاب وقوع العذاب لهم وينذرهم الله بإتيان يوم البطشة الكبرى يوم ينتقم الله من أعدائه وأعداء رسله، وتجري السورة على نسق السور المكية من الكلام على تقرير الوحدانية لله والوعد والوعيد، وتمتاز كما تمتاز السورة بجزالة الألفاظ وشدة إيقاعاتها وقصر الجمل، وتبدأ السورة بحروف الهجاء المقطعة ويقال فيها ما قد قيل في أمثالها، والله أعلم بمراده منها.

﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ حم وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ إِنَّآ أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ اِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ اَمْرًا مِّنْ عِندِنَآ إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالاَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ لآَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ الاَوَّلِينَ﴾.

يقع القسم بالكتاب المبين، وهو كتاب الله الذي نزل بالحق وأنزل بالحق يبين الباطل من الحق ثم يدمغ بالحق الباطل فإذا هو زاهق فلا بقاء للباطل مع الحق، بل هو زاهق، فالمقسم به والمقسم عليه هو القرآن الكريم، إنه الحق من عند الله.

﴿إِنَّآ أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ﴾.

يقول الله تعالى: إنا أنزلناه، أنزلنا الكتاب على نبينا في ليلة مباركة، قد بارك الله فيها، وهي ليلة القدر في شهر رمضان، فلا عبرة بقول من يقول إنها النصف من شعبان بل هي قطعا في رمضان بنص القرآن: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الذِي أُنزِلَ فِيهِ القُرْءَانُ﴾ (البقرة: ١٨٥)، أنزل فيه من اللوح المحفوظ إلى بيت العزة في السماء الدنيا وابتدأ نزوله منها إلى الأرض على قلب محمد ﷺ في رمضان شهر النور والبركة.

﴿اِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ﴾.

يصف الله نفسه بالإنذار؛ لأنه لا يترك عباده غافلين بل ينذرهم باليوم الآخر ويبيّن لهم طريق النجاة لينجوا من عذاب يوم أليم، وهذه جملة معترضة في أثناء الكلام على الليلة المباركة ليقرر الله في نفوس المستمعين حكمة إنزال القرآن وتلاوته على الناس، يبشر المؤمنين المتقين وينذر الكافرين، فهو لا يضرب عنهم صفحا إن كانوا قوما مسرفين.

﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ أَمْرًا مِّنْ عِندِنَآ﴾ .

فيها أي في الليلة المباركة يفرق كل أمر حكيم، فمن الفارق وما هو الأمر الحكيم؟ الفارق لا شك هو الله تبارك وتعالى، وهو الحكيم العليم، فكل أمر من عنده أمر حكيم، والحكمة إتقان الشيء ووضعه في موضعه المناسب، وقد جاء الفرق بصيغة المضارع التي تفيد التجدد والتكرار، ففي كل عام تفرق الأمور في هذه الليلة المباركة، وقد سماها الله تعالى ليلة القدر، قيل لعظم قدرها عند الله، وقيل لتقدير الأمور فيها، فإن الله يقدر الأمور الواقعة في العام القابل ويفرقها على الملائكة المكلفين بإيقاعها بإذن الله، ففي هذه الليلة المباركة ينقلها من الكتاب الأم وهو اللوح المحفوظ، ويفرقها على الملائكة الموكلين بها، ومن ذلك إنزال هذا الكتاب المبين الذي يحوي الحِكم والأحكام ويبين للناس التشريع الذي يصلح دنياهم وآخرتهم، وكان هذا أمرا من عند الله وأسند الله هذا الفرق إليه بنون العظمة التي تفيد الشرف والخصوصية، ثم قال تعالى:

﴿إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾.

أي إنا كنا مرسلين من الناس رسلا إلى أقوامهم وإلى الناس كافة مبشرين ومنذرين، ومن الملائكة رسلا مبلغين الرسالات إلى رسلنا.

﴿رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾.

كانت هذه الرسالات رحمة من ربك للناس ليخرجهم من الظلمات إلى النور ويهديهم إلى صراط مستقيم، ولفظ الربوبية الوارد هنا يفيد القيام على إصلاح شؤون هذه المجموعة من الجنة والإنس، عاجلهم وآجلهم، لأن الرب هو الخلاق المربي، ومن كان كذلك كان لا محالة رحيما بمربوبيه.

﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾.

إنه هو السميع لأقوالهم، العليم بمقاصدهم وما يصلح لهم في الدنيا والآخرة، فاعبدوه وحده ولا تشركوا به شيئا، وابتهلوا إليه وحده وادعوه إنه سميع الدعاء، وأخلصوا له الدين إنه عليم بذات الصدور.

﴿رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾.

ربكم الذي أرسل الرسل وأنزل الكتب رحمة منه، هو ربكم ورب السماوات والأرض وما بينهما وأنتم تعلمون ولكن علمكم ينقصه اليقين، فهم حين يُسألون من رب السموات السبع ورب العرش العظيم سيقولون الله ولكنهم يعبدون غيره فهم لا يوقنون بحقيقة ما يعترفون به، فأنى يصرفون.

﴿لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ الأَوَّلِينَ﴾.

هو الله لا معبود بحق إلا هو، وكل معبود سواه زور وباطل، يحي ويميت، هو خالق الموت والحياة، هو الذي يحدث الحياة في الأحياء، ويميت الأحياء ولا يموت، ولا يزال العلماء ولن يزالوا يبحثون عن سر الحياة ولن يصلوا إلى ذلك ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنَ أَمْرِ رَبِّي وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً﴾ (الإسراء: ٨٥)، وقد ألفتنا إلى هذه الآية العظيمة آية الإحياء والإماتة، وهي مظهر عظيم من مظاهر قدرته وعلمه، وهي آية شائعة يشهدها كل الناس في كل مكان وزمان، فما على العاقل إلا أن يفتح عينيه فيرى الملايين والملايين من الأحياء والأموات من شتى أنواع الحيوانات والنباتات فسبحان المحي المميت، المتفرد بالإحياء والإماتة، لا إله إلا هو ربنا ورب آبائنا الأولين ورب العالمين، خالق الخلق، ومالك الملك هو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده.

﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ﴾.

ثم هل هم من قضية البدء والإعادة في شك وهم في لهوهم ولعبهم يعمهون، وكل عمل في هذه الدنيا تجرد من الإيمان بالله واليوم الآخر فهو لهو ولعب، وهم

يتخذون هذه الأنداد يبتغون شفاعتها عند الله ثم يتبعون أهواءهم ويركبون شهواتهم معتمدين على شفاعة الأنداد والقبور والأضرحة، وذلك لأن الشياطين أوحت إلى أوليائها زخرف القول غرورا، وزينت لهم سوء أعمالهم، فلبسوا إيمانهم بظلم ﴿وَمَا يُومِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلاَّ وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾ (يوسف: ١٠٦)، ثم إنهم أنكروا البعث بعد الموت وكذبوا بالساعة واستخفوا بوعيد الله وتولوا عن النذر معرضين.

﴿فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَاتِي السَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ يَغْشَى النَّاسَ هَذَا عَذَابٌ اَلِيمٌ رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُومِنُونَ أَنَّىٰ لَهُمُ الذِّكْرَىٰ وَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ﴾.

في الآيات تهديد بإقبال عذاب الله وعقابه لهؤلاء المكذبين وأنهم حين يأتيهم العذاب يجأرون، فارتقب، أي فانتظر يوم تأتي السماء بدخان مبين، يغشى الناس، أي يغطيهم ويقولون هذا عذاب أليم، أي موجع شديد الألم، وقد اختلف أهل العلم منذ عهد الصحابة في نوع الدخان ووقت إتيانه:

فقال ابن مسعود ومن معه: إنه دخان الجدب والجفاف، وقد أتت عليهم سنوات القحط بدعوة من النبي ﷺ فثار غبار الأرض الميتة في الجو فكأنه دخان وضعفت أبصار القوم بالجوع فكانت لطمسها كأنها ترى دخانا في الجو، فهذا هو المقصود بالدخان.

وقال ابن عباس ومن معه: إن هذا الدخان آية من آيات ربك عند قيام الساعة، فكأن الأجرام تتحلل وترجع إلى أصلها الأول وهو مادة الدخان التي تكونت منه أجرام السماء، فهذا هو المقصود بالدخان المبين التي تكونت منه أجرام السماء، فهذا هو المقصود بالدخان المبين، ويبدو لي أن هذا القول أرجح لأن الله تعالى عقبه بقوله: ﴿أَنَّىٰ لَهُمُ الذِّكْرَىٰ﴾ الآية، فحينئذ لا ينفع نفسا إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيرا.

أما قوله تعالى: ﴿إِنَّا كَاشِفُوا الْعَذَابِ قَلِيلاً إِنَّكُمْ عَائِدُونَ﴾ فإن المقصود بكشف العذاب هنا هو تأخيره إلى أجله المعلوم، وكل آت قريب، وذلك كما كشف العذاب عن قوم يونس لما آمنوا وتضرعوا إلى الله فإنه لم ينزل، ثم كشف بل أزاحه الله عنهم وأراحهم منه ونفعهم إيمانهم لما آمنوا، ولما جاء العذب لم ينفعهم، وقوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ عَائِدُونَ﴾ قيل معناه إنكم عائدون إلى كفرهم ولو كشفنا عنكم العذاب، فأنتم كاذبون، وقيل: معناه إنكم عائدون إلينا يوم القيامة فملاقون حسابكم، قال تعالى:

﴿أَنَّىٰ لَهُمُ الذِّكْرَىٰ وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ﴾.

أين لهم التذكر وكيف ينفعهم يوم يأتي عذاب ربك وقد كذبوا من قبل برسلنا وقالوا في الرسول الذي أتاهم بالحق معلم مجنون، وصموه بالجنون واتهموه بالكذب وقالوا إنما يعلمه بشر أساطير الأولين، قال تعالى:

﴿إِنَّا كَاشِفُوا الْعَذَابِ قَلِيلاً إِنَّكُمْ عَائِدُونَ يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَىٰ إِنَّا مُنتَقِمُونَ﴾.

في الآيتين وعيد شديد وموعظة بليغة لهؤلاء المكذبين وإنذار لهم لعلهم يرعوون عن غيهم قبل أن يأتي يوم البطشة الكبرى حين لا ينفع نفسا إيمانها، وقد أخبر الله أنه كاشف العذاب قليلا، وأنذرهم أن من وراء هذا الكشف يوم عظيم هم عائدون إليه لا محالة، وأن الله يبطش بطشته الكبرى في ذلك اليوم، ويام أشد إيقاع هذه الكلمة في النفوس لأن البطش في نفسه مروع فكيف وقد وصف بالبطشة الكبرى، وهي مؤنث أكبر الذي هو للتفضيل، ثم أعقبه الانتقام مسندا إلى نون العظمة في صيغة الجمع، والانتقام هو إنزال العقوبة بالمجرمين وأخذ الظالمين بذنوبهم فلا يفلتون وما هم بمعجزين، فارتقب بهم ذلك اليوم، وقد أسندت الفاء إلى الفعل لتفيد العليّة، أي حين

لم يسمعوا كلام الله وإنذار الرسول لهم وظلوا في شكهم يلعبون فارتقب اليوم الذي يأتيهم فيه عذاب الله وانتقامه منهم يوم البطشة الكبرى، ونعوذ بالله من مصير الظالمين.

وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ ﴿17﴾
أَنْ أَدُّوا إِلَيَّ عِبَادَ اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿18﴾
وَأَنْ لَا تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ إِنِّي آتِيكُمْ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴿19﴾ وَإِنِّي
عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَنْ تَرْجُمُونِ ﴿20﴾ وَإِنْ لَمْ تُؤْمِنُوا لِي
فَاعْتَزِلُونِ ﴿21﴾ فَدَعَا رَبَّهُ أَنَّ هَٰؤُلَاءِ قَوْمٌ مُجْرِمُونَ ﴿22﴾ فَأَسْرِ
بِعِبَادِي لَيْلًا إِنَّكُمْ مُتَّبَعُونَ ﴿23﴾ وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْوًا إِنَّهُمْ جُنْدٌ
مُغْرَقُونَ ﴿24﴾ كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿25﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ
كَرِيمٍ ﴿26﴾ وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ ﴿27﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا
آخَرِينَ ﴿28﴾ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ ﴿29﴾
وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنَ الْعَذَابِ الْمُهِينِ ﴿30﴾ مِنْ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ
كَانَ عَالِيًا مِنَ الْمُسْرِفِينَ ﴿31﴾ وَلَقَدِ اخْتَرْنَاهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى
الْعَالَمِينَ ﴿32﴾ وَآتَيْنَاهُمْ مِنَ الْآيَاتِ مَا فِيهِ بَلَاءٌ مُبِينٌ ﴿33﴾

في هذه السورة الكريمة صور من النذارة ومشاهد من بطش الله تبارك وتعالى بأهل الكفر والطغيان المتمسكين بالباطل، ففي الآية الثالثة من السورة يأتي قوله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ﴾ هكذا بهذه العبارة الصّريحة في الإنذار المسندة إلى نون العظمة ثم تتلوها مشاهد من بطش الله الشديد مما فيه موعظة وذكرى لأولي الألباب، وهنا في هذه الآيات يقص الله تعالى خبر فرعون وقومه في عبارات موجزة وجمل قصيرة لها وقعها في النفوس الواعية، قال تعالى:

﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَآءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ أَنْ أَدُّوا إِلَيَّ عِبَادَ اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ وَأَن لَّا تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ إِنِّي ءَاتِيكُم بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾.

بعد إنذار قريش بعذاب الله يقص الله باختصار وإيجاز شديد اللهجة أنه فتن قبلهم قوم فرعون، أي ابتلاهم واختبرهم فأغدق عليهم النعم من خصوبة التربة ووفرة الثمار وقوة السلطان، وجاءهم موسى بآيات الله والحق المبين وهم في هذه الحالة فطغوا وتماروا بالنذر، جاءهم رسول كريم هو موسى عليه السلام فدعاهم إلى الله وقال لهم: أدوا إلي عباد الله، أي أرسلوا معي بني إسرائيل ولا تعذبوهم إني لكم رسول من الله صادق أمين، أبلغكم رسالة ربي وأدعوكم إلى الخضوع إلى الله رب العالمين، وألا تعلوا على الله، أي لا تتكبروا ولا تطغوا على رسل الله إني آتيكم بسلطان من الله مبين، والسلطان هو الحق المبين الذي لا لبس فيه، وقد جاءهم بآيات الله البينات ولكنهم كفروا بها وآذوهم وهددوه بالقتل، ولذا قال لهم:

﴿وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُوا لِي فَاعْتَزِلُونِ﴾.

إني عذتُ بربّي وهو ربي وربكم ألتجئ إليه وأدعوه أن ينصرني عليكم ويحفظني من بأسكم وأذاكم وإن لم تؤمنوا لي، أي لم تصدقوني فاعتزلوني واتركوني أبلغ رسالة الله إلى الناس، ولكنهم لم يؤمنوا له ولم يعتزلوه بل طغوا عليه وعلى قومه وآذوه بأشد أنواع الأذى والظلم، ولما بلغ السيل الزبى وبعد أمد طويل، ولم يعد له مطمع في إيمانهم دعا ربه عليهم.

﴿فَدَعَا رَبَّهُ أَنَّ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ﴾.

أوحى الله إلى موسى أنه هؤلاء القوم سبق عليهم القول فهم لا يؤمنون ولا يزالون في طغيانهم وغيهم، فهم لا يكفون عن أذاك ولا يعتزلونك، فدعا ربه عليهم فاستجاب الله دعاءه فأمره أن يسري ببني إسرائيل إلى جهة البحر.

﴿فَاسْرِ بِعِبَادِي لَيْلاً إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ﴾.

أوحى الله إلى سيدنا موسى ﷺ وأمره أن يسري ببني إسرائيل وأخبرهم أنهم متبعون، وهذا من مكر الله بهم وبفرعون الذي سيستخفهم فيطيعونه ويتبعونه مسرعين إلى حيث يهلكون بالغرق وبعد الغرق يوردهم النار وبئس الورد المورود.

﴿وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْوًا إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ﴾.

يبدو أن هذا الأمر من الله لم يرد بعد الأمر السابق مباشرة بل كان هذا بعد سلوك موسى ومن معه في الطريق الذي انفتح له في البحر، كل أمر جاء في وقته لأن الأمر بضرب البحر بالعصا كان بعد أن تراءى الجمعان، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَىٰ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ قَالَ كَلاَّ إِنَّ مَعِي رَبِّي سَيَهْدِينِ فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ﴾ (الشعراء: ٦١-٦٣)، أما الرهو فمعناه الانفتاح والسكون، أي اترك البحر بعدك ساكنا منفرجا حتى يدخله فرعوه وقومه فإنهم جند، أي قوم مغرقون، وقد تحقق وعيد الله فيهم فهم جند مهزوم، فهلكوا ونجا بنو إسرائيل من العذاب المهين، وفي هلاكهم عبرة للمعتبرين.

﴿كَمْ تَرَكُوا مِن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ﴾ .

"كَمْ" للتكثير، أي ما أكثر ما خلّف فرعون وقومه من جنات وعيون، أي أنهار مياهها من العيون، وما أكثر ما تركوا من زروع! وكم تركوا من نعمة، أي من رفاهية كانوا فيها فاكهين، أي مرحين لاعبين مسرورين مغرورين بنعيمهم، وهم يظنون أنهم فيه خالدون، وكذلك شأن الطغاة الجبابرة، يقول الله تعالى:

﴿كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا - اخَرِينَ﴾.

كذلك يكون انتقامنا من أعدائنا ونصرنا لرسلنا ومن معهم، وأورثنا ما ترك فرعون وقومه من المنازل والجنات والعيون قوما آخرين، وفي آية أخرى من القرآن

الكريم يقول الله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَآئِيلَ﴾ (الشعراء: ٥٩)، أورثها الله بني إسرائيل الذين كانوا مستضعفين في الأرض، أورثهم المقام الكريم، والكريم من الأرض هو الطيب المناخ، الجيد التربة، المتوفر الغلال والثمار، وفي سورة الأعراف يقول الله تبارك وتعالى: ﴿وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَآءِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ﴾ (الأعراف: ١٣٧)، ثم يقول الله تبارك وتعالى في هذه السورة الكريمة:

﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَآءُ وَالأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ﴾.

ورد في الأثر أن المؤمن إذا مات يبكي عليه موضع سجوده من الأرض، وموضع صعود عمله من السماء حزنا على موته، أما هؤلاء الطغاة فما بكت عليهم السماء والأرض، بل هلكوا غير مأسوف عليهم، وبقيت أخبارهم في التاريخ عبرة للمعتبرين، وما كانوا منظرين حين جاءهم العذاب، بل أخذهم الله أخذ عزيز مقتدر، وترك منهم آية فهل من مدّكر، ثم قال تعالى:

﴿وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِي إِسْرَآءِيلَ مِنَ الْعَذَابِ الْمُهِينِ مِن فِرْعَوْنَ إِنَّهُ كَانَ عَالِيًا مِّنَ الْمُسْرِفِينَ وَلَقَدِ اخْتَرْنَاهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى الْعَالَمِينَ وَآتَيْنَاهُم مِّنَ الآيَاتِ مَا فِيهِ بَلاَؤٌ مُّبِينٌ﴾.

ثم بعد الكلام على هلاك فرعون وقومه وهو إنذار لقريش بالهلاك إن استمروا في كفرهم وطغيانهم وعنادهم للنبي ﷺ، بعد هذا كله يأتي الكلام في إيجاز على إنجاء بني إسرائيل قوم موسى، كيف أنجاهم الله من عدوهم فرعون واستخلفهم في الأرض بعدهم وآتاهم الآيات البينات.

﴿وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِي إِسْرَآءِيلَ مِنَ الْعَذَابِ الْمُهِينِ مِن فِرْعَوْنَ إِنَّهُ كَانَ عَالِيًا مِّنَ الْمُسْرِفِينَ﴾.

يأتي الخبر مؤكدا والفعل مشدودا بنون العظمة ليفيد أهمية الأمر وصدق الخبر، ومن أصدق من الله قيلا، يقول الله تعالى: ولقد نجينا بني إسرائيل موسى وقومه من العذاب المهين من فرعون، لقد كان فرعون وقومه يستذلونهم ثم يسخرونهم في الخدمات الشاقة، في بناء المدن والأهرامات ولا يشفقون عليهم ويستحيون نساءهم، ويذبحون أبناءهم، فأنجاهم الله منهم وأغرقهم وهم ينظرون، فطويت بغرقهم صفحة من تاريخهم الأسود، وفتحت لهم بعدها صفحة مشرقة بيضاء، وأشرق عليهم فجر جديد، نجاهم الله من فرعون الذي وصفه الله بأنه كان عاليا مستكبرا مسرفا في علوه وغلوه وطغيانه وكبريائه، وكذلك تكون عاقبة المسرفين في كل زمان، وفيه إنذار للمسرفين من قوم محمد ﷺ، ثم قال تعالى:

﴿وَلَقَدِ اخْتَرْنَاهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾.

وفي نفس الصيغة الأخّاذة يأتي الخبر أن الله اختار بني إسرائيل على العالمين أهل زمانهم، وأن اختيارهم كان على علم بهم وبأسباب اختيارهم على الناس، ثم قال تعالى:

﴿وَآتَيْنَاهُم مِّنَ الآيَاتِ مَا فِيهِ بَلاَؤٌ مُّبِينٌ﴾.

وآتيانهم من المعجزات على يد أنبيائهم ما فيه امتحان لهم واختبار، والبلاء يكون بالخير وبالشر، أي بالنعمة والنقمة، وذلك ليظهر الله منهم البر المطيع الشاكر، والمتمرد الفاجر الكافر، وذلك هو البلاء المبين الذي يتضح به الفرق بين النوعين ﴿لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَا مَنْ حَيِيَ عَنۢ بَيِّنَةٍ﴾ (الأنفال: ٤٢)، ولله في خلقه شؤون، ولا يكون ابتلاؤهم إلا لحكمة بالغة.

إِنَّ
هَٰٓؤُلَآءِ لَيَقُولُونَ ﴿34﴾ إِنْ هِيَ إِلَّا مَوْتَتُنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ
بِمُنشَرِينَ ﴿35﴾ فَأْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿36﴾ أَهُمْ خَيْرٌ
أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ أَهْلَكْنَٰهُمْ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ ﴿37﴾
وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿38﴾
مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿39﴾
إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ مِيقَٰتُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿40﴾ يَوْمَ لَا يُغْنِى مَوْلًى عَن مَّوْلًى
شَيْـًٔا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿41﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ
ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿42﴾

بعد أن أنذر الله قريشا بالدخان الذي فيه عذاب أليم، وبالبطشة الكبرى يوم البعث، وضرب لهم مثلا من بطشه بفرعون وقومه في هذه الحياة الدنيا، تأتي هذه الآيات لتبين حقيقة كفرهم وتمردهم، فكأن قائلا يقول: لماذا بعد كل هذا الإنذار والوعيد وضرب الأمثال لا يعتبرون؟ فيأتي الجواب هكذا، ذلك لأنهم لا يؤمنون بالبعث بعد الموت، قال تعالى:

﴿إِنَّ هَؤُلَآءِ لَيَقُولُونَ إِنْ هِيَ إِلاَّ مَوْتَتُنَا الأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ فَـأْتُوا بِئَابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾.

الإشارة إلى قريش ومن معهم من الكفار بالبعث والنشور، والخبر مؤكد للاهتمام بقضية إنكارهم والتعجب منهم، إن هؤلاء القوم ليقولون: ما هي إلا موتتنا الأولى، أي حياتنا الأولى التي يعقبها الموت ثم لا حياة بعدها ولا بعث، فإن كان ما تقولون حقا من صحة البعث بعد الموت فأتوا بآبائنا الهالكين إن كنتم صادقين، وردوهم إلينا، قيل إنهم طلبوا من النبي ﷺ بعث جدهم قصي وهو جد قريش، وقد اشتطوا في طلبهم وخرجوا عن الموضوع لأن البعث الذي أخبر الله عنه إنما هو بعد قيام الساعة وفناء

الدنيا، أما في هذه الدار فلا رجوع لأحد من الأموات، فليكن الإيمان بالنشور يوم النشور إيمانا بالغيب يمتاز به المؤمنون عن أهل الكفر والنفاق، سكت الله عن إجابتهم على هذا التحدي لأنه سخافة وحماقة تخالف المعقول والمنقول، وضرب لهم مثلا بإهلاك من كان أشد منهم بأسا وأكثر أموالا وأولادا، قال تعالى:

﴿أَهُمْ خَيْرٌ اَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَالذِينَ مِن قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ﴾.

استفهام تقريري لأنهم يعلمون مدى ما وصلوا إليه من الحضارة وعمارة الأرض ﴿وَعَمَرُوهَآ أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا﴾ (الروم: ٩)، فلما جاء بأس الله لم تغنهم قوتهم ولا عمارتهم، بل آلت قوتهم إلى ضعف، وعزتهم إلى ذلة، وعمارتهم إلى خراب، وقوم تبع هم حمير وسبأ أهل اليمن وحضر موت، وتبع لقب لكل من ملك اليمن الشمالية والجنوبية وحضرموت، أما تبع هذا الذي ذكره القرآن فقد اتسعت مملكته حتى شملت أرض الجزيرة ومشارف الشام والعراق، وكان مؤمنا بشريعة إبراهيم عليه السلام ولذا أسند الهلاك إلى قومه ولم يشمله معهم، وقد روي في الحديث عن النبي ﷺ قال: {لا تسبوا تبعا، فإنه كان قد أسلم}، وفي رواية: {كان مؤمنا}، وقد أهلك الله قومه في غيابه لأنهم كانوا مجرمين، وفي إهلاكهم عبرة للمعتبرين، وفيه إنذار لقريش أنهم إن استمروا في غيهم فإن عاقبتهم ستكون مثل عاقبة الذين من قبلهم، والله من ورائهم محيط.

﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالاَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لاَعِبِينَ مَا خَلَقْنَاهُمَآ إِلاَّ بِالْحَقِّ﴾.

تتكرر هذه الآية في غير موضع من كتاب الله، وبألفاظ متقاربة والمعنى واحد، وهو أن الله تبارك وتعالى ما خلق السموات والأرض وما بينهما باطلا كما يظن الكفار بل خلقهما بالحق، والحق الأمر الثابت الذي تؤيده الحكمة ويجل عن العبث، والباطل هو الأمر الذاهب الذي لا بقاء له، وليس وراءه حكمة، وقد بين الله تبارك وتعالى أن الله

إنما خلقنا في هذه الدار الفانية للابتلاء والاختبار، وليس إقبالها إقبالا ولا إدبارها إدبارا، فقد تقبل على الفاجر وقد تكون بلاء ومحنة على الأبرار، فليس إقبالها دليلا على محبة الله ورضاه، ولا إدبارها دليلا على بغضه وانتقامه، ولا يدوم خيرها ولا شرها، إنما يبتلي الله بهما عباده ليبلوهم أيهم أحسن عملا فيستحق الجزاء الحسن في دار البقاء.

والعاقل يدرك بعقله أن الخير في هذه الدار ليس جزاء لمحسن، وإن الشر فيها ليس جزاء لفاجر، فقد يتنعم فيها الفجار وقد يقع الظلم على الأبرار ويمتحنون، فاقتضت حكمة الله وعدله أن يحشرنا في يوم للحساب والجزاء ﴿لِيَجْزِيَ الذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى﴾ (النجم: ٣١)، وجزاء الله الخلود، إما في نعيم مقيم، وإما في عذاب مقيم، وثوابه لا يشبهه ثواب، وعقابه لا يشبهه عقاب، تعالى الله عن اللعب والعبث ﴿ذَٰلِكَ ظَنُّ الذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ﴾ (ص: ٢٧)، يقول الله تعالى:

﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ﴾.

نفى ربنا تعالى العلم عن أكثر الناس، فأكثر الناس يجهلون الحكمة من خلق السموات والأرض ويظنون أنهم خلقوا عبثا ويحسبون أنهم يتركون سدى وأنهم لا يرجعون إلى الله للحساب والجزاء، قال الله تعالى:

﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ يَوْمَ لاَ يُغْنِي مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْئًا وَلاَ هُمْ يُنصَرُونَ﴾.

الآيات شديدة للمناسبة لما قبلها، فالحكمة تقضي من خلق السماوات والأرض أن يكون بعده هذه الحياة الدنيا التي يكثر فيها بغي الناس بعضهم على بعض أن يكون هناك يوم للفصل بين الحق والباطل، وبين المظلوم والظالم، يفصل الله بينهم بالحق ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ (السجدة: ٢٥)، وذلك هو يوم الجمع، ويوم

الحساب له أجل معلوم، وهو ميقاتهم أجمعين لا يفلت منهم أحد، فلا مطمع في الاستثناء، يوم لا يغني مولى عن مولى شيئا، والمولى هو القريب أو الحليف، وإذا كان القريب والحليف لا يغني يومئذ فكيف بالبعيد، والتنكير هنا يفيد القلة، وهو مع النفي يفيد العموم، أي لا يغني أحد عن أحد ولو شيئا قليلا ولا هم ينصرون، ولا ينصر بعضهم بعضا كشأنهم في الدنيا، ينصر القوي مولاه الضعيف، وهم يومئذ ضعفاء لا تملك نفس لنفس شيئا والأمر يومئذ لله، فلا مطمع يومئذ في النصراء.

﴿إِلاَّ مَن رَّحِمَ اللَّهُ إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾.

يبدو أن الاستثناء هنا منقطع، فإلاَّ هنا بمعنى لكن، أي لكن من يرحمه الله يومئذ فهو المنصور وهو المشفوع له، ورحمة الله قريب من المحسنين، فمن كان في هذه محسنا فهو يومئذ منصور مرحوم، إن الله عزيز ذو انتقام من أعدائه لا يعجزونه، رحيم بأوليائه لا خوف عليهم ولا هم يحزنون، فلا أنساب يومئذ ولا هم يتناصرون، فمن أراد النصرة يومئذ فليتخذ عند الرحمن عهدا.

إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ﴿43﴾ طَعَامُ
ٱلْأَثِيمِ ﴿44﴾ كَٱلْمُهْلِ يَغْلِي فِي ٱلْبُطُونِ ﴿45﴾ كَغَلْيِ ٱلْحَمِيمِ ﴿46﴾
خُذُوهُ فَٱعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴿47﴾ ثُمَّ صُبُّوا۟ فَوْقَ
رَأْسِهِۦ مِنْ عَذَابِ ٱلْحَمِيمِ ﴿48﴾ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ
ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ﴿49﴾ إِنَّ هَٰذَا مَا كُنتُم بِهِۦ تَمْتَرُونَ ﴿50﴾
إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ ﴿51﴾ فِي جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿52﴾
يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿53﴾
كَذَٰلِكَ وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴿54﴾ يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ
فَٰكِهَةٍ ءَامِنِينَ ﴿55﴾ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ
إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ وَوَقَىٰهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿56﴾ فَضْلًا
مِّن رَّبِّكَ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿57﴾ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ
لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿58﴾ فَٱرْتَقِبْ إِنَّهُم مُّرْتَقِبُونَ ﴿59﴾

هكذا الأسلوب القرآني البديع الحكيم المعجز، يعقب بذكر الوعيد مناظرا بين الفريقين مناظرة تبين الفصل الفاصل بين العاقبتين، عاقبة الفجار أهل النار، وعاقبة الأبرار في دار القرار، وفي عرض هذين المشهدين في ختام هذه السورة الكريمة إنذار للكافرين وموعظة للمتقين، يقول الله تعالى:

﴿إِنَّ شَجَرَةَ الزَّقُّومِ طَعَامُ الاَثِيمِ كَالْمُهْلِ تَغْلِي فِي الْبُطُونِ كَغَلْيِ الْحَمِيمِ﴾.

يذكر الله حال أهل النار، يبدأ بهم أولا في هذا العرض لأن الكلام كان في شأنهم من قبل، كان في وصف عتوهم على الله ورسوله، وتكذيبهم وإعراضهم عن الحق، فناسب أن يبدأ بذكر مصيرهم أولا لعلهم يتذكرون، وهنا يذكر طعامهم في النار

وحالتهم وهم يسحبون ويجرون جرا عنيفا في ذلّ وهوان بعد أن كانوا في الدنيا أعزة مكرمين ولكنهم كانوا عتاة متكبرين.

إن شجرة الزقوم طعام الأثيم، يأتي الخبر مؤكدا حتى يكون أشد وقعا في نفوس السامعين، وشجر الزقوم شجر ينبت في جهنم شديد الحر، شائك منتن، وسمي زقوما لأن الزقم هو الأكل باستكراه وعنف، وكذلك يطعمونها بشدة ولا يكادون يسيغونها ولكن لا مفر لهم منها، فهي طعامهم المحتوم في النار، هي طعام الأثيم، وهو الكثير الآثام المغرق فيها، قد لج في العصيان بارتكاب كبائر الإثم والإصرار عليها وتضييع الفرائض بتركها أو التهاون بها، وارتكاب الظلم والعدوان، ذلك هو المذنب المسرف الأثيم.

ووصفت ثمار هذه الشجرة بأنها خبيثة كأنها رؤوس الشياطين، ذكر ذلك في سورة الصافات، قال الله تعالى: ﴿أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِّلظَّالِمِينَ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ...﴾ (الصافات: ٦٢ ـ ....)، في هذه الآيات يوصف نوع الشجرة ومنبتها وطلعها وأنها فتنة للظالمين، وذلك أنه لما نزلت الآية قالت قريش: كيف تنبت شجرة في النار واستهزؤوا بالخبر، ولم يعلموا أن الله على كل شيء قدير، ففتنوا بهذا الخبر وازدادوا طغيانا ولم يتعظوا، قال تعالى:

﴿خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَاءِ الْجَحِيمِ ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾

يقول الله تبارك وتعالى للزبانية خذوه، أي هذا الأثيم المستهزئ بالوعيد، المكذب به فاعتلوه، والعتل هو الجر بشدة، فهم حين يرون الجحيم لا يذهبون إليه طائعين بل يجرون في السلاسل ويدعون إليه دعا، ويضربون بمقامع من حديد، تدفع بهم في وسط الجحيم ويقال للواحد منهم: ذق العذاب الأليم أيها العزيز الكريم، ذلك لأنهم كانوا في الدنيا أعزة مكرمين، فهم اليوم يخاطبون بهذا الخطاب تبكيتا لهم وتهكما بهم، فهم

اليوم أذلاء مهانون مهزومون، يجرّون في السلاسل والأغلال إلى سواء الجحيم، ويطعمون مرغمين من شجر من زقوم شديد الحرارة تغلي في بطونهم كأنها دردي الزيت أو القطران، ويسقون من حميم آن يصهر به ما في بطونهم والجلود، ثم يصب من فوق رؤوسهم حتى يعمهم عذابه وتنضج به جلودهم ليذوقوا العذاب، ثم يخاطبون بأنواع التبكيت والتوبيخ ما يزيدهم عذابا، ويقال لهم:

﴿إِنَّ هَذَا مَا كُنتُم بِهِ تَمْتَرُونَ﴾.

أي إن هذا المصير السيء كنتم تشكون في مجيئه وتجادلون فيه وتقولون: ﴿مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ فها قد تحقق فهل تستطيعون له دفعا أو عنه مصرفا!

﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَقَابِلِينَ كَذَٰلِكَ وَزَوَّجْنَاهُم بِحُورٍ عِينٍ يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَاكِهَةٍ آمِنِينَ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَىٰ وَوَقَاهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ فَضْلًا مِّن رَّبِّكَ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾.

بعد عرض مشهد الكفار الفظيع في سواء الجحيم يأتي مشهد المتقين الأبرار وهم يتنعمون في جنات وعيون، **﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ﴾** المتقون هم الذين كانوا يراقبون الله في حركاتهم وسكناتهم في سرهم وعلانيتهم يتقون سخط الله بترك المعاصي ويطلبون رضى الله بإتيان الفرائض والنوافل، كانوا يخافون الآخرة في الدنيا فحشرهم الله يوم القيامة آمنين وأنزلهم في الجنة في مقام أمين، وخير أسباب السعادة الأمن، فهم في الغرفات آمنون في جنات وعيون، وخير المنازل ما كان وسط الجنان وخير الجنان ما كانت تجري فيها الأنهار، فهي متعة للناظرين وضمان لاخضرار الأشجار، تلك منازل المتقين التي يقيمون فيها ولا يبرحون ولا يبغون عنها حولا، يلبسون من ديباج السندس والاستبرق، والسندس الحرير اللين الرقيق، والإستبرق الحرير الغليظ الناعم.

وقيل أصل الكلمتين فارسي ثم عربتا، فلباس أهل الجنة فيها حرير، وهو أجود وألين أنواع اللباس، وليس في الجنة من أمور الدنيا إلا الأسماء، وكذلك يحلون بالذهب ويجلسون على الأرائك متقابلين إخوانا متحابين، بينما أصحاب النار يلعن بعضهم بعضا ويكفر بعضهم ببعض، قد انقلبت مودتهم إلى عداوة وهم يطلبون الموت ولا يجدونه، أما أولياء الله في الجنة فهم في نعيم مقيم لا يذوقون فيها الموت إلا الموتة الأولى ووقاهم ربهم عذاب الجحيم فضلا من ربك ذلك هو الفوز العظيم، وأي فوز يداني هذا الفوز، فيا لها من عبارات موجزة غير أنها معبرة أبلغ تعبير عن سعادة أولياء الله أهل التقوى والاستقامة والإحسان، ما أسعده من مصير!

﴿كَذَٰلِكَ وَزَوَّجْنَاهُم بِحُورٍ عِينٍ يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَاكِهَةٍ آمِنِينَ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَىٰ وَوَقَاهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ فَضْلًا مِّن رَّبِّكَ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾.

كذلك، أي ومن وراء ذلك زوجناهم بأزواج حسان حور، جمع حوراء، أي بيضاء، عين جمع عيناء وهن واسعات العيون، مليحات الأحداق، يدعون بكل ما يشتهون من الفواكه والطعام والشراب، وهم في هذا النعيم آمنون لا يخشون عواقب الأكل والتنعم كما هو شأن أهل اللذات في الدنيا، كثيرا ما انتهت بهم لذاتهم إلى أسقام وأوجاع، ولا يخشون فيها الموت إلا الموتة الأولى، وقد نجاهم الله من عذاب النار مغفرة منه ورحمة وفضلا، فهم فيما اشتهت أنفسهم خالدون.

بعد هذا العرض الوجيز المؤثر يأتي الحكم الموقع بعبارة مؤثرة لها في النفوس وقع عميق **﴿ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾** حرف الإشارة بالبعيد لعلو مقامهم، وتعريف الخبر يسبقه ضمير الفصل للاهتمام بالحكم وتوكيده، حقا ذلك المصير الذي صاروا إليه بعد نجاتهم من عذاب الجحيم ذلك هو الفوز العظيم والفلاح الكامل، ولمثل هذا فليعمل العاملون، فيا له من مشهد رائع فيه موعظة لأولي الألباب وتشويق لقلوب المؤمنين.

﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ فَارْتَقِبْ إِنَّهُم مُّرْتَقِبُونَ﴾.

تختم هذه السورة الكريمة بهاتين الآيتين الكريمتين البليغتين اللتين هما خلاصة ما تقدم من أول السورة، وتتناسقان مع جوها وروحها وتتفقان مع بدايتها، فالكلام في بداية السورة فيه تحقيق أن هذا الكتاب منزل من عند الله، وإن شك فيه المكذبون فلا تبال بهم، وارتقب يوم تأتي السماء بدخان مبين يوم يبطش الله البطشة الكبرى وينتقم من أعدائه المكذبين، وهنا تقرر الآيتان أن الكتاب ميسر من عند الله بلسان نبيه، وهو اللسان العربي المبين لعلّهم يتذكرون، أما المكذبون فارتقبْ نهايتهم الوخيمة إنهم مرتقبون، والكلمة تحمل تهديدا من الله ووعيدا شديدا لهؤلاء الممترين المكذبين، ارتقب لهم الموت القريب والعذاب الأليم.

ففي الآية تشريف للنبي ﷺ أن هذا القرآن ميسر بلسانه، وفيه بشرى له ولأمته بارتقاب النصر والفوز لهم، والهزائم وسوء المصير لأعدائهم المكذبين، فبشرى للمتذكرين بهذا الكلام العظيم الميسر للذكرى من عند منزّله، وويل للمكذبين المعرضين عن ذلك الله، وما أبلغ إيقاع هاتين الآيتين في نفوس السامعين، ومن أراد الله به خيرا فإنه يتذكر ويخشى، نسأل الله العلي القدير أن يجعلنا من المتذكرين، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

تم بحمد الله وعونه ما تيسر من اختصار تفسير هذه السور ونسأل الله أن يمد في أعمارنا لنتم ما بقي من السور حتى سورة الناس

فهرس الآيات المفسرة

﴿سورة يس﴾

الآيات من .... إلى	الصفحات من .... إلى
من ١ إلى ١١	من ٦ إلى ١٦
من ١٢ إلى ٢٩	من ١٧ إلى ٢٦
من ٣٠ إلى ٥٠	من ٢٧ إلى ٣٩
من ٥١ إلى ٧٠	من ٤٠ إلى ٥٠
من ٧١ إلى ٨٣	من ٥٠ إلى ٥٧

﴿سورة الصافات﴾

الآيات من .... إلى	الصفحات من .... إلى
من ١ إلى ٢١	من٦٠ إلى ٦٦
من ٢٢ إلى ٧٤	من ٦٦ إلى ٨٣
من ٧٥ إلى ٨٢	من ٨٣ إلى ٨٥
من ٨٣ إلى ١١٣	من ٨٦ إلى ٩٦
من ١١٤ إلى ١٢٢	من ٩٦ إلى ٩٨
من ١٢٣ إلى ١٣٢	من ٩٩ إلى ١٠١
من ١٣٣ إلى ١٣٨	من ١٠١ إلى ١٠٢
من ١٣٨ إلى ١٤٨	من ١٠٣ إلى ١٠٦
من ١٤٩ إلى ١٧٠	من ١٠٦ إلى ١١١
من ١٧١ إلى ١٨٢	من ١١١ إلى ١١٥

﴿سورة ص﴾

الآيات من .... إلى	الصفحات من .... إلى
من ١ إلى ١١	من ١١٨ إلى ١٢٥
من ١٢ إلى ٢٠	من ١٢٥ إلى ١٢٨
من ٢١ إلى ٢٦	من ١٢٩ إلى ١٣٤
من ٢٧ إلى ٢٩	من ١٣٤ إلى ١٣٦
من ٣٠ إلى ٤٠	من ١٣٦ إلى ١٤٠
من ٤١ إلى ٤٨	من ١٤٠ إلى ١٤٤
من ٤٩ إلى ٦٤	من ١٤٤ إلى ١٤٩
من ٦٥ إلى ٧٠	من ١٥٠ إلى ١٥٢
من ٧١ إلى ٨٨	من ١٥٣ إلى ١٥٧

﴿سورة الزمر﴾

الآيات من .... إلى	الصفحات من .... إلى
من ١ إلى ٥	من ١٦٠ إلى ١٦٥
من ٦ إلى ٧	من ١٦٥ إلى ١٦٨
من ٨ إلى ١٠	من ١٦٨ إلى ١٧٣
من ١١ إلى ٢٠	من ١٧٤ إلى ١٧٨
من ٢١ إلى ٢٦	من ١٧٨ إلى ١٨٥
من ٢٧ إلى ٣٥	من ١٨٦ إلى ١٩٠
من ٣٦ إلى ٤١	من ١٩١ إلى ١٩٤
من ٤٢ إلى ٤٦	من ١٩٥ إلى ١٩٨
من ٤٧ إلى ٥٢	من ١٩٩ إلى ٢٠٢
من ٥٣ إلى ٦٠	من ٢٠٣ إلى ٢٠٧
من ٦١ إلى ٦٦	من ٢٠٧ إلى ٢١٠
من ٦٧ إلى ٧٠	من ٢١١ إلى ٢١٤
من ٧١ إلى ٧٥	من ٢١٤ إلى ٢١٧

﴿سورة غافر﴾

الآيات من .... إلى	الصفحات من .... إلى
من ١ إلى ٦	من ٢٢٠ إلى ٢٢٣
من ٧ إلى ٩	من ٢٢٤ إلى ٢٢٦
من ١٠ إلى ١٤	من ٢٢٦ إلى ٢٢٨
من ١٥ إلى ٢٠	من ٢٢٩ إلى ٢٣٣
من ٢١ إلى ٢٢	من ٢٣٣ إلى ٢٣٥
من ٢٣ إلى ٢٧	من ٢٣٥ إلى ٢٣٩
من ٢٨ إلى ٣٣	من ٢٣٩ إلى ٢٤٣
من ٣٤ إلى ٣٥	من ٢٤٣ إلى ٢٤٥
من ٣٦ إلى ٣٧	من ٢٤٦ إلى ٢٤٧
من ٣٨ إلى ٤٦	من ٢٤٨ إلى ٢٥٢
من ٤٧ إلى ٥٢	من ٢٥٣ إلى ٢٥٦
من ٥٣ إلى ٥٦	من ٢٥٦ إلى ٢٥٩
من ٥٧ إلى ٦٠	من ٢٥٩ إلى ٢٦١
من ٦١ إلى ٦٥	من ٢٦٢ إلى ٢٦٥
من ٦٦ إلى ٦٨	من ٢٦٥ إلى ٢٦٧
من ٦٩ إلى ٧٧	من ٢٦٨ إلى ٢٧٢
من ٧٨ إلى ٨١	من ٢٧٢ إلى ٢٧٥
من ٨٢ إلى ٨٥	من ٢٧٥ إلى ٢٧٧

﴿سورة فصلت﴾

الآيات من .... إلى	الصفحات من .... إلى
من ١ إلى ٨	من ٢٨٠ إلى ٢٨٥
من ٩ إلى ١٢	من ٢٨٥ إلى ٢٩٠
من ١٣ إلى ١٨	من ٢٩٠ إلى ٢٩٣
من ١٩ إلى ٢٥	من ٢٩٤ إلى ٢٩٨
من ٢٦ إلى ٢٩	من ٢٩٨ إلى ٣٠٠
من ٣٠ إلى ٣٦	من ٣٠١ إلى ٣٠٧
من ٣٧ إلى ٣٩	من ٣٠٧ إلى ٣١٠
من ٤٠ إلى ٤٤	من ٣١١ إلى ٣١٦
من ٤٥ إلى ٤٨	من ٣١٦ إلى ٣١٩
من ٤٩ إلى ٥٤	من ٣٢٠ إلى ٣٢٥

﴿سورة الشورى﴾

الآيات من .... إلى	الصفحات من .... إلى
من ١ إلى ٩	من ٣٢٨ إلى ٣٣٤
من ١٠ إلى ١٢	من ٣٣٤ إلى ٣٣٧
من ١٣ إلى ١٦	من ٣٣٨ إلى ٣٤٥
من ١٧ إلى ٢٠	من ٣٤٥ إلى ٣٤٩
من ٢١ إلى ٢٦	من ٣٤٩ إلى ٣٥٧
من ٢٧ إلى ٣٥	من ٣٥٨ إلى ٣٦٣
من ٣٦ إلى ٤٣	من ٣٦٤ إلى ٣٧٢
من ٤٤ إلى ٤٦	من ٣٧٢ إلى ٣٧٤
من ٤٧ إلى ٥٠	من ٣٧٤ إلى ٣٧٨
من ٥١ إلى ٥٣	من ٣٧٩ إلى ٣٨١

﴿سورة الزخرف﴾

الآيات من .... إلى	الصفحات من .... إلى
من ١ إلى ٨	من ٣٨٤ إلى ٣٨٦
من ٩ إلى ١٤	من ٣٨٧ إلى ٣٨٩
من ١٥ إلى ٢٥	من ٣٩٠ إلى ٣٩٥
من ٢٦ إلى ٣٥	من ٣٩٥ إلى ٣٩٩
من ٣٦ إلى ٤٥	من ٤٠٠ إلى ٤٠٦
من ٤٦ إلى ٥٦	من ٤٠٦ إلى ٤١٠
من ٥٧ إلى ٦٧	من ٤١٠ إلى ٤١٧
من ٦٨ إلى ٧٨	من ٤١٧ إلى ٤٢٢
من ٧٩ إلى ٨٩	من ٤٢٢ إلى ٤٢٧

﴿سورة الدخان﴾

الآيات من .... إلى	الصفحات من .... إلى
من ١ إلى ١٦	من ٤٣٠ إلى ٤٣٦
من ١٧ إلى ٣٣	من ٤٣٦ إلى ٤٤٠
من ٣٤ إلى ٤٢	من ٤٤١ إلى ٤٤٤
من ٤٣ إلى ٥٩	من ٤٤٥ إلى ٤٤٩

تم بحمد الله